لويزا ماي ألكوت

رجال صغار

ترجمة: بثينة الإبراهيم

منشورات تكوين | مرايا
TAKWEEN PUBLISHING

t.me/qurssan

لويزا ماي ألكوت

رجال صغار

الحياة في پلمفيلد مع أولاد جو

رواية

ترجمة

بثينة الإبراهيم

منشورات تكوين | مرايا
TAKWEEN PUBLISHING

t.me/qurssan

الكاتب: لويزا ماي ألكوت
عنوان الكتاب: رجال صغار
ترجمة: بثينة الإبراهيم

العنوان باللغة الأصلية: Little Men
الكاتب: Louisa May Alcott

تصميم الغلاف: يوسف العبدالله
تنضيد داخلي: سعيد البقاعي

ر.د.م.ك: 978-9921-723-21-2
الطبعة الأولى - يوليو/ تموز - 2020
3000 نسخة

جميع الحقوق محفوظة للناشر ©

منشورات تكوين
TAKWEEN PUBLISHING
الكويت - الشويخ الصناعية الجديدة
تلفون: 40 04 81 98 965 +
بغداد - شارع المتنبي، بناية الكاظمي
تلفون: 60 58 00 11 78 964 +
publishing@takweenkw.com
takweenkw
www.takweenkw.com
@takweenKw

لبنان - بيروت / الحمرا
تلفون: 683 345 1 961+ / 980 541 1 961+
بغداد - العراق/ شارع المتنبي، عمارة الكاظمي
تلفون: 07810001005 / 07830070045
daralrafidain@yahoo.com
Dar alrafidain
info@daralrafidain.com
Dar.alrafidain
www.daralrafidain.com
@Dar alrafidain

t.me/qurssan

المحتويات

(١) نات... ٧
(٢) الأولاد.. ٢٧
(٣) يوم الأحد...................................... ٣٩
(٤) خطوة بخطوة ٦٥
(٥) لعبة الفطائر ٨١
(٦) مثير الفتنة ١٠٩
(٧) نان المشاكسة ١٣٧
(٨) لعب ولهو ١٥٣
(٩) حفلة ديزي الراقصة ١٦٩
(١٠) العودة ١٨٧
(١١) العم تدي..................................... ٢١١
(١٢) جني توت العنبية ٢٣١

t.me/qurssan

(١٣) غولدلوكس ٢٦٣
(١٤) دامون وفيتيس ٢٧٥
(١٥) في شجرة الصفصاف........................ ٣٠٣
(١٦) ترويض المهر........................ ٣٢٩
(١٧) يوم الإنشاء ٣٤٣
(١٨) الحصاد ٣٦١
(١٩) جون بروك ٣٧٥
(٢٠) حول النار ٣٩٣
(٢١) عيد الشكر........................ ٤٢٣

t.me/qurssan

(١)
نات

«عفوًا يا سيدي، أهذا بلمفيلد؟»، سأل ولدٌ رثُّ الثياب الرجلَ الذي فتح البوابة الكبيرة التي أنزلته عندها الحافلة العمومية.

«أجل، من أرسلك؟».

«السيد لورنس، أحمل رسالة للسيدة».

«حسن، ادخل البيت وأعطها لها، وستعتني بك أيها الفتى الصغير».

تحدث الرجل بابتهاج، فمضى الولد فرِحًا للغاية بكلماته. خلال مطرِ الربيع الناعم الذي هطل على العشب الذي أخرج شطأه والأشجار التي نبتت براعمها، رأى نات بيتًا مربعًا كبيرًا أمامه، بيتًا يبدو حسن الوفادة له مدخل مسقوف قديم الطراز وعتبات عريضة، ومصابيح تسطع في نوافذ عديدة؛ لم تخفِ المصاريعُ ولا الستائر وميضَها المبهج. رأى نات -وقد توقف لحظة قبل قرع الجرس- الكثيرَ من الظلال الصغيرة تتراقص على الجدران، وسمع همهمة مبهجة لأصواتِ صغار، وخامره شعور باحتمال أن يكون

t.me/qurssan

ذلك الضياء والراحة والدفء في الداخل من نصيب «فتى صغير» مشرد مثله.

«أرجو أن تعتني بي السيدة»، قال في نفسه وقرع قرعة وجِلة بالمقرعة الكبيرة البرونزية، وكانت على هيئة رأس غِرفين[1] سعيد.

فتحت الباب خادمة ذات وجه متورد، وابتسمت وهي تأخذ الرسالة التي مدها بصمت. بدت معتادة استقبال صبيان غرباء، لأنها أشارت إلى كرسي في الردهة وقالت بإيماءة:

«اجلس هنا واجعل الماء يتقاطر من ثيابك على الحصيرة، ريثما أعطي هذه للسيدة».

وجد نات الكثير يتسلى به أثناء انتظاره، ونظر حوله بفضول، مستمتعًا بالمنظر، غير أنه كان مسرورًا لفعله ذلك في الفسحة المعتمة قرب الباب دون أن يراه أحد.

بدا البيت مزدحمًا بالفتيان الذين يزجون الشفَق الماطر بشتى صنوف التسالي. كان الفتيان في كل مكان، «في الطابق الأعلى والأسفل وفي غرفة السيدة»، كما يبدو، لأن عددًا من الأبواب المفتوحة أظهرت مجموعات لطيفة من الفتية الكبار، والصغار، ومتوسطي القامات في مختلف مراحل استرخاء المساء، إن لم نقل الهياج. من الواضح أن الغرفتين الكبيرتين على اليمين هما فصلا المدرسة، إذ تناثر في أنحائهما المكاتب والخرائط وألواح الكتابة

---

(١) كائن خرافي نصفه نسر ونصفه أسد.

t.me/qurssan

والكتب. واضطرمت نار كبيرة في المصطلى، واضطجع عدد من الفتيان المسترخين أمامه، يناقشون بناء ملعب جديد للكرِكت بحيوية واضحة إذ لاحت أحذيتهم في الهواء. وفي إحدى الزوايا، كان فتى طويل يتمرن على عزف الفلوت في زاوية، غير عابئ بالضجيج من حوله. وكان اثنان أو ثلاثة آخرون يقفزون على المكاتب، ويتوقفون بين الفينة والأخرى، لالتقاط أنفاسهم، وللضحك على الرسوم المضحكة لفتى ماكر يصور كل مَن في البيت على السبورة.

في غرفة على اليسار شوهدت طاولة طعام طويلة، وُضعت عليها أباريق كبيرة من الحليب الطازج، وأكوام من الخبز الأسمر والأبيض، وأكداس جميلة من كعكات الزنجبيل اللامعة الأثيرة في قلوب الفتيان. وفاحت في الجو رائحة شرائح الخبز وبقايا من رائحة خبز التفاح، مغرية جدًا لأنفِ صغيرٍ جائعٍ ومعدته.

بدا الرواق أكثر الغرف جاذبية، لأن مباراة نشطة من لعبة المطاردة[1] كانت تجري في المدخل العلوي. كان أحد منبسطات الدرج مكرس للعب الكِلة، وآخر للعب الشطرنج، أما الدرج فيشغله صبي يقرأ وفتاة تغني تهويدة لدميتها وجروين وهريرة، وصبية صغار ينزلقون على درابزون الدرج في تعاقب مستمر، معرضين ثيابهم للتلف الكبير، وأطرافهم للخطر.

---

(١) لعبة يطارد فيها طفلٌ رفاقه ويحاول أن يمس أحدهم.

t.me/qurssan

استغرق نات في مراقبة هذا السباق القائم، فتقدم أكثر وأكثر مبتعدًا عن ركنه. وعندها نزل صبي نشط بسرعة كبيرة لم يتمكن معها من كبح نفسه، فسقط من الدرابزون بارتطام قد يكسر أي رأس إلا رأسًا عنيدًا قاسيًا بقدر كرة المدفع لصبي في الحادية عشرة اعتاد الارتطام. نسي نات نفسه وركض نحو اللاعب الساقط متوقعًا أن يجده نصف ميت. لكن الصبي طرف بعينيه بسرعة للحظة، ثم رقد بهدوء ينظر إلى الوجه الجديد وقال متفاجئًا: «مرحبًا!».

«مرحبًا»، رد نات دون أن يعرف ما يقول سوى ذلك، وحسب أن هذا الرد مقتضب وسهل.

«أأنت ولد جديد؟»، سأل الفتى المستلقي دون حماس.

«لست أدري بعد».

«ما اسمك؟».

«نات بليك».

«اسمي تومي بانغز، هلا صعدت وأخذت دورًا؟»، ونهض تومي مثل من تذكر فجأة واجبات الضيافة.

«أحسب أنني لن أفعل، حتى أرى إن كنت سأبقى أم لا»، رد نات ورغبته في البقاء تتعاظم كل لحظة.

«فهمت، هذا فتى جديد يا ديمي، تعال واعتن به»، ثم عاد توماس النشيط إلى لعبته بمتعة لم تخمد.

لدى ندائه، نظر الصبي القارئ الجالس على الدرج بعينين

t.me/qurssan

بنيتين كبيرتين، وبعد وقفة قصيرة كأنه خجل قليلًا، تأبط الكتاب ونزل برزانة لتحية القادم الجديد، الذي وجد شيئًا آسرًا في الوجه السعيد لهذا الفتى الرشيق ذي العينين اللطيفتين.

«ألتقيت الخالة جو؟»، سأل كأنما هذا ضرب من التقاليد الهامة.

«لم أرَ أحدًا سواكم أيها الأولاد، إنني أنتظر»، أجاب نات.

«أأرسلك العم لوري؟»، تابع ديمي بأدب ووقار.

«أرسلني السيد لورنس».

«إنه العم لوري، وهو يرسل الفتية اللطيفين دومًا».

بدا نات ممتنًا للوصف وابتسم ابتسامة جمّلت وجهه النحيل. لم يعرف ما يقول بعد ذلك، فوقف الاثنان يتبادلان النظر بصمت أليف، حتى نهضت الفتاة الصغيرة ودميتها بين ذراعيها. كانت تشبه ديمي كثيرًا، غير أنها لا تماثله طولًا ولها عينان زرقاوان ووجه أكثر امتلاءً وتوردًا.

«هذه أختي الغالية ديزي»، قال ديمي كأنه يقدم مخلوقًا نادرًا ونفيسًا.

هز الطفلان رأسيهما لبعضهما تحية، وتغمّز وجه الفتاة الصغيرة سعادة وهي تقول بدماثة:

«أرجو أن تبقى. نحظى بأوقات جميلة هنا، أليس كذلك يا ديمي؟».

«بلا شك، هذا ما أسست الخالةُ جو منزل بلمفيلد من أجله».

«يبدو منزلًا بالغ اللطف حقًا»، عقب نات، شاعرًا بضرورة إجابة هذين الطفلين الودودين.

«إنه ألطف منزل في العالم، أليس كذلك يا ديمي؟»، قالت ديزي التي اعتبرت أخاها حجة في كل المواضيع.

«كلا، أظن غرينلند حيث الجبال الجليدية والفقمات أكثر إثارة. لكنني أحب بلمفيلد وهو مكان لطيف للعيش فيه»، أجاب ديمي الذي كان لتوه مستغرقًا بقراءة كتاب عن غرينلند. وكاد يعرض على نات أن يريه الصور ويشرحها له حين عادت الخادمة قائلة، بإيماءة نحو باب الردهة.

«حسن، إنك باق».

«أنا سعيدة، والآن تعال إلى الخالة جو»، وأخذته ديزي من يده بهيئة حامية جعلت نات يشعر في الحال أنه في بيته.

عاد ديمي إلى كتابه الحبيب، حين أخذت أخته الوافد الجديد إلى غرفة خلفية، جلس فيها رجل ضخم يمازح صبيين صغيرين على الأريكة، وسيدة نحيلة تنهي الرسالة التي أعادت قراءتها.

«ها هو يا خالتي!»، قالت ديزي.

«أهذا ولدي الجديد إذن؟ سررت لرؤيتك يا عزيزي، وأرجو أن تكون سعيدًا هنا»، قالت السيدة مقربة إياه نحوها، ممسّدة شعره بعيدًا عن جبينه بيد حانية ونظرة أمومية، جعلتا قلب نات الوحيد يتوق إليهما.

t.me/qurssan

لم تكن جميلة البتة، لكن لها وجهًا مرحًا لا يبدو أنه نسي قط أساليب الطفولة وهيئتها، ولا فعل صوتها ولا سلوكها. يصعب وصف هذه الأمور لكن الإحساس بها ورؤيتها أمران سهلان جدًا، وقد جعلتها امرأة لطيفة أنيسة سهلة المعشر و«بهيجة» كما يقول الأولاد. رأت الاختلاج الخفيف لشفتي نات وهي تمسد شعره، فرقّت عيناها الثاقبتان، لكنها جذبت إليها الفتى المشعث وقالت ضاحكة:

«أنا الأم باير، وهذا الرجل هو الأب باير، وهؤلاء هما ولدا باير الصغيران. تعالوا يا أولاد وقابلوا نات».

وأطاع المتصارعون الثلاثة في الحال، ونهض الرجل الضخم حاملًا طفلًا ممتلئًا على كل كتف، وتقدم للترحيب بالفتى الجديد. ابتسم له روب وتدي ابتسامة مرحة، لكن السيد باير صافحه وأشار إلى كرسي خفيض قرب النار وقال بصوت دافئ:

«ذاك مكان جاهز لك يا بنيّ، اجلس وجفف قدميك الرطبتين في الحال».

«رطبتان؟ إنهما كذلك! اخلع حذاءك الآن يا عزيزي، وسأجلب لك أشياء جافة في الحال»، قالت السيدة باير وهي تتحرك بنشاط. فوجد نات نفسه جالسًا على الكرسي الصغير المريح لابسًا جوربين جافين وخفين دافئين في قدميه، قبل أن يرتد إليه طرفه. وعوضًا عن ذلك قال: «شكرًا لك يا سيدتي»، وقالها بامتنان جعل عيني السيدة باير ترقان ثانية، فقالت شيئًا مضحكًا لأنها شعرت بالشفقة كعادتها.

«هذان خفا تومي بانغز، لكنه لن يتذكر لبسهما في البيت لذا لن يحصل عليهما. إنهما كبيران جدًا، غير أن هذا أفضل حتى لا تستطيع الهرب منا بالسرعة نفسها إن كان مقاسهما جيدًا».

«لا أريد الهرب يا سيدتي»، ومد نات يديه الصغيرتين المسخّمتين أمام النار الدافئة، متنهدًا تنهيدة طويلة من الرضا.

«هذا جيد! والآن سأدفئك جيدًا وأحاول تخليصك من هذا السعال القبيح. منذ متى وأنت تسعل يا عزيزي؟»، سألت السيدة باير وهي تنقب في سلتها الكبيرة بحثًا عن شريط من الفلانل.

«طوال الشتاء. لقد أصبت بالزكام ولم يتحسن، نوعًا ما».

«لا عجب، إن كان يعيش في ذلك القبو الرطب دون شيء يستر هذا الظهر المسكين إلا خرقة!»، قالت السيدة باير بصوت خفيض لزوجها، الذي نظر إلى الفتى بعينين حذقتين رأت صدغين نحيلين وشفتين محمومتين، إلى جانب الصوت الأجش والنوبات المتتالية من السعال هزت الكتفين المنحنيين تحت السترة المرقعة.

«اذهب إلى المربية يا مساعدي روبن، وقل لها أن تعطيك دواء السعال والمروخ»، قال السيد باير بعد أن تبادل الرسائل بالنظر مع زوجته.

ساور نات قليلًا من القلق لكل هذه التحضيرات، لكنه نسي مخاوفه في ضحكة من القلب عندما همست له السيدة باير بنظرة مضحكة:

t.me/qurssan

«اسمع ابني الماكر تدي يحاول أن يسعل. في الشراب الذي سأعطيه لك عسل، وهو يريد بعضًا منه».

احمر وجه تد الصغير حماسًا حين جاءت القارورة، وسمح له بلعق الملعقة بعد أن أخذ نات جرعته بشجاعة، وعُقِد شريط الفلانل حول رقبته.

لم تكد تنتهي الخطوات الأولى للعلاج حتى رن جرس كبير، وأعلن الخبط الصاخب في الردهة عن موعد العشاء. ارتعد نات الحيي لفكرة لقاء العديد من الفتية الغرباء، لكن السيدة باير أمسكت بيده، وقال روب مراعيًا: «لا تخف، سأعتني بك».

وقف اثنا عشر صبيًا، ستة في كل جانب، خلف كراسيهم يقفزون بفارغ الصبر للبدء، والصبي الطويل عازف الفلوت يحاول كبح جماحهم. ولكن لم يجلس أحد حتى جلست السيدة باير في مكانها خلف إبريق الشاي، وتدي على يسارها ونات على يمينها.

«هذا فتانا الجديد، نات بليك. يمكنكم أن تقولوا له بعد العشاء كيف حالك؟ برفق يا أولاد، برفق».

نظر الجميع إلى نات وهي تتحدث، ثم اتخذوا مجالسهم بسرعة، محاولين أن يكونوا منظمين ويفشلون في ذلك. بذل الزوجان باير قصارى جهدهما لجعل الأولاد يحسنون التصرف في أوقات الطعام، ونجحا في ذلك عمومًا، لأن قوانينهما كانت قليلة ومعقولة. أما الأولاد، وقد أدركوا أنهما حاولا جعل الأمور سهلة وسارة، فقد فعلوا ما بوسعهم لطاعة القوانين. غير أن ثمة أوقاتًا يصعب فيها

t.me/qurssan

كبح الفتية الجائعين إلا بشيء من القسوة، وكانت أمسية السبت بعد نصف إجازة، أحد هذه الأوقات.

«يا للصغار الأعزاء، ليكن لهم يوم يمرحون فيه ويعولون ويصخبون حتى يكتفوا. ليست الإجازة بإجازة ما لم يكن فيها الكثير من الحرية والمرح، وسيكون لهم حرية التصرف مرة في الأسبوع»، اعتادت السيدة باير أن تقول حين يتساءل المتزمتون عن سبب السماح بالتزحلق على الدرابزون، والقتال بالوسائد وشتى صنوف الألعاب المرحة تحت سقف بلمفيلد الذي كان أنيقًا ذات يوم.

بدا السقف المذكور آنفًا مهددًا بالطيران أحيانًا، لكنه لم يفعل مرة لأن كلمة من السيد باير في أي وقت تعيد إليه الهدوء، وقد تعلم الفتية ألا يُساء استخدام الحرية. لذا، ورغم الكثير من التنبؤات المتشائمة، ازدهرت المدرسة وغرست الأخلاق والسلوك الحسن، دون أن يعرف التلاميذ تمامًا كيف حدث ذلك.

وجد نات نفسه مسرورًا جدًا خلف الأباريق الطويلة، وتومي بانغز يجلس في الزاوية، والسيدة باير قربه تملأ له الصحن والكوب بسرعة كلما أفرغهما.

«من ذاك الصبي قرب الفتاة على الطرف الآخر؟»، همس نات لجاره الصغير خلسة أثناء ضحك الجميع.

«ذاك ديمي بروك. والسيد باير عمه».

«يا له من اسم غريب!».

t.me/qurssan

«إن اسمه الحقيقي جون، لكنهم ينادونه ديمي جون، لأن أباه جون أيضًا. هذه مزحة، ألا تدرك ذلك؟»، قال تومي وهو يشرح برفق. لم يدرك نات، لكنه ابتسم بأدب وسأل باهتمام:

«أليس ولدًا لطيفًا للغاية؟».

«أراهنك أنه كذلك، ويعرف الكثير ويقرأ الكثير».

«ومن البدين الجالس بجواره؟».

«أوه، هذا ستفي كول [كول المحشو]. إن اسمه جورج، لكننا ندعوه ستفي لأنه يأكل كثيرًا. والفتى الصغير قرب الأب باير هو ابنه روب، ثم فرانز الكبير ابن أخيه، وهو يدرّسنا قليلًا ويعتني بنا».

«إنه يعزف الفلوت، أليس كذلك؟»، سأل نات حين أخرس تومي نفسه بدس تفاحة مخبوزة كاملة في فمه بلقمة واحدة.

هز تومي رأسه إيجابًا وقال ما إن رأى الحديث ممكنًا في ظل الظروف: «أوه، بلى إنه يفعل. ونرقص نحن أحيانًا ونمارس ألعابًا بهلوانية مع الموسيقى. أنا أحب ضرب الطبلة، وأنوي تعلمها في أقرب وقت ممكن».

«أحب الكمان أكثر، ويمكنني العزف أيضًا»، قال نات وقد حرضه هذا الموضوع الساحر على البوح.

«حقًا؟»، ونظر تومي إلى حافة كوبه بعينين مدورتين مليئتين بالحماس. «لدى السيد باير كمان قديم، وسيسمح لك بالعزف عليه إن شئت».

t.me/qurssan

«حقًا؟ أوه، أود ذلك كثيرًا. لقد اعتدت التطواف وعزف الكمان مع أبي ورجل آخر حتى مات».

«أليس ذلك ممتعًا؟»، قال تومي وقد أعجبه جدًا.

«كلا، لقد كان مريعًا، إذ نشعر بالبرد شتاء وبالحر صيفًا. كما أنني أتعب ويغضبان أحيانًا، ولم يكن عندي طعام كافٍ»، صمت نات ليقضم قضمة كبيرة من كعك الزنجبيل كأنما ليطمئن نفسه بانقضاء الأوقات العصيبة. ثم أضاف حزينًا: «لكني أحببت كماني الصغير وأفتقده. أخذه نيكولو حين مات أبي، ولم يعد يصحبني لأني مريض».

«ستكون عضوًا في الفرقة إن كنت تجيد العزف. أراهنك على ذلك».

«ألديكم فرقة هنا؟»، ولمعت عينا نات.

«أحسب أن لدينا فرقة مرحة، من كل الأولاد، ونقيم حفلات وما إلى ذلك. انتظر حتى ترى ما يحدث ليلة غد».

وبعد هذا التعقيب المثير المبهج، عاد تومي إلى عشائه وغرق نات في حلم يقظة منغّم أمام صحنه الممتلئ.

سمعت السيدة باير كل ما قالاه، وهي تتظاهر بالانهماك في ملء الأكواب والاعتناء بتد الصغير، الذي كان نعسًا للغاية فوضع ملعقته في عينه، ونكس رأسه مثل زهرة خشخاش، وغط في النوم سريعًا وخده يتوسد فطيرة طرية. أجلست السيدة باير نات قرب

t.me/qurssan

تومي، لأن ذاك الصبي القصير المكتنز له طبع صريح وودود، جذاب جدًا للخجولين. شعر نات بهذا، فأفضى إليه بعدد من الأسرار أثناء العشاء، فأوحى للسيدة باير بمفتاح شخصية الصبي الجديد، بأسهل مما لو تحدثت إليه بنفسها.

قال السيد لورنس في الرسالة التي أرسلها مع نات:

عزيزتي جو

إليك حالة ستروق لك. هذا الفتى المسكين يتيم مريض ولا أصدقاء له. كان عازفًا جوالًا، وعثرت عليه في قبو يبكي والده الميت وكمانه الضائع. أظن أن فيه شيئًا، وأتصور أننا نستطيع تقديم العون لهذا الرجل الصغير. فتعملين على إراحة جسده المنهك، ويعمل فرتز على تخليصه من جهله. وحين يكون جاهزًا سأرى إن كان عبقريًا أو صبيًا عنده موهبة يكسب بها قوته. امنحيه فرصة، لخاطر فتاك.

تدي

«سنفعل حتمًا!»، قالت السيدة باير وهي تقرأ الرسالة. وحين رأت نات، راودها في الحال شعور بأنه صبي وحيد مريض، عبقريًا كان أم غير ذلك، ويحتاج ما تحب تقديمه؛ بيتًا ورعاية أمومية. راقبته هي والسيد باير بهدوء، ورغم الثياب الرثة والسلوك الأخرق والوجه القذر فإنهما وجدا كثيرًا مما يسرهما في نات. كان صبيًا نحيلًا شاحبًا في الثانية عشرة، له عينان زرقاوان وجبين جميل تحت شعر خشن مهمل، ووجه قلق خائف أحيانًا، كأنما يتوقع كلمات قاسية أو

t.me/qurssan

صفعات. وله فم حساس يرتعش كلما نظر إليه أحدهم نظرة حانية، وترسم الكلمات اللطيفة على وجهه نظرة امتنان عذبٌ مرآها. «بورك العزيز المسكين، سيعزف الكمان طوال اليوم إن شاء»، قالت السيدة باير لنفسها حين رأت وجهه السعيد المتلهف أثناء حديث تومي عن الفرقة.

لذا، حين تجمع الفتية في الصف بعد العشاء لمزيد من «المرح الصاخب»، جاءت السيدة جو حاملة كمانًا. وبعد أن قالت شيئًا لزوجها تقدمت نحو نات، الذي جلس في الزاوية يراقب المشهد باهتمام بالغ.

«والآن، أسمعنا لحنًا قصيرًا يا فتاي. نحن بحاجة لكمان في فرقتنا، وأظنك ستعزف عزفًا جميلًا للغاية». حسبته سيتردد، لكنه تناول الكمان القديم في الحال وأمسكه بحرص محب، وكان شغفه بالموسيقى جليًا.

«سأبذل جهدي يا سيدتي»، كان هذا كل ما قاله، ثم مرر القوس على الأوتار كأنه يتلهف لسماع النغمات الحبيبة ثانية.

كان في الغرفة جلبة عظيمة، غير أن نات عزف لنفسه برقة، ناسيًا في سعادته كل شيء، كأنما صم أذنيه عن أي صوت سوى الذي يعزفه. لم يكن سوى لحن زنجي بسيط، كالذي يعزفه العازفون الجوالون، لكنه جذب أسماع الفتية في الحال وأسكتهم فوقفوا يستمعون بدهشة وسرور. اقتربوا شيئًا فشيئًا، ونهض السيد باير ليرى الصبي، لأن نات انخرط في العزف ولم يهتم بما حوله، كأنه

t.me/qurssan

في مكانه الملائم، ولمعت عيناه واحمرت وجنتاه وتحركت أصابعه الرشيقة وهو يعانق الكمان القديم ويُنطِقه لقلوبهم جميعًا باللغة التي يحبها.

كافأه التصفيق الحار وأسعده أكثر من وابل النقود بعدما توقف ونظر حوله كأنما ليقول:

«لقد فعلت ما بوسعي، فأحبوه من فضلكم».

«أرى أنك تعزف عزفًا من الطراز الأول»، قال تومي الذي عدّ نات صنيعته.

«ستكون عازف الكمان الأول في فرقتي»، أضاف فرانز بابتسامة إعجاب.

همست السيدة باير لزوجها:

«إن تدي محق، في هذا الصغير شيء»، وهز السيد باير رأسه مشددًا، وهو يربت على كتف نات ويقول بحماس:

«إن عزفك جيد يا بني. تعال واعزف شيئًا يمكننا غناءه».

كانت أكثر اللحظات سعادة وفخرًا في حياة الصبي المسكين حين أخذ إلى مكان الشرف قرب البيانو، وتحلق حوله الفتية دون أن يلتفتوا لثيابه، بل نظروا إليه بإجلال متلهفين للاستماع إلى عزفه ثانية.

اختاروا أغنية يعرفها، وبعد بداية أو بدايتين فاشلتين بدؤوا وقاد الكمان والفلوت والبيانو جوقة الأصوات الصبيانية التي جعلت

t.me/qurssan

السقف القديم يهتز ثانية. كان ذلك كثيرًا على نات الذي بدا أضعف مما أدرك، وحين خفتت آخر الصيحات، أخذ وجهه يختلج فأسقط الكمان، واستدار إلى الحائط وبكى مثل طفل صغير.

«يا إلهي، ما الأمر؟»، سألت السيدة باير التي كانت تغني بكل قوتها، وتحاول إبعاد روب الصغير عن عض حذائه.

«إنكم لطيفون كلكم -وهذا جميل جدًا- ولم أستطع منع نفسي»، نشج نات ساعلًا حتى انقطع نفسه.

«تعال معي يا عزيزي، لا بد أن تخلد للفراش وترتاح. إنك منهك، وهذا المكان مزعج لك». همست السيدة باير، وأخذته إلى ردهتها حيث تركته يبكي وحده بهدوء.

ثم جعلته يحكي لها كل متاعبه، واستمعت للحكاية القصيرة وعيناها مغرورقتان بالدمع، رغم أن الحكاية لم تكن بجديدة عليها.

«لديك أب وأم الآن يا صغيري وهذا بيتك. لا تفكر بتلك الأوقات الحزينة بعد اليوم، بل تعافَ واسعد وتأكد أنك لن تعاني ثانية إن كان ذاك بمستطاعنا. لقد جُعل هذا المكان لكل الفتية ليحظوا بأوقات سعيدة، ويتعلموا كيف يساعدون أنفسهم ويكونون رجالًا نافعين كما آمل. ستعزف الموسيقى قدر ما تشاء، غير أن عليك أن تقوى أولًا. والآن اذهب إلى المربية واستحم، ثم اخلد للنوم. وغدًا سنضع معًا بعض الخطط الجميلة».

أخذ نات يدها بسرعة، لكنه لم يجد ما يقوله، وترك عينيه الشاكرتين تتحدثان نيابة عنه حين أخذته السيدة باير إلى غرفة

t.me/qurssan

كبيرة حيث وجدا امرأة ألمانية بدينة لها وجه مدور ومرح فبدا شبيهًا بالشمس والكشاكش العريضة لقبعتها هي الأشعة.

«هذه المربية هَمل، وستحممك جيدًا وتقص شعرك وتجعلك «مريحًا» كما يقول روب. ذلك هو الحمام، وفي أمسيات السبت ندعك كل الصبية الصغار ونضعهم في فرشهم قبل أن يبدأ الكبار بالغناء. والآن سيدخل روب معك».

أخذت السيدة باير أثناء حديثها تخلع عن روب ثيابه وغطسته في حوض استحمام طويل في غرفة صغيرة مفتوحة على غرفة الأطفال.

كان في الداخل حوضان، إلى جانب أوعية غسل القدمين والأحواض والمرشات وكل معدات النظافة. كان نات يسترخي في حوض الاستحمام، وأثناء نقعه هنا راقب حركات السيدتين اللتين دعكتا أربعة أو خمسة صبية صغار وألبستاهما منامات نظيفة ولفتاهم في فرشهم، ووثب هؤلاء مرحًا أثناء كل ذلك وجعلوا الجميع في عاصفة من الضحك حتى خلدوا إلى النوم.

بعد ذلك غُسل نات ولُف ببطانية قرب النار والمربية تقص شعره، فجاءت دفعة جديدة من الأولاد وحبسوا في الحمام حيث هرجوا ومرجوا مثل سرب من الحيتان الصغيرة في لعبها.

«من الأفضل أن ينام نات هنا، فإن ضايقه السعال ليلًا حرصت على أن يشرب جرعة من شاي بذور الكتان»، قالت السيدة باير التي تتحرك في الأنحاء مثل دجاجة مضطربة وخلفها صغار من الفراخ النشطة.

t.me/qurssan

استحسنت المربية الخطة، وألبست نات منامة من الفلانل وسقته شيئًا دافئًا وحلوًا، ثم وضعته في واحد من الأسرّة الثلاثة الصغيرة المنصوبة في الغرفة، إذ استلقى وبدا شبيهًا بالمومياء المرتاحة، شاعرًا أنه لن يحظى بأكثر من هذا الرفاه. كانت النظافة إحساسًا جديدًا عليه، ومنامات الفلانل مباهج لم يعرفها عالمه، وهدّأت رشفات من «الشراب اللذيذ» سعاله كثيرًا بقدر ما هدأت الكلمات الحانية قلبه الوحيد. أما الإحساس بأن أحدًا يهتم لأمره فجعل تلك الغرفة البسيطة تبدو جنة في عين الطفل المشرد. كان ذاك مثل حلم سعيد، وكثيرًا ما أغمض عينيه ليرى إن كان ذاك سيتلاشى حين يفتحهما ثانية. كان ذلك مبهجًا جدًا لينام، ولم يستطع النوم ولو حاول. إذ انكشف لعينيه المندهشتين الممتنتين في بضع دقائق أحد الأعراف المميزة لبلمفيلد. فقد أعقب السكون الخاطف للتمارين المائية ظهورٌ مفاجئ للوسائد المتطايرة في كل حدب وصوب، يتقاذفها عفاريت بيض، خرجوا من فرشهم يقصفون. ثارت المعركة في غرف عديدة في كل الردهة العلوية، بل ثارت في غُرفة الأطفال على فترات، حين وقع أحد المحاربين الأشاوس أسيرًا هناك. لم يعترض أحد على هذا الصخب البتة، ولا منعه أحد أو بدا مندهشًا. واصلت المربية نشر المناشف، وتفقدت السيدة باير الثياب النظيفة بهدوء كأنما ساد النظام الكامل. كلا، بل إنها طاردت صبيًا جريئًا خارج الغرفة، ورمته بالوسادة التي ألقاها عليها بمكر.

«ألن يؤذيهم ذلك؟»، سأل نات الذي استلقى يضحك بكل طاقته.

t.me/qurssan

«أوه يا إلهي، كلا! نحن نسمح بالقتال بالوسائد مساء السبت. ستتغير الأحوال غدًا. إن المعارك تنشب بعد اغتسال الأولاد ولذا أحبها أنا أيضًا»، قالت السيدة باير وقد عادت لانشغالها بأزواج الجوارب.

«يا لها من مدرسة جميلة جدًا!»، قال نات في دفقة إعجاب.

«إنها مدرسة غريبة»، ضحكت السيدة باير، «ولكن كما ترى فأنا لا أؤمن بإتعاس الأطفال بفرض كثير من القوانين وكثير من الدراسة أيضًا. منعت حفلة المنامات في البدء، ولكن عبثًا، كان ذلك بلا جدوى. لم أعد أستطيع إبقاء هؤلاء الفتية في فرشهم، أكثر مما يبقى العفريت في العلبة. لذا عقدت اتفاقًا معهم؛ فسمحت بالقتال بالوسائد لخمس عشرة دقيقة ليلة كل سبت، ووعدوا بالخلود إلى الفراش بهدوء، ليلة بعد ليلة. جربت ذلك ونجح، وإن لم يفوا بوعدهم فلا مرح. وإن أوفوا فإني أرفع الزجاج وأضع المصابيح في أماكن آمنة وأتركهم يقصفون ما شاؤوا».

«هذه خطة جميلة»، قال نات برغبة في الانضمام إلى القتال، لكنه لم يجرؤ على طلب ذلك في الليلة الأولى. لذا استلقى مستمتعًا بالمشهد الذي كان نابضًا بالحياة من دون شك.

قاد تومي بانغز الجماعة المُغيرة، ودافع ديمي عن غرفته بشجاعة وبسالة تعجب من يراها، جامعًا الوسائد خلفه كلما رميت، حتى نفدت ذخيرة محاصريه، فانقضوا عليه انقضاض رجل واحد واستعادوا سلاحهم. وقعت حوادث صغيرة، ولكن لم يهتم لها أحد،

t.me/qurssan

وضرب الجميع ضربات عنيدة أو تلقوها بمرح كبير، والوسائد تتطاير مثل رقاقات الثلج حتى نظرت السيدة باير إلى ساعتها ونادت:

«انتهى الوقت يا أولاد. إلى الفراش جميعًا دون استثناء، وإلا دفعتم الغرامة!».

«وما الغرامة؟»، سأل نات، وقد اعتدل في فراشه متلهفًا لمعرفة ما يحدث للتعسين الذين يعصون مديرة المدرسة الغريبة الخيّرة:

«يخسرون وقت المرح القادم»، أجابت السيدة باير، «أمنحهم خمس دقائق ليهدؤوا ثم أطفئ الأنوار وأنتظر النظام. إنهم فتية صادقون ويفون بوعدهم».

كان هذا جليًا، لأن المعركة انتهت بغتة كما بدأت، ضربة فراق أو ضربتان، هتاف أخير حين ضرب ديمي الوسادة السابعة على العدو المتراجع، وقليل من الوعيد للمرة القادمة، ثم ساد النظام ولم يكسر الهدوء الذي أعقب صخب ليلة السبت سوى ضحكة عارضة أو همس مكتوم، لما قبلت الأم باير الفتى الجديد وتركته ليحلم أحلامًا سعيدة بالحياة في بلمفيلد.

t.me/qurssan

(٢)
الأولاد

وإذ نام نات نومًا عميقًا، سأخبر قرائي الصغار شيئًا عن الأولاد الذين وجد نفسه بينهم حين استيقظ.

لنبدأ بأصدقائنا الكبار. كان فرانز فتى طويلًا يبلغ السادسة عشرة، ألمانيًا عاديًا ضخمًا أشقر ومحبًا للكتب، كما أنه بيتوتي ودمث وموسيقي. كان عمه يعده للجامعة، وعمته لبيت سعيد يملكه فيما بعد، لأنها غرست فيه الأخلاق الحسنة وحب الأطفال واحترام النساء، كبيرات وصغيرات، وأساليب نافعة في البيت. كان يدها اليمنى في كل شيء، فهو متزن ولطيف وصبور ويحب عمته المرحة مثل أم، لأنها حاولت أن تكون كذلك له.

كان إميل مختلفًا تمامًا، سريع الغضب قلقًا مغامرًا نزاعًا لركوب البحر بفضل دماء قدماء الفايكنغ التي تسري في عروقه ولا يمكن ترويضه. وعده عمه بأنه سيذهب حين يبلغ السادسة عشرة، وأعده لدراسة الملاحة وأعطاه قصص الأميرالات والأبطال المشهورين الصالحين ليقرأها، وتركه يعيش حياة ضفدع في نهر وبركة وغدير

t.me/qurssan

عند انتهاء الدروس. بدت غرفته مثل مقصورة رجل حرب، لأن كل شيء كان بحريًا وعسكريًا ومرتبًا. كان القبطان كيد[1] بهجته، وتسليته الأثيرة أن يلبس مثل ذلك القرصان المحترم، ويصدح بغناء أغان بحرية دموية بأعلى صوته. فلا يرقص إلا رقصة هورن بايبز [رقصة البحارة]، ويترنح في مشيته، ويتحدث حديث البحارة في كلامه كلما سمح له عمه. دعاه الأولاد بـ «قائد العمارة»، وافتخر كثيرًا بأسطوله، الذي جعل البحيرة بيضاء بأشرعته ونجا من كوارث تثبط همة أي قائد إلا صبيًا مولعًا بالبحر.

كان ديمي أحد الأولاد الذين أظهروا بجلاء أثر الحب والرعاية الذكيتين، إذ عمل الروح والجسم منسجمين معًا. فقد منحته الدماثة الطبيعية، التي لا يعلّمها إلا تأثير البيت، أخلاقًا بسيطة وعذبة. ورعت أمه فيه القلب البريء المحب، وراقب أبوه نموه الجسدي، وحافظا على الجسم الصغير متصبًا وقويًا بالغذاء الصحي والتمارين والنوم. أما الجد مارش فقد زرع في العقل الصغير حكمة فيثاغورس العصر ورفقه، دون أن يثقل عليه بدروس طويلة صعبه يتعلمها كالببغاء، بل ساعده على اكتشافها اكتشافًا طبيعيًا سلسًا مثلما تساعد الشمس وقطرات الندى الورد على الإزهار. لم يكن طفلًا كاملًا بأي شكل من الأشكال، لكن أخطاءه كانت من نوع حسن، ولما تعلم التحكم بالذات باكرًا، فلم يذعن للرغبات والنزوات كما يفعل بعض

(١) القبطان كيد ساحر البحر، رواية للكاتب الأمريكي جوزف هولت إنغرام (١٨٠٩-١٨٦٠)، الذي أمضى عددًا من سنوات حياته في البحر ثم عمل معلمًا للغات.

t.me/qurssan

الفانين الصغار المساكين، ثم ينالون العقاب لإذعانهم للإغراءات التي ليس عندهم حصانة منها. كان ديمي فتى هادئًا جذابًا، جادًا ومرحًا، غير مدرك تمامًا بأنه ذكي وجميل فوق العادة، لكنه سريع في ملاحظة الذكاء والجمال لدى الأطفال الآخرين وحبهما. كان مولعًا بالكتب، ومفعمًا بالخيالات النابضة بالحياة، ولد بمخيلة قوية وطبع روحاني، فجعلت هذه الملكات والديه يتحرقان لموازنتها مع المعرفة النافعة والصحبة الحسنة، خشية أنهما سيجعلانه من الأطفال الشاحبين مبكري النضج الذين يثيرون الدهشة والسرور في العائلة أحيانًا، لكنهم يذبلون مثل زهور الدفيئة، فالأرواح الصغيرة تزهر سريعًا وليس لها جسم قوي يغرسها بقوة في التربة الطيبة لهذا العالم.

لذا غُرس ديمي في بلمفيلد، وانسجم تمام الانسجام مع الحياة هناك، فشعرت مِغ وجون والجد بالرضا لأنهم أحسنوا صنعًا. إذ أظهر الاختلاط مع الفتية الآخرين الجانب العملي منه، وأنهض همته ونفض عنه شِباك العنكبوت الذي كان محبًا لنسجها في عقله الصغير. بل إنه فاجأ أمه حين عاد إلى البيت صافقًا الأبواب ويقول «بحق جورج» بحزم، وطلب حذاء طويلًا سميكًا «له وقع ثقيل كحذاء بابا». لكن جون سر بذلك وضحك على تعليقاته الحادة، وجلب له الحذاء وقال راضيًا: «إنه يبلي حسنًا، فدعيه يخبط. أريد أن يتحلى ابني بصفات الرجولة، وهذه الجلافة المؤقتة لن تضره شيئًا. بوسعنا تهذيبه رويدًا رويدًا، أما التعليم فإنه سيلقط ذلك كما يلقط الحمام حبات البازلاء. لذا لا تتعجليه».

كانت ديزي مشرقة وفاتنة كعادتها، ففيها تتبرعم كل الصفات الأنثوية، لأنها تشبه أمها الرقيقة وتبهجها الأشياء البيتوتية. كان عندها عائلة من الدمى، أنشأتها على أحسن الأخلاق، ولم تكن بقادرة على الخروج دون سلة الأشغال وقطع الخياطة، التي تتقنها جيدًا، وكثيرًا ما أخرج ديمي منديله ليتباهى بتطريزها الأنيق، كما صنعت الأخت ديزي صدارة داخلية من الفلانل لجوزي الصغيرة. كانت تحب التلكؤ عند خزانة الخزفيات، وملء المهالح ووضع الملاعق مستقيمة على الطاولة، وتمضي كل يوم في أنحاء الردهة مع فرشاتها تنفض الغبار عن الكراسي والطاولات. كان ديمي يسميها «حسناء»، لكنه مسرور لأنها تحفظ أشياءه مرتبة، وتعيره أصابعها الرشيقة في شتى صنوف العمل، وتساعده في دروسه لأنهما ظلا متلازمين هناك، ولم يباليا بالمنافسة.

كان الحب بينهما قويًا كالمعتاد، وليس لأحد أن يسخر من ديمي جراء أساليبه المحبة مع ديزي. فقد قاتل في معاركها بضراوة، ولم يفهم قط لمَ يخجل الأولاد من القول «صراحة» إنهم يحبون أخواتهم. أحبت ديزي توءمها ورأت أخاها أذكى الأولاد في العالم، وكانت تهرول كل صباح لابسة مبذلها الصغير، لتقرع بابه قائلة بأمومة «انهض يا عزيزي، لقد اقترب موعد الإفطار، وخذ ياقتك النظيفة».

كان روب ولدًا صغيرًا نشطًا، وبدا أنه اكتشف سر الحركة الدائمة فلم يهدأ قط. لكنه لم يكن خبيثًا لحسن الحظ، ولا كان جسورًا جدًا

t.me/qurssan

لذا ظل بعيدًا عن المتاعب، وتردد بين أبيه وأمه مثل بندول ساعة دقاتها نابضة بالحياة إذ كان روب ثرثارًا.

كان تدي صغيرًا للغاية فلم يكن له دور مهم للغاية في شؤون بلمفيلد، غير أنه حظي بمكانة أثيرة. فقد شعر الجميع بحاجتهم إلى محط دلال، وكان الطفل دومًا مستعدًا للإذعان إذ ناسبه التقبيل والدغدغة للغاية. لم تتحرك السيدة جو من دونه إلا نادرًا، ولذا فإنه وضع إصبعه في كل الفطائر المنزلية ووجدها الجميع أشهى مذاقًا، لأنهم في بلمفيلد يؤمنون بالأطفال.

كان دِك براون وأدولفوس أو دولي يتنغل كلاهما في الثامنة من العمر. وكان دولي يتمتم كثيرًا، لكنه أخذ يتحسن شيئًا فشيئًا إذ لم يُسمح لأحد بالسخرية منه وحاول السيد باير علاجه بجعله يتكلم ببطء. كان دولي فتى صغيرًا طيبًا، عاديًا ولا يثير الاهتمام لكنه تفتح هنا واضطلع بواجباته ومسراته اليومية براحة ولباقة وهدوء.

كانت مأساة دِك براون ظهره المقوس، غير أنه احتمل عبئه مرحًا، فسأله ديمي مرة بأسلوبه الغريب: «أتمنح الحدبات الناس طبعًا حلوًا؟ أود أن تكون لي واحدة إن كانت تفعل». كان دِك مرحًا على الدوام، وبذل قصارى جهده ليكون كالصبية الآخرين، إذ سكنت الجسم الواهن روح جسورة. كان بالغ الحساسية إزاء حظه التعس أول مقدمه، غير أنه سرعان ما تعلم نسيان ذلك إذ لم يجرؤ أحد على تذكيره به، بعد أن عاقب السيد باير ولدًا على سخريته منه.

t.me/qurssan

«لا يعبأ الرب بذلك، لأن روحي مستقيمة وإن لم يكن ظهري كذلك»، نشج دِك وقال لمعذبه في تلك اللحظة، فجعله الزوجان باير، عبر تعزيز هذه الفكرة، يؤمن أن الناس يحبون روحه ولا يهتمون لجسمه، إلا لرعايته ومساعدته في تقبله.

سأله أحد الأولاد أثناء لعبهم لعبة معرض الوحوش: «أي حيوان تود أن تكون يا دِك؟».

«أنا الجمل العربي. ألا ترى السنام على ظهري؟»، كان جوابه الضاحك.

«فلتكن كذلك، لكن جملي الصغير اللطيف لا يحمل الأثقال بل يمشي قرب الفيل في أول الموكب»، قال ديمي الذي نظم الموكب.

«أرجو أن يكون الآخرون لطيفين مع العزيز المسكين، مثلما تعلم أولادي أن يكونوا لطيفين»، قالت السيدة جو، راضية تمام الرضا عن نجاح تعليمها، حين رها دِك قربها مشبهًا جملًا سعيدًا لكنه صغير ضعيف للغاية، إلى جانب سَتفي البدين الذي مثّل دور الفيل بكياسة تعوزها الرشاقة.

كان جاك فورد فتى ذكيًا بل خبيثًا، أُرسل إلى هذه المدرسة لأنها رخيصة. عده الكثيرون فتى حاذقًا، لكن السيد باير لم يحب أسلوبه في تجسيد كلمة يانكي، ووجد حذقه غير الصبياني وحبه المال عيبًا بقدر تمتمة دولي أو حدبة دِك.

أما ند باركر فكان كمثل آلاف الفتية ممن يبلغون من العمر أربعة عشر عامًا، طويل الساقين أحمق متبجحًا. بل إن العائلة سمته

«البندقية الراعدة»، وترقبت دومًا رؤيته يتقلب على الكراسي، ويصطدم بالطاولات ويطيح بأي متاع صغير قريب منه. كان يتبجح كثيرًا بما يستطيع فعله، لكنه نادرًا ما فعل شيئًا لإثبات ذلك. فقد كان جبانًا، تافهًا بسبب وشايته. كان نزاعًا للتنمر على الصبيان الصغار، وتملق الكبار، ولأنه لم يكن سيئًا تمامًا، فقد كان من نوع الفتية الذين يسهل التغرير بهم.

أفسد جورج كول دلالُ أمه المفرط له، إذ تحشوه بالفاكهة المجففة حتى يصيبه الغثيان، فتراه عندئذ واهنًا لا يمكنه الدراسة. لذا فإنه في عمر الثانية عشرة، كان ولدًا شاحبًا خاملًا نكدًا مملًا سمينًا. فأقنعتها إحدى صديقاتها بإرساله إلى بلمفيلد، وهناك تنبه، إذ منع تناول الحلوى الكثيرة، ومورست الكثير من التمارين، وكانت الدراسة مبهجة للغاية، فأغرت ستفي تمامًا، حتى أثار عجب أمه القلقة بتقدمه، وأيقنت أن في جو بلمفيلد شيئًا مدهشًا حقًا.

وجسد بِلي وورد ما يتلطف الاسكتلنديون في تسميته «البريء»، فرغم سنوات عمره الثلاث عشرة فإنه كان مثل فتى في السادسة. كان فتى خارق الذكاء، وتعجله أبوه كثيرًا مقدمًا له شتى صنوف الدروس الصعبة، مبقيًا إياه جالسًا إلى كتبه ست ساعات في اليوم، منتظرًا منه امتصاص المعرفة كما تفعل إوزة ستراسبرغ بانطعام المكوم في حلقها. حسب أنه يؤدي واجبه، غير أنه كاد يقتل الصبي إذ أصابت الحمى الفتى المسكين ذات عطلة حزينة، ولما برأ منها تلف الدماغ المثقل، وأصبح عقل بِلي مثل لوح مرت عليه إسفنجة وخلفته صفحة بيضاء.

t.me/qurssan

كان درسًا مروعًا لوالده الطموح، ولم يطق رؤية ابنه الواعد وقد أضحى أحمق خامل، فأرسله إلى پلمفيلد، متحليًا بقليل من الأمل أن بوسعهم مساعدته، لكنه واثق أنه سيلقى معاملة حسنة. كان بِلي دمثًا مسالمًا، وكم كان محزنًا رؤيته يجهد في التعلم، كأنما يتلمس طريقه المعتم بحثًا عن المعرفة المفقودة التي كلفته كثيرًا. كان يمعن النظر في الأبجدية يومًا بعد يوم، فينطق أ و ب مزهوًا، ويحسب أنه يعرفها، لكنهما تتلاشيان في اليوم التالي، ولا بد من تكرار العمل ثانية. تحلى السيد باير بصبر لا متناهٍ معه، وواصل عمله رغم العقم الواضح للمهمة، ولم يعبأ بدروس الكتاب، بل حاول برفق أن يبدد الضباب من العقل المظلم، وأن يعيد إليه الذكاء الكافي لجعل الصبي أقل عبثًا وعيوبًا.

عززت السيدة باير صحته بكل وسيلة أمكنها اختراعها، وأشفق عليه كل الأولاد وكانوا لطيفين معه. لم تعجبه ألعابهم الحركية، فجلس ساعات يراقب الحمائم، أو حفر حفرًا لتدي حتى يكتفي ذلك العازق النشط، أو تبع سايلس العامل، من مكان لآخر لرؤيته يعمل، لأن ساي المخلص رفيق به، وكان بِلي يتذكر الوجوه الودودة وإن نسي الأحرف.

كان تومي بانغز الشرير في المدرسة، وأكثر الأشرار إرهاقًا على وجه البسيطة. وكان ينضح بالمكر مثل القرد، غير أنه طيب القلب فلا يستطيع المرء شيئًا سوى أن يغفر له ألاعيبه. وكان شارد الذهن للغاية فتطير الكلمات منه كالريح، إلا أن ندمه كبير على كل جرم فيستحيل على المرء البقاء رزينًا حين يقسم أقسامًا هائلة على

t.me/qurssan

توبته، أو يقترح مختلف أنواع العقوبات الغريبة لإنزالها به. كان السيد والسيدة باير يعيشان متأهبين لأي كارثة، من كسر تومي لعنقه وحتى قصف العائلة كلها بمدافع البارود. وكان لدى المربية جارور خاص تحفظ فيه الضمادات واللصوق والمراهم لاستخدام تومي الخاص، إذ كان يُجلب دومًا نصف ميت؛ ولكن لم يقتله شيء بل نهض من كل سقوط بحماس مضاعف.

في يومه الأول، قطع طرف أصبعه بقطاعة التبن، وفي غضون أسبوع سقط من سطح السقيفة، وطاردته دجاجة غاضبة حاولت نقر عينيه لأنه تفحص فراخها وهرب بها. وصفعته آسيا لأنها ضبطته يغرف كما يحلو له من وعاء القشدة بنصف فطيرة مسروقة. ولكن لم تفتر همته لأي إخفاق أو شجب، بل واصل هذا الشاب الذي لا يُقهر تسلية نفسه بكل أشكال الألاعيب فلم ينج أحد من شره. إن لم يحفظ درسه يومًا فإن عنده عذرًا مضحكًا، ولأنه كان ذكيًا في كتبه عادة وحاذقًا في تأليف الإجابات حين يجهلها، فقد أبلى حسنًا في المدرسة. ولكن خارج المدرسة، يا رب السماوات! كم كان تومي صاخبًا!

لقد ربط آسيا السمينة بحبل الغسيل على العمود، وتركها تستشيط غضبًا وتشتم لنصف ساعة في صباح اثنين مشغول. ورمى بسنت ساخن على ظهر ماري آن حين كانت الخادمة الجميلة تقف عند المائدة أثناء وجود رجال على العشاء ذات يوم، فألقت الفتاة المسكينة عندئذ بالحساء وهرعت خارجة من الغرفة خائفة، تاركة العائلة تحسبها جنت. وربط دلو ماء إلى شجرة، وربط على

t.me/qurssan

مقبضه شريطة صغيرة، ولما حاولت ديزي، التي فتنت بالشريطة الصغيرة أن تجره للأسفل، نالت حمامًا مائيًا أفسد ثوبها النظيف وآذى مشاعرها كثيرًا. كما وضع حصى خشنة بيضاء في السكرية حين جاءت جدته لشرب الشاي، وتعجبت السيدة المسكينة لأنها لم تذب في فنجانها، لكنها كانت شديدة التهذيب فلم تقل شيئًا. وفي الكنيسة نثر نشوقًا جعل خمسة من الأولاد يعطسون بقوة واضطروا للخروج. وكان في الشتاء يحفر الدروب ثم يملأ الحفر ماء ليتعثر بها الناس. وكاد أن يُفقِد سايلس المسكين صوابه فقد اعتاد تومي أن يعلق حذاء سايلس الكبير في أماكن بارزة، لأن قدميه كانتا ضخمتين وكان يخجل منهما. وأقنع دولي الصغير المؤتمن أن يربط خيطًا بواحدة من أسنانه المتقلقلة، ويترك الخيط يتدلى من فمه حين يخلد للنوم، حتى يتمكن تومي من سحبه دون أن يشعر بألم أثناء العملية الرهيبة. لكن السن لم تسقط في الأسبوع الأول، واستيقظ دولي المسكين بالغ الأسى، وفقد إيمانه بتومي منذئذ. أما مقلبه الأخير فكان بإعطاء الدجاجات خبزًا منقوعًا بالرُم جعلها تترنح سكرًا وتروّع الدواجن الأخرى، لأن الدجاجات الكبيرة المحترمة مضت تتمايل ناقرة موقوقة مثل أعتى السكارى، وانفجرت العائلة ضحكًا على سلوكها الغريب، حتى أخذت الشفقة ديزي فأخذت الدجاجات إلى خمها لتنام وتتخلص من سكرها.

هؤلاء هم الأولاد، وقد عاشوا معًا بأسعد ما يمكن لاثني عشر فتى أن يفعلوا؛ يدرسون ويلعبون ويعملون ويتشاجرون، يقاومون الأخطاء ويربون الفضائل بأسلوب جيد عتيق الطراز. لربما تعلم

t.me/qurssan

الأولاد في المدارس الأخرى أكثر من الكتب، ولكنهم افتقروا إلى الحكمة الأفضل التي تصنع الرجال الصالحين. إن اللاتينية والإغريقية والرياضيات كلها جيدة، ولكن كما يرى الأستاذ باير، فإن معرفة الذات ومساعدتها وضبطها أهم بكثير، وحاول تعليمهم ذلك بعناية. هز الناس رؤوسهم رفضًا لأفكاره أحيانًا، وإن اعترفوا أن الأولاد قد تحسنوا كثيرًا خلقًا وسلوكًا. غير أنها كانت، كما قالت السيدة جو لنات، «مدرسة غريبة».

t.me/qurssan

t.me/qurssan

(٣)
يوم الأحد

نهض نات من السرير مسرعًا، ما إن قرع الجرس الصباح التالي، ولبس بسرور عظيم الثياب التي وجدها على الكرسي. لم تكن ثيابًا جديدة، بل كانت ثيابًا شبه مهترئة لواحد من الأولاد الموسرين، لكن السيدة باير احتفظت بكل الريش المتطاير للعقاعق المختارة الشاردة التي دخلت عشها. ما كاد يرتدي ثيابه حتى ظهر تومي أنيقًا للغاية بياقة نظيفة، واصطحب نات ونزلا لتناول الإفطار.

كانت الشمس تسطع في غرفة الطعام على المائدة المعدة جيدًا، واجتمع الفتية الجائعين المتحمسين حولها. لاحظ نات أنهم كانوا أكثر انتظامًا مما فعلوا الليلة الماضية، ووقف كل واحد منهم صامتًا خلف كرسيه، ووقف روب الصغير قرب والده على رأس المائدة، وقد طوى يديه وأحنى رأسه بخشوع وردد بهدوء صلاة قصيرة على الطريقة الألمانية الورِعة، التي أحبها السيد باير وعلّم ابنه احترامها. ثم جلسوا كلهم للاستمتاع بإفطار الأحد المؤلف من القهوة

t.me/qurssan

وشرائح اللحم والبطاطا المشوية، عوضًا عن الخبز والحليب، زادهم الذي يُشبعون به جوعهم عادة. كان الحديث مبهجًا أثناء القعقعة النشطة للسكاكين والشوك، إذ لا بد من تعلّم بعض دروس الأحد، والذهاب في نزهة الأحد، ومن نقاش خطط الأسبوع المقبل. قال نات في نفسه، وهو يستمع، إن هذا اليوم يوم سعيد بلا ريب، لأنه يحب الهدوء، وقد كان في المكان همس مرح حول كل شيء أسعده كثيرًا. إذ كان الولد حساسًا نظرًا لطبعه المحب للموسيقى، رغم حياته القاسية.

«والآن يا فتيتي، أنجزوا أعمالكم الصباحية، ودعوني أركم جاهزين للذهاب إلى الكنيسة عند قدوم الحافلة»، قال الأب باير، وبدأ بنفسه فذهب إلى غرفة الصف لتحضير الكتب ليوم غد.

تفرق الجميع كل إلى مهمته، لأن لكل واحد عملًا يوميًا يُنتظر منه أداؤه أداء متقنًا. جلب بعضهم الحطب والماء، ودعكوا العتبات، أو جابوا بعض الأغراض للسيدة باير. وأطعم آخرون الحيوانات، وأنجزوا بعض الأعمال في الحظيرة مع فرانز. غسلت ديزي الأكواب، ونشفها ديمي لأن التوءمين يحبان العمل معًا، وقد تعلم ديمي أن يكون نافعًا في بيت أهله الصغير. بل كان لدى تدي الصغير عمل صغير يؤديه، فهرول جيئة وذهابًا يرفع المناديل ويدفع الكراسي إلى أماكنها. تحرك الأولاد لنصف ساعة مثل خلية نحل، ثم وصلت الحافلة، فركبها الأب باير وفرانز وثمانية من الأولاد الكبار، وانطلقوا إلى كنيسة البلدة التي تبعد ثلاثة أميال.

t.me/qurssan

آثر نات، بسبب السعال المزعج، البقاء في البيت مع الأولاد الأربعة الصغار، وقضى صباحًا سعيدًا في غرفة السيدة باير، ينصت إلى القصص التي تقرأها عليهم، ويتعلم الأناشيد التي تعلمها لهم، ثم شغل نفسه بهدوء بإلصاق الصور في دفتر قديم.

«هذه خزانة يوم الأحد العائدة لي»، قالت وهي تريه رفوفًا ملئت بالكتب المصورة وعلب الألوان، ومكعبات التركيب، والدفاتر الصغيرة وأدوات لكتابة الرسائل. «أريد أن يحب أولادي يوم الأحد، وأن يروه يومًا هادئًا بهيجًا، ينالون فيه قسطًا من الراحة من دراسة كل يوم ولعبه، لكنهم يستمتعون بمباهج هادئة ويتعلمون بأساليب بسيطة دروسًا أكثر أهمية من تلك التي يتلقونها في المدرسة. أتفهمني؟»، سألت ناظرة إلى وجه نات اليقظ.

«تعنين الصلاح؟»، قال بعد تردد لحظة.

«أجل. الصلاح وحب الصلاح. أعلم جيدًا أنه عمل شاق أحيانًا، لكننا جميعًا يساعد بعضنا بعضًا، وهكذا نمضي قدمًا. هذا أحد الأساليب التي أحاول بها مساعدة أولادي». وأنزلت كتابًا سميكًا، ملء نصفه كتابة، وفتحته على صفحة في أعلاها كلمة واحدة.

«عجبًا، هذا اسمي!»، قال نات والدهشة والحماس باديان على وجهه.

«نعم، إنني أخصص صفحة لكل ولد. وأحتفظ بتقرير صغير عن عمله أثناء الأسبوع، وليلة الأحد أعرض عليه تقريره. فإن كان التقرير سيئًا كنت آسفة ومحزونة. وإن كان جيدًا كنت مسرورة

t.me/qurssan

وفخورة. ولكن أي الأمرين كان، فإن الأولاد يعرفون أنني أريد مساعدتهم، فيحاولون جاهدين لأنهم يحبونني والأب باير».

«أظنهم سيفعلون»، قال نات وقد لمح اسم تومي بانغز في الصفحة المقابلة وتساءل عما كتب تحته.

رأت السيدة باير عينه على الكلمات، فهزت رأسها قائلة وهي تقلب الصفحة:

«كلا، لا أحد يرى التقرير إلا صاحبه. أسمّي هذا دفتر الضمير، ولن يعرف أحد سوانا ما سيكتب في الصفحة تحت اسمك. والأمر عائد إليك إن كنت ستسر بقراءته أو تخجل من ذلك يوم الأحد القادم. أظنه سيكون تقريرًا جيدًا، على أية حال، سأحاول جعل الأمور سهلة عليك في هذا المكان الجديد، وسأكون مسرورة تمامًا إن التزمت بقوانيننا القليلة، وعشت سعيدًا مع الأولاد وتعلمت شيئًا ما».

«سأحاول يا سيدتي»، احمر وجه نات النحيل لرغبته الجادة في «إسعاد السيدة باير وجعلها فخورة»، لا «آسفة ومحزونة». ثم أضاف وهي تغلق الدفتر وتربِّت على كتفه مشجعة: «لا بد أن الكتابة عن أولاد كثيرين أمر متعب».

«ليس عندي، لأني لا أدري حقًا أيهما أحب إليَّ أكثر، الكتابة أم الأولاد»، قالت ضاحكة لدى رؤية نات متعجبًا من خيارها الثاني. «نعم، يظن كثير من الناس أن الأولاد مزعجون، ولكن هذا عائد إلى عدم فهمهم لهم. أنا أفهمهم؛ ولم أرَ بعد صبيًا لم أنسجم معه تمام

t.me/qurssan

الانسجام بعد أن أعثر على البقعة اللينة في قلبه. يا إلهي، إنني لا أستطيع العيش دون عصبتي من الأولاد الصغار الأحبة المزعجين المشاغبين المتهورين، أأستطيع يا صغيري تدي؟»، وعانقت السيدة باير المحتال الصغير، في الوقت المناسب لتنقذ المحبرة من الوصول إلى جيبه.

لم يدرِ نات، الذي لم يسمع من قبل بشيء كهذا، إن كانت السيدة باير مجنونة عابثة أم أنها أكثر من عرف من النساء مرحًا. ومال للرأي الثاني رغم ذوقها الغريب، إذ إن عندها نزعة ملء صحن الفتى قبل أن يطلب، والضحك على دعاباته وقرصه من أذنه برفق، أو صفعه على كتفه، ووجد نات ذلك فاتنًا جدًا.

«أحسبك الآن راغبًا في الذهاب إلى غرفة الصف والتمرن على بعض الأناشيد التي سنغنيها الليلة»، قالت وقد خمنت تخمينًا صائبًا الأمر الذي أراد فعله دونًا عن أي شيء آخر.

وحيدًا مع الكمان الحبيب وكتاب الموسيقى مرفوع أمامه في النافذة المشمسة، وقد ملأ جمال الربيع العالم في الخارج، وساد هدوء يوم الأحد في الداخل، استمتع نات لساعة أو اثنتين بسعادة فريدة، وهو يتدرب على الألحان الحلوة القديمة، ناسيًا شقاء الماضي في الحاضر السعيد.

حين عاد الذاهبون إلى الكنيسة وانتهى الغداء، قرأ الجميع وكتبوا الرسائل لأهليهم وقرؤوا دروس الأحد أو تجاذبوا الحديث بهدوء وهم يجلسون هنا وهناك في أرجاء البيت. في الثالثة تمامًا

t.me/qurssan

خرجت العائلة كلها للتنزه، لأن الأجسام النشطة الصغيرة بحاجة للتمارين؛ وفي هذه النزهات تعلمت العقول المتقدة الصغيرة النظر إلى قدرة الرب وحبه في المعجزات الجميلة التي تحدثها الطبيعة أمام أعينهم. كان السيد باير يرافقهم دومًا، وبأسلوبه الأبوي البسيط كان دومًا يعثر لعصبته على «موعظة في الحجر، وكتب في الجداول الجارية والجمال في كل شيء».

ذهبت السيدة باير وولداها الصغيران وديزي إلى البلدة لزيارة الجدة الزيارة الأسبوعية، وهي الإجازة الوحيدة والمسرة الكبرى للأم باير المشغولة. لم يكن نات قويًا فيحتمل النزهة الطويلة، فطلب الإذن بالبقاء في المنزل مع تومي، الذي عرض بسخاء أخذه في جولة في بلمفيلد. «لقد رأيت البيت، فتعال لترى الحديقة، والحظيرة ومجموعة الوحوش»، قال تومي حين تركا وحيدين مع آسيا لتحرص على ألا يعيثا فسادًا، فرغم أن تومي كان واحدًا من أقوى الأولاد الذين تحدروا من النيويوركيين فإن حوادث مريعة تحدث له دومًا، ولا أحد يعرف كيف.

«وما مجموعة وحوشكم؟»، سأل نات وهما يمشيان الدرب الذي يطوق البيت.

«كلنا عندنا حيوانات أليفة كما ترى، ونبقيها في مخزن الذرة وندعوه معرض الوحوش. ها قد وصلنا، أليس خنزير غينيا[1] هذا

---

(١) كابياء خنزيرية، وأحيانا يطلق عليه الخنزير الغيني، نوع من الحيوانات يتبع جنس كابياء من فصيلة الكابيائية. ينشط في الطبيعة ليلًا للبحث عن غذائه من الخضراوات والحبوب الجافة. وهو حيوان خجول يمضي معظم الوقت مختبئًا.

t.me/qurssan

جميلًا؟»، وعرض تومي بفخر واحدًا من أقبح أنواع ذلك الحيوان المضحك التي رآها نات.

«أعرف صبيًا عنده اثنا عشر منها، وقال إنه سيعطيني واحدًا غير أنني لم يكن عندي مكان لإبقائه، لذا لم أستطع أخذه. كان أبيض مبقعًا ببقع سوداء، مذهلًا تمامًا، ولعلي أستطيع جلبه لك إن أردت»، قال نات شاعرًا بأن هذا رد لبق على اهتمام تومي.

«أود ذلك كثيرًا، وسأعطيك هذا وبوسعهما العيش معًا إن لم يتنازعا. هذه الفئران البيضاء فئران روب، أعطاها له فرانز. والأرانب لند، ودجاج البنطم في الخارج لستفي. أما ذلك الصندوق، فخزان السلاحف العائد لديمي، غير أنه لم يبدأ جمعها بعد. كان عنده اثنتان وستون سلحفاة، بعضها ضخم. دمغ كل واحدة منها باسمه وبالسنة وأطلقها، وقال إنه قد يعثر عليها يومًا وإن طال الزمن. فقد قرأ عن سلحفاة عثر عليها وعلى صدفتها علامة تبين أنها تعود لمئات السنوات. إن ديمي فتى غريب».

«وما في هذا الصندوق؟»، سأل نات واقفًا أمام صندوق كبير عميق، مليء نصفه ترابًا.

«أوه، هذا دكان ديدان جاك فورد. إنه ينبش بحثًا عنها ويحتفظ بها هنا، وعندما يريد أي منا الذهاب لصيد السمك، نشتري بعضها منه. وهذا يجنبنا كثيرًا من العناء، غير أنه يبالغ في ثمنها. آخر مرة اشترينا منه اضطررت لدفع سنتين مقابل اثنتي عشرة وحصلت على ديدان صغيرة. إن جاك لئيم أحيانًا، وأخبرته أنني سأنبش بنفسي

t.me/qurssan

بحثًا عن الديدان إن لم يخفض أسعاره. أملك الآن دجاجتين، تلكما الرماديتين ذواتي القنزعتين، كما أنهما من الطراز الأول أيضًا، وأبيع البيض للسيدة باير، غير أنني لا أتقاضى أكثر من خمسة وعشرين سنتًا لاثنتي عشرة بيضة، أبدًا! سيكون من المخزي فعل ذلك»، قال تومي ناظرًا نظرة ازدراء إلى دكان الديدان.

«ومن صاحب الكلاب؟»، سأل نات وقد تضاعف اهتمامه بهذه التبادلات التجارية، شاعرًا أن ت. بانغز رجل سيكون الانخراط تحت رعايته امتيازًا وسعادة.

«الكلب الكبير لإميل. اسمه كرستوفر كولومبس. سمته السيدة باير لأنها تحب قول كرستوفر كولومبس، ولا أحد يمانع إن كانت تعني الكلب»، أجاب تومي بنبرة مدير الفرق الذي يستعرض وحوشه. «أما الجرو الأبيض فلروب، والأصفر لتدي. أراد رجل إغراقهما في بركتنا، ولم يسمح له الأب باير. إنهما يسليان الولدين الصغيرين، أما أنا فلا أحبهما كثيرًا. واسماهما كاستور وبولكس».

«أكثر ما أحب هو الحمار توبي، إن كان بوسعي امتلاك شيء فركوبه جميل وهو صغير وجيد جدًا»، قال نات متذكرًا الجولات المنهكة التي قطعها على قدميه المتعبتين.

«لقد أرسله السيد لوري للسيدة باير، فلا تضطر لحمل تدي على ظهرها حين نذهب للتنزه. كلنا نحبُ توبي، وهو حمار رائع يا سيدي. هذه الحمامات ملك لنا جميعًا، ولدى كل منا حيوانه الأليف، ونتحاصص في كل الصغار حين يولدون. والزغاليل مسلية للغاية،

t.me/qurssan

لا يوجد أي منها الآن ولكن يمكنك الصعود وإلقاء نظرة على الحمامات الكبيرة، ريثما أرى إن كانت كوكلتِپ وغراني قد وضعتا بيضًا».

صعد نات سلمًا، ومد رأسه من باب أرضي ونظر طويلًا إلى الحمامات الجميلة وهي تنقر وتهدل في قنها المريح. كان بعضها في الأعشاش، وبعضها يروح ويغدو، وبعضها يجلس على الأبواب، وطارت كثيرات من قمة البيت المشمسة إلى المزرعة المنثورة بالقش، حيث كانت ست بقرات لامعات يجتررن في هدوء.

«لدى الجميع شيء ما عداي. أتمنى لو كان لي حمامة أو دجاجة أو حتى سلحفاة ملكي وحدي»، قال نات في نفسه، شاعرًا بفقره الشديد لدى رؤية الكنوز المثيرة للفتية الآخرين. «كيف تحصلون على هذه الأشياء؟»، سأل عندما لحق بتومي في الحظيرة.

«نعثر عليها أو نشتريها أو يعطيها لنا الناس. أرسل لي أبي دجاجتيّ، ولكن ما إن أحصل على مال كافٍ من بيع البيض فسأشتري بطتين. ثمة بركة جميلة مناسبة خلف الحظيرة، ويدفع الناس جيدًا لقاء بيض البط، والبطيطات الصغيرة جميلات ورؤيتها تسبح مسلية»، قال تومي بهيئة المليونير.

تنهد نات، فلا أب له ولا مال، ولا شيء في العالم الواسع سوى محفظة نقود فارغة، ومهارة تكمن في أصابعه العشرة. فهم تومي معنى السؤال والتنهيدة التي أعقبت جوابه، إذ قال فجأة بعد لحظة من التفكير العميق:

t.me/qurssan

«اسمعني، سأخبرك بما سأفعله. إن جمعت البيض بدلًا عني، وأنا أكره ذلك، فسأعطيك بيضة واحدة من كل اثنتي عشرة. واحتفظ بدفتر للحسابات، وحين يبلغ عددها اثنتي عشرة فإن الأم باير ستنقدك خمسة وعشرين سنتًا مقابلها، ثم تستطيع شراء ما أردت، أتفهمني؟».

«سأفعل ذلك! يا لك من صديق طيب يا تومي!»، قال نات وقد أصابه الدوار من هذا العرض البديع.

«هففف! هذا ليس بشيء. ابدأ الآن وابحث في الحظيرة وسأنتظرك. إن غراني توقوق، فلا بد أن تجد بيضة في مكان ما»، وألقى تومي بنفسه على التبن بإحساس فاخر بأنه عقد صفقة جيدة، وفعل شيئًا لطيفًا.

بدأ نات بحثه مرحًا، ومضى يقعقع من علية لأخرى حتى وجد بيضتين جميلتين، واحدة مخبأة تحت الرافدة والأخرى في مكيال بَك[1] قديم حيث باضت فيه السيدة كوكلتپ.

«خذ واحدة ولي الأخرى، وهذه ستكمل الاثنتي عشرة، وغدًا نبدأ من جديد. هاك، اكتب بالطبشور حسابك قرب حسابي، فنكون كلانا عارفين»، قال تومي مشيرًا إلى أشكال غامضة على الجانب الناعم من آلة ذرْوٍ قديمة.

(١) مكيال يساوي ربع بوشل.

t.me/qurssan

فتح المالك الفخور لبيضة واحدة، بإحساس مبهج بالأهمية، حسابه مع صديقه، الذي كتب ضاحكًا فوق الأشكال هذه الكلمات الفاخرة:

«ت. بانغز وشركاه»

ووجدها نات المسكين جذابة للغاية، فأقنع بصعوبة أن يودع قطعته الأولى من الأملاك المنقولة في مخزن آسيا. ثم واصلا ثانية، وبعد أن تعرف على الحصانين والبقرات الست، والخنازير الثلاثة وبقرة ألدرني، كما يسمون العجول في نيو إنغلند، أخذ تومي نات إلى شجرة صفصاف هرمة تتدلى أغصانها على الغدير الصاخب الصغير. كان التسلق من السياج سهلًا إلى مكان واسع بين الأغصان الثلاثة الكبيرة، التي قطعت لينبت بدلًا عنها جمع من الأفنان الرشيقة من عام لآخر، حتى تشكلت ظلة خضراء في الأعلى. وضعت هنا مقاعد صغيرة، وفي مكان مجوَّف صنعت خزانة لتسع كتابًا أو اثنين، وقاربًا مفككًا وعددًا من الصفارات غير المنجزة.

«هذا مكاننا الخاص أنا وديمي، نحن صنعناه ولا يمكن لأحد الصعود ما لم نسمح له، عدا ديزي فنحن لا نرفض وجودها»، قال تومي حين نظر نات مبتهجًا من الماء البني المبقبق في الأسفل إلى القوس الأخضر في الأعلى حيث كانت النحلات تعزف لحنًا موسيقيًا وهي تستمتع بالأزهار الطويلة الصفراء التي ملأت الجو بعذوبتها.

«أوه، إنه جميل حقًا!»، قال نات، «وأرجو أن تسمحا لي بالصعود

t.me/qurssan

أحيانًا. لم أرَ مكانًا جميلًا كهذا في حياتي قط. أود أن أكون طائرًا وأعيش هنا دومًا».

«إنه جميل فعلًا. يمكنك القدوم إن لم يمانع ديمي، وأحسبه لن يمانع، لأنه قال الليلة الماضية إنه أحبك».

«حقًا؟»، وابتسم نات بسعادة، لأن رأي ديمي مقدر لدى الأولاد كلهم، لأنه كان نسيب الأب باير من جهة، ولأنه كان فتى صغيرًا واعيًا رزينًا من جهة أخرى.

«أجل، فديمي يحب الفتية الهادئين، وأظنكما ستنسجمان إن كنت تحب القراءة كما يفعل».

ازداد احمرار نات المسكين من البهجة فتحول إلى القرمزي :لمؤلم ... ى سماع هذه الكلمات، وتلعثم قائلًا:

«لا أستطيع القراءة جيدًا فلم يكن عندي وقت يومًا إذ كنت أعزف الكمان في كل مكان كما تعرف».

«أنا لا أحب القراءة، لكن بوسعي القراءة جيدًا حين أريد ذلك»، قال تومي بعد نظرته الذاهلة التي قالت صراحة: «أصبي في الثانية عشرة ولا يحسن القراءة؟!».

«أنا أستطيع قراءة الموسيقى على أية حال»، قال نات وقد تكدر لاعترافه بجهله.

«أنا لا أستطيع»، قال تومي بنبرة إجلال شجعت نات على القول بعزم:

«أنوي أن أدرس بجد وأن أتعلم كل شيء أستطيعه، إذ لم تسنح لي الفرصة من قبل. هل يعطي السيد باير دروسًا صعبة؟».

«كلا، كما أنه لا يغضب البتة، بل يشرح ويدعمك في المسائل الصعبة. بعض الناس لا يفعلون ذلك، فأستاذي السابق لم يفعله. بل كان يضربنا على رؤوسنا إن نسينا كلمة!»، وفرك تومي قمة رأسه كأنه استشعر وخزًا من الضربات الوافرة، التي لم يبق منها إلا ذكراها بعد سنة من الدراسة مع «أستاذه الآخر».

«أظن أن بوسعي قراءة هذا»، قال نات الذي كان يتمعن في الكتب.

«اقرأ قليلًا إذن، وسأساعدك»، قال تومي بنبرة راعية.

فجهد نات، وتخبط في صفحة تصحبه «تشجيعات» ودودة من تومي، الذي قال له إنه «سينجح» في ذلك قريبًا بقدر الجميع. ثم جلسا وتحدثا على طريقة الصبيان في مختلف المواضيع، ومن بينها البستنة لأن نات سأل، ناظرًا للأسفل من مجلسه، عما زُرع في الرقع الصغيرة الكثيرة الواقعة تحتها على الجانب الآخر من الغدير.

قال تومي:

«هذه مزارعنا. لكل منا رقعته، ونزرع فيها ما نشاء، سوى أن علينا اختيار أشياء مختلفة، ولا يمكننا تغييرها حتى ينبت المحصول، وعلينا الحفاظ عليها طوال الصيف».

«ماذا ستزرع هذا العام؟».

t.me/qurssan

«حسن، أفكر بزراعة الفاصولياء، لأنها أسهل المزروعات في النمو».

لم يستطع نات منع نفسه من الضحك، لأن تومي دفع قبعته للوراء ووضع يديه في جيبيه، وتشدق بكلامه في محاكاة عفوية لسايلس العامل الذي يدير المكان لأجل السيد باير.

«اسمع، يجب ألا تضحك، فالفاصولياء أسهل من الذرة والبطاطا. جربت زراعة البطيخ العام الماضي، لكن الحشرات كانت مزعجة، ولم تنضج البطيخات قبل الصقيع، لذا لم أحصل إلا بطيخة حمراء جيدة و«شمامتين»»، قال تومي عائدًا إلى محاكاة سايلس في نبرته الأخيرة.

«تبدو الذرة جميلة عندما تكبر»، قال نات بتهذيب ليكفر عن ضحكه.

«أجل، ولكن عليك أن تعزق مرة بعد مرة. أما الفاصولياء التي تنمو في ستة أسابيع فتحتاج العزق مرة واحدة أو نحوها، وتنضج بسرعة. سأجرب زراعتها لأني اخترتها أولًا. أرادها ستفي، لكنه مضطر لزراعة البازلاء، وهذه لا تحتاج لشيء إلا جنيها، وهو من عليه فعل ذلك فهو يأكل كثيرًا».

«أتساءل إن كنت سأحصل على حديقة؟»، قال نات مفكرًا بأن عزق الذرة سيكون عملًا مبهجًا.

«ستحصل عليها قطعًا»، قال صوت من الأسفل، وهناك وقف

t.me/qurssan

السيد باير وقد عاد من نزهته، وجاء للعثور عليهما، لأنه تمكن من الحديث قليلًا مع كل الفتية أثناء النهار، ووجد أن هذه الأحاديث القصيرة تمنحهم بداية جيدة للأسبوع المقبل.

إن الرأفة أمر عذب، وقد أحدثت أعاجيب هنا إذ عرف كل فتى أن الأب باير مهتم به، وكان بعضهم أكثر استعدادًا لفتح قلبه له أكثر من زوجته، وبخاصة الفتية الأكبر سنًا، الذين أحبوا الحديث عن آمالهم وخططهم رجلًا لرجل. وإن مرضوا أو وقعوا في المتاعب فإنهم تلقائيًا يلجؤون إلى السيدة جو. أما صغار السن فقد جعلوها أمهم وأمينة أسرارهم في كل وقت.

عندما نزلا من عشهما، وقع تومي في الغدير، ولما كان معتادًا ذلك فقد نهض بهدوء وعاد إلى البيت ليجفف. وهذا ترك نات وحده مع السيد باير، وهو ما تمناه، وأثناء تمشيهما بين رقع الحديقة، ظفر بقلب الفتى بإعطائه «مزرعة» صغيرة، ونقاشه بالمحاصيل بجد كأنما طعام العائلة متوقف على الحصاد. وانتقلا من هذا الموضوع المفرح إلى مواضيع أخرى، وسمع نات الكثير من الأفكار الجديدة المفيدة تقبلها بامتنان مثلما تقبل الأرض الظمأى مطر الربيع الدافئ. وفكر بها طوال العشاء، مركزًا نظره على السيد باير بنظرة متسائلة كأنه يقول: «أحب ذلك، افعلها ثانية يا سيدي». لست أدري إن فهم الرجل اللغة الصامتة للصبي أم لا، ولكن حين اجتمع كل الأولاد في ردهة السيدة باير لحديث أمسية الأحد، اختار موضوعًا لمح إليه في نزهة الحديقة.

t.me/qurssan

رأى نات، وهو ينظر حوله، أنها أشبه بعائلة كبيرة لا مدرسة، لأن الفتيان جلسوا في قوس كبير حول النار، بعضهم على الكراسي وآخرون على البسط، وديزي وديمي جالسين على ركبتي العم فرتز، وجلس روب بدفء خلف كرسي أمه ذي الذراعين، إذ يومئ دون أن يراه أحد إن كان الحديث أكبر منه. بدا الجميع مرتاحين، وأصغوا باهتمام، فقد استحسنوا الراحة بعد النزهة الطويلة، ولأن كل ولد عرف أنه سيستدعى لسماع رأيه، فقد أبقوا أذهانهم حاضرة متأهبين للإجابة عن أي سؤال.

«كان يا ما كان»، بدأ السيد باير بالعبارة القديمة الحبيبة، «كان بستاني عظيم حكيم ع ' ه أكبر بستان على وجه البسيطة. كان مكانًا رائعًا وجميلًا، اعتنى به بمهارة ورعاية كبيرتين، وزرع شتى صنوف الزروع الفاخرة النافعة. قد تنمو الحشائش حتى في مثل هذا البستان الرائع، وقد تكون الأرض عقيمة فلا تنبت فيها البذور الجيدة. كان عنده كثير من العاملين لمساعدته، فأدى بعضهم واجبه وكسبوا الأجور الكبيرة التي منحها لهم. لكن الآخرين أهملوا حصتهم من البستان وتركوها للجدب، وهذا ما ساءه كثيرًا. لكنه كان صبورًا للغاية، وعمل لآلاف آلاف السنوات منتظرًا حصاده العظيم».

«لا بد أنه هرم جدًا»، قال ديمي الذي نظر مباشرة إلى وجه العم فرتز، كأنه يود التقاط كل كلمة.

«اصمت يا ديمي، إنها حكاية خيالية»، همست ديزي.

t.me/qurssan

«لا، أظنها أنثولة»[1]، قال ديمي.

«وما الأنثولة؟»، قال تومي الذي يسأل كثيرًا.

«أخبره يا ديمي إن استطعت، ولا تستخدم الكلمات ما لم ... معناها علم اليقين»، قال السيد باير.

«بل أعرف، لقد أخبرني جدي! إن الخرافة هي أنثولة، حكاية ذات مغزى. قصتي «حكاية بلا نهاية» واحدة منها، لأن الطفل فيها يعني الروح، أليس كذلك يا خالتي؟»، قال ديمي متلهفًا لإثبات صواب ما قاله.

«هذا صحيح يا عزيزي، وقصة عمك أمثولة، كما أرى، فاستمع وانظر ماذا تعني»، أجابت السيدة جو التي تشارك دومًا فيما يحدث واستمتعت به بقدر أي صبي بينهم.

هدأ ديمي، وتابع السيد باير بلغته الإنجليزية الفضلى لأنه قد تحسن كثيرًا في السنوات الخمس الأخيرة، وقال إن ذلك من صنع الأولاد.

«أعطى هذا البستاني العظيم اثنتي عشرة قطعة صغيرة من الأرض إلى واحد من خدمه، وأمره بأن يبذل جهده ويرى ما بوسعه زراعته. لم يكن هذا الخادم غنيًا ولا حكيمًا ولا بارعًا جدًا، غير أنه أراد المساعدة لأن البستاني أحسن معاملته بطرق عديدة. لذا قبل القطع الصغيرة بسعادة، وشرع يعمل. كانت من مختلف

(١) أمثولة لكن الطفل أخطأ في نطقها.

t.me/qurssan

الأشكال والأحجام، وفي بعضها تربة صالحة، وبعضها الآخر مليء بالصخور، وكلها بحاجة لعناية شديدة، لأن الحشائش نمت سريعًا في التربة الخصبة، وفي التربة القاحلة صخور كثيرة».

«ماذا زرع فيها إلى جانب الحشائش والصخور؟»، سأل نات وقد بلغ به الحماس أن نسي خجله وتحدث أمامهم جميعًا.

«زهور»، قال السيد باير بنظرة حانية. «وكان في أكثر الأحواض وعورة وإهمالًا قليل من زهرة الثالوث، أو عسلوج من البليحاء. وكان في آخر ورود وبسلة الزهور وزهور الربيع»، وهنا قرص الخد الممتلئ للفتاة الصغيرة المتكئة على ذراعه[1]. «وفي آخر كل أنواع النباتات الغريبة، وحصى لامعة وكرمة أخذت تتسلق مثل ساق فاصوليا جاك، وأخذت الكثيرة من البذور الجيدة تنبثق، لأن هذا الحوض اعتنى به رجل هرم حكيم، عمل في بساتين كهذه طوال حياته».

عند هذا الجزء من «الأنثولة»، أمال ديمي رأسه إلى جانب مثل طائر فضولي، وثبت عينيه اللامعتين على وجه عمه، كأنه ارتاب في شيء ما وأخذ يراقب. لكن السيد باير بدا بريئًا تمامًا، وواصل النظر إلى وجوه الصغار نظرات وقورة جادة، قالت الكثير لزوجته التي أدركت كم تاق جادًا إلى أداء واجبه في تلك البساتين الصغيرة.

«كما قلت لكم، كان تشذيب بعض هذه الأحواض سهلًا -وهذا يعني الاعتناء بها يا ديزي- وزراعة الأخرى شاقة. كان

(١) معنى اسم ديزي زهرة الربيع.

t.me/qurssan

حوض صغير مشمس، لربما امتلأ بالخضار والفاكهة إلى جانب الزهور، غير أنه لا يفيد فيه أي جهد، وحين زرع فيه الرجل بذورًا، ولنقل بذور البطيخ، لم تنبت لأن الحوض الصغير أهملها. أسف الرجل، وواصل المحاولة رغم فشل العمل في كل مرة، وكل ما قاله الحوض «لقد نسيت».

هنا انفجر الجميع بالضحك، ونظروا كلهم إلى تومي الذي انتصبت أذناه لدى سماعه كلمة «البطيخ»، ودلى رأسه لدى سماعه حجته الأثيرة.

«عرفت أنه يقصدنا!»، قال ديمي مصفقًا. «إنك أنت الرجل، ونحن البساتين الصغيرة، أليس كذلك يا عمي فرتز؟».

«لقد أصبت في تخمينك. والآن ليخبرني كل منكم ماذا يجب أن أحاول زرعه فيه هذا الربيع، حتى أحصد الخريف القادم حصادًا جيدًا من بساتيني الاثني عشر، بل الثلاثة عشر؟»، قال السيد باير هازًا رأسه لنات وهو يستدرك مصححًا.

«لا يمكنك أن تزرع فينا الذرة والفاصولياء والبازلاء. إلا إن كنت تعني أن نأكل مقدارًا كبيرًا منها ونصبح بدينين»، قال ستفي وقد أشرق فجأة وجهه المدور الباهت حين خطرت له الفكرة السارة.

«إنه لا يعني هذا النوع من البذور. بل يعني أشياء تجعلنا صالحين، والحشائش هي أخطاؤنا»، قال ديمي الذي يقود عادة هذه الأحاديث، لأنه اعتاد هذا الأمر وأحبه كثيرًا.

t.me/qurssan

«أجل، ليفكر كل واحد منكم بأكثر ما يحتاج ويخبرني، وسأساعده على تنميته فيه، غير أن عليكم بذل جهدكم، وإلا أصبحتم مثل بطيخ تومي، أوراقًا بلا ثمار. سأبدأ بالأكبر، وأسأل الأم ماذا تود أن يكون في قطعتها، لأننا جميعًا أجزاء من البستان الجميل، وسنجني حصادًا وفيرًا لسيدنا إن أحببناه كفاية»، قال الأب باير.

«سأكرس كل قطعتي لأكبر قدر أستطيع الحصول عليه من نبت الصبر، فهذا أكثر ما أحتاج»، قالت السيدة جو برصانة جعلت الأولاد يغرقون في التفكير فيما سيقولونه عندما يحين دورهم، وشعر بعضهم بوخز الندم، لأنهم ساهموا في إنفاد مخزون الأم باير من الصبر بسرعة.

أراد فرانز المثابرة، وتومي الهدوء، وطلب ند المزاج الطيب، وديزي المهارة، وديمي حكمة بقدر حكمة الجد، وأراد نات وجِلّا الكثير من الأشياء لذا سيترك السيد باير يختار له. واختار الآخرون الأشياء نفسها، وبدت الصبر والمزاج الطيب والكرم المزروعات المفضلة. تمنى أحد الفتية أن يحب النهوض باكرًا، لكنه لم يعرف اسمًا يمنحه لهذا النوع من البذور، وتنهد ستفي المسكين وقال: «ليتني أحب دروسي بقدر ما أحب غدائي، لكني لا أستطيع».

«سنزرع إنكار الذات، ونعزقه ونسقيه، ونجعله يكبر جيدًا حتى لا يصاب أحد بالغثيان في عيد الميلاد القادم جرّاء الأكل الكثير. إن مرنت ذهنك يا جورج، فسيجوع مثلما يفعل جسمك تمامًا، وستحب الكتب بقدر فيلسوفي هنا»، قال السيد باير مضيفًا وهو يمسد شعر

t.me/qurssan

ديمي بعيدًا عن جبينه الجميل. «إنك نهم أيضًا يا بني، وتحب حشو عقلك الصغير بالقصص الخرافية والتخيلات، مثلما يحب جورج ملء بطنه الصغير بالكيك والسكاكر. كلا الأمرين سيء، وأريدك أن تجرب شيئًا أفضل. أعرف أن علم الحساب لا يبلغ نصف متعة ألف ليلة وليلة، لكنه شيء مفيد للغاية، وقد حان الوقت لتعلمه، وإلا شعرت بالخجل والندم بعد ذلك».

«ولكن «هاري ولوسي» و«فرانك» ليست قصصًا خرافية، كما أنها مليئة بمقاييس الضغط الجوي والطوب وحذو الخيول وأشياء نافعة، وأنا أحبها. ألست كذلك يا ديزي؟»، قال ديمي متحمسًا للدفاع عن نفسه.

«إنها كذلك، لكنني أجدك تقرأ «رونلد وميبرد» أكثر مما تقرأ «هاري ولوسي»، وأحسبك لا تحب «فرانك» بقدر ما تحب «سندباد». اسمع، سأعقد مع كليكما اتفاقًا صغيرًا. لن يأكل جورج إلا ثلاث مرات في اليوم، ولن تقرأ إلا قصة واحدة في الأسبوع، وسأبني لكم ملعب الكركت الجديد، لكن عليكما أن تعداني أن تلعبا فيه»، قال العم فرتز بأسلوبه المقنع، لأن ستفي يكره الركض، وديمي يقرأ في ساعات اللعب.

«لكننا لا نحب الكركت»، قال ديمي.

«ربما لا تحبانها الآن، لكنكما ستفعلان حين تتعلمانها. إلى جانب أنك تحب أن تكون كريمًا، والأولاد الآخرون يريدون اللعب، ويمكنك منحهم الملعب الجديد إن شئت».

t.me/qurssan

وأوصلهما قوله إلى ما يحبان، وقبلا الاتفاق وسط رضا البقية.

دام الحديث قليلًا بعد عن البساتين، ثم غنوا كلهم معًا. أسعدت الفرقة نات، إذ عزفت السيدة باير على البيانو وعزف فرانز على الفلوت والسيد باير على الكمان الكبير، ونات على الكمان. كانت حفلة موسيقية بسيطة، لكن الجميع استمتع بها، وانضمت إليهم آسيا العجوز، الجالسة في الزاوية، بأعذب صوت، ففي هذه العائلة كان السيد والخادم والصغير والكبير والأسود والأبيض يشاركون في أغنية الأحد، التي ترقى إلى أبي الجميع. بعد هذا صافحوا الأب باير، وقبلتهم الأم باير كلهم من فرانز البالغ ستة عشر عامًا حتى الصغير روب، الذي أبقى أرنبة أنفها لقبلاته الخاصة، ثم خلدوا للنوم.

سطع نور المصباح المظلل الذي اشتعل في غرفة الأطفال بهدوء على لوحة معلقة عند طرف سرير نات. كان على الجدار لوحات أخر، لكن الصبي رأى أن في هذه شيئًا مميزًا قطعًا، إذ كان لها إطار أنيق من الأشنات وأكواز الصنوبر، وعلى كتيفة تحتها وضعت مزهرية من الزهور البرية جمعت حديثًا من غابة الربيع. كانت أجمل اللوحات، واستلقى نات يتأملها شاعرًا شعورًا مبهمًا بمعناها، وتمنى أن يعرف عنها كل شيء.

«هذه لوحتي»، قال الصوت الصغير في الغرفة. رفع نات رأسه، وهنالك رأى ديمي لابسًا منامته متوقفًا في طريق عودته من غرفة السيدة جو، إذ ذهب ليحصل على غمد واقٍ لإصبعه المجروح.

t.me/qurssan

«ماذا يفعل للأطفال؟»، سأل نات.

«هذا المسيح، الرجل الطيب، وهو يبارك الأطفال. ألا تعرفه؟»، سأل ديمي متعجبًا.

«ليس كثيرًا، لكني أود ذلك فهو يبدو رؤوفًا جدًا»، أجاب نات، الذي اقتصرت معرفته بالرجل الطيب في سماع اسمه يُتخذ هزوًا.

«أعرف كل شيء عن ذلك، وأحبه كثيرًا لأنه صادق»، قال ديمي.

«ومن أخبرك؟».

«جدي، فهو يعرف كل شيء، ويروي أجمل القصص في العالم. اعتدت اللعب بكتبه الكبيرة، وصنع الجسور والسكك الحديدية والبيوت حين كنت ولدًا صغيرًا»، قال ديمي.

«وكم عمرك الآن؟»، سأل نات باحترام.

«أكاد أبلغ العاشرة».

«أنت تعرف الكثير من الأمور، أليس كذلك؟».

«أجل، إن رأسي كبير جدًا كما ترى، وقال جدي إن ملأه سيستغرق وقتًا طويلًا، لذا فإني أظل أضيف إليه شيئًا من المعرفة بأسرع ما استطعت»، رد ديمي بأسلوبه الطريف.

ضحك نات ثم قال برصانة:

t.me/qurssan

«احك لي من فضلك».

وأخذ ديمي يحكي مسرورًا دون توقف أو صمت. «وجدت كتابًا جميلًا ذات يوم وأردت اللعب به، لكن جدي قال إنه لا ينبغي لي وأراني الصور وحدثني عنها، وأحببت القصص كثيرًا، وكل شيء عن يوسف وإخوته الأشرار، والضفادع التي خرجت من البحر، وموسى الصغير الحبيب في الماء، والكثير الكثير من القصص الجميلة. لكني أؤثر عليها قصة الرجل الطيب، ورواها لي جدي مرات عديدة حتى حفظتها عن ظهر قلب، وأعطاني هذه اللوحة حتى لا أنسى، وقد عُلقت هنا حين كنت مريضًا ذات مرة، وتركتها ليراها الأولاد المرضى».

«ما الذي جعله يبارك الأطفال؟»، سأل نات الذي وجد شيئًا آسرًا للغاية في الشخصية الأبرز في الجماعة.

«لأنه أحبهم».

«أكانوا أطفالًا فقراء؟»، سأل نات حزينًا.

«أجل، أظنهم كذلك، فبعضهم لا يستره شيء من الثياب إلا قليل، ولا تبدو الأمهات سيدات غنيات. لقد أحب الفقراء وكان رحيمًا به. فقد شفاهم وساعدهم، وأخبر الأثرياء بألا يغضبوا منهم، فأحبوه حبًا جمًا جمًا»، قال ديمي متحمسًا.

«أكان ثريًا؟».

«أوه، كلا! لقد وُلد في حظيرة، وكان فقيرًا للغاية. فلم يكن

t.me/qurssan

عنده بيت يسكنه حين كبر، ولا شيء ليأكله أحيانًا، لكن الناس أعطوه، ومضى يعظ الجميع، محاولًا إصلاحهم حتى قتله الرجل الشرير»[1].

«لماذا؟»، اعتدل نات في فراشه ليسمع ويرى، وقد اهتم كثيرًا لأمر هذا الرجل الذي أحب الفقراء كثيرًا.

«سأخبرك كل شيء عن ذلك، ولن تغضب الخالة جو»، وجلس ديمي على السرير المقابل، مسرورًا بروايته لقصته الأثيرة لمستمع جيد كهذا.

فتحت المربية الباب لترى إن كان نات نائمًا، ولكنها تسللت خارجة حين رأت ما يجري، وذهبت إلى السيدة باير، قائلة بوجهها اللطيف المفعم بعاطفة الأمومة:

«هلا أتت السيدة الحبيبة لترى مشهدًا جميلًا؟ إنه نات الذي يصغي بكل جوارحه إلى ديمي وهو يخبره قصة الطفل المسيح، مثل ملاك أبيض».

عزمت السيدة باير على الذهاب إلى نات لتتحدث إليه قليلًا قبل نومه، لأنها رأت أن الحديث الجاد في ذلك الوقت يؤتي ثماره غالبًا. لكنها حين تسللت إلى غرفة الأطفال ورأت نات يتشرب كلمات صديقه الصغير، وديمي يروي القصة العذبة والحزينة كما تعلمها، متكلمًا بهدوء وعيناه الجميلتان مركزتان على الوجه

---

(١) حسب المعتقد المسيحي.

t.me/qurssan

الرحيم فوقهما، اغرورقت عيناها بالدمع، وابتعدت بصمت قائلة في نفسها:

«إن ديمي دون أن يدري يساعد الصبي المسكين أفضل مما أستطيع؛ ولن أفسد ذلك بأي كلمة».

استمرت همهمة الصوت الطفولي لوقت طويل، إذ وعظ قلب بريء قلبًا آخر بتلك الموعظة، دون أن يسكته أحد. حين انتهت أخيرًا وذهبت السيدة باير لتخرج المصباح، وجدت ديمي قد ذهب ونات يغط في النوم، مستلقيًا مديرًا وجهه نحو اللوحة، كأنما تعلم حب الرجل الصالح الذي أحب الأطفال، وكان صديقًا مخلصًا للفقراء. كان وجه الصبي رزينًا جدًا، وقالت في نفسها لما نظرت إليه إن كان يوم واحد من الرعاية واللطف قد فعل كل هذا، فلا بد أن عامًا من الغرس الصبور سيثمر حصادًا رائعًا من بستانه المهمل، الذي بذره المبشر الصغير ذو المنامة البيضاء بأفضل البذور.

t.me/qurssan

(٤)
خطوة بخطوة

حين دخل نات المدرسة صباح الاثنين أوجس خوفًا، إذ حسب أنه سيظهر جهله أمام الجميع. لكن السيد باير أجلسه عند النافذة عميقة الأسكفّة، حيث يمكنه أن يدير ظهره للآخرين، ويستمع إليه فرانز وهو يقرأ دروسه هناك، فلا يسمعه أحد يتخبط أو يرى كراسه الملطخ بالحبر. كان ممتنًا بحق لهذا، فعمل بجد حتى قال السيد باير باسمًا حين رأى وجهه المحمر وأصابعه الملطخة بالحبر:

«لا تعمل بجدٍّ يا بني، ستنهك نفسك، ثم إن في الوقت متسعًا».

«ولكن عليَّ العمل بجد، وإلا لن أواكب الآخرين. إنهم يعرفون الكثير، وأنا لا أعرف شيئًا»، قال نات الذي صار إلى حال من اليأس لدى سماع الآخرين يقرؤون النحو، والتاريخ والجغرافيا بما وجده سهولة ودقة مدهشتين.

«إنك تعرف كثيرًا من الأمور التي لا يعرفونها»، قال السيد باير جالسًا بجانبه، في حين أخذ فرانز صفًا من التلاميذ الصغار عبر تعقيدات جداول الضرب.

t.me/qurssan

«حقًا؟»، نظر نات متشككًا تمامًا.

«أجل، فمثلًا أنت تحافظ على هدوئك، ويعجز عن ذلك جاك السريع في الحساب وهذا درس ممتاز، وأراك تعلمته جيدًا. ثم إن بوسعك عزف الكمان، ولا أحد من الأولاد يستطيع ذلك، رغم أنهم يودون ذلك بشدة. ولكن الأفضل من ذلك كله يا نات رغبتك الحقيقية في التعلم، وهذه نصف المعركة. يبدو ذلك صعبًا في بادئ الأمر، وقد تشعر بالكلل، ولكن تقدم بهدوء وستسهل الأمور شيئًا فشيئًا كلما تقدمت».

ازداد وجه نات إشراقًا وهو يستمع، ورغم قصر قائمة ما يعرفه فإنه فرح فرحًا عظيمًا وأحس أن عنده شيئًا يتكئ عليه. «أجل يمكنني الحفاظ على هدوئي، فقد تعلمته من ضرب أبي، ويمكنني عزف الكمان، رغم أنني لا أعلم موقع خليج بسكايَ»[1]، قال في نفسه بإحساس من الراحة يتعذر شرحه. ثم قال بصوت عال وسمعه ديمي:

«أنا راغب بالتعلم حقًا، وسأحاول. لم أذهب إلى المدرسة قط، لكن ذلك لم يكن بيدي، وإن لم يسخر مني الأولاد فأحسبني سأحرز المركز الأول، فأنت والسيدة طيبان معي للغاية».

«لن يسخروا منك، وإن فعلوا فسوف... فسوف أخبرهم ألا يفعلوا!»، قال ديمي ناسيًا تمامًا أين هو.

(١) يقع مقابل الشواطئ الأوروبية شمال شرق المحيط الأطلسي، وتطل عليه بعض المدن المهمة مثل مدينة سان سيباستيان الأسبانية.

t.me/qurssan

توقف الصف عند حاصل العدد سبعة مضروبًا بالعدد تسعة، ورفع الكل رؤوسهم ليروا ما يحدث.

رأى السيد باير أن درسًا في تعلم مساعدة الأولاد بعضهم بعضًا أفضل من علم الحساب، فأخبرهم بأمر نات، ناسجًا قصة مثيرة للاهتمام ومؤثرة جعلت الأولاد طيبي القلوب يعدون بمد يد العون له، وشعروا بالفخر حين طلب منهم مشاركة مخزونهم من المعرفة مع الفتى الذي يعزف الكمان عزفًا رائعًا. فقد بثت فيهم هذه المناشدة إحساسًا جميلًا، ووجد نات أمامه بضع عراقيل يجهد لتخطيها لأن الجميع كان سعيدًا بمنحه «الدعم» لصعود سلم التعلم.

لم تكن الدراسة الكثيرة مواتية له، حتى يغدو أقوى، ووجدت السيدة جو الكثير من التسالي في البيت من أجله حين كان الآخرون منكبين على كتبهم. لكن بستانه كان دواءه الأفضل، وعمل بجد مثل قندس، وهو يمد مزرعته الصغيرة ويبذر الفاصولياء، ويراقبها متلهفًا لنموها، متنشيًا بكل ورقة خضراء وساق رشيقة تطلع وتزهر في الطقس الربيعي الدافئ. لم تعزق أي مزرعة بإتقان هكذا قط، فخشي السيد باير ألا يتاح الوقت لنمو شيء، إذ ظل نات يقلّب التربة، فكلفه بمهام سهلة في حديقة الزهور أو بين الفراولة، حيث عمل ودندن مجدًا كالنحلة الطنانة حوله.

«هذا أكثر ما أحب من المحاصيل»، اعتادت السيدة باير أن تقول وهي تقرص الخدين اللذين كانا هزيلين يومًا، وقد أصبحا

t.me/qurssan

ممتلئين ومتوردين، أو تربت على الكتفين المتهدلتين وقد أخذتا تعتدلان شيئًا فشيئًا بالعمل المفيد للصحة، والطعام وراحتهما من الفقر؛ ذاك العبء الثقيل.

كان ديمي صديقه الصغير، وتومي راعيه، وديزي مَن يريحه من كل الأحزان، ورغم أن الأطفال يصغرونه، فقد وجدت روحه الوجلة المسرة في صحبتهم البريئة، وأحجمت عن الرياضات الخشنة للفتية الأكبر سنًا. لم ينسَه السيد لورنس، بل أرسل له الثياب والكتب والموسيقى والرسائل اللطيفة، وجاء بين الفينة والأخرى ليرى كيف يبلي فتاه، أو ليأخذه إلى حفلة موسيقية في البلد. وفي تلك الأحيان شعر نات بنفسه وقد بلغ السماء السابعة من النعيم، إذ ذهب إلى بيت السيد لورنس الكبير، ورأى زوجته الجميلة وابنته الفاتنة الصغيرة، وتناول عشاء شهيًا وقُدِّمت له سبل الراحة، فتحدث عن ذلك وحلم به أيامًا وليالي لاحقة.

لا يحتاج إسعاد طفل إلا أقل القليل، بل إن من المؤسف في عالم يضجّ بالضياء والأشياء السارة، أن تجد وجوهًا حزينة، أو أيدي خاوية الوفاض، أو قلوبًا صغيرة وحيدة. ولأن الزوجان باير يشعران بذلك، فقد جمعا كل الفتات الذي عثروا عليه لإطعام سرب عصافير الدوري الجائعة، لأنهما لم يكونا ثريين، إلا في عمل الخير. أرسل كثير من صديقات السيدة جو ممن عندهن أطفال الألعاب التي سئمها أبناؤهن، ووجد نات في إصلاحها عملًا يناسبه تمامًا. كان بارعًا ماهرًا بأصابعه الرشيقة، وقضى عصريات ماطرة كثيرة مع زجاجة الغراء وعلبة الطلاء والسكين يصلح

t.me/qurssan

الأثاث والحيوانات والألعاب. أما ديزي فقد كانت خيّاطة للدمى البالية. ما إن أصلحت الألعاب، حتى وضعت بعناية في جارور خاص أريد بها فيه تزيين شجرة عيد الميلاد القادم، لكل الأطفال الفقراء في المنطقة، وهكذا كان أولاد بلمفيلد يحتفلون بميلاده، وهو الذي أحب الفقراء وبارك الصغار.

لم يسأم ديمي قط من القراءة أو شرح كتبه المفضلة، وكم من ساعة بهيجة قضوها في شجرة الصفصاف الهرمة يستمتعون بقراءة روبنسن كروزو، وألف ليلة وليلة، وحكايات إجورث[1]، وغيرها من الحكايات الحبيبة عن الفانين التي ستبهج الأطفال لقرون قادمة. فتح هذا عالمًا جديدًا أمام نات، وقد ساعدته لهفته لمعرفة ما سيحدث تاليًا في القصة إلى أن يصبح قادرًا على القراءة بنفسه بقدر البقية، وشعر بالثراء والزهو بإنجازه الجديد، وذاك الخطر بأن يصبح دودة كتب مثل ديمي.

حدث أمر مفيد آخر بأكثر الطرق مفاجأة واستحسانًا. كان عدد من الأولاد يمارسون «التجارة» كما يصفونها، إذ كان معظمهم فقيرًا. وقد شجّع الزوجان باير أي محاولات للاستقلال، وهما موقنان بأن على الأولاد أن يشقوا طريقهم يومًا. باع تومي بيضه، وضارب جاك في المال الحي، وساعد فرانز في التعليم، ودُفع له مقابل ذلك، وكان

(١) ماريا إجورث: (١٧٦٨-١٨٤٩)، كاتبة إنجليزية- إيرلندية، وتعد أول كاتبة واقعية في أدب الأطفال، كما أنها عنصر مهم في تطور الرواية في أوروبا. لها أعمال كثيرة من بينها تحمل عناوينها كلمة حكايات (حكايات بسيطة، وحكايات أخلاقية للصغار، وحكايات عن حياة راقية).

t.me/qurssan

ند ميالًا للنجارة، ونصبت له مخرطة صنع بها شتى صنوف الأشياء النافعة أو الجميلة وباعها، أما ديمي فقد بنى نواعير ومدوّمة وآلات غريبة معقدة لا جدوى منها وباعها على الأولاد.

«ليكن حِرَفيًا إن أراد»، قال السيد باير، «أعط الولد حرفة وسيكون مستقلًا بذاته. إن العمل مفيد، وأيًا كانت المواهب التي يتمتع بها هؤلاء الفتية، سواء أكانت الشعر أم الحراثة، فسنعمل على تهذيبها وجعلهم ينتفعون منها إن استطعنا».

وحين جاء إليه نات يركض ذات يوم ليسأله بوجه متلهف:

«أيمكنني الذهاب لعزف الكمان لأناس يتنزهون في غاباتنا؟ سيدفعون لي، وأود الحصول على بعض المال مثلما يفعل الصبية الآخرون، وعزف الكمان هو الأمر الوحيد الذي أتقنه لفعل ذلك».

رد السيد باير سريعًا:

«اذهب وأسعدهم. إنه عمل سهل ومبهج، وأنا سعيد إذ عرضوا عليك ذلك».

ذهب نات وأبلى بلاء حسنًا، وحين عاد إلى البيت كان في جيبه دولاران، أخرجهما بسرور عظيم، وهو يصف استمتاعه بالعصرية ولطف الشباب، وثنائهم على موسيقاه الراقصة، ووعْدهم باستدعائه ثانية.

«لقد كان ذلك أمتع بكثير من العزف في الشارع، لأني عندئذ لم أنل شيئًا من المال، والآن هو لي كله إلى جانب قضائي وقتًا سعيدًا.

t.me/qurssan

إنني أعمل الآن مثل تومي وجاك، وأنا أحب هذا كثيرًا»، قال نات وهو يربت بفخر على محفظته القديمة، شاعرًا أنه مليونير.

لقد كان يعمل حقًا، إذ كانت النزهات كثيرة حين أقبل الصيف، وكان الطلب على مهارة نات عظيمًا. كان له حرية الذهاب ما لم يهمل دروسه، وإن كانت النزهات لشباب محترمين. فقد أوضح له السيد باير أن التعليم الجيد البسيط ضروري للجميع، وأنه يجب ألا يجعله أي مبلغ من المال يذهب حيث يُغرى بارتكاب الخطأ. وافق نات على ذلك تمامًا، وكانت مبهجة رؤية الفتى ذي القلب البريء يستقل العربات الجميلة التي تقف أمام البوابة من أجله، أو عند سماعه قادمًا يعزف متعبًا لكنه سعيد، وفي جيبه المال الذي كسبه بعرقه، وبعض «اللذائذ» من الوليمة لديزي أو للصغير تد الذي لم ينسه يومًا.

«سأدخر النقود حتى يصبح عندي ما يكفي لشراء كمان جديد لنفسي، ثم أستطيع كسب عيشي بنفسي، أليس كذلك؟»، اعتاد أن يقول كلما جلب نقوده إلى السيد باير ليحفظها له.

«أرجو هذا يا نات، ولكن علينا أن نجعلك قويًا ومعافى أولًا، ونغرس قليلًا من المعرفة في عقلك الموسيقي. ثم سيجد لك السيد لوري مكانًا ما، وفي غضون سنوات قليلة سنأتي كلنا لنسمعك تعزف على الملأ».

بكثير من العمل الملائم، والتشجيع والأمل، وجد نات الحياة تغدو أسهل وأسعد كل يوم، وتقدم في دروسه الموسيقية، فغفر له

معنمه بطأه في بعض الأمور الأخرى، موقنًا أن العقل يعمل أفضل حيث يميل القلب. كانت العقوبة الوحيدة التي احتاجها الولد لإهمال الدروس الأهم بأن يعلق الكمان والقوس ليوم كامل. وجعلته خشيته من خسارة صديقه الحميم تمامًا ينكب على كتبه مقبلًا عليها، وأثبت أن بوسعه إتقان الدروس، فما جدوى قول «لا أستطيع؟».

كانت ديزي تحب الموسيقى حبًا عظيمًا، وتؤثر من يعزفها، وكثيرًا ما وجدت جالسة على الدرجات خارج غرفة نات وهو يتمرن. فأسعده هذا للغاية، وعزف أفضل عزفه لتلك المستمعة الهادئة الصغيرة، لأنها لم تدخل يومًا بل فضلت الجلوس لخياطة رقع تصنع بها لحافًا جميلًا، أو الاعتناء بواحدة من دماها الكثيرة، وعلى وجهها سعادة حالمة جعلت الخالة جو تقول والدموع في عينيها:

«إنها تشبه غاليتي بث»، وتمر بهدوء خشية أن يكدر تطفلها الصفو العذب للطفلة.

كان نات محبًا للسيدة باير، غير أنه وجد شيئًا أكثر سحرًا في الأستاذ الطيب، الذي اعتنى عناية أبوية بالولد الواهن الخجول، وقد نجا بحياته من البحر المتلاطم الذي تقاذف قاربه الصغير بلا توجيه لاثنتي عشرة سنة. لا بد أن ملاكًا رحيمًا رعاه، إذ رغم آلام جسده فإن روحه لم ينلها إلا أذى قليل، ووصلت إلى الشاطئ بريئة مثل رضيع تحطمت سفينته. ربما حافظ حبه للموسيقى على عذوبته رغم كل النشاز من حوله، وهذا ما قاله السيد لوري، ولا بد أنه يعرف. وأيًا كان الأمر، فقد أحس السيد باير بسعادة حقيقية

t.me/qurssan

في تربية فضائل نات المسكين، وعلاج أخطائه، وقد وجد تلميذه الجديد دمثًا ومحبًا مثل الفتاة. وكثيرًا ما سمى نات «ابنته» حين تحدث عنه مع السيدة جو، واعتادت أن تضحك على خياله، لأن السيدة تحب الأولاد المفعمين بالرجولة ووجدت نات ودودًا لكنه ضعيف، رغم أن المرء لن يخطر له هذا، لأنها اعتادت تدليله كما تدلل ديزي، ورآها امرأة مرحة للغاية.

أقلق خطأ واحد من نات الزوجين باير، رغم أنهم رأوه كبر بدافع الجهل والخوف. أخشى قول إن نات يكذب أحيانًا، ولم تكن كذبات سوداء، ونادرًا ما كانت رمادية داكنة، وكثيرًا ما كانت أبسط الأكذوبات البيضاء، لكن هذا لا يهم، فالكذبة هي الكذبة ورغم أننا جميعًا نكذب أكذوبات مهذبة في عالمنا الغريب هذا، فذلك ليس صائبًا والجميع يعلم ذلك.

«عليك أن تكون شديد الحذر دومًا، وأن تراقب لسانك وعينيك ويديك، إذ يسهل اجتراح الخطأ في القول والمظهر والفعل»، قال السيد باير في أحد الأحاديث التي أجراها مع نات حول أكبر عيوبه.

«أعرف ذلك، ولست أقصده. ولكن الانسجام أسهل على المرء إن لم يكن شديد الحرص على الصدق. لقد اعتدت أن أكذب لخوفي من أبي ونيكولو، وأكذب الآن لسخرية بعض الأولاد مني. أعرف أن هذا سيء، لكني أنسى»، وبدا نات تعسًا جراء إثمه.

«كنت أكذب حين كنت فتى صغيرًا! آخ! يا لها من أكاذيب، وشفتني من ذلك جدتي المسنة... كيف فعلت برأيك؟ تحدث

t.me/qurssan

والداي وصرخا وعاقباني، لكني ظللت أنسى مثلك. ثم قالت جدتي المسنة الحبيبة: «سأساعدك لتتذكر، وتتخلص من هذه الصفة البغيضة»، ثم جرت لساني وقصت طرفه بمقصها حتى سال الدم. لعلك تقول إن هذا مروع، لكنه نفعني جدًا، لأنه آلمني لأيام وكل كلمة قلتها خرجت ببطء فتسنى لي الوقت للتفكير. بعد ذلك أصبحت أكثر حذرًا، وتحسنت لأني خفت من المقص الكبير. لكن الجدة الحبيبة كانت حنونة علي في كل الأمور، وحين رقدت تحتضر في نبرمبرغ، صلّت بأن يحب فرتز الصغير الرب ويقول الصدق».

«لم يكن لي جدة يومًا. ولكن إن كنت ترى أن هذا سيشفيني، فسأجعلك تقص لساني»، قال نات بشجاعة لأنه يخاف الألم، لكنه تمنى أن يكف عن الكذب.

ابتسم السيد باير وهز رأسه نفيًا:

«لدي طريقة أفضل من هذه، جربتها مرة من قبل ونجحت. اسمعني الآن، إن كذبت فلن أعاقبك، بل ستعاقبني أنت».

«كيف؟»، سأل نات وقد تعجب من الفكرة.

«سيتعين عليك تقريعي بالطريقة القديمة، أنا لا أفعلها إلا نادرًا، ولكنك ستتذكر أنك ستتسبب لي بالألم بدلًا من أن تحسه بنفسك».

«أأضربك؟ أوه، لا أستطيع!»، قال نات.

t.me/qurssan

«فاضبط لسانك عن الزلل إذن. لا رغبة عندي أن أقرّع، غير أني سأحتمل الألم بسرور لأشفي هذه العلة».

كان لهذا الاقتراح أثر كبير على نات، فراقب شفتيه لوقت طويل وكان صادقًا للغاية. وأصاب السيد باير في حكمه، إذ إن حبه في قلب نات تغلب على الخوف منه. ولكن يا للأسى! نسي نات حذره ذات يوم حزين. وحين توعده إميل سريع الهياج بالضرب، إن كان هو من تعدى على بستانه وخرب أفضل كومات الذرة، زعم نات أنه لم يفعل، ثم خجل من الاعتراف بأنه من فعلها، حين كان جاك يطارده الليلة الماضية.

حسب أن لم يره أحد، لكن تومي رآه وحين تحدث إميل عن الأمر بعد يوم أو يومين، أدلى تومي بشهادته وسمعه السيد باير. انقضى اليوم المدرسي، ووقفوا كلهم في أنحاء الرواق، وجلس السيد باير على مقعد طويل من القش، ليستمتع بلعبه مع تدي. ولكنه حين سمع تومي ورأى وجه نات قد صار قرمزيًا، ونظر إليه بوجه مذعور، أنزل الولد الصغير قائلًا: «اذهب إلى أمك يا صغيري، سآتي سريعًا»، وأخذ نات من يده وقاده إلى المدرسة وأغلق الباب. تبادل الأولاد النظرات بينهم في صمت للحظة، ثم تسلل تومي خارجًا واسترق النظر من الستارة نصف المسدلة، ورأى منظرًا أذهله تمامًا. إذ أنزل السيد باير المسطرة الطويلة المعلقة فوق مكتبه، وكان استعمالها نادرًا فغطاها الغبار.

«يا ربي! سينزل بنات عقوبة شديدة هذه المرة. ليتني لم أقل»،

t.me/qurssan

قال تومي طيب القلب في نفسه، إذ كان التقريع [الضرب بالمقرعة] أكبر خزي في هذه المدرسة. «أتذكر ما قلته لك آخر مرة؟»، قال السيد باير حزينًا لا غاضبًا.

«أجل، ولكن أرجوك ألا تجعلني أفعل هذا، لا طاقة لي به»، قال نات متراجعًا نحو الباب وكلتا يديه خلف ظهره، ووجهه يطفح خوفًا.

«لم لا يقف ويتحملها مثل رجل؟ لو كنت مكانه لفعلت»، قال تومي في نفسه رغم تسارع نبضه لرؤية المشهد.

«سأفي بوعدي، وعليك أن تتذكر أن تقول الصدق. أطعني يا نات، خذ هذه واضربني ست ضربات».

صعق تومي من هذا الكلام، حتى كاد يسقط أسفل الحافة، لكنه تمالك نفسه وتعلق بإفريز النافذة، ناظرًا بعينين مدوّرتين مثل عيني البومة المحنطة على رف المدفأة.

أخذ نات المسطرة، لأن الجميع يطيعون السيد باير إن تحدث بهذه النبرة. ولأنه بدا خائفًا وشاعرًا بالذنب كأنه يوشك على طعن أستاذه، فقد ضرب ضربتين ضعيفتين على اليد العريضة الممدودة له. ثم توقف ونظر وهو لا يكاد يرى من الدمع الذي غشى عينيه، لكن السيد باير قال بحزم:

«واصل واضرب ضربًا أقوى».

مرر نات ردنه على عينيه، كأنما قد رأى أن هذا لا بد أن يتم،

t.me/qurssan

وتلهف لإنجاز المهمة الصعبة بسرعة، فضرب ضربتين سريعتين قويتين احمرت منهما اليد، غير أنها آلمت الضارب أكثر.

«ألا يكفي هذا؟»، سأل بصوت منقطع الأنفاس.

«اثنتين أخريين»، كان الجواب، وضرب نات وهو لا يكاد يبين أين وقعتا، ثم ألقى بالمسطرة عبر الغرفة، وعانق اليد الطيبة بكلتا يديه، ودفن وجهه فيها باكيًا في مزيج من الحب والخجل والتوبة.

«سأتذكر! أوه، سأفعل!».

فوضع السيد باير ذراعه حوله، وقال بصوت رحيم بقدر حزمه قبل قليل:

«أظنك ستفعل. اسأل الرب الرحيم أن يساعدك، وحاول أن تعفينا كلينا من مشهد ثان كهذا!».

لم يعد تومي موجودًا، لأنه تسلل عائدًا إلى الرواق، بادية عليه الإثارة والهدوء فتحلّق حوله الأولاد ليسألوا عما حدث لنات.

أخبرهم تومي بهمس مؤثر، وبدوا كأنما السماء توشك أن تسقط، لأن حفظ النظام هذا قد خطف أنفاسهم.

«لقد جعلني أفعل الأمر نفسه مرة»، قال إميل كأنه يعترف بجريمة من أشنع الجرائم.

«وضربته؟ أضربت الأب باير الغالي؟ يا للهول أود رؤيتك تفعل ذلك الآن!»، قال ند ممسكًا بتلابيب إميل في غضبة للحق.

t.me/qurssan

«لقد حدث هذا منذ زمن بعيد. أفضّل قطع رأسي على أن أفعلها الآن»، وأسقط إميل ند على ظهره باعتدال، بدلًا من تكبيله كما راودته رغبة بفعل ذلك في مناسبات أقل جدية.

«كيف استطعت؟»، سأل ديمي وقد ذعر من الفكرة.

«كنت أقفز مثل المجنون حينئذ، وحسبت أنني لا أبالي، بل إني أحببت الأمر. ولكن حين ضربت عمي ضربة قاسية واحدة، مر في ذهني كل ما صنع من أجلي دفعة واحدة، ولم أستطع المواصلة. كلا يا سيدي، لو أنه طرحني أرضًا ومشى فوقي لما مانعت. وشعرت أنني لئيم جدًا»، وضرب إميل نفسه ضربة قوية على الصدر ليبدي ندمه على الماضي.

«إن نات يبكي بكاء شديدًا، ويشعر بحزن لا حدّ له، لذا دعونا لا نذكر شيئًا حول ذلك، ما قولكم؟»، قال تومي طيب القلب.

«لن نفعل قطعًا، لكن الكذب بغيض»، بدا ديمي وكأنه وجد البغض يزداد لمّا لم تقع العقوبة على الآثم، بل على العم الغالي فرتز.

«لنخلِ المكان جميعًا، حتى يستطع نات الصعود للأعلى إن أراد»، اقترح فرانز، وأخذهم نحو الحظيرة، ملجئهم في الأوقات المزعجة.

لم يأتِ نات للغداء، لكن السيدة جو أخذت بعضه إليه وقالت له كلامًا رقيقًا نفعه، رغم أنه لم يستطع النظر إليها. في وقت لاحق سمع الأولاد الذين يلعبون في الخارج عزف الكمان وقالوا لبعضهم

بعضًا: «إنه بخير الآن». لقد كان على ما يرام، ولكنه خجل أن ينزل، حتى فتح بابه ليتسلل إلى الغابة فوجد ديزي جالسة على الدرجات دون عمل ولا دمية، ولا شيء في يدها إلا منديلها الصغير، كأنها تبكي حزنًا على صديقها الأسير.

«سأذهب للتنزه، أتودين القدوم؟» سأل نات محاولًا أن يتظاهر بأن شيئًا لم يكن، لكنه امتن لتعاطفها الصامت، لأنه حسب أن الجميع سينظرون إليه على أنه لئيم.

«أوه، أجل!»، وركضت ديزي لجلب قبعتها، فخورة بأن يقع عليها الاختيار لتكون رفيقة لواحد من الأولاد الكبار.

رآهما الآخرون يذهبان، ولم يتبعهما أحد لأن الأولاد يتمتعون بقدر عظيم من الرقة أكثر مما يفصحون، وقد علموا بفطرتهم أن ديزي الصغيرة اللطيفة كانت أفضل الأصدقاء لمن يقع في مأزق.

أفاد التنزه نات، وعاد إلى البيت أهدأ من عادته، لكنه استعاد مرحه وتجول واضعًا إكليل زهور الربيع الذي صنعته رفيقته الصغيرة وهو مستلق على العشب يحكي لها قصصه.

لم يقل أحد شيئًا عن مشهد الصباح، غير أن أثره دام طويلًا لأكثر من سبب، ربما. بذل نات أقصى جهده ووجد الكثير من العون، لا من الصلوات الخاشعة القصيرة التي صلاها لصديقه في السماء فحسب، بل بالرعاية الصبورة لصديقه في الدنيا، الذي لم يمسّ يديه الكريمتين دون تذكّر أنهما احتملتا الألم من أجل صالحه.

t.me/qurssan

t.me/qurssan

(٥)
لعبة الفطائر

«ما الأمر يا ديزي؟».

«لا يسمح لي الأولاد باللعب معهم».

«ولِمَ لا؟».

«يقولون إن الفتيات لا يمكنهن لعب كرة القدم».

«بل يمكنهن، لأنني لعبتها!»، وضحكت السيدة باير لدى تذكّرها مرح اليفاع.

«أعلم أنني أستطيع، فقد اعتدنا اللعب أنا وديمي وقضينا أوقاتًا ممتعة، لكنه لا يسمح لي الآن لأن الآخرين سيسخرون منه»، وبدت ديزي شديدة الحزن لقسوة قلب أخيها.

«أظنه محقًا في المجمل يا عزيزتي. لا بأس باللعب ما دمتما وحدكما، لكنها ستكون لعبة شاقة عليك مع اثني عشر فتى، لذا جدي لنفسك لعبة صغيرة جميلة».

«سئمت اللعب وحدي!»، وكان صوت ديزي مغتمًا جدًا.

t.me/qurssan

«سألعب معك بين الحين والآخر، لكن عليَّ الإسراع الآن وإعداد الأشياء من أجل رحلة إلى البلدة. ستذهبين معي وترين ماما، وبوسعك البقاء معها إن شئت».

«أود الذهاب لرؤيتها ورؤية الطفلة جوزي، لكني أفضل العودة من فضلك. سيفتقدني ديمي، وأنا أحب أن أكون هنا يا خالتي».

«لا تستطيعين العيش دون ديمي، أليس كذلك؟»، وبدا أن الخالة جو تفهمت تمامًا حب الفتاة الصغيرة لأخيها.

«لا أستطيع طبعًا، فنحن توءم، ونحن نحب بعضنا بعضًا أكثر من حبنا للناس الآخرين»، أجابت ديزي بوجه مشرق، لأنها عدت التوءمة شيئًا من أكثر الأمور التي قد تحدث لها تشريفًا.

«والآن ماذا ستفعلين وحدك ريثما أذهب للاستعداد؟»، سألت السيدة باير التي تدخل كومة من البياضات إلى الصوان بسرعة كبيرة.

«لا أدري، لقد سئمت من الدمى وغيرها، ليتك تجدين لي لعبة جديدة يا خالتي جو»، قالت ديزي وهي تتمايل عند الباب فاترة الهمة.

«سأفكر لك بواحدة جديدة، وسيستغرق ذلك بعض الوقت، لذا انزلي وانظري ماذا أعدت آسيا لغدائكم»، اقترحت السيدة باير، ظانة أنها وسيلة جيدة تتخلص بها من معضلة الوقت.

t.me/qurssan

«أجل، أظنني أود ذلك إن لم تكن شكسة»، وذهبت ديزي ببطء إلى المطبخ حيث تربعت على العرش آسيا الطاهية السودا دون مضايقات.

عادت ديزي بعد خمس دقائق، بوجه متيقظ تمامًا، وفي يدها قطعة من العجين وعلى أنفها الصغير نفخة دقيق.

«خالتي! أيمكنني من فضلك أن أذهب وأصنع بسكويت الزنجبيل وغيره؟ آسيا ليست شكسة، وقالت إني أستطيع وإن سيكون ممتعًا، اسمحي لي أرجوك»، قالت ديزي دفعة واحدة.

«إنه الشيء المناسب، اذهبي وامرحي واصنعي ما شئتِ، وابقي بقدر ما تحبين»، أجابت السيدة باير وقد ارتاحت كثيرًا، لأن تسلية الفتاة الصغيرة الوحيدة أصعب أحيانًا من الاثني عشر صبيًا.

ذهبت ديزي، وأثناء عملها أجهدت الخالة جو عقلها للإتيان بلعبة جديدة. وخطرت لها فكرة فجأة، لأنها ابتسمت لنفسها وصفقت أبواب الخزانة وذهبت بنشاط قائلة: «سأفعل ذلك إن كان ممكنًا!».

لم يعرف أحد بها في ذهنها ذلك اليوم، لكن عيني الخالة جو لمعتا حين قالت لديزي إنها فكرت بلعبة جديدة، وستذهب لشرائها، فتحمست ديزي كثيرًا وطرحت أسئلة طوال الطريق إلى البلدة، دون أن تحصل على إجابات تفصح لها عن أي شيء. تركت في البيت لتلعب مع الطفلة الصغيرة وتبهج عيني أمها، ريثما تذهب الخالة جو للتسوق. وحين عادت بشتى صنوف الرزم الغريبة في الكيس

t.me/qurssan

الكبير، ملأ الفضول ديزي وأرادت العودة إلى بلمفيلد في الحال. لكن خالتها لم تستعجل، بل مكثت طويلًا في غرفة ماما، جالسة على الأرض والطفلة في حجرها، ومضحكة السيدة بروك على مزحات الأولاد، وكل أشكال عبثهم ولهوهم.

لم تعرف ديزي كيف ستخبرها خالتها بالسر، لكن كان جليًا أن أمها تعرفه، إذ قالت وهي تعقد لها شريط القبعة وتطبع قبلة على الوجه المتورد الصغير في الداخل: «كوني طفلة عاقلة، يا غاليتي ديزي، وتعلمي اللعبة الجديدة الجميلة التي جلبتها الخالة جو من أجلك. إنها لعبة مثيرة ومفيدة جدًا، ولطف منها أن تلعبها معك، لأنها لا تحبها كثيرًا».

جعل الكلام الأخير السيدتين تضحكان بشدة، وزادت حيرة ديزي. قرقع شيء في مؤخرة العربة وهما عائدتان.

«ما ذاك؟»، سألت ديزي ناصبة أذنيها.

«اللعبة الجديدة»، قالت السيدة جو برصانة.

«مم صنعت؟»، قالت ديزي.

«من الحديد والصفيح والخشب والنحاس، والسكر والملح والفحم ومئة شيء آخر».

«يا للغرابة! ما لونها؟».

«مختلف الألوان».

«أهي كبيرة؟».

t.me/qurssan

«جزء منها كبير، وجزء منها ليس بكبير».

«هل رأيتُ واحدة من قبل؟».

«رأيتِ كثيرًا، لكنك لم تري واحدة بجمال هذه».

«أوه! ماذا تكون؟ متى سأراها؟»، وقفزت ديزي من نفاد الصبر.

«صباح غد، بعد الدروس».

«أهي للأولاد أيضًا؟».

«كلا، إنها لك أنت وبِس وحدكما. سيحب الأولاد رؤيتها، ويودون اللعب بجزء منها. ولكن لك أن تختاري أن تسمحي لهم أو لا».

«سأسمح لديمي إن أراد».

«لا شك في أنهم سيرغبون بذلك، وبخاصة ستفي»، وازداد بريق عيني السيدة باير أكثر من ذي قبل، وهي تربت على صرة غريبة كثيرة العقدة في حجرها.

«دعيني أتحسسها لمرة واحدة فحسب»، توسلت ديزي.

«لن تمسيها، لأنك ستخمنينها في الحال وتفسدين المتعة».

تضجرت ديزي ثم غمرت الابتسامة وجهها، إذ لمحت شيئًا لامعًا من ثقب في التغليف الورقي.

«كيف لي أن أنتظر كل هذا؟ ألا يمكنني رؤيتها اليوم؟».

t.me/qurssan

«أوه يا عزيزتي، كلا! لا بد من تركيبها، وتثبيت الكثير من الأجزاء في أماكنها. وعدت العم تدي ألا تريها حتى تكون في أحسن ترتيب».

«إن كان العم تدي يعلم بأمرها فلا بد أنها مذهلة!»، قالت ديزي مصفقة، لأن عمها اللطيف الغني المرح حنون على الأطفال بقدر الجنية الطيبة، ويفكر دومًا بمفاجآت سارة وهدايا جميلة وتسليات مرحة لأجلهم.

«أجل، لقد ذهبنا أنا وتدي واشتريناها معًا، واستمتعنا في الحانوت ونحن نختار أجزاءها المختلفة. لقد اختار كل شيء جميل وكبير، وسارت خطتي سيرًا مدهشًا حين تولى زمام الأمور. لا بد أن تقبليه أفضل قبلاتك حين يأتي، لأنه أطيب عم يذهب ويشتري احلى وأصغر مو.... يا للهول! كدت أخبرك ما هي!»، وقطعت السيدة باير ذاك الكلام المثير في منتصفه وأخذت تبحث عن فواتيرها كي لا يفتضح السر إن تحدثت أكثر. صالبت ديزي يديها بشيء من العزم، وجلست تفكر هادئة بلعبة تبدأ بـ «مو».

حين وصلتا البيت عاينت كل صرة أخرجت من الكيس، وثمة واحدة كبيرة ثقيلة أخذها فرانز إلى الطابق الأعلى في الحال وخبأها في غرفة الأطفال، ملأتها بالدهشة والفضول. كان شيء ما غامض جدًا يجري في الأعلى تلك العصرية، لأن فرانز كان يطرق بالمطرقة، وآسيا تصعد وتنزل والخالة جو تسرع في كل مكان مثل السراب، حاملة تحت مئزرها صنوف الأشياء، أما تد الصغير الطفل الوحيد

الذي سمح له بالدخول، لأنه لا يتكلم بفصاحة، فقد ضحك وهذى، وحاول أن يقول ما «السيء الجمين»[1].

كادت ديزي تجن من كل هذا، وأصاب حماسها الأولاد، الذين أمطروا السيدة باير بعروض المساعدة رفضتها مقتبسة كلامهم لديزي:

«لا يمكن للفتيات اللعب مع الأولاد، لذا فنحن لا نحتاجكم»، حيث عاد المهذبون الصغار صاغرين، ودعوا ديزي إلى مبارة في الكلة، أو حصان الوثب، أو كرة القدم، أو أي شيء تريد، بحرارة وتهذيب مفاجئين أدهشا روحها الصغيرة البريئة.

وبفضل هذا الاهتمام استطاعت احتمال العصرية وخلدت للفراش باكرًا، وأنجزت دروسها الصباح التالي بحيوية جعلت العم فرتز يتمنى ابتداع لعبة جديدة كل يوم. ساد الفصل إثارة كبيرة عندما انصرفت ديزي في الساعة الحادية عشرة، إذ عرفوا جميعًا أنها ستحصل على اللعبة الجديدة الغامضة.

تبعتها الكثير من العيون حين ذهبت، وشتت هذا الحدث انتباه ديمي، ولما سأله فرانز أين تقع صحارى، أجاب حزينًا: «في غرفة الأطفال»، وانفجر الفصل كله ضاحكًا.

«لقد أنجزت كل دروسي يا خالتي جو، ولم أعد أطيق الصبر لحظة أخرى!»، قالت ديزي وهي تهرع إلى غرفة السيدة باير.

---

(١) الشيء الجميل.

«كل شيء جاهز، فهلمي»، وصعدت الخالة جو وهي تحمل تد تحت ذراع، وسلة أشغالها تحت الأخرى.

«لست أرى شيئًا»، قالت ديزي ناظرة حولها حين دخلت من باب غرفة الأطفال.

«أتسمعين شيئًا؟»، سألت الخالة جو ممسكة بتد من ثوبه الصغير لأنه شق طريقه ميممًا نحو زاوية بعينها.

سمعت ديزي القرقعة، ثم صوت خرخرة آتيًا من إبريق يغني. جاءت هذه الأصوات من خلف ستارة أسدلت أمام نافذة ناتئة. ورفعتها بسرعة وندت عنها «أوه!» فرحة، ثم وقفت مبتهجة تحدج الـ.. ماذا تظنونه؟

امتدت قاعدة طويلة حول الجوانب الثلاثة للنافذة، وفي كل جانب تدلت ونصبت كل صنوف القدور الصغيرة والمقالي، والشبكات والكفوت. وعلى الجانب الآخر طقم صحون صغير وطقم شاي، وفي الجزء الأوسط موقد للطبخ. ليس موقدًا من الصفيح، إذ كان ذلك عديم النفع، بل كان موقدًا حقيقيًا من الحديد، كبيرًا يتسع لمطبخ لعائلة كبيرة أو لدمى تتضور جوعًا. لكن أفضل جزء كان النار المتقدة فيه، والبخار الحقيقي الذي يتصاعد من فم إبريق الشاي الصغير، وغطاء الغلاية الصغيرة يتهزهز، والماء داخلها يبقبق بقوة. أزيل أحد ألواح الزجاج وحل محله رقاقة من الصفيح، فيها ثقب من أجل المدخنة، وتصاعد منها دخان حقيقي سبح خارجًا على نحو عادي، أسعدت قلبًا طيبًا برؤيتها. ووضع على مقربة

t.me/qurssan

صندوق الحطب ودلو من الفحم، وفوقها علقت لقاطة وفرشاة ومكنسة، ووضعت سلة تسوق صغيرة على الطاولة الخفيضة التي اعتادت ديزي اللعب عليها، وعلى ظهر كرسيها الصغير علق مئزر أبيض له صدرة وقلنسوة مضحكة. سطعت الشمس في الداخل كأنما تستمتع بالمرح، وهدر الموقد الصغير هديرًا جميلًا، وتصاعد البخار من الإبريق، وتلألأت الصفائح الجديدة على الجدار، وصفت الآنية الخزفية صفوفًا فاتنة، وشكل ذلك كله مطبخًا صغيرًا كما تتمناه أي طفلة.

وقفت ديزي هادئة بعد الـ «أوه!» الأولى الفرحة، لكن عينيها تنقلتا بسرعة من متاع آسر إلى آخر، تلمعان أينما نظرتا حتى وصلتا أخيرًا إلى الوجه الفرح للخالة جو، وتوقفتا هناك إذ عانقتها الطفلة الصغيرة السعيدة، قائلة بامتنان:

«أوه يا خالتي! يا لها من لعبة جديدة مذهلة! أيمكنني أن أطبخ حقًا على الموقد الجميل؟ وأن أقيم الحفلات والمرح، وأن أكنس، وأشعل نارًا حقيقية تضطرم؟ لقد أحببتها كثيرًا! ما الذي دعاك إلى التفكير بها؟».

«حبك لإعداد بسكويت الزنجبيل مع آسيا أوحى بها إلي»، قالت السيدة باير ممسكة بديزي التي طفرت مرحًا كأنها ستطير. «أعلم أن آسيا لن تسمح لك بالعبث بمطبخها دومًا، ولن يكون إشعال النار هنا آمنًا، لذا فكرت أن أحاول العثور على موقد صغير لك، وأعلمك الطبخ، فسيكون ذلك ممتعًا ومفيدًا أيضًا. لذا طفت

t.me/qurssan

بمتاجر الألعاب، لكن الأشياء الكبيرة باهظة الثمن وظننت أن عليّ التخلي عن الفكرة حتى التقيت العم تدي. وما إن عرف ما عزمت عليه، حتى قال إنه يود المساعدة وأصر على شراء أكبر موقد نجده. لقد وبخته، لكنه اكتفى بالضحك، وسخر من طبخي عندما كنا صغارًا، وقال إن عليّ تعليم بس كما أعلمك، وواصل شراء كل الأشياء الجميلة الصغيرة لـ «صف الطبخ» كما سماه».

«أنا سعيدة للغاية أنك رأيته!»، قالت ديزي حين كفت السيدة جو عن الضحك لدى تذكرها الوقت المضحك الذي قضته مع العم تدي.

«عليك أن تدرسي بجد، وتتعلمي صنع مختلف الأشياء، فقد قال إنه سيأتي لشرب الشاي كثيرًا، وينتظر شيئًا لذيذًا فوق العادة».

«إنه أحلى المطابخ في العالم وأغلاها. وأفضل الدراسة فيه على فعل أي شيء آخر. أيمكنني تعلم صنع الفطائر والكيك، والمعكرونة وكل شيء؟»، قالت ديزي راقصة في أنحاء الغرفة حاملة في يد مقلاة جديدة وفي الأخرى المنخس الصغير.

«كل شيء في وقته. ستكون هذه اللعبة مفيدة، إذ سأساعدك وتكونين طاهيتي، لذا سأخبرك بما تفعلين وأريك كيف تفعلينه. ثم سنصنع أشياء تصلح للأكل، وستتعلمين كيف تطبخين بأقل جهد. سأسميك سالي، ولنتظاهر بأنك فتاة جديدة وصلت لتوها»، أضافت السيدة جو مستعدة للعمل، في حين جلس تدي على الأرض يمص إبهامه، ويحدج الموقد كأنه شيء حي أثار مظهره اهتمامه للغاية.

t.me/qurssan

«سيكون هذا رائعًا جدًا! ما الذي أفعله أولًا؟» سألت سالي بوجه سعيد ومتأهب فتمنت الخالة جو أن تكون كل الطاهيات الجديدات جيلات ومفرحات بهذا القدر.

«أولًا ضعي هذه القلنسوة والمئزر النظيفين. إنني من طراز قديم، وأحب أن تكون طاهيتي مرتبة».

خبأت سالي شعرها الأجعد تحت القلنسوة المدورة، ووضعت المئزر دون أن تفوه بكلمة، رغم أنها تعترض في العادة على وضع الصدرة.

«والآن يمكنك ترتيب الأشياء وأن تغسلي الآنية الخزفية الجديدة. يحتاج الطقم القديم لغسيل أيضًا، لأن خادمتي السابقة كانت نزاعة لتركه في حال مؤسفة بعد الحفلة».

تحدثت الخالة جو برزانة تامة، لكن سالي ضحكت لأنها عرفت من كانت الفتاة غير المرتبة التي تركت الكوب دبقًا. ثم شمرت كميها وبتنهيدة من رضا شرعت تعنى بمطبخها، تغني جذلة بين الحين والآخر لل«المرقاق العذب»، و«حوض غسيل الصحون الحبيب»، أو «علبة الفلفل الساحرة».

«والآن يا سالي، خذي سلتكِ واذهبي إلى السوق، إليكِ قائمة بالأشياء التي أريدها للغداء»، قالت السيدة جو وهي تعطيها قصاصة ورق بعدما رتبت الصحون كلها.

«أين السوق؟»، سألت ديزي وهي ترى أن اللعبة الجديدة تزداد إثارة كل لحظة.

t.me/qurssan

«آسيا هي السوق».

وذهبت سالي، محدثة جلبة أخرى في المدرسة حين مرت بالباب بزيها الجديد، وهمست لديمي بوجه كله فرح: «إنها لعبة بديعة للغاية!».

استمتعت آسيا العجوز بالدعابة بقدر ديزي، وضحكت مرحة حين دخلت الفتاة الصغيرة إلى الغرفة وقلنسوتها مائلة إلى الجانب، وغطاء سلتها يقرقع مثل الصنج، وهي تبدو مثل طاهية صغيرة مجنونة.

«تريد السيدة جو هذه الأغراض، ولا بد أن أجلبها الآن»، قالت ديزي بفخامة.

«دعيني أرَ. عسل، وكتب هنا رطلان من شرائح اللحم، وبطاطا، وقرع وتفاح وخبز وزبدة. لم يصل اللحم بعد، وحين يصل سأرسله إلى الأعلى. أما الأشياء الأخرى فكلها متوفرة».

ثم لفّت آسيا العجوز حبة بطاطا وحبة تفاح، وقليلًا من القرع، وقطعة صغيرة من الزبدة ولفافة خبز في السلة، قائلة لسالي أن تحذر من أجير اللحام لأنه يكون مخادعًا أحيانًا.

«ومن يكون؟»، وأملت ديزي أن يكون ديمي.

«سترين»، كان كل ما قالته آسيا، وذهبت سالي نشوى، تغني أبياتًا من القصة العذبة لميري هويت في الأنشودة:

«بعيدًا ذهبت ميل

t.me/qurssan

ومعها الكيكة اللذيذة المذرورة بالدقيق
ووعاء الزبدة الطازجة
والقنينة الصغيرة من النبيذ».

«ضعي كل شيء عدا التفاحة في النملية في الوقت الراهن»، قالت السيدة جو حين عادت الطاهية.

كان تحت الرف الأوسط صوان، ولدى فتح بابه ظهرت مسرات جديدة. كان نصف الصوان لحفظ ما يحفظ في القبو، ففيه الحطب والفحم والضرم. ونصفه الأخرى مليء بالجرار الصغيرة والصناديق، وكل أشكال العلب المضحكة لحفظ كميات صغيرة من الدقيق، والجريش والسكر والملح وغيرها من مؤونة البيت. ووضع وعاء من المربى، وعلبة صفيح من خبز الزنجبيل، وزجاجة كولونيا فيها نبيذ الكشمش، غير أن الأكثر سحرًا كان وعاءين صغيرين من الحليب الطازج والقشدة تتصاعد منهما، ومقشدة صغيرة جاهزة لإزالتها من الحليب. صفقت ديزي لدى رؤية هذا المنظر الشهي، وأرادت أن تقشد الحليب في الحال. لكن الخالة جو قالت:

«ليس الآن، ستحتاجين الكريمة لتتناوليها على فطيرة التفاح عند الغداء، ويجب ألا تمسيها إلى أن يحين الوقت».

«أسأتناول فطيرة؟»، قالت ديزي وهي لا تكاد تصدق أن سعادة كهذه كانت بانتظارها.

«أجل، إن أبلى فرنك بلاء حسنًا سنخبز فطيرتين، واحدة بالتفاح

t.me/qurssan

والأخرى بالفراولة»، قالت السيدة جو التي كانت متحمسة بقدر ديزي للعبة الجديدة.

«أوه، وما التالي؟»، سألت سالي وهي تتحرق شوقًا لتبدأ.

«أغلقي باب المشعل السفلي من الموقد، حتى يسخن الفرن. ثم اغسلي يديك وأخرجي الدقيق والسكر والملح، والزبدة والقرفة. انظري إن كان لوح الفطيرة نظيفًا، وقشري التفاحة لتكون جاهزة لوضعها في الفطيرة».

جمعت ديزي الأشياء بأقل ضجيج أو سكب يُتوقع من طاهية صغيرة السن.

«لست أعلم المكيال المناسب لصنع فطائر صغيرة للغاية، لكني سأقدره وإن لم تنجح هذه نجرب مرة أخرى»، قالت السيدة جو والحيرة بادية على وجهها، واستغرقت في التفكير بالمعضلة الصغيرة التي تواجهها. «خذي هذا الوعاء الصغير المليء بالدقيق، وضعي رشة من الملح ثم افركيه بشيء من الزبدة بقدر ما يحتويه ذلك الصحن. تذكري دومًا مزج الأشياء الجافة أولًا ثم الرطبة، فهذا يجعلها تمتزج امتزاجًا أفضل».

«أعرف ذلك، فقد رأيت آسيا تفعله. ألا أدهن صحن الخبز بالزبدة أيضًا؟ لقد فعلتُ ذلك أولًا»، قالت ديزي وهي تقلب الدقيق بسرعة كبيرة.

«صحيح تمامًا! أظنك تتمتعين بموهبة الطبخ، فأنت تمارسينه بذكاء شديد»، قالت الخالة جو مثنية. «والآن رشة من الماء البارد، بما

يكفي لترطيب الدقيق، ثم انثري بعض الدقيق على اللوح واعجني قليلًا، ثم أخرجي العجين؛ أجل هكذا. والآن ضعي قطعًا من الزبدة، واعجني ثانية. لن نجعل عجينتنا دسمة وإلا أصيبت دُمانا بعسر الهضم».

ضحكت ديزي لذلك، ونثرت القطع بيد خبيرة. ثم رقت ورقت بمرقاقها الجميل، وصارت عجينتها جاهزة ومضت لتضعها في صحن الخبز. ثم قطعت التفاحة ونثرت السكر والقرفة بسخاء، ووضعت طبقة عجين أخرى فوقها بحذر شديد.

«أردت دومًا أن أقطعها مدورة، لكن آسيا لم تسمح لي قط. كم جميل أن أقوم بذلك وحدي وُحيْدي!»، قالت ديزي وهي تمرّر السكين في الصحن الصغير الذي تثبته بيدها.

يواجه كل الطهاة، حتى أفضلهم، حادثًا مؤسفًا أحيانًا، ووقع أول حادث لسالي عندئذ. إذ مرت السكين بسرعة وانزلق الصحن، وتشقلب في الهواء، وحطت الفطيرة الصغيرة الحبيبة مقلوبة على الأرض. صرخت سالي، وضحكت السيدة جو، وحبا تدي للحصول عليها، وسادت الفوضى في المطبخ الجديد للحظة.

«لم تنزلق من الصحن أو تنكسر، ذاك أني ضغطت أطرافها جيدًا، لم تتأثر البتة، لذا سأثقب ثقوبًا فيها، ثم ستكون جاهزة»، قالت سالي، وهي ترفع الكنز المقلوب وترتبه دون أن تهتم، كعادة الأطفال، بالغبار الذي تجمع عليه عند وقوعه.

«أرى أن طاهيتي الجديدة تتمتع بروح حلوة، وهذا مريح

t.me/qurssan

للغاية»، قالت السيدة جو، «والآن افتحي علبة مربى الفراولة، واملئي الفطيرة ثم ضعي شرائط من العجين فوقها كما تفعل آسيا».

«سأصنع حرف د في الوسط، ثم خطوطًا مائلة على الأطراف، سيكون هذا مثيرًا عندما أتناولها»، قالت سالي مثقلة فطيرتها بالزخارف والزينة التي تجعل خباز الحلويات الحقيقي يتحمس: «سأدخلها الفرن الآن!»، قالت بعدما غرست آخر عقدة مسخمة في الحقل الأحمر للمربى، وأدخلتها الفرن الصغير بهيئة المظفرين.

«نظفي أشياءك، فالطاهية الجيدة لا تترك أوانيها تتراكم. ثم قشري القرع والبطاطا».

«لدي حبة بطاطا واحدة فقط»، ضحكت سالي.

«قطعيها إلى أربع قطع، فتدخل في الغلاية الصغيرة، وضعي القطع في الماء البارد حتى يحين وقت طبخها».

«هل أنقع القرع أيضًا؟».

«كلا، أبدًا! قشريه وقطعيه فقط، وضعيه في المبخرة فوق القدر. إنه أكثر يباسًا، لذا يستغرق طبخه وقتًا أطول».

ثمة خرمشة على الباب جعلت سالي تهرع لفتحه، حين جاء كِت حاملًا في فمه سلة.

«هذا أجير اللحام!»، قالت ديزي، وقد أعجبتها الفكرة كثيرًا. وبعدما أخذت عنه حِمله لعق شفتيه وأخذ يتوسل، وكان جليًا أنه ظن ما في السلة غداءه، لأنه كان يحمله إلى سيده كثيرًا على هذا

t.me/qurssan

النحو. ولما تبين له الأمر خرج غاضبًا غضبًا عظيمًا ونبح طوال نزوله الدرج، ليهدئ كبرياءه الجريحة.

في السلة قطعتان (صغيرتان) من شرائح اللحم، وأجاصة مشوية وكيكة صغيرة ومعها قصاصة خربشت عليها آسيا: «لأجل غذاء الآنسة الصغيرة، إن لم تجر أمور الطبخ معها على ما يرام».

«لست أريد شيئًا من أجاصها القديم وغيره، ستجري أمور طبخي على ما يرام، وسأتمتع بغذاء شهي، أراهنك أني سأفعل!»، قالت ديزي بازدراء.

«قد نحتاجها إن جاءنا زوار. من الجيد دومًا أن يكون عندك شيء في المخزن»، قالت الخالة جو التي تعلمت هذه الحقيقة القيمة بعد سلسلة من نوبات الهلع في البيت.

«جاقع[1] أنا»، قال تدي الذي ظن أن الوقت قد حان لأحد ما أن يأكل شيء ما بعد كل هذا الطبخ. أعطته أمه سلة أشغالها ليبحث فيها، آملة أن تبقيه هادئًا حتى يجهز الغذاء، وعادت إلى درس التدبير المنزلي.

«ضعي خضارك، وأعدي المائدة ثم جهزي بعض طرم الفحم من أجل اللحم».

كان رائعًا رؤية البطاطا تطفر في القدر الصغيرة، واستراق النظر إلى القرع يغدو طريًا في المبخرة الصغيرة، وفتح باب الفرن مرة كل

(١) جائع.

t.me/qurssan

خمس دقائق لتفقد الفطائر. وتوهج الفحم أحمر أخيرًا جاهزًا لوضع قطعتي لحم على شبكة بطول الإصبع وتقليبهما بالشوكة بفخر. نضجت البطاطا أولًا، ولا عجب في ذلك إذ سلقت طوال الوقت سلقًا شديدًا. ثم هرست بهاون صغير، وأضيف إليها الكثير من الزبدة دون الملح (لقد نسيته الطاهية في غمرة حماسها)، ثم وضعت في كومة في صحن أحمر جميل، وسوتها بسكين مغموسة بالحليب، ووضعتها في الفرن لتحمير وجهها.

غرقت سالي في هذه الأشياء فنسيت فطيرتها حتى فتحت باب الفرن لتضع البطاطا، ثم علا عويلها. إذ وا أسفاه! وا أسفاه! احترقت الفطيرتان الصغيرتان حتى تفحمتا!

«أوه، فطيرتاي! يا لفطيرتيّ الغاليتين! لقد احترقتا تمامًا!»، قالت سالي المسكينة تهز يديها الوسختين وهي تتفقد عملها الفاشل. كانت الفطيرة محزنة للغاية، إذ التصقت الزخارف والزينة في كل الاتجاهات بفعل المربى المحروقة، مثل الجدران والمدخنة في بيت بعد احتراقه.

«يا إلهي يا إلهي، لقد نسيت تذكيرك بأن تخرجيها، إنه حظي فحسب»، قالت الخالة جو آسفة. «لا تبكي يا عزيزتي، لقد كان ذاك خطئي، سنحاول ثانية بعد الغداء»، أضافت بعد أن انهمرت دمعة كبيرة من عيني سالي وأزت على الأطلال الساخنة للفطيرة.

لو لم تشتعل شريحتا اللحم عندئذ، لأعقب ذلك الكثير، لكن الطاهية التي شغل ذهنها باللحم كثيرًا نسيت الفطيرة الفاشلة بسرعة.

t.me/qurssan

«ضعي صحن اللحم وصحونك في الأسفل حتى تبقى دافئة، ريثما تهرسين القرع مع الزبدة والملح وضعي القليل من الفلفل على وجهه»، قالت السيدة جو بإخلاص آملة أن ألا يكابد الغداء كوارث أخرى.

هدأت «علبة الفلفل الأنيقة» مشاعر سالي، ورشت على طبق القرع بأناقة. وضع الغداء على الطاولة بأمان، وأجلست الدمى الست؛ ثلاث على كل جانب، وجلس تدي على أحد طرفي الطاولة وسالي على الطرف الآخر. حين وضع كل شيء، كان المنظر فاخرًا، إذ لبست إحدى الدمى فستان حفلة راقصة، ولبست أخرى منامتها، أما جيري الولد المغزول من الصوف، فقد لبس بدلته الشتوية الحمراء، وأنابيلا، العزيزة الجدعاء، فلم تلبس شيئًا إلا جلد الجدي. سلك تدي، رب العائلة، سلوكًا لبقًا لأنه أكل كل شيء قدم له وهو يبتسم، ولم يجد عيبًا واحدًا. سرت ديزي لوجود رفاقها مثلما تفعل مضيفة منهكة تشعر بالحر لكنها ودودة، تُشاهد كثيرًا على موائد أكبر من هذه، وأدت واجب الضيافة برضا بريء لا نراه كثيرًا في أماكن أخرى.

كانت شرائح اللحم قاسية فلم تقطعها سكين التقطيع الصغيرة، ولم تكن البطاطا كافية، والقرع كثير الكتل، لكن الضيوف لم ينتبهوا لهذه العيوب، وأفرغ السيد والسيدة المائدة بشهية يحسدان عليها. وسكّن قَشد إبريق كامل من الكريمة ألم خسارة الفطائر، وغدت كيكة آسيا المزدراة كنز على هيئة تحلية.

t.me/qurssan

«هذا أجمل غداء أتناوله، أيمكنني فعل ذلك كل يوم؟»، سألت ديزي وهي تجمع البقايا وتأكلها.

«يمكنك الطبخ كل يوم بعد الدروس، لكني أفضل أن تتناولي أطباقك في أوقات الوجبات المعتادة، وتأكلي القليل من خبز الزنجبيل على الغداء. لم أمانع اليوم لأنها المرة الأولى، ولكن علينا أن نحافظ على قوانيننا. يمكنك إعداد شيء هذه العصرية من أجل الشاي إن شئت»، قالت السيدة جو التي استمتعت بحفل الغداء كثيرًا رغم أن أحدًا لم يدعُها لتقاسمهم الطعام.

«دعيني أعد الكعك المحلى من أجل ديمي، إنه يحبه كثيرًا، كما أن تقليبه ووضع السكر بينها ممتع جدًا»، قالت ديزي وهي تمسح بقعة صفراء برفق عن أنف أنابيلا المجدوع، إذ رفضت بيلا أكل القرع حين مد إليها، رغم أنه مفيد لـ «اللوماتزم» الذي تعاني منه بلا شك، نظرًا إلى خفة جسمها.

«ولكنك إن أعطت ديمي من الطيبات، فسينتظر الباقون شيئًا منها أيضًا، وستنشغلين كثيرًا».

«ألا يمكنني جعل ديمي وحده يصعد لشرب الشاي لهذه المرة فقط، وبعد ذلك يمكنني أن أعد أشياء للآخرين إن أحسنوا التصرف»، عرضت ديزي وقد طرأت لها فكرة مفاجئة.

«إن هذه لفكرة رائعة يا زهرتي! سنجعل خبيصاتك الصغيرة مكافآت للأولاد الصالحين، ولست أعرف أحدًا منهم لا يحب أكل شيء لذيذ أكثر من حبه لأي شيء آخر. إن كان الرجال الصغار

t.me/qurssan

كالكبار منهم، فإن الطبخ الجيد سيمس شغاف قلوبهم ويهدئ غضبهم تهدئة بهيجة»، أضافت الخالة جو بإيماءة مرحة نحو الباب، حيث وقف الأب باير، متأملًا المشهد بوجه ملؤه السعادة.

«كانت الإلماحة الأخيرة من أجلي أيتها المرأة الذكية. وسأقبلها لأنها صحيحة؛ ولكن لو أني تزوجتك من أجل طبخك، يا أغلى الأحبة، لأكلت كثيرًا طوال هذه السنوات»، أجاب الأستاذ ضاحكًا وهو يلاعب تدي الذي تحمس كثيرًا في محاولته لوصف الوليمة التي استمتع بها.

أرت ديزي الأستاذ مطبخها فخورة، وانبرت تعد العم فرتز بكعك محلى بقدر ما يمكنه أن يأكل. كانت تخبره عن المكافآت الجديدة عندما دخل الأولاد، يتقدمهم ديمي، إلى الغرفة يتشممون الهواء مثل قطيع من الكلاب الجائعة، إذ انتهت الصفوف والغداء لم يجهز، وقادتهم رائحة اللحم الذي أعدته ديزي إلى المكان.

لم تُسرف آنسة صغيرة أكثر فخرًا من سالي وهي تعرض كنوزها وتخبر الأولاد عما ينتظرهم. سخر عدد منهم بأنها لن تعد شيئًا يصلح للأكل، لكنها فازت بلب ستفي في الحال، كما أن نات وديمي يؤمنان إيمانًا عميقًا بمهاراتها، وقال آخرون إنهم سينتظرون ويرون. أعجب الجميع بالمطبخ، وتفحصوا الموقد باهتمام عظيم. عرض ديمي شراء الغلاية في الحال، ليستخدمها في محرك بخاري يصنعه، وقال نت إن أفضل الأوعية وأكبرها ملائم لإذابة الرصاص فيه حين يجد طلقات وبليطات وغيرها من الخردة.

t.me/qurssan

بدت ديزي خائفة من هذه العروض، فأقرت السيدة جو عندئذ قانونًا ينص على عدم السماح لأي ولد بلمس الموقد المقدس أو استخدامه أو الاقتراب منه دون إذن خاص من مالكته. وهذا ما زاد من قيمته في عين الأولاد كثيرًا، وبخاصة أن أي خرق للقانون ستكون عقوبته الحرمان من أي حق في التمتع بالأطايب التي وُعد بها المستقيمون.

قرع الجرس عندئذ، ونزل الكل لتناول الغداء، الذي جعله نابضًا بالحياة كل واحد من الأولاد وهو يعطي ديزي قائمة بالأشياء التي يود أن تُعد له ما إن يصبح مستحقًا للمكافأة. وعدت ديزي، التي كانت ثقتها بموقدها بلا حد، بصنع كل شيء إن أخبرتها الخالة جو بطريقة إعدادها. أخاف هذا التلميح السيدة جو، إذ كانت بعض الأطباق تفوق مهارتها، كمثل كيكة الزفاف، وحلوى عين الثور وحساء الملفوف بسمك الرنغة والكرز، الذي قال السيد باير إنه المفضل عنده، وأسقط في يد زوجته، لأن الأطباق الألمانية تفوق قدراتها.

أرادت ديزي أن تبدأ من جديد في اللحظة التي انتهى فيها الغداء، ولكن لم يسمح لها إلا بالتنظيف، وملء الإبريق لصنع الشاي، وغسيل مئزرها الذي بدا وكأنها قد أعدت مأدبة عيد الميلاد. ثم أرسلت لتلعب في الخارج حتى الساعة الخامسة، لأن العم فرتز قال إن الدروس الكثيرة، حتى قرب موقد الطبخ، تضر بالعقول والأجسام الصغيرة، وعرفت الخالة جو بخبرتها الطويلة أن الألعاب الجديدة تفقد سحرها بسرعة إن لم تستخدم استخدامًا مقتصدًا.

t.me/qurssan

كان الجميع لطيفين مع ديزي تلك العصرية. فقد وعدها تومي بأولى ثمار الفاكهة من بستانه، رغم أن المحصول الظاهر عندئذ كان عشبة الخنازير. وعرض نات أن يزودها بالحطب مجانًا، أما ستفي فقد بجّلها، وشرع ند فورًا في صنع مبردة صغيرة لمطبخها. وصحبها ديمي إلى غرفة الأطفال ما إن دقت الساعة الخامسة، بدقة تجمل رؤيتها في فتى صغير مثله. لم يكن الوقت قد حان لبدء الحفلة، لكنه توسل بشدة ليسمح له بالدخول للمساعدة، فمنح امتيازًا يتمتع به قليل من الزوار، إذ أشعل النار وجلب الأغراض، وراقب صنع عشائه باهتمام كبير. أدارت السيدة جو الأمر وهي تدخل وتخرج، مشغولة بتعليق ستائر نظيفة في كل أنحاء البيت.

«اطلبي من آسيا كوبًا من الكريمة الحامضة لتكون كيكتك خفيفة دون الحاجة لإضافة الكثير من الصودا التي لا أحبها»، كان الأمر الأول.

فركض ديمي نازلًا، وعاد بالكريمة وبوجه متغضن، لأنه تذوقها في الطريق، ووجدها شديدة الحموضة فتوقع ألّا تكون الكيكة صالحة للأكل. انتهزت السيدة جو هذه الفرصة وألقت محاضرة قصيرة وهي على السلم، عن الخواص الكيميائية للصودا لم تصغِ إليها ديزي لكن ديمي فعل وفهمها، كما تبين من رده القصير واسع الإدراك:

«أجل، فهمت. إن الصودا تحول الأشياء الحامضة إلى حلوة، والأشياء الفوارة في الأعلى تجعلها خفيفة. لنرك تصنعيها يا ديزي».

t.me/qurssan

«املئي ذلك الوعاء حتى نصفه بالدقيق وأضيفي إليه قليلًا من الملح»، تابعت السيدة جو.

«أوه يا إلهي، لا بد من إضافة الملح إلى كل شيء كما أرى»، قالت سالي التي سئمت من فتح علبة الأقراص التي حفظ فيها الملح.

«إن الملح مثل الدعابة الجيدة، وكل شيء يصبح أفضل عند إضافة رشة منه يا زهرتي»، توقف العم فرتز وهو مار وفي يده مطرقة، ليدق مسمارين أو ثلاثة لتعلق سالي عليها مقاليها الصغيرة.

«أنت لست مدعوًا لشرب الشاي، لكني سأعطيك بعض الكعك، ولن أكون شكسة»، قالت ديزي رافعة وجهها الصغير الملطخ بالدقيق لتشكره وتقبله.

«يجب ألا تقاطع درس الطبخ يا فرتز، وإلا سآتي وألقي دروسي الأخلاقية وأنت تدرس اللاتينية. أسيعجبك هذا؟»، قالت السيدة جو ملقية بستارة كبيرة من قماش الشيت على رأسه.

«كثيرًا، جربي وسترين»، ومضى الأب الدمث يغني ويدق بمطرقته في أرجاء البيت مثل نقار خشب عملاق.

«ضعي الصودا في الكريمة، وحين «تفور» كما يقول ديمي، حركيها مع الدقيق واخفقيها بأقوى ما تستطيعين. سخني صينيتك، وادهنيها بالزبدة جيدًا، ثم اقليها حتى أعود»، واختفت السيدة جو أيضًا.

يا لها من فوضى أحدثتها ملعقة صغيرة، ويا له من خفق قوي

t.me/qurssan

كان الجميع لطيفين مع ديزي تلك العصرية. فقد وعدها تومي بأولى ثمار الفاكهة من بستانه، رغم أن المحصول الظاهر عندئذ كان عشبة الخنازير. وعرض نات أن يزودها بالحطب مجانًا، أما ستفي فقد بجّلها، وشرع ند فورًا في صنع مبردة صغيرة لمطبخها. وصحبها ديمي إلى غرفة الأطفال ما إن دقت الساعة الخامسة، بدقة تجمل رؤيتها في فتى صغير مثله. لم يكن الوقت قد حان لبدء الحفلة، لكنه توسل بشدة ليسمح له بالدخول للمساعدة، فمنح امتيازًا يتمتع به قليل من الزوار، إذ أشعل النار وجلب الأغراض، وراقب صنع عشائه باهتمام كبير. أدارت السيدة جو الأمر وهي تدخل وتخرج، مشغولة بتعليق ستائر نظيفة في كل أنحاء البيت.

«اطلبي من آسيا كوبًا من الكريمة الحامضة لتكون كيكتك خفيفة دون الحاجة لإضافة الكثير من الصودا التي لا أحبها»، كان الأمر الأول.

فركض ديمي نازلًا، وعاد بالكريمة وبوجه متغضن، لأنه تذوقها في الطريق، ووجدها شديدة الحموضة فتوقع ألّا تكون الكيكة صالحة للأكل. انتهزت السيدة جو هذه الفرصة وألقت محاضرة قصيرة وهي على السلم، عن الخواص الكيميائية للصودا لم تصغِ إليها ديزي لكن ديمي فعل رفهمها، كما تبين من رده القصير واسع الإدراك:

«أجل، فهمت. إن الصودا تحول الأشياء الحامضة إلى حلوة، والأشياء الفوارة في الأعلى تجعلها خفيفة. لنرك تصنعيها يا ديزي».

t.me/qurssan

«املئي ذلك الوعاء حتى نصفه بالدقيق وأضيفي إليه قليلًا من الملح»، تابعت السيدة جو.

«أوه يا إلهي، لا بد من إضافة الملح إلى كل شيء كما أرى»، قالت سالي التي سئمت من فتح علبة الأقراص التي حفظ فيها الملح.

«إن الملح مثل الدعابة الجيدة، وكل شيء يصبح أفضل عند إضافة رشة منه يا زهرتي»، توقف العم فرتز وهو مار وفي يده مطرقة، ليدق مسمارين أو ثلاثة لتعلق سالي عليها مقاليها الصغيرة.

«أنت لست مدعوًا لشرب الشاي، لكني سأعطيك بعض الكعك، ولن أكون شكسة»، قالت ديزي رافعة وجهها الصغير الملطخ بالدقيق لتشكره وتقبله.

«يجب ألا تقاطع درس الطبخ يا فرتز، وإلا سآتي وألقي دروسي الأخلاقية وأنت تدرس اللاتينية. أسيعجبك هذا؟»، قالت السيدة جو ملقية بستارة كبيرة من قماش الشيت على رأسه.

«كثيرًا، جربي وسترين»، ومضى الأب الدمث يغني ويدق بمطرقته في أرجاء البيت مثل نقار خشب عملاق.

«ضعي الصودا في الكريمة، وحين «تفور» كما يقول ديمي، حركيها مع الدقيق واخفقيها بأقوى ما تستطيعين. سخني صينيتك، وادهنيها بالزبدة جيدًا، ثم اقليها حتى أعود»، واختفت السيدة جو أيضًا.

يا لها من فوضى أحدثتها ملعقة صغيرة، ويا له من خفق قوي

t.me/qurssan

ناله المخيض، وأؤكد لك أن الرغوة غطته. حين صبت ديزي بعضًا على الصينية ارتفع مثل السحر إلى كعكة محلاة منتفخة، أسالت لعاب ديمي. لكن الأولى التصقت واحترقت، لأنها نسيت الزبدة، ولكن بعد ذلك الإخفاق الأول مضى كل شيء على ما يرام، ووضعت ست كعكات صغيرات فاخرات في الطبق بأمان.

«أظنني سآخذ شراب القيقب بدلًا من السكر»، قال ديمي من كرسيه ذي الذراعين حيث جلس بعد ترتيب الطاولة ترتيبًا جديدًا مميزًا.

«فاذهب واطلب بعضًا من آسيا»، أجابت ديزي، وهي تدخل الحمام لتغسل يديها.

حدث شيء مروع حين كانت الغرفة فارغة. فكما تعرفون، شعر كِت بألم طوال اليوم لأنه حمل اللحم بنزاهة غير أنه لم يُعط منه شيئًا. لم يكن كلبًا سيئًا، لكن فيه عيوبًا صغيرة مثلنا، ولم يستطع مقاومة الإغراء دومًا. حين دخل إلى غرفة الأطفال في تلك اللحظة، شم رائحة الكعك المحلى ورآه على الطاولة الخفيضة دون حراسة، ولم يقف لحظة للتفكير بالعواقب، فازدرد الكعكات الست بلقمة واحدة. يسرني القول إنها كانت ساخنة جدًا فأحرقته بقوة فندّ عنه أنين المندهش. سمعته ديزي ودخلت فرأت الصحن الفارغ، كما رأت طرف الذيل الأصفر يختبئ تحت السرير. أمسكت بالذيل دون أن تتفوه بحرف، وسحبت اللص وخضته حتى اصطفقت أذناه اصطفاقًا قويًا، ثم حملته ونزلت إلى الحظيرة، حيث أمضى أمسية حزينة في دلو الفحم.

t.me/qurssan

فرحت ديزي بتعاطف ديمي، فأعدت وعاء آخر من المخيض، وقَلَت اثنتي عشرة كعكة، كانت أفضل من الأُخَر. بل إن العم فرتز بعد تذوقه لاثنتين منها، أرسل لها يقول إنه لم يذق قط كعكًا شهيًا كهذا، وكل الأولاد الجالسين إلى المائدة في الأسفل حسدوا ديمي لوجوده في حفلة الكعك المحلى في الأعلى.

كان عشاء لذيذًا، إذ إن غطاء إبريق الشاي الصغير سقط ثلاث مرات فحسب، ولم ينسكب الحليب إلا مرة واحدة، وأغرقت الكعكات بالشراب، وكان للخبز مذاق شرائح اللحم الشهي، ذاك أن الطاهية استخدمت الشبكة نفسها لصنع الخبز. نسي ديمي أمر الفلسفة وأكل مثل أي صبي نهم، بينما خططت ديزي لإقامة مآدب فاخرة، ونظرت الدمى باسمة بكياسة.

«أخبراني يا عزيزيّ، أقضيتما وقتًا ممتعًا؟»، سألت السيدة جو وقد جاءت حاملة تدي على كتفها.

«ممتعًا جدًا. سآتي ثانية قريبًا»، أجاب ديمي مؤكدًا.

«أخشى أنك أكلت كثيرًا من منظر الطاولة».

«كلا، لم أفعل، بل أكلت خمس عشرة كعكة فقط، وكانت كعكات صغيرة»، اعترض ديمي، الذي أشغل أخته بملء صحنه.

«لن تضره فهي لذيذة جدًا»، قالت ديزي بمزيج طريف من الحب الأمومي وفخر ربة المنزل، فاكتفت الخالة جو بالابتسام والقول:

t.me/qurssan

«حسن، عمومًا، لقد نجحت اللعبة الجديدة إذن؟».

«لقد أحببتها»، قال ديمي كأنما موافقته هامة للغاية.

«إنها أروع لعبة على الإطلاق!»، قالت ديزي معانقة حوض صحونها الصغير إذ اقترحت أن تغسل الأكواب. «ليت الجميع يحصلون على موقد طبخ مثل موقدي»، أضافت ناظرة إليه بحب.

«لا بد أن يكون لهذه اللعبة اسم»، قال ديمي وهو يمسح بلسانه شراب القيقب بهدوء عن وجهه.

«لها اسم».

«أوه، ماذا؟»، سأل كلا الطفلين بلهفة.

«حسن، أظننا نستطيع تسميتها فُطيْرات»، وخرجت الخالة جو راضية لنجاح حيلتها الأخيرة في بث السعادة.

t.me/qurssan

t.me/qurssan

(٦)
مثير الفتنة

«عفوًا يا سيدتي، أيمكنني التحدث إليك؟ إنه أمر مهم جدًا»، قال نات مقحمًا رأسه من فرجة باب غرفة السيدة باير.

كان ذاك خامس رأس يقتحم فرجة الباب خلال نصف الساعة الأخيرة، لكن السيدة جو اعتادت ذلك فرفعت رأسها وقالت بحيوية:

«ما الأمر يا فتاي؟».

دخل نات وأغلق الباب خلفه بهدوء، وقال بنبرة ملؤها الحماس واللهفة:

«لقد جاء دان».

«ومن يكون دان؟».

«إنه صبي عرفته حين كنت أعزف الكمان جائلًا في الشوارع. إنه يبيع الصحف وقد أحسن إليَّ ورأيته قبل أيام في البلدة، وأخبرته بروعة هذا المكان، وقد جاء».

«ولكن يا عزيزي، هذه زيارة مفاجئة».

t.me/qurssan

«أوه، إنها ليست بزيارة، بل يريد البقاء إن سمحت له!»، قال نات ببراءة.

«حسن، لكني لست متأكدة من ذلك»، قالت السيدة باير، وقد تعجبت من هدوء العرض.

«آه، حسبتك تحبين قدوم الأولاد الفقراء للعيش معك، وأن تحسني إليهم كما فعلت معي»، قال نات وقد بدت عليه الدهشة والقلق.

«ذاك صحيح، غير أني أحب معرفة شيء عنهم قبلًا. عليَّ اختيارهم، إذ ثمة الكثير منهم، وليس عندي مكان للجميع. وليتني كان عندي».

«أخبرته بأن يأتي لأني ظننتك تحبين ذلك، ولكن إن لم يكن لديك مكان فيمكنه الرحيل»، قالت نات حزينًا.

تأثرت السيدة باير بثقة الصبي بضيافتها، ولم تملك الشجاعة لتحطيم آماله وإفساد خطته الصغيرة الرقيقة فقالت:

«أخبرني عن دان هذا».

«لست أعرف عنه شيئًا، سوى أنه لا أهل له وأنه فقير، وقد أحسن إليَّ لذا أود أن أرد إليه إحسانه إن استطعت».

«كل هذه أسباب رائعة، ولكن صدقًا يا نات، إن البيت ممتلئ، ولا أدري أين يمكنني وضعه»، قالت السيدة باير وهي تميل أكثر فأكثر لإثبات ظن الصبي بأنها مأوى اللائذ بها.

t.me/qurssan

«يمكنه أن يأخذ سريري وأنام أنا في الحظيرة. لم يعد الطقس باردًا، كما أني لا أمانع إذ اعتدت النوم في أي مكان مع أبي»، قالت نات متحمسًا.

جعل شيء ما في كلامه ووجهه السيدة جو تضع يدها على كتفه وتقول بصوتها الحاني:

«نادِ صديقك يا نات، أظن أن علينا إيجاد مكان له دون أن نخلي له مكانك».

انطلق نات فرحًا، وعاد سريعًا يتبعه صبي هيئته ليست مريحة، دخل متثاقلًا ووقف ينظر حوله نظرات امتزجت فيها الوقاحة والامتعاض جعلت السيدة باير تقول لنفسها بعد نظرة واحدة:

«أخشى أنه صنف سيء».

«هذا دان»، قال نات مقدمًا إياه كأنه واثق من الترحيب به.

«أخبرني نات أنك تود البقاء معنا»، قالت السيدة جو بنبرة ودودة.

«أجل»، كان الجواب الفظ.

«أليس عندك أصدقاء يعتنون بك؟».

«كلا».

«قل «كلا يا سيدتي»»، همس نات.

«لن أقول»، غمغم دان.

t.me/qurssan

«كم عمرك؟».

«أربعة عشر عامًا تقريبًا».

«تبدو أكبر من ذلك، ماذا تجيد؟».

«أي شيء».

«إن أردت الإقامة عندنا، نود منك أن تفعل ما يفعله الآخرون، فتعمل وتدرس إلى جانب اللعب. أمستعد لفعل ذلك؟».

«لا أمانع في المحاولة».

«حسن، يمكنك البقاء بضعة أيام، وسنرى كم ننسجم معًا. خذه يا نات وسلّه حتى يعود السيد باير، فنناقش الأمر»، قالت السيدة جو، وقد وجدت صعوبة في الانسجام مع هذا الشاب البارد، الذي ثبت عينيه الكبيرتين عليها بنظرة متشككة قاسية، ليست صبيانية مع الأسف.

«هيا يا نات»، قال وتثاقل خارجًا.

«شكرًا لك يا سيدتي»، أضاف نات وهو يتبعه، شاعرًا باختلاف الترحيب الذي لوقي به عما استُقبل به صديقه الوقح، دون أن يفهم تمامًا ذاك الاختلاف.

«يقيم الرفاق سيركًا في الحظيرة، ألا تريد القدوم معي لرؤيته؟»، سأل وهما ينزلان العتبات العريضة إلى الحديقة.

«أهم أولاد كبار؟»، قال دان.

t.me/qurssan

«كلا، لقد ذهب الكبار لصيد السمك».

«هيا إذن»، قال دان.

فأخذه نات إلى الحظيرة الكبيرة وعرّفه على مجموعته الذين كانوا يمرحون في مخزن التبن شبه الفارغ. رسمت دائرة كبيرة بالتبن على الأرض الواسعة، وقف في وسطها ديمي حاملًا سوطًا طويلًا، وقد امتطى تومي الحمار الصبور توبي، وقفز مرحًا في الدائرة متظاهرًا أنه قرد.

«يجب أن تدفعا دبوسًا للفرد إن أردتما مشاهدة العرض»، قال ستفي الواقف قرب العربة التي جلست فيها الفرقة المؤلفة من ند الذي يعزف على مشط صغير، ولعبة طبل ضربها روب ضربًا صاخبًا.

«إنه رفيقي، لذا سأدفع عن كلينا»، قال نات بكياسة، وهو يدس دبوسين معوجين في الفطر اليابس الذي كان صندوق المال.

بإيماءة إلى الرفيق، جلسا على لوحي خشب واستمر العرض. بعد مشهد القرد، عرض عليهم ند شيئًا من رشاقته فقفز من فوق كرسي قديم، وأشبع السلم نزولًا وصعودًا على طريقة البحارة. ثم رقص ديمي رقصة الجغ برشاقة تسر الناظرين. واستدعي نات ليتصارع مع ستفي، وسرعان ما أطاح بذلك البدين أرضًا. وبعد ذلك تقدم تومي فخورًا ليتشقلب، وهي مهارة تعلمها بعد دأب مؤلم، وهو يتمرن خفية حتى اسود وازرق كل مفصل من هيكله الصغير. لوقيت مهارته بتصفيق كثير، وكان على وشك أن يعود،

t.me/qurssan

وقد احمر من الفخر وتدفق الدم إلى الرأس، حين سمع صوت مزدرٍ من الجمهور يقول:

«هو! ليس ذاك بشيء!».

«قل ذاك ثانية، أتفعل؟»، وانفجر تومي مثل ديك حبش غاضب.

«أتريد القتال؟»، قال دان وهو ينزل بسرعة من البرميل، مجمعًا قبضتيه بعزم.

«كلا، لا أريد»، وتراجع تومي المستقيم خطوة، وقد باغته الاقتراح.

«القتال ممنوع!»، قال الآخرون بحماس شديد.

"يا لكم من جمع لطيف»، سخر دان.

«اسمع، إن لم تحسن التصرف فلن تبقى»، قال نات وقد استشاط غيظًا لإهانة أصدقائه.

«أريد أن أراه يفعل أفضل مما فعلت، هذا كل ما في الأمر»، قال تومي متبجحًا.

«أخلوا المكان إذن»، ودون أي استعداد تشقلب دان ثلاث شقلبات واحدة بعد الأخرى ثم وقف على قدميه.

«لا يمكنك فعل أفضل من هذا يا توم، فأنت تضرب رأسك دومًا وتسقط على الأرض»، قال نات مسرورًا لنجاح صديقه.

وقبل أن يقول أي شيء، فوجئ الجمهور بثلاث شقلبات

t.me/qurssan

إلى الوراء، ومشية قصيرة على اليدين والرأس للأسفل والقدمان للأعلى. أثار هذا الجمعَ وانضم تومي إلى هتاف الإعجاب الذي شجع البهلواني الماهر حين اعتدل، ونظر إليهم نظرة تعالٍ هادئ.

«أتظنني أستطيع تعلم فعل ذلك دون أن أوذي نفسي كثيرًا؟»، سأل توم بألفة وهو يفرك مرفقيه اللذين لم يزالا يؤلمانه بعد المحاولة الأخيرة.

«ماذا ستعطيني إن علمتك؟»، سأل دان.

«سأعطيك مطواة الجيب الجديدة، لها خمسة نصال واحد منها مكسور فقط».

«هاتها إذن».

ناوله إياها تومي بنظرة حب لمقبضها الناعم. تفحصها دان بعناية، ثم وضعها في جيبه ومشى قائلًا وهو يغمز بعينه:

«واصل تمرينك حتى تتقنها، هذا كل ما في الأمر».

ند عن تومي عويل غضب أعقبه زئير عارم، لم يهدأ حتى عرض دان، الذي رأى أن كثرتهم تغلب شجاعته، أن يلعبا لعبة العصا والسكين، ومن يغلب منهما يظفر بالمطواة. وافق تومي وتبارزا في حلقة من الوجوه القلقة، التي علتها الراحة حين فاز تومي ودس المطواة في أعمق أعماق جيبه.

«تعال معي، لأريك المكان»، قال نات شاعرًا بوجوب أن يتحدث حديثًا جديًا مع صديقه وحدهما.

t.me/qurssan

لم يعلم أحد بما دار بينهما، ولكنهما حين عادا ثانية أظهر دان احترامًا أكثر للجميع، رغم فظاظة حديثه، وجلافة طبعه؛ وما الذي ينتظر من الفتى المسكين الذي جال في الدنيا طوال حياته القصيرة دون أن يجد له من يعلمه شيئًا أفضل؟

اتفق الأولاد على أنه لم يعجبهم، فتركوه لنات الذي سرعان ما شعر بالإرهاق من هذه المسؤولية، لكن قلبه الطيب لم يسمح له بهجر دان.

غير أن تومي، بعيدًا عن حادثة المطواة، قد شعر برباط من التعاطف بينهما، وتحرق شوقًا للعودة إلى موضوع الشقلبة الشيق. وسنحت له الفرصة، لأن دان الذي رأى إعجاب تومي به، صار أكثر ألفة معه، وبانقضاء الأسبوع الأول قد أصبح صديقًا حميمًا لتومي النشط.

لما سمع السيد باير بالقصة ورأى دان، هز رأسه واكتفى بالقول:

«ستكلفنا التجربة شيئًا ما، لكننا سنجرب».

لم يظهر دان أي امتنان لإيوائه، بل أخذ كل ما أعطي له دون شكر. كان جاهلًا لكنه سريع التعلم إن أراد، وكان له عينان ثاقبتان تراقبان ما يجري حوله، ولسان سليط وأخلاق جلفة، ومزاج تتناوب عليه الكآبة والغضب. لعب بكل طاقته، وأجاد اللعب في جل الألعاب. وكان صامتًا وفظًا أمام الكبار، وودودًا بين الفينة والأخرى مع الفتية الصغار. أحبه قليل منهم، وأعجب قليل بشجاعته وقوته، إذ لا يقهره شيء، بل إنه أطاح أرضًا بفرانز

t.me/qurssan

الطويل ذات مرة بسهولة جعلت الآخرين يقفون على مبعدة من قبضتيه. راقبه السيد باير بصمت، وبذل قصارى جهده لترويض «الفتى الجامح» كما يسمونه، ولكن الرجل الوقور هز رأسه خفية وقال برصانة: «أرجو أن تثمر التجربة ثمرة جيدة، غير أني أخشى أنها ستكلفنا كثيرًا».

نفد صبر السيدة باير منه ست مرات في اليوم، لكنها لم تستسلم بل أصرت دومًا على أن في هذا الفتى شيئًا خيّرًا، لأنه كان حنونًا على الحيوانات أكثر من البشر، وأحب التطواف في الغابة، وفضلًا عن هذا كله كان تدي الصغير مولعًا به. لم يستطع أحد معرفة السر، لكن الطفل انسجم معه في الحال، وزعق وهذر كلما رآه، وآثر الركوب على ظهره القوي أكثر من الآخرين، وسماه «داني» وحده. كان تدي الكائن الوحيد الذي أظهر دان حبه له، ولم يظهر ذلك إلا إن ظن ألا أحد يراه، لكن عيون الأمهات حادة، وقلوب الأمهات تفتن تلقائيًا بمن يحب أطفالهن. لذا رأت السيدة جو وأحست بوجود بقعة لينة في دان الجلف، وكرست وقتها للمسها والظفر بها.

غير أن حدثًا مفاجئًا ومثيرًا للقلق للغاية أفسد كل خططهم، وأخرج دان من بلمفيلد.

بدأ تومي ونات وديمي يتحلقون حول دان، لأنهم شعروا أن الفتية الآخرين يزدرونه، غير أن كل واحد منهم شعر بوجود جاذبية في الفتى السيء، وبعد الاستخفاف به أمسوا يجلونه وكل منهم لسبب مختلف. فقد أعجب تومي بشجاعته ومهارته، وكان نات

t.me/qurssan

ممتنًا له لإحسانه إليه في الماضي، أما ديمي فقد عده قصة متحركة لأن دان يقص مغامراته قصًا مثيرًا للغاية إن أراد. سر دان بإعجاب المفضلين الثلاثة به، وجهد لينال الاستحسان وكان ذاك سر نجاحه.

فوجئ الزوجان باير، لكنهما أملا أن يكون للأولاد تأثير حسن على دان، وانتظرا بشيء من القلق، واثقين أن لا ضرر من ذلك.

أحس دان أنهما لا يثقان به تمام الثقة، ولم يظهر لهما جانبه الحسن قط، بل تسلى عامدًا باختبار صبرهما وتحطيم آمالهما بأقصى ما استطاع.

لم يوافق السيد باير على القتال، ولم ير تلاكم ولدين لتسلية البقية دليلًا على الرجولة أو الشجاعة. كان يشجع على مختلف الرياضات والتمارين الشاقة، وتوقع أن ينال الأولاد ضربات ولكمات قاسية دون بكاء، لكن العيون المسودة والأنوف النازفة لأجل المزح كانت ممنوعة لأن ذلك لعب وحشي أهوج.

سخر دان من هذا القانون، وقص حكايات مثيرة عن بسالته، والشجارات الكثيرة التي خاضها، حتى تحمس بعض الفتية شوقًا لينالوا «طحنة» جيدة بسيطة.

«لا تفشوا السر وسأريكم»، قال دان وجمع نصف الفتية خلف الحظيرة، وأعطاهم درسًا في الملاكمة، أشبعت لهفة بعضهم. لم يقبل إميل بأن يهزمه فتى أصغر منه، لأن عمر إميل فاق الرابعة عشرة وكان فتى ضخمًا، لذا تحدى دان لينازله. قبل دان على الفور، وراقب الآخرون في حماس عظيم.

t.me/qurssan

لم يعرف أحد الطائر الصغير الذي حمل الأخبار إلى الإدارة، ولكن في خضم النزال عندما كان دان وإميل يتقاتلان مثل كلبين صغيرين، والآخرون يهتفون لهم بوجوه يعلوها الحماس الشديد، دخل الحلبةَ السيدُ باير، وفرّق المتصارعين بيد قوية، وقال بصوت لا يسمعونه إلا نادرًا:

«لا يمكنني السماح بهذا يا أولاد! أوقفوه في الحال، ولا أريد أن أراه ثانية. إنني أدير مدرسة للأولاد لا للسباع البرية. انظروا إلى بعضكم بعضًا واخجلوا من أنفسكم».

«اتركني، وسأطيحه أرضًا مرة أخرى»، صاح دان ملاكمًا رغم القبضة الممسكة بياقته.

«تعال، تعال، لم تسحقني بعد!»، قال إميل الذي صرع خمس مرات لكنه لم يدر متى هزم.

«إنهم يلعبون لعبة المجالد... كما تسميهم يا عمي فرتز، مثل الرومان»، قال ديمي الذي اتسعت عيناه إثارة في هذه التسلية الجديدة.

«لقد كانت تلك مجموعة من المتوحشين، لكننا تعلمنا شيئًا ما منذئذ كما أرجو، كما أني لا أستطيع السماح لكم بتحويل حظيرتي إلى الكولسيوم. من صاحب الفكرة؟»، سأل السيد باير.

«دان»، أجاب عدد من الأصوات.

«ألم تعلم أنه ممنوع؟».

t.me/qurssan

«بلى»، عبس دان غاضبًا.

«فلمَ تخالف القانون؟».

«سيكونون كلهم مائعين إن لم يتعلموا القتال».

«أوجدت إميل مائعًا؟ إنه لا يبدو كذلك»، وجعل السيد باير الاثنين يتواجهان. ظهرتِ هالة سوداء حول عين دان، وتمزقت سترته إلى خرق، لكن وجه إميل كان مغطى بالدماء من شفته المشقوقة وأنفه المكدوم، وقد نتأت من جبينه عجرة بنفسجية كالبرقوق. ورغم جروحه ما زال يعبس في وجه خصمه، ومن الجلي أنه يتحرق شوقًا لاستئناف القتال.

«لو عُلّم ذلك لصار مقاتلًا من الطراز الأول»، قال دان، عاجزًا عن كبح الثناء على الصبي الذي اضطره لبذل جهده.

«سيتعلم كيف يبارز ويلكم في وقت لاحق، وحتى ذلك الحين أظنه سيبلي حسنًا دون دروس في الخشونة. اذهبا واغسلا وجهيكما، وتذكر يا دان أنك إن خالفت قانونًا آخر فستُطرد. كان هذا هو الاتفاق، فأدِ واجبك وسنؤدي واجبنا».

ذهب الولدان، وبعد بضع كلمات للمتفرجين لحق بهما السيد باير ليضمد جراح المجالدين الشابين. خلد إميل إلى الفراش مريضًا، وكان منظر دان مزريًا لمدة أسبوع.

لكن الفتى المتمرد لم يكن يعرف الطاعة، وخالف القانون مرة أخرى.

t.me/qurssan

في عصرية سبت حين خرجت جماعة من الأولاد للعب قال تومي:

«لنذهب إلى النهر ونقطع عددًا من القضبان الجديدة لصيد السمك».

«لنأخذ توبي لنحمّلها عليه عند العودة، ويمكن لأحدنا امتطاؤه»، اقترح ستفي الذي يكره المشي.

«أحسبك تعني نفسك، حسن أسرع أيها الكسول»، قال دان.

فذهبوا وقطعوا القضبان وكانوا على وشك العودة، حين، لسوء الحظ، قال ديمي لتومي الذي امتطى توبي حاملًا عصا طويلة في يده:

«إنك تشبه صورة الرجل في مصارعة الثيران، عدا أنك ليس عندك قماشة حمراء، ولا تلبس ثيابًا أنيقة».

«أود رؤية صورة لهذا، أتسمح؟»، قال تومي هازًا رمحه.

«لنلعب مصارعة الثيران، لدينا بتركب العجوز في المرج الكبير، اركبها يا توم ولترها تجرِ»، اقترح ذات مضمرًا الشر.

«كلا، لا يجدر بك»، قال ديمي الذي أخذ يفقد ثقته باقتراحات دان.

«ولم لا أيها الثرثار الصغير؟»، سأل دان.

«لا أظن هذا يعجب العم فرتز».

«أقال يومًا أننا يجب ألا نلعب مصارعة الثيران؟».

t.me/qurssan

«كلا، لا أظنه قال شيئًا كهذا يومًا»، أقر ديمي.

«فأمسِك لسانك إذن. امضِ يا تومي، وهاك قماشة حمراء لتهزها أمام البقرة العجوز. سأساعدك في إثارتها»، وقفز دان من فوق السور، متحمسًا للعبة الجديدة ولحق به الآخرون مثل قطيع خراف، ومعهم ديمي الذي جلس على القضبان وشاهد اللعبة متحمسًا.

لم يكن مزاج بتركب المسكينة رائقًا، لأنها حرمت من عجلها في الآونة الأخيرة، وبكت على الصغير بحرقة شديدة. وكانت ترى كل البشر أعداءها (ولست ألومها)، لذا حين تقدم مصارع الثيران نحوها واثبًا، حاملًا بيده منديلًا أحمر يرفرف على حربته الطويلة، رفعت رأسها وجأرت جؤارًا لائقًا «موو!» واقترب منها تومي برشاقة، وتوبي وقد عرف صديقته القديمة كان راغبًا بالاقتراب. ولكن حين حطت الحربة على ظهرها بضربة مدوية، فوجئت البقرة والحمار وامتعضا. تراجع توبي ناهقًا نهيق احتجاج، وأخفضت بتركب قرنيها غاضبة.

«اضربها ثانية يا توم، فهي غاضبة للغاية، وسنصارعها مصارعة رائعة!»، قال دان الذي جاء من الخلف حاملًا قضيبًا آخر، وقد حذا حذوه كل من جاك ونِد.

لما رأت بتركب نفسها محاصرة هكذا، وتلقى معاملة مهينة، جرت في الحقل وهي تزداد حيرة وغيظًا كل لحظة، إذ حيثما استدارت وجدت ولدًا بغيضًا يصرخ ويلوح بسوط جديد مخيف. كان في ذاك متعة كبيرة لهم، لكنها كانت في كرب عظيم حتى طفح كيلها وقلبت

t.me/qurssan

في عصرية سبت حين خرجت جماعة من الأولاد للعب قال تومي:

«لنذهب إلى النهر ونقطع عددًا من القضبان الجديدة لصيد السمك».

«لنأخذ توبي لنحمّلها عليه عند العودة، ويمكن لأحدنا امتطاؤه»، اقترح ستفي الذي يكره المشي.

«أحسبك تعني نفسك، حسن أسرع أيها الكسول»، قال دان.

فذهبوا وقطعوا القضبان وكانوا على وشك العودة، حين، لسوء الحظ، قال ديمي لتومي الذي امتطى توبي حاملًا عصا طويلة في يده:

«إنك تشبه صورة الرجل في مصارعة الثيران، عدا أنك ليس عندك قماشة حمراء، ولا تلبس ثيابًا أنيقة».

«أود رؤية صورة لهذا، أتسمح؟»، قال تومي هازًا رمحه.

«لنلعب مصارعة الثيران، لدينا بتركب العجوز في المرج الكبير، اركبها يا توم ولنرها تجري»، اقترح دان مضمرًا الشر.

«كلا، لا يجدر بك»، قال ديمي الذي أخذ يفقد ثقته باقتراحات دان.

«ولم لا أيها الثرثار الصغير؟»، سأل دان.

«لا أظن هذا يعجب العم فرتز».

«أقال يومًا أننا يجب ألا نلعب مصارعة الثيران؟».

t.me/qurssan

«كلا، لا أظنه قال شيئًا كهذا يومًا»، أقر ديمي.

«فأمسِك لسانك إذن. امض يا تومي، وهاك قماشة حمراء لتهزها أمام البقرة العجوز. سأساعدك في إثارتها»، وقفز دان من فوق السور، متحمسًا للعبة الجديدة ولحق به الآخرون مثل قطيع خراف، ومعهم ديمي الذي جلس على القضبان وشاهد اللعبة متحمسًا.

لم يكن مزاج بتركب المسكينة رائقًا، لأنها حرمت من عجلها في الآونة الأخيرة، وبكت على الصغير بحرقة شديدة. وكانت ترى كل البشر أعداءها (ولست ألومها)، لذا حين تقدم مصارع الثيران نحوها واثبًا، حاملًا بيده منديلًا أحمر يرفرف على حربته الطويلة، رفعت رأسها وجأرت جؤارًا لائقًا «موو!» واقترب منها تومي برشاقة، وتوبي وقد عرف صديقته القديمة كان راغبًا بالاقتراب. ولكن حين حطت الحربة على ظهرها بضربة مدوية، فوجئت البقرة والحمار وامتعضا. تراجع توبي ناهقًا نهيق احتجاج، وأخفضت بتركب قرنيها غاضبة.

«اضربها ثانية يا توم، فهي غاضبة للغاية، وسنصارعها مصارعة رائعة!»، قال دان الذي جاء من الخلف حاملًا قضيبًا آخر، وقد حذا حذوه كل من جاك وند.

لما رأت بتركب نفسها محاصرة هكذا، وتلقى معاملة مهينة، جرت في الحقل وهي تزداد حيرة وغيظًا كل لحظة، إذ حيثما استدارت وجدت ولدًا بغيضًا يصرخ ويلوح بسوط جديد مخيف. كان في ذاك متعة كبيرة لهم، لكنها كانت في كرب عظيم حتى طفح كيلها وقلبت

t.me/qurssan

لم ظهر المجنّ على نحو مفاجئ جدًا. إذ دارت بسرعة وانقضت بكل قوتها على صديقها القديم توبي، الذي فطر قلبه. تراجع توبي المسكين البطيء تراجعًا سريعًا جعله يتعثر بحجر، فسقطت المطية ومصارع الثيران وتكوما في كومة مذلة، أما بتركب الذاهلة فقد قفزت قفزة مفاجئة من فوق السور، وعدت عدوًا محمومًا في الطريق بعيدًا عن الأنظار.

«أمسكوها، أوقفوها، اسبقوها! اركضوا يا أولاد اركضوا!»، صاح دان راكضًا خلفها بأقصى سرعته، لأنها كانت بقرة السيد باير المفضلة، وخشي دان إن حدث لها مكروه فسيكون هو الملوم. ويا لكثرة الجري والسباق والجؤار والنفخ قبل أن يلقى عليها القبض! تركت قضبان الصيد، وأتعب توبي قوائمه في المطاردة، وكان كل الأولاد حمر الوجوه لاهثين خائفين. وجدوا بتركب المسكينة في نهاية المطاف في حديقة ورد، حيث لاذت وقد أنهكها الركض الطويل. استعار دان حبلًا ليجعل منه رسنًا، وساقها إلى البيت يتبعه جمع من الرجال الصغار الهادئين جدًا، إذ كانت البقرة بحال مزرية، وقد أنهكت كتفها في القفز، فعرجت وعيناها قلقتان وجلدها اللامع مبلل وملطخ بالطين.

«ستلقى عقابًا هذه المرة يا دان»، قال تومي وهو يسوق الحمار الذي يصفر بجانب البقرة التي عوملت بقسوة.

«وأنت أيضًا، لأنك ساعدتني».

«لقد فعلنا كلنا عدا ديمي»، أضاف جاك.

t.me/qurssan

«سيلقي باللائمة علينا»، قال ند.

«لقد أخبرتكم ألا تفعلوا»، قال ديمي الذي انفطر قلبه لحال بتركب المسكينة.

«أحسب أن باير العجوز سيطردني. لست أبالي إن فعل»، غمغم دان وقد بدا عليه القلق رغم ما قاله.

«سنطلب منه ألا يفعل، كلنا»، قال ديمي ووافقه الآخرون عدا ستفي، الذي كبر في نفسه الأمل بأن تنزل العقوبة كلها على شخص واحد. اكتفى دان بالقول: «لا تقلقوا بشأني»، لكنه لم ينس ذلك، رغم أنه أضل الفتية ثانية، ما إن سنحت الفرصة.

حين رأى السيد باير البقرةَ وسمع القصة، لم يقل إلا قليلًا ومن الواضح أنه خشي قول الكثير في اللحظات الأولى لنفاد صبره. أريحت بتركب في مربطها، وأرسل الأولاد إلى غرفهم حتى وقت العشاء. منحتهم هذه المهلة القصيرة الوقتَ للتفكير في الأمر، والتساؤل عن العقوبة، وتصور المكان الذي سيرسل إليه دان. أما هو فقد صفر صفيرًا حيويًا في غرفته، حتى لا يظنّن أحدٌ أنه يبالي، غير أنه أثناء انتظاره معرفة مصيره، اشتد توقه للبقاء أكثر فأكثر. وكلما تذكر الراحة واللطف اللذين لقيهما هنا، أحس بالإهمال والقسوة أكبر في أماكن أخرى. كما أنه عرف أنهم حاولوا مساعدته، وكان ممتنًا من صميم قلبه، بيد أن حياته الصعبة قد جعلت منه قاسيًا باردًا متشككًا عنيدًا. لقد كره القيود أيًا كان نوعها، وحاربها مثل حيوان جامح، حتى وهو يعلم أنها لصالحه، وأحس إحساسًا مبهمًا

t.me/qurssan

أنه سيكون بحال فضلى دونها. لقد عزم على أن يهيم على وجهه مرة أخرى، وأن يجول المدينة كما فعل طوال حياته، وذاك قرار جعله يعقد حاجبيه الأسودين، ويقلب نظره في أرجاء الغرفة المريحة بملامح حزينة ترق لها قلوب أقسى من قلب السيد باير لو وقعت أنظارها عليها. لكن ذلك تلاشى سريعًا حين دخل الرجل الطيب، وقال بأسلوبه الوقور المعتاد:

«لقد عرفت الأمر كله يا دان، ورغم أنك خالفت القوانين ثانية، لكنني سأمنحك فرصة أخرى بعد لإسعاد السيدة باير».

احمر وجه دان حتى جبينه لهذا الإنقاذ المفاجئ، لكنه اكتفى بالقول بأسلوبه الفظ:

«لم أعلم بوجود قانون حول مصارعة الثيران».

«لما لم أتوقع أن يحدث شيءٌ كهذا في پلمفيلد، فلم أضع قانونًا يمنعها»، أجاب السيد باير مبتسمًا رغمًا عن نفسه لدى سماع حجة الصبي. ثم أضاف بوقار: «لكن واحدًا من أول قوانيننا وأهمها هو قانون الإحسان إلى كل كائن أعجم في المكان. أريد لكل أحد ولكل شيء أن يكون سعيدًا هنا، وأن يحبنا ويثق بنا ويخدمنا، كما نحاول أن نحبهم ونثق بهم ونخدمهم إخلاصًا وطواعية. لقد قلت كثيرًا إنك مع الحيوانات ألطف من الأولاد الآخرين، وأحبت السيدة باير هذه الخصلة فيك كثيرًا، لأنها موقنة أنها تنبع من قلب طيب. لكنك خيبت رجاءنا في ذلك، وأسفنا لأننا أملنا أن نجعلك واحدًا منا. أنحاول ثانية؟».

t.me/qurssan

كانت عينا دان تنظران إلى الأرض، ويداه تنقران بتوتر على قطعة الخشب التي كان يبريها حين دخل السيد باير، ولكن حين سمع الصوت الحاني يسأل هذا السؤال، رفع نظره سريعًا وقال بنبرة أكثر احترامًا مما تحدث به قبلًا:

«أجل من فضلك».

«جميل جدًا، لن نقول المزيد إذن، سوى أنك ستبقى في البيت غدًا ولن تذهب إلى النزهة مثل الأولاد الآخرين، وستعملون كلكم على رعاية المسكينة بتركپ حتى تتعافى».

«سأفعل».

«انزل الآن لتناول العشاء، وابذل جهدك يا بني من أجل صالحك أكثر منا». ثم صافحه السيد باير، ونزل دان وقد صيره اللطف دمثًا أكثر من الجلد الذي أوصت به آسيا بشدة.

حاول دان حقًا ليوم أو اثنين، ولما لم يكن معتادًا ذلك فقد عاد إلى طبعه العنيد القديم. استدعي السيد باير ذات يوم لأمر في الديار، ولم يتلق الأولاد دروسًا. أحبوا هذا ولعبوا حتى حان وقت النوم، حيث هجع معظمهم وناموا مثل حيوانات الزغبة. غير أن دان كان يخطط لأمر ما، وحين اختلى بنات أفصح له عنه.

«انظر إليَّ!»، قال مخرجًا من تحت سريره قنينة وسيجارًا ومنظومة ورق اللعب، «سألهو قليلًا، وأفعل ما فعلته قبلًا من الرفاق في البلدة. إليك بعض الجعة، لقد حصلت عليها من العجوز في المحطة، وهذا

t.me/qurssan

السيجار، ويمكنك أن تدفع ثمنها، أو يفعل تومي فلديه أموال طائلة وليس عندي سنت. سأذهب وأناديه، كلا اذهب أنت، فلن يعارضوك».

«لن يعجب ذلك أصحاب المكان»، قال نات.

«لن يعلما بالأمر. فبابا باير مسافر، والسيدة باير مشغولة بتد، لقد أصيب بالخنّاق أو ما شابه، ولا يمكنها تركه. لن نبقى مستيقظين لوقت متأخر أو نحدث ضجيجًا، فما الضير إذن؟».

«ستعرف آسيا إن نحن أشعلنا المصباح وقتًا طويلًا، إنها تعرف دومًا».

«كلا، لن تعرف. لقد جلبت القنديل الداكن عامدًا، وهذا لا ينبعث منه الضوء الكثير، وبوسعنا إطفاؤه بسرعة إن سمعنا أحدهم قادمًا»، قال دان.

راقت هذه الفكرة لنات، وأضفى عليها سمة رومانسية. فانطلق ليخبر تومي، لكنه أقحم رأسه ثانية وقال:

«أتريد ديمي أيضًا؟».

«كلا، لا أريده. سيقلب الشمّاس عينيه ويبدأ بالوعظ إن أخبرته. سيكون نائمًا، لذا حسبك أن تغمز لتوم وعد بسرعة».

أطاعه نات وعاد سريعًا بصحبة تومي شبه عارٍ، مشعث الشعر وناعسًا جدًا، لكنه متأهب للهو كعادته.

«والآن ابقيا هادئين وسأريكما لعبة ورقٍ رائعة تسمى «پوكر»»،

t.me/qurssan

قال دان عندما اجتمع العابثون الثلاثة حول الطاولة التي وضع عليها زجاجة الجعة والسيجار والورق. «سنشرب كلنا أولًا، ونأخذ نفسًا من «التبغ»، ثم سنلعب. هذا ما يفعله الرجال، وهذا ممتع للغاية».

دارت الجعة بينهم في كوب، وتلمظوا كلهم بعد شربها، رغم أن نات وتومي لم يحبا طعمها المر. وكان السيجار أسوأ، لكنهما لم يجرؤا على قول هذا، ونفخ كل منهما حتى داخ أو اختنق وهو يمرر «التبغ» لجاره. أحبه دان لأن ذلك كان مثل الأيام الخالية حين يحظى بفرصة لمخالطة الرجال الوضيعين المحيطين به. شرب ودخن وترنح مثلما يفعلون قدر ما استطاع، ولما أخذ منه الشرب كل مأخذ كما توقع، بدأ يشتم ويلعن همسًا خشية أن يسمعه أحد.

«لا يجدر بك ذلك، إذ قول «اللعنة» أمر سيء!»، قال تومي الذي فعل ما يفعله قائده حتى الآن.

«أوه، اصمت! لا تعظ، بل امرح، فالشتم جزء من اللهو».

«أفضل أن أقول «يا لسلاحف البرق»»، قال تومي الذي ابتدع هذه العبارة المثيرة وكان فخورًا بها.

«وأنا سأقول «يا للشيطان»، فهذا يبدو حسنًا»، أضاف نات وقد أعجبته أساليب دان الرجولية.

سخر دان من «كلامهما الفارغ»، وشتم بقوة وهو يحاول تعليمهما اللعبة الجديدة.

لكن تومي كان ناعسًا جدًا، وأخذ رأس نات يؤلمه من الجعة

t.me/qurssan

والدخان، لذا لم يتعلم أي منهما بسرعة، وطالت اللعبة. كانت الغرفة شبه مظلمة، لأن ضوء المصباح ضعيف، ولم يكن بوسعهم الضحك عاليًا أو التحرك كثيرًا، إذ نام سايلس في السقيفة المجاورة، وكانت الحفلة مملة. توقف دان فجأة في خضم اللعب وقال: «من هناك؟» بنبرة مذهولة، وفي اللحظة نفسها أطفأ المصباح. قال صوت مرتعش في الظلمة: «لا أجد تومي»، ثم سمعوا خبط أقدام حافية تجري في مدخل الجناح الذي يفضي إلى البيت الرئيس.

«إنه ديمي! لقد ذهب لاستدعاء أحد ما، اذهب إلى فراشك يا توم ولا تقل شيئًا!»، قال دان مبددًا كل آثار المرح، وأخذ ينزع عنه ثيابه وفعل نات فعله.

طار تومي إلى غرفته وغاص في فراشه، حيث استلقى يضحك إلى أن أحرق شيء يده، فعرف عندئذ أنه لم يزل ممسكًا بجَذعة سيجار المرح، الذي كان يدخنه حين قوطع لهوهم.

كاد ينطفئ، وأوشك هو على إطفائه بحذر حين سمع صوت المربية، وخشية أن يفتضح أمره إن وضعه في سريره، رماه تحته بعد أن عصره آخر عصرة حسبها أطفأته.

دخلت المربية بصحبة ديمي الذي دهش للغاية لرؤية وجه تومي الأحمر يرقد بهدوء على وسادته.

«لم يكن هنا قبل قليل، لأني استيقظت ولم أجده في أي مكان»، قال ديمي واثبًا عليه.

t.me/qurssan

«أي لعبة تلعبها الآن أيها الصغير المشاغب؟»، قالت المربية بهزة لطيفة جعلت النائم يفتح عينيه ليقول بألفة:

«لقد ذهبت إلى غرفة نات لأتحدث إليه في أمر ما فحسب. اذهبا واتركاني وشأني، فأنا نعس للغاية».

غطت المربية ديمي في فراشه، وذهبت تستطلع، غير أنها وجدت صبيين ينامان بهدوء في غرفة دان. «قليل من اللهو»، قالت في نفسها. ولما لم تَرَ أي تخريب لم تقل شيئًا للسيدة باير المشغولة والقلقة لأمر تدي الصغير.

كان تومي ناعسًا، وقال لديمي أن يعتني بشؤونه ولا يسأل أسئلة، وأخذ يشخر بعد عشر دقائق، ويحلم قليلًا بما يحدث تحت سريره. لم ينطفئ السيجار، بل عشّش في بساط القش حتى اشتعلت فيه النار تمامًا، وزحف لهب صغير جائع حتى وصل إلى الغطاء المصنوع من البفتة الهندية، فالشراشف، ثم إلى السرير. جعلت الجعة تومي ينام نومًا ثقيلًا، وخدّر الدخان ديمي، فناما حتى أخذت النار تسفعهما، وأوشكا على الاحتراق حتى الموت.

كان فرانز ساهرًا يدرس، وحين غادر غرفة الصف شم رائحة الدخان وانطلق مسرعًا إلى الأعلى ورآه قادمًا في غيمة من الجناح الأيسر للمنزل.

لم يتوقف ليستدعي أحدًا، بل ركض إلى الغرفة وأبعد الولدين عن السرير المشتعل، ورش على اللهب كل الماء الذي وجده قربه. لقد كبح النار لكنه لم يطفئها، والولدان اللذان أوقظا بعد سحبهما في

t.me/qurssan

فوضى واضطراب إلى الرواق البارد، أخذا يصرخان بأعلى أصواتهما. جاءت السيدة باير في الحال، وبعدها بدقيقة اندفع سايلس خارجًا من غرفته يصرخ «حريق!»، بصوت أيقظ كل من في البيت. احتشد جمع من الأقزام البيض بوجوه خائفة في الرواق، وأصاب الهلع الجميع.

ثم تمالكت السيدة باير نفسها، وأرسلت المربية للاعتناء بالولدين المحروقين، وأرسلت فرانز وسايلس إلى الأسفل لجلب أحواض من المفارش المبلولة ألقتها على السرير والبساط والستائر التي اشتعلت فيها النار بقوة، وأنذرت بإحراق الجدران.

وقف معظم الأولاد بكمًا يراقبون، لكن دان وإميل عملا بشجاعة، وهما يركضان جيئة وذهابًا يحملان الماء من الحمام، ويساعدان في إطفاء الستائر الخطرة.

انتهت الكارثة، وأمرت السيدة باير كل الأولاد أن يعودوا للنوم، وأوعزت لسايلس أن يجلس للمراقبة خشية أن تندلع النار ثانية، ثم ذهبت برفقة فرانز لتطمئن على الولدين المسكينين. نجا ديمي بحرق واحد وخوف عظيم، أما تومي لم يحترق معظم شعره فحسب، بل احترقت ذراعه حرقًا كبيرًا وجعله هذا يكاد يجن من الألم. عُولج ديمي سريعًا، وأخذه فرانز إلى سريره، حيث هدأ الفتى اللطيف خوفه وغنى له لينام هادئًا كامرأة. راقبت المربية تومي المسكين طوال الليل، محاولة أن تسكن ألمه، وتنقلت السيدة باير بينه وبين تدي الصغير حاملة القطن والزيت، والإكسير الملطّف والعنصلان،

t.me/qurssan

قائلة لنفسها بين الفينة والأخرى، كأنها ترى في التفكير متعة عظيمة، «عرفت دومًا أن تومي سيشعل النار بالبيت، وها قد فعلها!».

حين وصل السيد باير إلى البيت الصباح التالي، وجد الحال بائسة. فتومي راقد في الفراش وتدي يصفر مثل غرمبس صغير، والسيدة جو خائرة القوى، وجمع الفتية مهتاجون وأرادوا التحدث في وقت واحد، بل جروه قسرًا ليرى الأطلال. عاد النظام إلى الأمور تحت إدارته الهادئة، وشعر الجميع أنه معادل لحرائق كبيرة، وشرعوا يعملون طائعين كل مهمة كلفهم بها.

لم تدرس الصفوف ذاك الصباح، ولكن الغرفة الخربة قد أصلحت بحلول العصر، وتحسن حال المصابين، وكان في الوقت متسع لسماع المذنبين الصغار والحكم عليهم بهدوء. اعترف نات وتومي بدورهم في البلاء الذي وقع، وأسفا أشد الأسف للخطر الذي أوقعا فيه البيت الحبيب وكل من فيه. لكن دان لبس قناع اللامبالاة، ولم يعترف بالضرر الكبير الذي حدث.

كان السيد باير يكره الشرب والقمار والشتم دونًا عن كل الأشياء، وأيقن أن التدخين لن يغري الأولاد الصغار لتجربته، وأحزنه وأغضبه أن يرى الصبي الذي حاول أن يكون صبورًا للغاية معه، استغل غيابه ليرتكب هذه الأفعال المحرمة، ويعلم فتيته الصغار البريئين أن يحسبوا الانغماس فيها رجولةً وسعادة. تحدث مطولًا وجديًا إلى الأولاد المجتمعين، وختم بقوله بمزيج من الأسف والحزم:

«أحسب أن تومي نال من العقاب ما يكفي، وتلك الندبة على

t.me/qurssan

ذراعه ستذكره لوقت طويل أن يترك هذه الأمور وشأنها. وخروف نات يكفيه لأنه نادم حقًا وحاول أن يطيعني. ولكنك يا دان قد غُفر لك مرات عدة، ولم يجدِ ذلك نفعًا. لا أستطيع ترك الأذى ينال من فتيتي بمثالك السيء، ولا أن أهدر وقتي في الحديث إلى آذان صماء. لذا يمكنك أن تودعهم جميعًا، وأن تخبر المربية لتضع حاجياتك في حقيبتي الصغيرة السوداء».

«أوه! أين سيذهب يا سيدي؟»، قال نات.

«إلى مكان بهيج في الريف، حيث أرسل أحيانًا بعض الفتيان عندما لا يبلون بلاء حسنًا هنا. إن السيد بيج رجل صالح، وسيكون دان سعيدًا هناك إن اختار أن يبذل جهده».

«هل سيعود يومًا؟»، سأل ديمي.

«يعتمد ذلك عليه، وأرجو ذلك».

بعد أن أنهى السيد باير حديثه خرج من الغرفة ليكتب رسالته إلى السيد بيج، والتف الأولاد حول دان كما يتحلق الناس حول رجل يذهب في رحلة طويلة محفوفة بالمخاطر إلى أماكن مجهولة.

«أتساءل إن كان المكان سيعجبك»، قال جاك.

«لن أبقى إن لم يعجبني»، قال دان ببرود.

«وأين ستذهب؟»، سأله نات.

«سأذهب إلى البحر أو أتجه غربًا، أو ألقي نظرة على كاليفورنيا»، أجاب دان بهيئة لا مبالية خطفت أنفاس الأولاد الصغار.

t.me/qurssan

«أوه، لا تفعل! ابق مع السيد بيج لمدة من الوقت ثم عد، افعل ذلك يا دان»، توسل نات وقد تأثر للأمر كله.

«لا أهتم إلى أين أذهب، أو كم سأبقى، ولأشنق إن عدت هنا يومًا»، خرج دان بهذا الحديث الغاضب ليجمع حاجياته، وكل شيء منها قد أعطاه له السيد باير.

كان هذا هو الوداع الوحيد الذي ودع به الأولاد، إذ كانوا في الحظيرة يتحدثون عن الأمر عندما نزل وقال لنات ألا يناديهم. وقفت العربة عند الباب، وخرجت السيدة باير لتتحدث إلى دان، وقد علا وجهها الحزن، ففطر قلبه وقال بصوت خفيض:

«أيمكنني توديع تدي؟».

«أجل يا عزيزي، اذهب وقبّله لأنه سيفتقد عزيزه داني كثيرًا».

لم يرَ أحد نظرة عيني دان وهو يقف قرب المهد، ويرى الوجه الصغير يقفز ناهضًا لدى رؤيته، لكنه سمع السيدة باير تقول متوسلة:

«ألا يمكننا منح الفتى المسكين فرصة أخرى يا فرتز؟»، وأجاب السيد باير بأسلوبه الرصين:

«هذا ليس الأفضل يا عزيزتي، لذا دعيه يذهب حيث لا يؤذي الآخرين وهم يحسنون إليه، وأعدك أنه سيعود في وقت لاحق».

«هذا الولد الوحيد الذي فشلنا معه، وأنا حزينة للغاية، لأني شعرت بأننا قادران على صنع رجل صالح منه، رغم عيوبه».

سمع دان تنهيدة السيدة باير، وأراد أن يطلب فرصة أخرى،

t.me/qurssan

لكن كبرياءه منعته، وخرج وعلى وجهه نظرة قاسية وصافحها دون أن ينبس بحرف، وذهب مع السيد باير تاركًا نات والسيدة جو ينظران إليه والدموع تملأ عيونهما.

بعد ذلك ببضعة أيام تلقوا رسالة من السيد پيج، تقول إن دان يبلي حسنًا ففرحوا كلهم لذلك. ولكن بعد ثلاثة أسابيع وصلتهم رسالة أخرى تقول إن دان هرب ولم يعرف عنه شيء فحزن الكل لذلك، وقال السيد باير:

«ربما تعين عليَّ منحه فرصة أخرى».

هزت السيدة باير رأسها بحكمة وردت:

«لا تبتأ يا فرتز، فأنا واثقة أن الصبي سيعود إلينا».

لكن الوقت مضى ولم يعد دان.

t.me/qurssan

t.me/qurssan

(٧)
نان المشاكسة

«عندي فكرة جديدة يا فرتز»، قالت السيدة باير ذات يوم حين رأت زوجها بعد انتهاء اليوم الدراسي.

«وما هي يا عزيزتي؟»، وانتظر راغبًا بسماع الفكرة الجديدة، لأن بعض أفكار السيدة جو الجديدة كانت مضحكة للغاية، ويستحيل ألا يضحك منها المرء، رغم أن أفكارها معقولة في العادة، وكان مسرورًا بتنفيذها.

«تحتاج ديزي رفيقة، وسيتحسن الأولاد أكثر بوجود فتاة أخرى بينهم، فنحن مؤمنان بتنشئة رجال ونساء صغار معًا كما تعلم، وقد حان الوقت لتحقيق ما نؤمن به. إن الأولاد يدللون ديزي تارة ويتسلطون عليها تارة أخرى، وقد غدت مغنجة. ثم إن عليهم أن يتعلموا الكياسة وأن يحسّنوا أخلاقهم، ووجود الفتيات سيحقق ذلك أفضل من أي شيء آخر».

«إنك محقة كعادتك. ولكن سنجلب من؟»، سأل السيد باير، مدركًا من النظر في عيني السيدة جو أن عندها من تقترحها.

t.me/qurssan

«الصغيرة آني هاردنغ».

«ماذا؟! نان المشاكسة كما يسميها الأولاد؟»، قال السيد باير، وقد بدت عليه البهجة.

«أجل، إنها تجري بصخب في البيت منذ ماتت أمها، وهي طفلة ذكية يؤسفني أن يفسدها الخدم. لقد راقبتها لبعض الوقت، وحين التقيت أباها في البلدة قبل أيام سألته لِمَ لم يرسلها إلى المدرسة. فقال إنه لو وجد مدرسة جيدة للفتيات بقدر ما كانت مدرستنا جيدة للأولاد لفعل بكل سرور. أعلم أنه سيفرح كثيرًا عند مجيئها إلينا. لذا لنذهب عصر اليوم لنكلمه في ذلك».

«أليس عندك من المشاغل ما يكفي يا عزيزتي جو حتى تأتي بهذه الغجرية الصغيرة لتشقيك؟»، سأل السيد باير مربتًا على اليد التي حطت على كتفه.

«أوه، كلا يا عزيزي»، قالت الأم باير بحماس. «إنني أحب هذا، ولم أكن يومًا بأسعد حالًا إلا حين أحاطني أولادي الصاخبون. إنني أرثي لحال نان، كما ترى يا فرتز، لأنني كنت طفلة مشاكسة وأعرف كيف يكون الأمر. إنها مفعمة بالطاقة، وبحاجة أن تتعلم ما تفعله بهذه الطاقة لتكون فتاة لطيفة صغيرة مثل ديزي. إن ذكاءَها الحاد سينتفع بالدروس إن وجّه توجيهًا صحيحًا، ومن تراها اليوم مخادعة صغيرة، ستصبح غدًا طفلة مشغولة سعيدة. أعرف كيف أروّضها، لأني أتذكر كيف روّضتني أمي الحبيبة و...».

«وإن نجحتِ بقدر نصف نجاحها، فستحققين عملًا مدهشًا»،

t.me/qurssan

قاطعها السيد باير الذي يتوهم أن السيدة ب. أجمل النساء وأكثرهن فتنة على وجه البسيطة.

«والآن إن سخرت من فكرتي فسأعد لك قهوة سيئة طوال أسبوع، فماذا ستفعل يا سيدي؟»، قالت السيدة جو وهي تقرصه من أذنه كأنه واحد من الأولاد.

«ألن يتتصب شعر ديزي خوفًا من أسلوب نان الهمجي؟»، سأل السيد باير أخيرًا، حين حبا تدي صاعدًا صدرته، وتسلق روب على ظهره، لأنهما يسرعان دومًا إلى أبيهما حين ينتهي اليوم الدراسي.

«في البداية ربما، لكنه سيكون في صالح زهرتي. إنها تغدو متكلفة نزاعة للتأنق، وبحاجة لشيء من الحيوية. كما أنها تستمتع بوقتها دومًا حين تأتي نان للعب، وستساعد كل منهما الأخرى دون أن تعرفا. ويحي، إن نصف علم التدريس قائم على معرفة مقدار فائدة الأطفال لبعضهم بعضًا، ومتى يجب جعلهم يتخالطون».

«أرجو ألا تكون مثيرة فتن أخرى».

«يا لدان المسكين! لن أغفر لنفسي لأني تركته يذهب»، تنهدت السيدة باير.

لدى سماع الاسم، جهد تدي الصغير الذي لم ينسَ صديقه قط لينزل من ذراعي أبيه، وركض نحو الباب ونظر إلى المرج المشمس بوجه حزين، ثم قفل عائدًا قائلًا كما يفعل دومًا حين ييئس من رؤية من اشتاق إليه.

t.me/qurssan

«سيؤود [سيعود] داني قريبًا».

«أرى حقًا أننا نان علينا إبقاءه، لخاطر تدي على الأقل إذ كان مولعًا به، وربما كان حب الطفل سيفعل فيه ما عجزنا عن فعله».

«راودني هذا الإحساس أحيانًا، ولكن بعد تحريضه للأولاد، وحرقه العائلة كلها تقريبًا، وجدت أن إبعاد مثير الفتن آمن ولو لمرة»، قال السيد باير.

«إن الغداء جاهز، دعني أقرع الجرس»، وأخذ روب يعزف على الآلة عزفًا منفردًا جعل سماع المرء صوته مستحيلًا.

«هل يمكنني إحضار نان إذن؟»، سألت السيدة جو.

«بل اثنتي عشرة نان إن أردتِ يا عزيزتي»، أجاب السيد باير الذي كان في قلبه الأبوي متسع لكل الأطفال المشاكسين المهملين في العالم.

حين عادت السيدة باير من رحلتها تلك العصرية، وقبل أن تنزل حمولة العربة من الأولاد الصغار، الذين لا تتحرك دونهم، قفزت فتاة صغيرة في العاشرة من مؤخرة العربة وركضت إلى البيت تصرخ:

«مرحبًا يا ديزي! أين أنت؟».

جاءت ديزي وبدت مسرورة لرؤية ضيفتها، لكنها كانت خائفة قليلًا حين قالت نان، وهي لم تزل تطفر مرحًا كأنما يصعب عليها أن تبقى هادئة:

t.me/qurssan

«سأبقى هنا دومًا، هكذا قال بابا، وسيصل صندوق متاعي غدًا، إذ يجب غسل كل الثياب ورفوها، وجاءت خالتك وأخذتني. أليس هذا مسليًا جدًا؟».

«بلى. أجلبت دميتك الكبيرة؟»، سألت ديزي آملة أنها فعلت، لأن نان في زيارتها الأخيرة خربت بيت الطفل، وأصرت على غسل وجه ماتيلدا البيضاء المصنوع من الجبصين، وشوهت هيئة الحبيبة المسكينة إلى الأبد.

«أجل، إنها في مكان ما»، ردت نان بلا مبالاة باردة. «لقد صنعت لك خاتمًا في طريقي، ونتفت الشعر من ذيل دوبن. ألا تريدينه؟»، ومدت نان خاتمًا مصنوعًا من شعر الحصان رمزًا للصداقة، إذ أقسمتا قبلًا ألا تحدّث إحداهما الأخرى عندما افترقتا آخر مرة.

أُخذت ديزي بجمال الهدية، وأصبحت أكثر ألفة، وعرضت الذهاب إلى غرفة الأطفال، لكن نان قالت: «لا، أريد رؤية الأولاد والحظيرة»، وذهبت تؤرجح قبعتها من أحد شريطيها حتى انقطع، فتركتها لمصيرها على العشب.

«أهلًا نان!»، قال الأولاد حين قفزت بينهم معلنة:

«سأبقى هنا».

«مرحى!»، جأر تومي من السور الذي كان جالسًا عليه، إذ كان لنان طبع يماثل طبعه، وتنبأ بـ «المرح» القادم.

t.me/qurssan

«يمكنني ضرب الكرة، دعوني ألعب»، قالت نان التي تحب المشاركة في كل شيء ولا تخشى الضربات القاسية.

«لن نلعب الآن، كما أن فريقنا سيغلب دون مشاركتك».

«ولكن بوسعي هزيمتك في الجري»، ردت نان مستندة إلى نقطة قوتها.

«حقًا؟»، سأل نات جاك.

«إنها تجري جريًا سريعًا نظرًا لكونها فتاة»، أجاب جاك بإقرار مقتضب وهو ينظر إلى نان.

«أتجرب؟»، قالت نان وهي تتحرق شوقًا لعرض قدراتها.

«إن الجو حار للغاية»، قال تومي المتراخي على السور كأنه مرهق.

«ما خطب ستفي؟»، سألت نان التي نقلت نظرها الثاقب من وجه إلى آخر.

«أصابت الكرة يده، وهو يعول لأي شيء»، أجاب جاك بازدراء.

«أنا لست كذلك، فأنا لا أبكي مهما كان ما أقاسيه من ألم، فالبكاء للصغار»، قالت نان بعجرفة.

«پش! أستطيع جعلك تبكين في دقيقتين»، رد ستفي وهو ينهض.

«لنر إن كنت تستطيع».

«اذهبي واقتلعي حزمة القراص تلك إذن»، وأشار ستفي إلى نوع قوي من النبات الشائك ينمو قرب السور.

t.me/qurssan

اقتلعت نان من فورها القراص، وسحبته وحملته بهمة رغم الوخز الذي لا يطاق.

«أحسنتِ»، قال الأولاد، الذين يسارعون بالاعتراف بالشجاعة الكامنة في الجنس الأضعف.

عزم ستفي، وقد ازداد حنقه منها، على أن يبكيها بصورة ما، وقال ساخرًا: «إنك معتادة دس يديك في كل شيء، لذا فإن هذا ليس عدلًا. فاذهبي واضربي رأسك ضربًا قويًا بالحظيرة ولنر إن لم تبكِ حينئذ».

«لا تفعلي ذلك»، قال نات الذي يمقت العنف.

لكن نان ذهبت وركضت نحو الحظيرة، ونطحتها برأسها نطحة قوية أطاحت بها أرضًا، وبدت مثل آلة الكبش. نهضت دائخة لكنها لم تصب بأذى، وقالت بحزم رغم أن وجهها تغضن ألمًا:

«هذا مؤلم، لكني لم أبكِ».

«افعليها مرة ثانية»، قال ستفي غاضبًا، وأرادت نان تكرار فعلها، لكن نات أمسك بها، وطار تومي، الذي نسي الحرارة، إلى ستفي مثل ديك المصارعة، صارخًا:

«كف عن ذلك وإلا رميتك من فوق الحظيرة!»، فارتعد ستفي المسكين واهتز ولم يعرف للحظة إن كان يقف على رأسه أم على قدميه.

t.me/qurssan

«هي قالت لي»، وهذا كل ما استطاع قوله حين تركه تومي وشأنه.

«ليس مهمًا إن قالت ذلك، فإيذاء فتاة صغيرة أمر وضيع للغاية»، قال ديمي مؤنبًا.

«هو! لا أمانع في ذلك، ولست بفتاة صغيرة بل إني أكبر منك ومن ديزي»، قالت نان بلا امتنان.

«لا تعظنا أيها الشماس، فأنت تتنمر على زهرتنا كل يوم»، قال قائد العمارة الذي جاء لتوه.

«أنا لا أؤذيها، أليس صحيحًا يا ديزي؟»، قال ديمي والتفت نحو أخته التي كانت «تداوي» يدي نان اللتين تخزانها، وتوصيها بوضع الماء على العجرة البنفسجية التي نتأت بسرعة في جبينها.

«إنك أفضل الفتية في العالم»، أجابت ديزي بسرعة، مضيفة وقد أجبرها الصدق على فعل ذلك «إنك تؤذيني أحيانًا، لكنك لا تقصد ذلك».

«أبعدوا المضارب وغيرها، واذهبوا لشؤونكم يا أحبتي. القتال ممنوع على ظهر هذه السفينة»، قال إميل الذي استبد برأيه على الآخرين.

«كيف حالك يا ميج وايلدفاير؟»[1]، قال السيد باير حين دخلت نان مع البقية لتناول العشاء. «هاتي يدك اليمنى يا ابنتي الصغيرة، وانتبهي لسلوكك»، أضاف حين مدت نان يدها اليسرى.

(١) شخصية من رواية قلب مدلوثيان لوولتر سكوت.

t.me/qurssan

«إن الأخرى تؤلمني».

«يا لليد الصغيرة المسكينة! ماذا كانت تفعل لتتأ عليها هذه الجسآت؟»، سألها، جاذبًا يدها من خلف ظهرها حيث وضعتها وملامحها جعلته يظنها فعلت شيئًا سيئًا.

وقبل أن تفكر نان في عذر ما، أفصحت ديزي عن القصة كلها، وحاول ستفي أثناء ذلك إخفاء وجهه في وعاء من الخبز والحليب.

حين انتهت الحكاية، نظر السيد باير إلى زوجته على الطرف الآخر من الطاولة الكبيرة، وقال وعيناه تضحكان:

«إن هذا حدث في جانبك من البيت، لذا لن أتدخل في الأمر يا عزيزتي».

عرفت السيدة جو ما قصده، لكنها أحبت خروفها الأسود لشجاعته، رغم أنها اكتفت بالقول بأسلوبها الجاد:

«أتعرفون لمَ طلبت من نان أن تأتي؟».

«لتعذيبي»، همس ستفي وفمه ممتلئ.

«لتساعدني في أن أجعل منكم رجالًا مهذبين، وأظن أن بعضكم أثبت حاجته لتهذيب».

غاص ستفي عندئذ في وعائه، ولم يرفعه حتى أضحكهم ديمي جميعًا قائلًا بأسلوبه الهادئ المتسائل:

«كيف يمكنها ذلك، إن كانت هي نفسها مسترجلة؟!».

t.me/qurssan

«هذا هو الأمر، إنها بحاجة لمساعدة بقدركم، وأنتظر منكم أن تكونوا لها مثالًا على السلوك الحسن».

«وهل ستكون رجلًا مهذبًا صغيرًا أيضًا؟»، سأل روب.

«إنها تحب ذلك، أليس صحيحًا يا نان؟»، أضاف تومي.

«كلا، لا أحب ذلك فأنا أكره الأولاد!»، قالت نان بحزم، إذ لم تزل يدها تؤلمها، وأخذت ترى أنها كان عليها إظهار شجاعتها بطريقة أكثر حكمة.

«يؤسفني أن تكرهي أولادي، لأن بوسعهم أن يكونوا مهذبين، ولطيفين للغاية إن شاؤوا. إن اللطف في النظرات والكلمات والأفعال تهذيب حقيقي، ويمكن لأي امرئ أن يكون لطيفًا إن حاول معاملة الآخرين كما يحب أن يعاملوه».

كانت السيدة باير تخاطب نان، ولكن الأولاد لكزوا بعضهم بعضًا، وبدوا أنهم فهموا التلميح هذه المرة، ومرروا الزبدة وقالوا: «من فضلك» و«شكرًا» و«أجل يا سيدي»، و«كلا يا سيدتي» بلباقة واحترام مفاجئين. لم تقل نان شيئًا، بل ظلت هادئة ومنعت نفسها من دغدغة ديمي، رغم الرغبة الشديدة بفعل ذلك، وذلك بسبب مسحة الرصانة التي اكتسى بها. كما بدا أنها نسيت كرهها للأولاد، ولعبت «أنا أرى» معهم حتى حل الظلام. لوحظ أن ستفي عرض عليها لعقات متكررة من كرة الحلوى العائدة إليه أثناء اللعبة، وعدّل ذلك مزاجها إذ كان آخر ما قالته للأولاد قبل الخلود للفراش:

t.me/qurssan

«حين تصل مضارب البتلدور والريشة سأسمح لكم كلكم باللعب معي».

كانت ملاحظتها الأولى في الصباح: «هل وصل صندوق متاعي؟»، وعندما قيل لها إنه سيصل في وقت لاحق من النهار، اغتاظت وحنقت وجلدت دميتها، فصعقت ديزي. غير أنها تمكنت من البقاء حتى الخامسة مساء، إذ اختفت ولم يتفقدها أحد حتى حان موعد العشاء، فقد ظنها مَن في المنزل رافقت تومي وديمي إلى التلة.

«رأيتها تغذّ السير على الدرب المشجر وحدها»، قالت ماري آن وهي تدخل حاملة البودنغ، ووجدت الجميع يتساءلون: «أين نان؟».

«لقد هربت إلى البيت، تلك الغجرية الصغيرة!»، قالت السيدة باير وقد بدا عليها القلق.

«لعلها ذهبت إلى المحطة لتتفقد متاعها»، قال فرانز.

«هذا محال، فهي لا تعرف الطريق، وإن عرفته فلن تتمكن من حمل الصندوق ميلًا»، قالت السيدة باير وقد أخذت تظن أن فكرتها يصعب تنفيذها.

«إن هذا من طباعها»، وأمسك السيد باير قبعته ليذهب للعثور على الطفلة عندما صرخ جاك الذي وقف قرب النافذة وجعل الجميع يهرعون نحو الباب.

t.me/qurssan

كانت واقفة عنده الآنسة نان طبعًا، تجر صندوقًا كبيرًا مربوطًا بحقيبة قماشية. شعرت بالحر والتعب الشديدين ويكسوها الغبار، غير أنها مشت بعزم وصعدت العتبات تلهث، حيث ألقت حملها متنفسة الصعداء، وجلست عليه تنظر وهي تصالب ذراعيها المتعبتين.

«لم أطق الانتظار أكثر، لذا ذهبت وجلبته».

«لكنكِ لا تعرفين الطريق»، قال تومي وقد وقف البقية مستمتعين بالدعابة.

«أوه، لقد وجدته فأنا لا أتوه أبدًا».

«إنه على مبعدة ميل، كيف استطعت الذهاب بعيدًا هكذا؟».

«صحيح أنه بعيد جدًا، لكني ارتحت كثيرًا».

«ألم يكن هذا الشيء ثقيلًا جدًا؟».

«إنه ثقيل للغاية، ولم أستطع حمله جيدًا، وظننت أن ذراعيّ ستنكسران».

«لست أدري كيف جعلك مدير المحطة تأخذينه»، قال تومي.

«لم أقل له شيئًا، فقد كان في مقصورة التذاكر الصغيرة ولم يرني. فأخذته من الرصيف».

«اذهب وأخبره أن كل شيء على ما يرام يا فرانز، وإلا ظن دود العجوز أنه سُرق»، قال السيد باير منضمًا إلى الضاحكين على هدوء نان.

«أخبرتك أننا سنرسل في طلبه إن لم يصل. في المرات القادمة عليك الانتظار، لأنك ستقعين في المتاعب إن هربت. عديني بهذا، وإلا لن أتركك تغيبين عن ناظريّ»، قالت السيدة باير وهي تمسح الغبار عن وجه نان الصغير الساخن.

«لن أفعل، لا أحد يطلب مني الكف عن فعل شيء سوى بابا، لذا لن أعدك».

«إن هذا محيّر، لكني أظن أن عليك تقديم العشاء لها الآن، ثم تعظينها على انفراد في وقت لاحق»، قال السيد باير وهو مبتهج جدًا، فلم يغضب لرعونة السيدة الشابة.

ظن الأولاد الأمر «ممتعًا جدًا»، وأمتعتهم نان طوال وقت العشاء وهي تحكي مغامراتها، إذ نبح عليها كلب، وسخر منها رجل، وأعطتها امرأة كعكة محلاة، وسقطت قبعتها في الغدير حين توقفت لتشرب الماء وقد أنهكها المسير.

«أحسب أنك ستكونين دائمة الانشغال يا عزيزتي، فتومي ونان كافيان لامرأة واحدة»، قال السيد باير بعد نصف ساعة.

«أعلم أن ترويض الطفلة سيستغرق وقتًا، لكنها فتاة صغيرة كريمة طيبة القلب، وسأحبها حتى إن كان شغبها أضعافًا»، أجابت السيدة جو وهي تشير إلى المجموعة المرحة التي وقفت وسطها نان، وهي تمنح أغراضها يمينًا وشمالًا، بسخاء كأن الصندوق الكبير لا قعر له.

كانت هذه الخصال الحلوة هي التي جعلت من «المتهورة

t.me/qurssan

الطائشة» الصغيرة، كما يسمونها، أثيرة عند الجميع. لم تشكُ ديزي من الملل ثانية، لأن نان تبتدع أمتع الألعاب، وفاقت مقالبها مقالب تومي، وابتهجت بها المدرسة بأكملها. دفنت لعبتها الكبيرة ونسيتها لأسبوع، ووجدتها متعفنة حين حفرت لإخراجها. حزنت ديزي، غير أن نان أخذتها إلى رسام يعمل قريبًا من البيت، وطلبت منه أن يلونها بأحمر القرميد، بعينين مبحلقتين سوداوين، ثم كستها بالريش والفلانل القرمزي، وإحدى بليطات ند المصنوعة من الرصاص، وجعلت منها زعيمًا هنديًا، وضرب الزعيم الجديد بوبيدِلا بفأسٍ كل الدمى الأخرى، وجعل غرفة الأطفال تحمر من الجروح المتخيلة. وأعطت حذاءها الجديد لطفل متسول، آملة أن يسمح لها التجول حافية، لكنها وجدت الجمع بين الإحسان والراحة مستحيلًا، فأُمرت أن تعصب الإذن قبل منح ثيابها. وأبهجت الأولاد بصنع حراقة من لوح وشراعين كبيرين مبللين بالتربنتين، أشعلتها ثم أرسلت السفينة الصغيرة لتسبح في الغدير عند الغسق. كما ربطت ديك الحبش العجوز إلى عربة من قش، وجعلته يركض حول البيت بسرعة هائلة. وقدمت قلادة المرجان إلى أربعة هريرات تعسات آذاهن فتية عديمو الرحمة، واعتنت بهن لأيام برفق الأم، وداوت جراحهن بدهان بارد، وأطعمتهن بملعقة الدمى، وبكت عليهن عندما متن حتى واستها إحدى سلاحف ديمي. وجعلت سايلس يرسم على ذراعها وشمًا لمرساة مثل وشمه، وتوسلت بقوة لترسم لها نجمة زرقاء على كل وجنة، لكنه خشي فعل ذلك حتى بعد أن تملقته ووبخته ولان قلب الرجل وود أن يذعن لها. وامتطت

t.me/qurssan

كل حيوان في المكان، من الحصان الكبير آندي إلى الخنزير الشكس الذي أنقذت منه بشق الأنفس. وكلما تحداها الأولاد لفعل شيء جربته من فورها، مهما كانت خطورته، ولم يملوا قط من اختبار شجاعتها.

اقترح السيد باير أن يروا مَن يتفوق في الدراسة، ووجدت نان متعة كبيرة في استخدام ذكائها وذاكرتها القوية بقدر المتعة في استخدام قدميها ولسانها المرح وجهد الأولاد كثيرًا ليحافظوا على ترتيبهم، لأن نان أثبتت لهم أن الفتيات يستطعن فعل كثير من الأمور جيدًا مثل الأولاد، بل يفضلنهم في بعض الأمور. لم يكن في المدرسة مكافآت، لكن كلمة «أحسنت!» من السيد باير، والتقرير الجيد من السيدة باير في كتاب الضمير، علمهم حب الواجب للواجب وأن يحاولوا فعله بإخلاص، مؤمنين أن الثواب سيأتي عاجلًا أم آجلًا. أحبت نان الصغيرة الجو الجديد بسرعة، واستمتعت به وأثبتت أنه ما تحتاجه فعلًا، إذ كان هذا البستان الصغير مليئًا بالأزهار الحلوة، تخفي نصفها الحشائش، وحين بدأت الأيدي الكريمة بتشذيبها برفق، شطأ الكثير من البراعم الصغيرة الخضراء، مبشرة بإزهار جميل في دفء الحب والرعاية، الطقس الأمثل للقلوب والأرواح الصغيرة في كل أنحاء العالم.

t.me/qurssan

(٨)
لعب ولهو

لما لم يكن لهذه القصة خطة محددة، سوى وصف بضعة مشاهد في حياة بلمفيلد لإمتاع الصغار، فإننا ستجول بهدوء في هذا الفصل ونحكي بعضًا من تسالي أولاد السيدة جو. أود استئذان القارئ المحترم في القول إن معظم هذه الحكايا مستوحاة من الحياة الواقعية، وأن أغربها أصدقُها، إذ لا يمكن لامرئ، مهما بلغ جموح خياله، اختلاق أي شيء مضحك بقدر الخيالات والعجائب التي تنبت في أذهان الصغار النابضة بالحياة.

كان ديمي وديزي يضجان بهذه الأهواء، وعاشا في عالم من خيالهما تسكنه مخلوقات جميلة أو غريبة، منحاها أغرب الأسماء ولعبا معها أغرب الألعاب. وكانت واحدة من بدع غرفة الأطفال جنية خفية تدعى «كتي ماوس المشاكسة»، التي آمن الطفلان بوجودها وخافا منها وخدماها لوقت طويل. لم يحدثا أحدًا بأمرها، بل أبقيا شعائرهما سرية قدر الإمكان، ولم يحاولا وصفها حتى لنفسيهما، ذاك أن لها سحرًا غامضًا محيرًا يعجب ديمي كثيرًا، الذي يجد متعة

t.me/qurssan

في حديث الأقزام والعفاريت. كانت كتي ماوس المشاكسة عفريتة نزوية مستبدة للغاية، ووجدت ديزي متعة يشوبها الخوف في خدمتها، إذ تطيع طاعة عمياء أوامرها الغريبة التي تعلنها عبر شفتي ديمي، الذي كانت قدرته على الابتكار عظيمة. انضم روب وتدي أحيانًا إلى شعائرهما، وعدّاها متعة خالصة، رغم أنهما لم يفهما نصف ما يفعلانه.

همس ديمي لأخته ذات يوم بعد انتهاء اليوم الدراسي، بهزة منذرة من رأسه: «كتي ماوس تريدنا عصر اليوم».

«لماذا؟»، سألت ديزي قلقة.

«من أجل القرمان»، أجاب ديمي بوقار، «لا بد من إشعال نار كبيرة أمام الصخرة الكبيرة عند الساعة الثانية، ويجب أن نجلب كل الأشياء المفضلة عندنا ونحرقها!»، أضاف مشددًا تشديدًا مخيفًا على كلماته الأخيرة.

«أوه يا إلهي! أنا أحب الدمى الورقية الجديدة التي رسمتها لي خالتي إيمي أكثر من أي شيء، هل يتوجب عليَّ حرقها؟»، نالت ديزي التي لم يخطر لها قط رفض شيء أمرت به المستبدة الخفية.

«كل شيء. سأحرق قاربي، وكتابي المفضل وكل جنودي»، قال ديمي مؤكدًا.

«حسن، سأفعل لكن لا يحسن بكتي ماوس أن تطلب أجمل أشيائنا»، تنهدت ديزي.

«إن القرمان يعني أن تتخلي عما تحبين، لذا فإنه واجب علينا»،

أوضح ديمي الذي خطرت له الفكرة الجديدة من سماعه العم فرتز يصف عادات الإغريق للأولاد الكبار الذين كانوا يقرؤون عنهم في المدرسة.

«أروب قادم أيضًا؟»، سألت ديزي.

«أجل، وسيجلب معه لعبة القرية، وهي مصنوعة من الخشب كما تعلمين وستحترق جيدًا. سنشعل نارًا كبيرة ونراها تضطرم، أليس كذلك؟».

وجدت ديزي في هذا المنظر الرائع بعض العزاء، وتناولت غداءها واضعة أمامها صفًا من الدمى الورقية في مأدبة وداع.

انطلق موكب تقديم القربان في الساعة المحددة، وكل طفل منهم يحمل الكنوز التي طلبتها كتي ماوس الجشعة. أصر تدي على مرافقتهم، وحين رأى الجميع يحملون ألعابهم تأبط حَمَلًا له صرير، وتحت ذراعه الأخرى حمل أنابلا القديمة، دون أن يدري ما العذاب الذي ستضعه فيه الربة المذكورة آنفًا.

«أين تذهبون يا فراخي؟»، سألت السيدة جو حين مر الجمع ببابها.

«لنلعب قرب الصخرة الكبيرة، أيمكننا ذلك؟».

«أجل، ولكن لا تقتربوا من البركة، وانتبهوا للصغير».

«أنا أفعل دومًا»، قالت ديزي ماضية إلى الأمام مع الصغير بهيئة واثقة.

t.me/qurssan

«يجب أن تجلسوا كلكم هنا، ولا تتحركوا حتى أقول لكم. هذه الصخرة المستوية ستكون المذبح، وسأشعل النار عليها».

تقدم ديمي ليضرم نارًا صغيرة، كما رأى الأولاد يفعلون في النزهات. حين تصاعد اللهب جيدًا، أمر رفاقه أن يسيروا حولها ثلاث مرات ثم يقفوا في دائرة.

«سأبدأ أنا، وإن احترقت حاجياتي عليكم جلب حاجياتكم».

ولدى قوله هذا ألقى بكتاب صغير مليء بالصور، ألصقها بنفسها وأتبعه بقارب خرِب، ثم تقدم الجنود التعسون المصنوعون من الرصاص واحدًا تلو الآخر نحو حتفهم. ولم يتردد أحدهم ولا تراجع من الرقيب الرائع الملون بالأحمر والأصفر حتى ضارب الطبل الصغير الذي فقد ساقيه، بل اختفوا كلهم في النيران، وامتزجوا في بركة واحدة من الرصاص المنصهر.

«هيا يا ديزي!»، قال الكاهن الأعلى لكتي ماوس، حين التهمت النار قربانه النفيس وقد سر الأطفال سرورًا عظيمًا.

«يا لدماي العزيزة، كيف أتخلى عنها؟»، بكت ديزي وهي تعانق الاثنتي عشرة دمية بوجه ملؤه ثكل الأمهات.

«عليك ذلك»، أمرها ديمي، فوضعت ديزي الدمى الجميلة على الجمر بعد أن قبلت كل واحدة قبلة الوداع.

«دعني أحتفظ بواحدة، الزرقاء الغالية، إنها جميلة جدًا»، تضرعت الأم الصغيرة المسكينة متشبثة بيأس بآخر دماها.

t.me/qurssan

«المزيد! المزيد!»، دمدم صوت رهيب، فقال ديمي: «هذه كتي ماوس! لا بد أن تحصل على كل الدمى، بسرعة وإلا خربشتنا».

وألقيت في النار الجميلة الزرقاء الغالية وكشاكشها وقبعتها الوردية، وغيرها، ولم يبق من تلك الفرقة الزاهية شيء سوى رقاقات سوداء.

«هاتوا البيوت والأشجار، ودعوها تحترق، ستكون نارًا حقيقية عندئذ»، قال ديمي الذي أحب التنويع في «قرامينه».

فتن الأطفال بهذا الاقتراح، فوضعوا القرية الملعونة، ووضعوا خطًا من الجمر على امتداد الشارع الرئيس، ثم جلسوا لرؤية الحريق. كان اضطرامها بطيئًا بفضل الصباغ، غير أن كوخًا واحدًا صغيرًا احترق في نهاية المطاف، وأحرق شجرة من صنف النخيل سقطت على سطح بيت عائلي كبير، وفي غضون دقائق قليلة احترقت القرية بأكملها حريقًا كبيرًا. ووقف أهلها المصنوعون من خشب وحملقوا بالخراب مثل الحمقى، وهم كذلك، حتى اشتعلت فيهم النار واحترقوا دون صراخ. استغرق تحول القرية إلى رماد بعض الوقت، واستمتع المتفرجون بالمنظر أيما استمتاع، يهتفون كلما سقط بيت، ويرقصون مثل الهنود المتوحشين عندما اشتعل برج الكنيسة عاليًا، بل ألقوا إلى قلب النار بامرأة محطمة لها شكل ممخضة اللبن، هربت إلى الضواحي.

أثار حماس تدي النجاح المبهر لهذا القربان الأخير كثيرًا، فألقى بحَمَله إلى النار، وقبل أن يتسنى له الوقت ليتحمر، ألقى تدي بأنابلا

t.me/qurssan

المسكينة الحبيبة إلى محرقة الموت. لم يرُق لأنابلا هذا الأمر، وأعربت عن ألمها واستيائها بأسلوب أخاف محرقها الصغير. ولم تحترق، لأنها مغطاة بجلد الجدي، بل حدث لها ما هو أسوأ إذ تلوّت. فاعوجّت الرجل الأولى، تلتها الأخرى في مماثلة مريعة لما يحدث لكائن حي، ثم ألقت بذراعيها حول رأسها كأنها تتألم ألمًا ممضًا، والتف رأسها على كتفيها، وسقطت عيناها الزجاجيتان، وبانثناءة أخيرة من جسدها بأكمله، غاصت بكتلة متفحمة على أنقاض القرية. أذهل هذا العرض المفاجئ الجميع وأثار خوف تدي. إذ نظر وصرخ ثم قفل عائدًا إلى البيت يصيح بأعلى صوته: «ماااامااا».

سمعت السيدة باير الصراخ وركضت لتهب لنجدته، لكن تدي تعلق بها وهذر قائلًا بكلامه المكسر شيئًا عن «المسكينة بلا جرحت»، «نار أظيمة»، «وكل الدميات احتردن». أمسكت به أمه وهرعت نحو ساحة المشهد، وقد خشيت من وقوع بلاء عظيم، وهناك وجدت عابدي كتي ماوس عبادة عمياء يتفجعون على البقايا المتفحمة من الأحبة الراحلين.

«ماذا كنتم تفعلون؟ أخبروني بالأمر»، قالت السيدة جو مجبرة نفسها على الإصغاء بصبر، إذ بدا المذنبون نادمين أشد الندم، فغفرت لهم مسبقًا.

فشرح ديمي لعبتهم بشيء من الممانعة، وضحكت الخالة جو حتى طفرت الدموع من عينيها وسالت على خديها، فقد كان الأطفال جادين واللعبة غريبة للغاية.

t.me/qurssan

«لقد حسبتك عاقلًا فلا تلعب لعبة سخيفة كهذه. لو كان عندي كتي ماوس لكانت صالحة تحب اللعب ألعابًا آمنة مبهجة، ولا تخرّب وترعب. انظروا إلى الخراب الذي خلفتموه، كل دمى ديزي الجميلة، وجنود ديمي وقرية روب الجديدة، إلى جانب الحمل المسكين العائد لتدي وأنابلا العجوز العزيزة. سأكتب في غرفة الأطفال البيتين اللذين يكتبان عادة في صناديق الألعاب:

«استمتع أبناء هولندا في صنعها
فأي مسرة يجدها أبناء بوسطن في تخريبها».

لكني سأضع پلمفيلد بدلًا من بوسطن».

«لن نفعل ذلك ثانية، حقًا وصدقًا!»، قال المذنبون التائبون الصغار، خجلين من هذا التأنيب.

«لقد أمرنا ديمي أن نفعل ذلك»، قال روب.

«سمعت عمي يحكي عن الإغريق، الذين عندهم مذابح وما شابه، فأردت أن أفعل مثلهم غير أني لم آخذ أي كائن حي قربانًا، لذا حرقنا ألعابنا».

«يا إلهي، إن هذا يشبه قصة الفاصولياء». قالت الخالة جو وهي تضحك ثانية.

«احكيها لنا»، اقترحت ديزي لتغير الموضوع.

«مرة كان لامرأة فقيرة ثلاثة أطفال صغار أو أربعة، واعتادت أن تقفل عليهم غرفتها حين تذهب للعمل لتبقيهم آمنين. ذات يوم

t.me/qurssan

قالت وهي تستعد للذهاب: «والآن يا أحبتي انتبهوا لئلا يقع الصغير من النافذة، ولا تلعبوا بأعواد الثقاب، ولا تحشروا الفاصولياء في أنوفكم». لم يتخيل الأطفال قط فعل أمر مماثل، لكنها أوحت لهم بذلك. وما إن خرجت حتى ركضوا وملؤوا أنوفهم المشاغبة الصغيرة بالفاصولياء، ليروا كيف يبدو ذلك وحين عادت وجدتهم كلهم يبكون».

«أهذا مؤلم؟»، سأل روب باهتمام عظيم، فأضافت أمه جزءًا تحذيريًا على عجل، خشية أن تحدث في عائلتها نسخة جديدة من قصة الفاصولياء.

«مؤلم جدًا كما عرفت. إذ لما أخبرتني أمي بالقصة كنت حمقاء فذهبت لتجربتها. لم يكن عندي فاصولياء لذا جمعت بعض الحصى الصغيرة، ودسست عددًا منها في أنفي. لم يعجبني ذلك البتة وأردت إخراجها بسرعة، لكن إحداها لم تخرج وخجلت من أن أعترف بحماقتي فقضيت ساعات والحصاة في أنفي وتؤلمني كثيرًا. في نهاية المطاف صار الألم لا يطاق فكان علي أن أخبر أمي، ولما لم تستطع إخراجها جاء الطبيب. ثم وضعت على كرسي وأمسكت بقوة يا روب، وهو يستخدم كماشته الصغيرة القبيحة حتى خرجت الحصاة. يا إلهي، كم آلمني أنفي الصغير التعس، وكم سخر مني الآخرون!» وهزت السيدة جو رأسها هزة خوف كأن ذكرى ألمها كانت كثيرة عليها.

تأثر روب كثيرًا ويسعدني القول إنه حفظ التحذير في قلبه. اقترح

t.me/qurssan

ديمي أن يدفنوا أنابلا المسكينة، ونسي تدي خوفه في حماس التحضير للجنازة. نالت ديزي بعض العزاء بدفعة جديدة من الدمى من الخالة إيمي، وبدا أن القرابين الأخيرة قد أرضت كتي ماوس المشاكسة ولم تعد تضايقهم.

كان «بروپ» اسم اللعبة الممتعة الجديدة التي ابتدعها بانغز. لما كان الحيوان المثير لا يوجد في أي حديقة حيوان، إلا إن جلب دو تشيلو واحدًا من براري أفريقيا[1]، فسأحاول أن أعدد عاداته وخصاله الغريبة، لأجل العقول الفضولية. كان البروپ حيوانًا مجنحًا من ذوات الأربع، له وجه بشري شاب مرح. يقبع حين يمشي على الأرض، وحين يحلق ينعب نعيبًا حادًا، وأحيانًا تنتصب قامته ويتحدث الإنجليزية جيدًا. يكسو جلده شيء يشبه الوشاح كثيرًا، أحمر أحيانًا وأزرق أحيانًا أخرى، وكثيرًا ما تكون له نقشات مربعة، ويغير جلده مع الآخرين مرارًا على نحو غريب. على رأسه قرن يشبه الورق البني المتخشب المستخدم في إشعال المصابيح، وله جناحان من المادة نفسها يرفان على كتفيه عندما يطير، ولا يطير بعيدًا عن الأرض أبدًا، لأنه يقع عادة وقوعًا مريعًا إن حاول الطيران عاليًا. وهو يرعى على الأرض لكنه يجلس ويأكل مثل السنجاب. كما أن طعامه المفضل هو الخبز المذرور بالحبوب، والتفاح الذي يلتهمه كما شاء، ويقضم الجزر النيء أحيانًا عندما يشح الطعام. يعيش في عرين، حيث يكون له عش يشبه سلة الثياب تلعب فيها البروپات الصغيرة

(١) (١٨٣١-١٩٠٣) عالم إناسة وحيوان فرنسي- أمريكي. اشتهر بأنه أول أوروبي في العصر الحديث يرى الغوريلا ويؤكد وجودها.

t.me/qurssan

حتى تنمو أجنحتها. تتشاجر هذه الحيوانات الفريدة أحيانًا، وفي هذه الأحيان تنفجر متحدثة بكلام البشر، وتمنح الألقاب لبعضها بعضًا، وتبكي وتعنف بل إنها تقطع القرون والجلد معلنة بعزم أنها لن تلعب. كان الأشخاص القليلون الذين تمتعوا بامتياز دراستها يميلون إلى اعتبارها مزيجًا مميزًا من القرد والسفنكس والرخ والمخلوقات الغريبة التي رآها بيتر ولكنز الشهير[1].

كانت هذه اللعبة مفضلة للغاية، وتسلى بها الأطفال الصغار في كثير من العصريات الماطرة يرفرفون أو يزحفون في غرفة الأطفال، ويتحركون مثل معاتيه صغار، ويمرحون مثلما يمرح الصغار. لا شك أن اللعبة كانت متلفة للثياب، وبخاصة ركب السراويل ومرافق السترات، لكن السيدة باير اكتفت بالقول وهي ترقع وترقع:

«إننا نفعل أشياء بالقدر نفسه من الحماقة لكنها أكثر أذى. لو تسنى لي الحصول على السعادة بقدر الصغار، للعبت دور بروب بنفسي».

كانت تسلية نات العظمى العمل في بستانه، والجلوس على شجرة الصفصاف مع كمانه لأن العش الأخضر كان عالمًا سحريًا عنده فأحب الجلوس هناك، عازفًا الموسيقى مثل طائر سعيد. سماه الفتية «المسقسق الكبير»، لأنه كان دومًا يترنم أو يصفر أو يعزف الكمان، وكثيرًا ما أوقفوا أعمالهم أو لعبهم للحظة للاستماع إلى

---

(١) كتاب لبيتر بالتك (١٦٩٧-١٧٦٧) وهو روائي إنجليزي واسم كتابه حياة بيتر ولكنز ومغامراته، الذي يشبه في فكرته روبنسن كروزو.

t.me/qurssan

الأنغام الرقيقة للكمان، كأنه يقود فرقة موسيقية صغيرة من أصوات الصيف. أخذت الطيور تعده واحدًا منها، وجلست دون خوف على السور أو اختبأت بين الأغصان لتراقبه بعيونها الثاقبة البراقة. عدته طيور أبو الحناء في شجرة التفاح صديقًا لها، لأن الطائر الأب صاد الحشرات قريبًا منه، وحضنت الأم الصغيرة بيضها الأزرق براحة كأنما الصبي لم يكن إلا نوعًا جديدًا من الشحارير فرح بمشاهدتها الصبورة لغنائه. بقبق الغدير البني ولمع أسفله، وبحث النحل عن حقول البرسيم على كلا الجانبين، واسترقت النظر إليه وحوه أليفة في مرورها، وبسط البيت القديم جناحيه الواسعين نحوه بمودة، وحلم نات، بإحساس مبارك من الراحة والحب والسعادة، لساعات في هذه الزاوية، غافلًا عن المعجزات الجميلة التي تنهال عليه.

كان عنده مستمع واحد لا يسأم أبدًا، وكان في عينه أكثر من زميل في الصف. كانت البهجة الكبرى لدى بلي المسكين في الاستلقاء قرب الغدير مراقبًا أوراق الشجر والزبد ترقص على سطحه، والإصغاء حالمًا إلى الموسيقى في شجر الصفصاف. كان يرى نات ملاكًا يجلس عاليًا ويغني، إذ لم تزل بضع ذكريات من الطفولة باقية في عقله وتصبح أزهى في مثل هذه اللحظات. لما رأى السيد باير اهتمامه بنات، طلب من نات أن يرفع الغيمة من العقل الضعيف بهذه الرقية الهادئة. وكان نات سعيدًا بفعل أي شيء ليعبر عن امتنانه، لذا ابتسم في وجه بلي حين يسير خلفه وسمح له بالاستماع دون إزعاج إلى الموسيقى التي تتحدث لغة يمكنه فهمها.

t.me/qurssan

«ساعدوا بعضكم بعضًا»، كان الشعار الأثير في بلمفيلد، وقد تعلم نات كم تزداد الحياة حلاوة إن حاول قضاء حياته وفقًا لهذا الشعار.

أما وقت فراغ جاك فورد المميز فكان في البيع والشراء، وقد حاول جاهدًا الاقتداء بعمه التاجر الريفي الذي يبيع قليلًا من كل شيء وجمع ثروة بسرعة. رأى جاك السكر يُخلط بالرمل، والدبس بالماء والزبدة تُمزج بالشحم وأشياء من هذا القبيل، وعمل متوهمًا بأن هذا كله جزء عادي من التجارة. كانت سلعه من نوع مختلف لكنه انتفع قدر ما يستطيع من كل دودة باعها، ونال دومًا النصيب الأفضل من الصفقات حين يقايض الأولاد بالخيطان والسكاكين وشصوص الصيد أو أي غرض آخر. سماه الأولاد بـ«البخيل»، وكان لكل منهم لقب، لكنه لم يبالِ ما دام كيس التبغ الذي يحفظ فيه نقوده يزداد ثقلًا.

لقد أسس شيئًا من قبيل غرفة للمزاد العلني، وبين الحين والآخر يبيع الخردة التي جمعها، أو يساعد الأولاد في مقايضة أشيائهم مع بعضهم بعضًا. كان عنده مضارب وكرات وعصي هوكي وغيرها رخيصة من مجموعة من الرفاق، فصقلها وباعها مقابل بضع سنتات لمجموعة أخرى، وكثيرًا ما وسع أعماله إلى خارج أسوار بلمفيلد رغم القوانين. وضع السيد باير حدًا لبعض تصوراته، وحاول تعليمه فكرة عن التجارة أفضل من الاحتيال على جيرانه. كان جاك يعقد صفقة خاسرة بين الفينة والأخرى، فيستاء من ذلك أكثر من استيائه إزاء فشله في الدروس أو الانضباط، فينتقم من أول زبون بريء يأتي

t.me/qurssan

إليه. كان دفتر حساباته غريبًا، وسرعته في الأرقام مبهرة جدًا. أثنى عليه السيد باير لذلك، وحاول أن يجعل حس النزاهة والاستقامة عنده مبهرًا بالقدر نفسه، وفي النهاية لما رأى جاك أنه لن يتمكن من التقدم دون هذه الفضائل اعترف بأن مدرسه كان محقًا.

كان الأولاد يلعبون كرة القدم والكركت طبعًا، ولكن بعد الحكايات المثيرة عن هذه المباريات في القصة الخالدة توم براون يلعب كرة القدم[1]، لا يمكن لقلم ضعيف لأي كاتبة أن يجرؤ على أكثر من الإشارة إليها باحترام.

قضى إميل أيام إجازاته على شاطئ النهر أو في البركة، ودرّب الأولاد الكبار ليسابقوا فتية البلدة الذين كانوا يتطفلون على أرضهم بين الحين والآخر. أقيم السباق في وقته، ولما انتهى بهزيمة نكراء لم يقل عنه شيء في العلن، وأخذ قائد العمارة يفكر جادًا في الانزواء في جزيرة مهجورة، وقد نفر نفورًا عظيمًا من بني جنسه لبعض الوقت. لم تكن أي جزيرة مهجورة مريحة لذا أجبر على البقاء بين رفاقه، ووجد العزاء في بناء مرفأ.

انغمست الفتاتان الصغيرتان في الألعاب المعتادة لمن في عمرهما، وهما تضيفان إليها أشياء مما يجود به خيالهما الواسع. كانت اللعبة الرئيسة والأمتع تدعى السيدة شكسبير سمث، وهذا الاسم من اختراع الخالة جو، لكن تجارب السيدة المسكينة كانت فريدة من

(١) رواية لتوماس هيوز نشرت عام ١٨٥٧، ونشرت أول الأمر بعنوان أيام توماس براون في المدرسة.

t.me/qurssan

نوعها. كانت ديزي هي السيدة ش. س. ونان ابنتها تارة وجارتها السيدة المشاكسة تارة أخرى.

لا يمكن لقلم أن يصف مغامرات هاتين السيدتين، إذ كانت أسرتاهما في عصرية قصيرة تشهد ولادات وحفلات زفاف وجنائز وفيضانات وزلازل وحفلات شاي وطيرانًا بالمنطاد. سافرت هاتان المرأتان المفعمتان بالحيوية ملايين الأميال، معتمرتين القبعات وعادات لم يسبق لعين فانية أن رأتها، فتجلسان على السرير، وتمسكان بأعمدته مثل مطايا متقدة نشاطًا، وتقفزان للأعلى والأسفل حتى يدور رأساهما. كانت الحرائق والأمراض هي المحن المفضلة، إلى جانب مذبحة كبيرة بين الحين والآخر على سبيل التغيير. لم تسأم نان قط من ابتداع كوارث جديدة، وتبعت ديزي قائدتها بإعجاب أعمى. كان تدي المسكين هو الضحية دومًا، وكثيرًا ما أنقذ من خطر حقيقي، إذ كانت السيدتان المتحمستان تنزعان إلى نسيان أنه ليس مصنوعًا من المادة نفسها التي صنعت منها دماهما التي تعاني معاناة طويلة الأمد. فقد حُبس مرة في الصوان القائمة مقام الزنزانة، ونسته الفتاتان وخرجتا لتلعبا في الهواء الطلق. وفي مرة أخرى كاد أن يغرق في حوض الاستحمام، وهما تتظاهران أنه «حوت مراوغ صغير». والأسوأ من كل هذا أنه أنقذ بقطع الحبل في اللحظة المناسبة بعد شنقه بتهمة السرقة.

غير أن المكان الذي تردد عليه الجميع كان النادي. ليس له اسم آخر، بل إنه ليس بحاجة لاسم وقد كان الوحيد في الجوار. لقد أسسه

t.me/qurssan

الفتية الكبار، وسمحوا بدخول الصغار إن أحسنوا التصرف. كان تومي وديمي أعضاء فخريين، لكنهما مضطران دومًا للمغادرة باكرًا كارهين، بفعل الظروف التي ليس لهما عليها سلطان. كانت جلسات النادي مميزة، لأنها تقام في شتى صنوف الأماكن والساعات، وفيها تجري كل التسالي والاحتفالات الغريبة، وقد يفض بغضب عارم بين الحين والآخر، ليعاد تأسيسه على أسس أقوى.

التقى الأعضاء في الأمسيات الماطرة في غرفة الصف، وقضوا الوقت يلعبون الشطرنج والنرد، ويرقصون المريسة[1]، ويتبارزون، ويقرؤون أو يتناظرون أو يمثلون أدوارًا دراماتيكية ذات طابع مأساوي حزين. كانت الحظيرة هي الملتقى صيفًا، ولا غرّ فانيًا يعلم ما يجري هناك. في الأمسيات الوَمِدة ينتقل النادي إلى الغدير من أجل تمارين مائية، ويجلس الأعضاء حوله في هيئة مرحة، كالضفادع مستبردين. في أوقات كهذه يكون الخطاب بليغًا على غير العادة، ويمكن للمرء القول إنه ينساب، وإن لم يعجب الجمهور بأقوال الخطيب رُمي بالماء البارد حتى تنطفئ عجرفته. كان فرانز رئيس النادي وحافظ على النظام محافظة تثير الإعجاب، نظرًا إلى الطبيعة المتمردة للأعضاء. لم يتدخل السيد باير في شؤونهم قط، وكوفئ على صبره الحكيم هذا بأن دعي مرات عدة ليشهد انكشاف الأسرار وتبين أنه يستمتع بذلك كثيرًا.

(١) رقصة يؤديها الرجال وهم يلبسون ملابس طريفة ويحملون أجراسًا.

t.me/qurssan

حين جاءت نان تمنت الانضمام إلى النادي، وسببت اضطرابًا عظيمًا وانقسامًا بين الرجال بتقديمها عرائض لا نهائية، مكتوبة ومنطوقة، وهي تقلق هدوءهم بشتمهم من ثقب الباب، مؤدية حركات غاضبة منفردة عند الباب، وتكتب كلامًا ساخرًا على الجدران والأسوار، لأنها تنتمي إلى «الذين لا يكبحون». لما رأت الفتاتان ألا جدوى من هذه الالتماسات، أمستا، بمشورة السيدة جو، ناديًا لهما سمتاه النادي العائلي. ودعتا إليه برحابة صدر الرجال الصغار الذين أقصاهم صغر سنهم من النادي الآخر، وسلتا هؤلاء الصغار الأثيرين جيدًا بحفلات عشاء صغيرة، وألعاب جديدة تخترعها نان، وتسالي أخر مبهجة، فاعترف الكبار -واحدًا إثر واحد- برغبتهم بالمشاركة بهذه التسالي الأكثر أناقة، وبعد كثير من التشاور قرروا اقتراح تبادل المجاملات.

دعي أعضاء النادي العائلي لتشريف النادي المنافس في أمسيات محددة، وفوجئ الرجال بأن حضورهم لم يضع قيودًا على الأحاديث أو التسالي لمرتادي النادي المعتادين ولا أحسب أن هذا يصدق على كل النوادي. استجابت السيدتان بأناقة وود لاقتراحات السلام، وازدهر كلا الناديين طويلًا وبسعادة.

t.me/qurssan

(٩)
حفلة ديزي الراقصة

تود السيدة شكسبير سمث دعوة السادة جون بروك وتوماس بانغز وناثنيَل بليك إلى حفلتها الراقصة عند الساعة الثالثة اليوم.

ملاحظة: يجب أن يحضر نات كمانه، لنرقص، ويجب أن يكون كل الأولاد لطيفين وإلا فلن يحصلوا على شيء من اللذائذ التي أعددناها اليوم.

أخشى أن هذه الدعوة اللطيفة كانت ستقابل بالرفض، لولا التلميح الوارد في السطر الأخير من حاشية الرسالة.

«كانتا تعدان الكثير من الأطايب، لقد شممت روائحها. لنذهب»، قال تومي.

«تعلم أننا لسنا مضطرين للبقاء بعد المأدبة»، أضاف ديمي.

«لم أذهب إلى حفلة راقصة يومًا. ماذا يفعل فيها المرء؟»، سأل نات.

«أوه، إننا نتظاهر بأننا رجال، ونجلس متخشبين أغبياء كما

t.me/qurssan

يفعل الكبار، ونرقص لإسعاد الفتاتين. ثم نأكل كل شيء، ونغادر بأسرع ما نستطيع».

«أحسب أني قادر على فعل هذا»، قال نات بعد التفكير للحظة بوصف تومي.

«سأكتب لهما وأقول إننا قادمون»، وأرسل ديمي هذا الرد المهذب:

سنأتي. حضرا كثيرًا من الطعام من فضلكما.

ج. ب. المبجل

كان قلق السيدتين عظيمًا بشأن أول حفلة راقصة لهما، لأنهما عزمتا على إقامة حفل عشاء للقلة المختارين إن سارت الأمور سيرًا حسنًا.

«تحب الخالة جو أن يلعب معنا الصبية إن كانوا مهذبين، لذا علينا جعلهم يحبون حفلاتنا، وهذا سيحسن سلوكهم»، قالت ديزي بطبعها الأمومي، وهي تعد الطاولة وتبحث في مخزون المرطبات بعين قلقة.

«سيحسن ديمي ونات التصرف، لكن تومي سيرتكب حماقة أعلم أنه سيفعل»، أجابت نان وهي تهز رأسها فوق سلة الكيك الصغيرة التي ترتبها.

«سأرسله إلى البيت في الحال عندئذ»، قالت ديزي بحزم.

«لا يفعل الناس هذا في الحفلات، فهذا غير لائق».

t.me/qurssan

«لن أدعوه ثانية».

«هذا يفي بالغرض. إذ سيأسف أنه لن يدعى لحفلات العشاء، أليس كذلك؟».

«أحسبه سيفعل! سيكون عندنا أروع الأشياء، صحيح؟ حساء حقيقي ومغرفة ورصعة (تعني قصعة)، وعصفور صغير بدل ديك الحبش ومرق اللحم وكل أنواع الخضاروات اللذيذة»، لم تحسن ديزي قط قول الخضروات، وكفت عن المحاولة.

«إنها الساعة الثالثة تقريبًا، وعلينا أن نتهندم»، قالت نان التي جهزت زيًا جميلًا للمناسبة، وتحمست للبسه.

«أنا الأم، ولا يجدر بي التهندم كثيرًا»، قالت ديزي، وهي تلبس قلنسوة نوم مزينة بعقدة فراشة حمراء، وإحدى تنانير خالتها الطويلة، ولفاعًا ونظارة، وأكملت زينتها بمنديل كبير جاعلًا منها قيّمة صغيرة متوردة ممتلئة.

وضعت نان إكليلًا من الزهور الصناعية، وخفين زهريين قديمين، ووشاحًا أصفر وتنورة خضراء من الموصلين، ومروحة صنعتها من ريش المنفضة، كما رشت رشة من زجاجة عطر لا رائحة له، في لمسة أناقة أخيرة.

«أنا الابنة، لذا أتزين كثيرًا ويجب أن أغني وأرقص وأتحدث أكثر منك. فالأمهات لا يفعلن شيئًا سوى شرب الشاي والجلوس بكياسة كما تعرفين».

t.me/qurssan

جعل قرع مفاجئ صاخب الآنسة سمث تجري للجلوس على كرسي، وتروّح على نفسها بقوة، أما أمها فجلست منتصبة كالعمود على الأريكة، وحاولت أن تظهر الهدوء و«الكياسة». أدت بِس الصغيرة، التي كانت تزورهما، دور الخادمة وفتحت الباب، قائلة وهي تبتسم: «تفضلوا أيها السادة، كل شيء داهز».

على شرف المناسبة، لبس الأولاد ياقات ورقية عالية، واعتمروا قبعات سودًا عالية وقفازات من كل لون وقماش، لأنها خطرت لهم لاحقًا، ولم يكن لدي أي صبي منهم زوجًا كاملًا.

«نهارًا سعيدًا يا سيدتي»، قال ديمي بصوت أجش، صعب عليه إدامته فتعين عليه تقصير جمله.

تصافح الجميع ثم جلسوا، وهم يبدون مضحكين ورزينين في آن معًا، فقد نسي الرجال المهذبون اللياقة، وتدحرجوا في كراسيهم ضاحكين.

«أوه، لا تفعلوا!»، قالت الآنسة سمث وهي مستاءة للغاية.

«لن تأتوا ثانية إن كنتم ستفعلون هذا»، أضافت الآنسة سمث، صافعة السيد بانغز بزجاجتها لأن ضحكه كان الأعلى.

«لا أستطيع، فأنت تبدين مضحكة في تأنقك»، قال السيد بانغز لاهثًا، بصراحة وقحة.

«وأنت كذلك، لكني لست وقحة مثلك فأقول لك هذا. لن يدعى إلى حفل العشاء، أليس كذلك يا ديزي؟»، قالت نان بازدراء.

t.me/qurssan

«أحسب أن بوسعنا الرقص الآن، هل جلبت كمانك يا سيدي؟»، سألت السيدة سمث محاولة الحفاظ على هدوئها وتهذيبها.

«إنه عند الباب»، وذهب نات لإحضاره.

«يحسن بنا شرب الشاي أولًا»، اقترح تومي الجريء، غامزًا علنًا لديمي ليذكره بأنه كلما وضعت المرطبات أسرع، تسنى لهم الهرب أسرع.

«كلا، فنحن لا نتناول العشاء أولًا، وإن لم ترقص جيدًا فلن تحصل على العشاء، ولا حتى لقمة واحدة يا سيدي»، قالت السيدة سمث بحزم جعل ضيوفها الصاخبين يرون أن عليهم ألا يعبثوا معها، وأصبحوا أكثر تهذيبًا في الحال.

«سآخذ السيد بانغز وأعلمه رقصة البولكا، لأنه لا يجيد رقصها»، أضافت المضيفة بنظرة تأنيب عقّلت تومي.

عزف نات، وبدأت الحفلة برقص زوجين رقصات متنوعة دقيقة. رقصت السيدتان جيدًا، لأنهما تحبان الرقص، لكن السادة بذلوا قصارى جهدهم مدفوعين برغبات أنانية، إذ شعر كل منهم أن عليه الفوز بعشائه، وعملوا بجد من أجل هذه الغاية. حين انقطعت أنفاس الجميع سمح لهم بالاستراحة، بل إن السيدة سمث المسكينة كانت بحاجة لذلك إذ جعلها ثوبها الطويل تتعثر عددًا من المرات. قدمت الخادمة الصغيرة الدبس والماء في أكواب صغيرة، جعلت واحدًا من الضيوف يشرب تسعًا منها. وسأحجم عن ذكر اسمه، لأن هذا الشراب اللطيف فتنه للغاية

t.me/qurssan

حد أنه وضع الكوب وما فيه في فمه في الجولة التاسعة، وغص أمام الجميع.

«عليك أن تطلب من نان أن تعزف وتغني الآن»، قالت ديزي لأخيها الذي جلس وهو يبدو شبيهًا بالبومة، إذ نظر بوقار إلى المشهد الاحتفالي من فوق ياقته العالية.

«غني لنا أغنية يا سيدتي»، قال الضيف المطيع، وهو يتساءل في سره عن مكان البيانو.

فمشت الآنسة سمث نحو مكتب قديم في الغرفة، ورفعت الغطاء عن المكتب وجلست أمامه تملؤها الحماسة جعلت المكتب القديم يهتز وهي تغني الأغنية الجديدة الجميلة، قائلة:

«جذلًا عزف
المغني الجوال على غيتاره
وهو يسرع عائدًا
من الحرب».

صفق السادة تصفيقًا حارًا، فغنت لهم «باوندنغ بيلوز/ أمواج متقافزة»، و«لتل بو بيپ/ بو بيپ الصغيرة»، وغيرهما من الأغاني الجميلة، حتى اضطروا أن يلمحوا أنهم سمعوا كفايتهم. قالت السيدة سمث، وهي ممتنة للثناء الذي أمطرت به ابنتها:

«سنشرب الشاي الآن. اجلسوا بهدوء ولا تأكلوا بسرعة».

كانت جميلة رؤية مسحة الفخر التي علت وجه السيدة وهي

t.me/qurssan

تقوم بواجبات الضيافة، والهدوء الذي احتملت به الكوارث الصغيرة التي حدثت. طارت الفطيرة الفضلى بسرعة وحطت على الأرض عندما حاولت تقطيعها بسكين كليلة، واختفى الخبز والزبدة بسرعة أفزعت قلب مدبرة المنزل، والأسوأ من هذا أن الكسترد كان خفيفًا ويفضل شربه بدلًا من أكله بأناقة بملاعق الصفيح الجديدة.

أخشى أن أقول إن الآنسة سمث قد نازعت الخادمة على أفضل كعيكات الجمبل، فرمت بِس الصحن في الهواء وانفجرت في البكاء تحت مطر الكعكات المتساقطة. وهُدئت بإجلاسها إلى المائدة، وإفراغ السكرية، ولكن أثناء هذه الجلبة اختفى صحن كبير من الفطائر، ولم يعثر عليه. لقد كان زينة المأدبة، وسخطت السيدة سمث لخسارتها، لأنها صنعتها بنفسها وكان شكلها جميلًا. لا بد أن أي سيدة سيصعب عليها أن تفقد في ضربة واحدة اثنتي عشرة فطيرة شهية (صنعت من الدقيق والملح، والماء وحبة زبيب كبيرة في وسط كل منها، والكثير من السكر مرشوش على وجهها).

«لقد خبأتها يا تومي، أعلم أنك فعلت ذلك»، قالت المضيفة الحانقة، متوعدة ضيفها المشتبه به بضربه بقدر حليب.

«لم أفعل!».

«بل فعلت!».

«ليس التكذيب من الأدب»، قالت نان التي كانت تأكل على عجل الهلام أثناء الشجار.

t.me/qurssan

«أعدها يا ديمي»، قال تومي.

«هذه أكذوبة، لقد خبأتها في جيبك»، زعق ديمي، وقد استاء من الاتهام الكاذب.

«لنأخذها منه. إن إبكاء ديزي أمر سيء للغاية»، قال نات الذي وجد أول حفلة له مثيرة أكثر مما ظن.

كانت ديزي تبكي، وخلطت بِس دموعها بدموع سيدتها، مثل خادمة مخلصة، واتهمت نان جنس الصبيان بأكمله بأنهم «أشياء مزعجة». في أثناء ذلك اشتعلت المعركة بين السادة، إذ حين انقض المدافعان عن البراءة على العدو، تحصن ذاك الفتى الصلب خلف طاولة ورشقهما بالكعكات المسروقة، وكانت تلك قذائف فعالة إذ كانت صلبة بقدر الطلقات. انتصر المحاصر حين كانت ذخيرته وافرة. وعندما طارت آخر الفطائر فوق المتراس، قُبض على العدو وسُحب في الغرفة وهو يجأر، وألقي على أرض الردهة في كومة مزرية. ثم عاد المظفرون وقد توردت وجوههم من النصر، ولما واسى ديمي السيدة سميث المسكينة، جمع نات ونان الفطائر المتناثرة، واضعين كل حبة زبيب في مكانها المناسب، ورتبوا الصحن حتى بدا جميلًا كما السابق. لكن بهجتهم لم تدم طويلًا إذ زال السكر من الفطائر ولم يبال أحد بأكلها بعد ما تعرضت له من تشويه.

«أحسب أننا يجدر بنا الذهاب»، قال ديمي فجأة، حين سمع صوت الخالة جو على الدرج.

«ربما علينا ذلك»، وأنزل نات على عجل كعكة جميل حملها لتوه.

t.me/qurssan

لكن السيدة جو كانت بينهم قبل أن يتمكنا من الهرب، وألقت الشابتان على سمعها الرقيق قصة أحزانهما.

«لا حفلات أخرى لهؤلاء الأولاد حتى يكفروا عن هذا السلوك السيء بفعلهم شيئًا لطيفًا لكن»، قالت السيدة جو هازة رأسها في وجه المذنبين الثلاثة.

«لقد كنا نلعب فحسب»، قال ديمي.

«لا أحب اللعب الذي يتعس الآخرين. لقد خاب أملي فيك يا ديمي، لأني أملت ألا تتعلم مغايظة ديزي. يا لها من أخت صغيرة لطيفة معك».

«يغايظ الأولاد أخواتهم دومًا، هذا ما يقوله تومي»، غمغم ديمي.

«لن أسمح أن يفعل أولادي ذلك، وإن لم تستطيعا اللعب معًا فسأرسل ديزي إلى البيت»، قالت الخالة جو برصانة.

لدى هذا الوعيد المخيف، مشى ديمي نحو أخته وجففت ديزي دمعها على عجالة، إذ كان الانفصال أسوأ بلوى تنزل بالتوءم.

«كان نات سيئًا أيضًا، أما تومي فأسوأ الجميع»، قالت نان خشية ألا ينال المذنبان نصيبهما العادل من العقاب.

«أنا آسف»، قال نات وهو يشعر بالخجل.

«أنا لست آسفًا!»، قال تومي من ثقب الباب، إذ تنصت بكل ما أوتي من قوة.

أرادت السيدة جو كثيرًا أن تضحك، لكنها حافظت على هدوئها وقالت بحزم وهي تشير إلى الباب:

«بمكنما الذهاب أيها الولدان، ولكن تذكرا أنكما لن تتحدثا أو تلعبا مع الفتاتين حتى آذن لكما. لستما أهلًا لهذه البهجة، لذا سأحرمكما منها».

خرج السيدان الفظان بسرعة، ليتلقاهما بالتوبيخ والتأنيب بانغز غير التائب، الذي لن يتحدث معهما لخمس عشرة دقيقة. سرعان ما سلت ديزي فشل حفلتها، غير أنها حزنت لقرار فصلها عن أخيها، وبكت عيوبه في قلبها الرقيق الصغير.

فرحت نان بالمشكلة، ومشت رافعة أنفها أمام الثلاثة في غرور، وبخاصة تومي الذي تظاهر بعدم الاكتراث، وصرح جهرًا بسروره لأنه تخلص من «الفتاتين الغبيتين». ولكنه في أعماق روحه ندم على سلوكه المتهور الذي جعله يطرد من المكان الذي يحب، وعلمته كل ساعة من البعد قيمة «الفتاتين الغبيتين».

أما الآخران فاستسلما سريعًا، وتاقا لتعود صداقتهما مع الفتيات، إذ لم يكن عندهما الآن ديزي لتدللهما وتطبخ لهما، ولا نان تسليهما وتداويهما، ولا السيدة جو لتجعل البيت بهيجًا والحياة سهلة عليهما، وكان هذا أسوأ ما في الأمر كله. كما اعتراهما الحزن لما عدت السيدة جو نفسها واحدة من الفتيات المهانات، ولم تتحدث إلى المنبوذين إلا لمامًا، وبدت كأنها لا تراهم حين تمر بهم، وكانت دائمة الانشغال لتنظر في طلباتهم. ألقى هذا الإقصاء الكلي المفاجئ

t.me/qurssan

من حبها الحزن في أرواحهم، إذ هجرتهم الأم باير، وغابت شمسهم في وضح النهار، ولم يبق لهم ملاذ.

استمرت هذه الأمور غير المألوفة لثلاثة أيام، ثم لم يعد بوسعهم الاحتمال وخافوا أن يصبح كسوف الشمس دائمًا، فلجؤوا إلى السيد باير طلبًا لعونه ومشورته.

يمكنني القول إنه تلقى تعليمات حول ما يفعله إن عرضت عليه القضية، ولكنّ الشك لم يساور أحدًا، وقدم للأولاد المحزونين بعض النصح قبلوه بامتنان وعملوا به على النحو التالي:

لقد انعزلوا في العلية، مكرسين عددًا من ساعات اللعب في صنع آلة غامضة، استهلكت الكثير من الغراء، وأثار هذا حفيظة آسيا وعجب الفتاتين كثيرًا. أقحمت نان أنفها الفضولي من الباب، وحاولت رؤية ما يجري وجلست ديزي قربها، تبكي علانية لأنهم لا يحسنون اللعب معًا، دون أن يكون عندهم أسرار رهيبة. كان عصر يوم الأربعاء عصرًا جميلًا، وبعد الكثير من المشاورات حول الريح والطقس، خرج نات وتومي حاملين رزمة كبيرة مستوية أخفياها تحت الكثير من الصحف. وتحرقت نان فضولًا وبكت ديزي حنقًا، وارتجفت كلاهما إثارة عندما دخل ديمي حاملًا قبعته في يده إلى غرفة السيدة باير، وقال بأكثر الأصوات تهذيبًا لولد من الفانين في عمره:

«من فضلك أيتها الخالة جو، هلا خرجت أنت والفتيات إلى حفلة مفاجئة أقمناها من أجلكن؟ افعلن رجاء، فهي جميلة جدًا».

«شكرًا لكم، يسرنا المجيء، غير أن عليَّ إحضار تدي معي»، أجابت السيدة باير بابتسامة أفرحت ديمي مثل الشمس بعد المطر.

«نحب استضافته، والعربة الصغيرة جاهزة تنتظر الفتيات، ولست تمانعين في السير حتى تلة بنيرويال، أليس كذلك يا خالتي؟».

«أحب ذلك للغاية، ولكن أأنت متأكد أنني لن أعترض طريقكم؟».

«أوه، كلا صدقًا! بل إننا نرحب بحضورك كثيرًا، وستفسد .. ملة إن لم تأتي»، قال ديمي بجد خالص.

«شكرًا لك على لطفك يا سيدي»، وانحنت له الخالة جو انحناءة فاخرة، لأنها تحب المرح بقدر أي منهم.

«والآن أيتها الشابات، علينا ألا نجعلهم يطيلون الانتظار. اعتمرن قبعاتكن، ولننطلق في الحال. إنني أتحرق شوقًا لمعرفة المفاجأة».

انطلق الكل لدى حديث السيدة باير، وبعد خمس دقائق أجلست الفتيات الثلاث وتدي في سلة الملابس، كما يسمون العربة الخفيفة التي يجرها توبي. مشى ديمي في أول الموكب، والسيدة باير في آخره، يصحبها كِت. أؤكد لكم أنها كانت حفلة فاخرة، إذ وضعت منفضة ريش حمراء على رأس توبي، ورفرفت رايتان جميلتان فوق العربة، ووضع حول عنق كت عقدة فراشة زرقاء، جعلته صاخبًا، ووضع ديمي في عروة سترته باقة صغيرة من الهندباء البرية، وحملت السيدة جو مظلة يابانية غريبة على شرف المناسبة.

t.me/qurssan

ارتعشت الفتيات حماسًا طوال الطريق، وفتن تدي بالرحلة فظل يرمي بقبعته جانبًا، وحين أخذت منه استعد لإلقاء نفسه، شاعرًا أنه يليق به فعل شيء لتسلية الجمع.

حين وصلوا إلى التلة «لم يُر شيء إلا العشب يتمايل مع الريح» كما تقول كتب الحكايات، وبدا الأطفال خائبي الرجاء. لكن ديمي قال بأسلوبه الآسر:

«والآن انزلن جميعًا وقفن بهدوء وسنبدأ الحفلة المفاجئة»، واختبأ بعد قوله هذا خلف صخرة برزت منها رؤوس على التوالي على مدار نصف الساعة الأخيرة.

وبعد مدة قصيرة من الإثارة الهائلة، تقدم نات وديمي وتومي، وكل منهم يحمل طائرة ورقية جديدة، قدموها للشابات الثلاث. علت أصوات الفرح، لكن الأولاد أسكتوها وقالوا بوجوه تطفح مرحًا: «ليست هذه كل المفاجأة»، وركضوا خلف الصخرة، وخرجوا ثانية حاملين طائرة ورقية رابعة حجمها كبير، كتب عليها بحروف صفراء فاقعة «إلى الأم باير».

«ظنناك تحبين الحصول على واحدة أيضًا، لأنك كنت غاضبة منا، وأخذتِ جانب الفتيات»، قال الثلاثة يهتزون ضحكًا، لأن هذا الجزء من الحفلة كان مفاجأة للسيدة جو.

صفقت وضحكت معهم، وقد بدت مسرورة جدًا بالدعابة.

«حسن يا أولاد، إن هذا رائع للغاية! من فكر بهذا؟»، سألت

t.me/qurssan

وهي تتلقى الطائرة الورقية الهائلة بسرور مماثل لسرور الفتيات حين أخذن طائراتهن.

«اقترح العم فرتز ذلك عندما فكرنا بصنع الطائرات الأخرى، وقال إنها ستعجبك لذا صنعنا لك واحدة ضخمة»، أجاب ديمي الذي أشرق وجهه سرورًا بنجاح الخطة.

«يعلم العم فرتز ما أحب. أجل، إنها طائرات ورقية فاخرة، وقد تمنينا الحصول على مثلها حين كنا نطيّر طائراتكم، أليس كذلك يا فتيات؟».

«ولهذا صنعناها لكن»، قال تومي واقفًا على رأسه في أكثر أساليبه ملاءمة للإفصاح عن مشاعره.

«دعونا نطيّرها»، قالت نان المتحمسة.

«لا أعرف كيف أفعل ذلك»، قالت ديزي

« نريكن ذلك، بل نود فعل ذلك!»، قال الأولاد في دفقة من الإخلاص، وأخذ ديمي طائرة ديزي، وتومي طائرة نان، وأقنع نات بشيء من المشقة بس أن تترك طائرتها الزرقاء الصغيرة.

«إن انتظرت قليلًا يا خالتي فسنطير طائرتك أيضًا»، قال ديمي شاعرًا بوجوب ألا يخسروا حب السيدة باير ثانية بأي إهمال منهم.

«بوركت يا عزيزي، إنني أعرف كيف أفعل ذلك، وهذا صبي سيلقيها إلى الأعلى من أجلي»، أضافت السيدة جو حين استرق الأستاذ النظر من خلف الصخرة بوجه ملؤه الفرح.

t.me/qurssan

فخرج في الحال وألقى بالطائرة الكبيرة، وركضت السيدة جو ركضًا جيدًا، وقد وقف الأطفال واستمتعوا بالمشهد. حلقت الطائرات الورقية واحدة تلو الأخرى، وطارت عاليًا مثل طيور نشوى، وهي تتوازن في النسيم العليل الذي هبّ على التلة بثبات. يا له من وقت فرح! يركضون ويصرخون، ويرفعون طائراتهم أو يجرونها للأسفل، ويراقبون لعبهم في الهواء، ويشعرون بها تجذب الخيوط مثل مخلوقات حية تحاول الهرب. كانت نان متحمسة للغاية في هذه اللعبة، ورأت ديزي اللعبة الجديدة مثيرة بقدر الدمى، أما بس الصغيرة فقد كانت مولعة بـ «دائرتها الزيقاء»، فلم تطيرها إلا في جولات قصيرة جدًا، مؤثرة إبقاءها في حجرها، والنظر إلى الرسوم الجميلة التي رسمتها فرشاة تومي المتعجلة. كما أحبت السيدة جو طائرتها كثيرًا، وارتفعت الطائرة كأنها تعرف من صاحبتها، إذ سقطت من علٍ عندما لم تتوقعها، وعلقت بين الأشجار، وكادت تغرق في النهر، ثم انطلقت تحلق عاليًا في نهاية المطاف حتى بدت مثل نقطة صغيرة بين الغيوم.

تعب الجميع بعد ذلك، وربطوا خيوط الطائرات إلى الأشجار والسياج وجلسوا ليرتاحوا عدا السيد باير الذي ذهب لتفقد الأبقار، حاملًا تدي على كتفيه.

«أقضيتم وقتًا ممتعًا كهذا من قبل؟»، سأل نات وهم يستلقون على العشب يقضمون نعناع الماء مثل قطيع من الخراف.

«ليس منذ أن طيرت طائرة ورقية حين كنت فتاة صغيرة قبل سنوات»، أجابت السيدة جو.

t.me/qurssan

«ليتني عرفتك حين كنت فتاة صغيرة، لا بد أنك كنت مرحة للغاية»، قال نات.

«يؤسفني القول إني كنت فتاة مشاكسة صغيرة».

«أحب الفتيات المشاكسات»، قال تومي ناظرًا إلى نان التي شمّرت في وجهه شمزة مخيفة ردًا على مجاملته.

«لماذا لا أذكرك في ذلك الوقت يا خالتي؟ أكنت صغيرًا جدًا؟»، سأل ديمي.

«أجل يا عزيزي».

«أحسب أن ذاكرتي لم تتشكل حينها. يقول جدي إن أجزاء مختلفة من الدماغ تظهر كلما كبرنا، وجزء الذاكرة لم يكن قد ظهر في دماغي حين كنتِ صغيرة، لذا لا أذكر كيف تبدين حينئذ»، أوضح ديمي.

«عليك أن تبقي هذه الأسئلة لتسألها لجدك يا سقراط الصغير، فهي تفوق قدراتي»، قالت الخالة جو متظاهرة بأنها أفحمت.

«سأفعل، فهو يعرف عن هذه الأمور وأنت لا تعرفين»، رد ديمي شاعرًا عمومًا أن الطائرات الورقية أنسب لإدراك الصحبة الراهنة.

«أخبرينا عن آخر مرة طيرت فيها طائرة ورقية»، قال نات، لأن السيدة جو ضحكت حين تحدثت عن الأمر، فظن الأمر مثيرًا.

«أوه، لقد كانت مضحكة قليلًا، لأني كنت فتاة كبيرة في الخامسة

t.me/qurssan

عشرة، وخجلت أن يراني أحد ألعب هذه اللعبة. لذا صنعنا أنا والعم ندي طائرتينا خفية، وخرجنا لنطيرهما. قضينا وقتًا رائعًا وكنا نرتاح كما نفعل الآن، حين تناهت إلى أسماعنا فجأة أصوات ورأيت شابات وشبانًا يعودون من نزهة. لم يكترث ندي، رغم أنه كان فتى كبيرًا على اللعب بالطائرة الورقية، لكنني اضطربت للغاية، لأني أيقنت حزينة أنهم سيسخرون مني، وسيظل الناس يتحدثون عن الأمر، لأن صخبي أسعد الجيران بقدر ما يسلينا صخب نان.

«ماذا أفعل؟»، همست لندي حين اقتربت الأصوات واقتربت.

«سأريك»، قال وسل سكينه بسرعة وقطع الخيوط. حلقت الطائرتان بعيدًا، وحين جاء الناس كنا نقطف الأزهار قطفًا لائقًا كما تحبون. فلم يرتابوا بأمرنا، وضحكنا كثيرًا على نجاتنا بأعجوبة».

«هل ضاعت الطائرتان يا خالتي؟»، سألت ديزي.

«ضاعتا تمامًا، لكنني لم ألقِ بالًا، لأني عزمت أمري على الانتظار حتى أصبح امرأة عجوزًا لألعب بالطائرات الورقية مرة أخرى، وها أنتم ترون أني انتظرت»، قالت السيدة جو وهي تجر الطائرة الكبيرة، لأن الوقت تأخر.

«أيتعين علينا العودة الآن؟».

«يجب أن أعود، وإلا لن تجدوا ما تتناولونه على العشاء، وأحسب أن هذا النوع من الحفلات المفاجئة لن يكفيكم يا فراخي».

«ألم تكن حفلتنا جميلة؟»، سأل تومي راضيًا عن نفسه.

t.me/qurssan

«رائعة!»، أجاب الجميع.

«أتعلمون لماذا؟ لأن ضيوفكم أحسنوا التصرف، وحاولوا جعل كل شيء يمضي مضيًا حسنًا. أتفهمون ما أعنيه؟».

«أجل يا سيدتي»، قال كل الأولاد، لكنهم استرقوا النظر إلى بعضهم بعضًا بوجوه يكسوها الخجل، وهم يحملون طائراتهم على أكتافهم بكياسة في طريق العودة، مفكرين بحفلة أخرى لم يحسن الضيوف التصرف فيها، ومضت الأمور مضيًا سيئًا بفعل ذلك.

t.me/qurssan

(١٠)
العودة

جاء شهر يوليو، وبدأ تجفيف التبن. كانت البساتين الصغيرة تؤتي ثمارها، وأيام الصيف الطويلة مفعمة بالساعات البهيجة. ظل البيت مفتوحًا من الصباح حتى الليل، وقضى الصبية وقتًا طويلًا في الخارج إلا ساعات المدرسة. كانت الدروس قصيرة، وكان عندهم الكثير من الإجازات، إذ آمن آل باير بتنشئة الأجسام السليمة بكثير من التمارين، ويحسن استغلال فصول الصيف القصيرة عندنا في أعمال في الهواء الطلق. أصبح الأولاد متوردين مسمرين معافَين، وقويت شهيتهم للطعام، وصار لهم أذرع وسيقان قوية وضاقت عليها السراويل والسترات، يضحكون ويركضون في أنحاء المكان، ويمرحون في البيت والحظيرة، ويذهبون في مغامرات في نزهاتهم إلى الرابية والوادي، وبث كل هذا السرور في قلب الزوجين باير النبيلين، وهما يريان فتيتهما يزهرون عقلًا وجسمًا، وإني لأعجز عن وصف ذلك. لم ينقصهم إلا شيء واحد لتكتمل السعادة، وحدث دون أن يتوقعوه.

t.me/qurrssan

ذات ليلة معتدلة حين خلد الفتية الصغار إلى الفراس، والكبار يسبحون في الغدير، والسيدة باير تخلع عن تدي ثيابه في ردهتها، صاح فجأة: «أوه داني!»، وأشار إلى النافذة حيث سطع القمر مشرقًا.

«كلا يا حبي، إنه ليس هناك، بل هذا القمر الجميل»، قالت أمه.

«كلا، كلا، داني عند النافذة، رآه تدي»، ألح الصغير وقد تحمس كثيرًا.

«لعل ذلك صحيح»، وهرعت السيدة باير نحو النافذة، آملة أن يكون ذلك صحيحًا. لكن الوجه اختفى، ولم يظهر أثر لفتى من البشر في أي مكان. فنادت باسمه، وركضت نحو الباب وتدي يلبس قميصه الصغير، وجعلته يناديه أيضًا، ظانة أن لصوت الطفل تأثيرًا أكبر من تأثير صوتها. لم يجب أحد ولم يظهر شيء فعادا خائبين. لم يفرح تدي بالقمر، وبعد أن وُضع في سريره الصغير ظل يرفع رأسه ويسأل إن كان داني «قائمًا قريبًا».

غط تدي في النوم بعد ذلك، وأوى الفتية إلى الفراش، وغدا البيت هادئًا، ولم يكسر الصمت الناعم لليل الصيف إلا سقسقة الجداجد. جلست السيدة باير تخيط، إذ كانت السلة الكبيرة مليئة بالجوارب ذات الثقوب الهائلة، وتفكر بالولد الضائع. قر في نفسها أن الصغير مخطئ، ولم تزعج السيد باير بإخباره عن خيال الصغير، إذ كان للرجل المسكين وقت قليل لنفسه أثناء نوم الأولاد، وكان منشغلًا في كتابة الرسائل. تجاوزت الساعة العاشرة عندما نهضت

t.me/qurssan

لتغلق باب البيت. وعندما توقفت للحظة لتمتع نظرها بالمشهد الجميل من فوق العتبات، جذب انتباهها شيء أبيض على إحدى كومات التبن المتناثرة في المرج. كان الأطفال يلعبون هناك طوال العصر، فتصورت السيدة باير أن نان تركت قبعتها كالعادة، فذهبت لجلبها. ولكن حين اقتربت، وجدت أنها ليست بقبعة ولا منديل، بل كم قميص تبرز منه يد سمراء. فأسرعت نحو كومة التبن، وهناك وجدت دان ينام بهدوء.

بدا رث الثياب قذرًا نحيلًا منهكًا، إحدى قدميه حافية، والأخرى ملفوفة بسترة قديمة من قماش قطني خلعها عن ظهره ليجعل منها ضمادة خرقاء لجرح ما. من الواضح أنه اختبأ خلف كومة التبن، ولكنه في نومه مد ذراعه التي فضحت أمره. فتنهد وغمغم كأن أحلامه تزعجه، وحين تحرك تأوه كأنه يتألم، غير أنه لم يزل نائمًا لشدة تعبه.

«يجب ألا ينام هنا»، قالت السيدة باير، وانحنت قربه ونادته برفق. فتح عينيه ونظر إليها، كأنها جزء من حلمه لأنه ابتسم وقال ناعسًا: «لقد عدت أيتها الأم باير».

رق قلبها كثيرًا للنظرة والكلمات، ووضعت يدها تحت رأسه ورفعته قائلة بصوتها الحنون:

«عرفت أنك ستفعل، وتسعدني رؤيتك يا دان». عندئذ استيقظ تمامًا، وأخذ ينظر حوله كأنه تذكر فجأة أين هو، وشك بهذا الترحيب اللطيف. تغير وجهه وقال بأسلوبه الفظ القديم:

t.me/qurssan

«كنت سأرحل صباحًا. لقد توقفت لإلقاء نظرة فحسب أثناء مروري».

«ولكن لماذا لا تدخل يا دان؟ ألم تسمعنا نناديك أنا وتدي؟ لقد رآك تدي وناداك».

«لم أحسب أنك ستسمحين لي»، قال وهو يلعب بصرة صغيرة ورفعها كأنه سيرحل في الحال.

«حاول لترى»، ردت السيدة باير، مادة يدها ومشيرة إلى الباب حيث سطع الضوء مرحّبًا.

أخذ دان نَفَسًا طويلًا كأنما أزاح عن ذهنه عبئًا ثقيلًا، ورفع عصا غليظة وأخذ يعرج نحو البيت لكنه توقف فجأة وقال متسائلًا:

«لن يحبذ السيد باير هذا، فقد هربت من بيج».

«إنه يعلم بالأمر، وأسف لذلك لكن هذا لا يشكل فرقًا. أأنت مصاب؟»، سألت السيدة جو وهو يعرج ثانية.

«قفزت من فوق جدار فسقطت صخرة على قدمي وسحقتها. لا تؤلمني»، قال وجهد لإخفاء ألمه مع كل خطوة.

قادته السيدة باير إلى غرفتها، وحين وصل هناك تهاوى على كرسي، وأرجع رأسه للوراء وقد شحب من التعب والألم.

«يا لعزيزي المسكين دان! اشرب هذا، ثم كل قليلًا فأنت في البيت الآن، وستعتني بك الأم باير جيدًا».

رفع عينيه إليها بامتنان، وهو يشرب النبيذ الذي قربته من شفتيه،

t.me/qurssan

ثم أخذ يأكل ببطء الطعام الذي جلبته له. منحته كل لقمة شيئًا من القوة، وأخذ يتحدث أخيرًا كأنما يتوق لتعرف كل شيء عنه.

«أين كنت يا دان؟»، سألته وهي تخرج بعض الضمادات.

«لقد هربت قبل أكثر من شهر. كان بيج طيبًا معي لكنه صارم للغاية. لم يعجبني ذلك، فعبرت النهر مع رجل يقطعه في قاربه. لهذا لم يعرفوا أين ذهبت. عندما تركت الرجل، عملت بضعة أسابيع مع مزارع، لكني ضربت ابنه، فضربني الرجل العجوز وهربت ثانية وجئت إلى هنا ماشيًا».

«كل الطريق؟».

«أجل. لم يدفع لي الرجل ولم أطلب منه، بل انتقمت بضربي الولد»، وضحك دان وخجل في الوقت نفسه، حين نظرت إلى أسماله ويديه القذرتين.

«كيف كسبت قوتك؟ إنها رحلة طويلة طويلة على فتى بعمرك».

«أوه، لقد أبليت حسنًا حتى جرحت قدمي. أعطاني الناس طعامًا، ونمت في الحظائر ومشيت نهارًا. لقد تهت وأنا أحاول البحث عن طريق مختصر وإلا لوصلت في وقت أسبق».

«ولكن إن لم تنوِ المجيء والإقامة معنا، فما أنت فاعل؟».

«حسبت أنني أود رؤية تدي، ورؤيتك، ثم عزمت على العودة إلى عملي السابق في المدينة، غير أنني كنت متعبًا فنمت على التبن. عزمت على الذهاب صباحًا لولا أنك وجدتني».

«أأنت حزين لأني وجدتك؟»، ونظرت إليه السيدة جو نظرة امتزج فيها المرح والتأنيب، وهي تجثو لتنظر إلى قدمه المجروحة.

احمر وجه دان، وأبقى نظره مثبتًا على صحنه وقال بصوت خفيض جدًا: «كلا يا سيدتي، بل إني سعيد، لقد أردت البقاء لكني خشيت أنك...».

لم يكمل جملته لأن السيدة باير قاطعته بصرخة ذعر حين رأت قدمه إذ كانت في حال مزرية.

«متى حدث هذا؟».

«قبل ثلاثة أيام».

«ومشيت عليها في هذه الحال؟».

«كان عندي عصا، كما أني غسلتها عند كل غدير أمر به، رأعطتني امرأة خرقة ألفها بها».

«يجب أن يراها السيد باير ليداويها في الحال»، وهرعت السيدة جو إلى الغرفة المجاورة، تاركة الباب مواربًا خلفها فسمع دان كل ما قيل.

«لقد عاد الصبي يا فرتز».

«من؟ دان؟».

«أجل، رآه تدي عند النافذة وناديناه، لكنه ذهب واختبأ خلف كومة التبن في المرج. لقد وجدته قبل قليل نائمًا نومًا عميقًا، ويكاد

t.me/qurssan

يموت من التعب والألم. لقد هرب من ييج قبل شهر، وكان يمضي في طريقه نحونا منذئذ. وادعى بأنه لم يقصد جعلنا نراه، بل عزم على الذهاب إلى المدينة وعمله القديم بعد أن يلقي نظرة علينا. جلي أن الأمل بأن نتعهده قاده إلينا خلال كل شيء، وها هو ينتظر معرفة إن كنت ستغفر له وتقبله».

«أقال هذا؟».

«قالته عيناه، ولما أيقظته قال مثل طفل تائه: «لقد عدت أيتها الأم باير». لم أقوَ على توبيخه، بل أخذته مثل خروف أسود مسكين عاد إلى القطيع. أيمكنني إبقاؤه يا فرتز؟».

«يمكنك طبعًا! هذا يؤكد لي أن لنا مكانة في قلب الصبي، ولن أبعده ثانية مثلما لن أبعد ابني روب».

سمع دان صوتًا رقيقًا ناعمًا، كأنما السيدة جو شكرت زوجها دون كلمات، وفي الصمت الذي أعقب ذلك تشكلت دمعتان كبيرتان في عيني الصبي وتساقطتا وتدحرجتا على خديه المغبرين. لم يرهما أحد، إذ مسحهما بسرعة، ولكن في ذلك الصمت القصير أحسب أن ريبة دان القديمة من هؤلاء الناس الصالحين قد تلاشت إلى الأبد، ومُست البقعة الرقيقة في قلبه، وانتابته رغبة ملحة في أن يجعل من نفسه جديرًا بحب أولئك الصبورين المتسامحين وشفقتهم. لم يقل شيئًا، بل تمنى أمنية بكل ما أوتي من قوة، وعزم على المحاولة بأسلوبه الصبياني الأعمى، وختم عزمه بدمع لا يمكن للألم ولا التعب ولا الوحدة أن تستدرها منه.

t.me/qurssan

«تعال وانظر إلى قدمه. أخشى أن جرحها غائر، لأنها على هذه الحال منذ ثلاثة أيام في الحرارة والغبار، دون شيء يداويها به سوى الماء وسترة قديمة. أقول لك يا فرتز إن هذا الفتى شجاع وسيكون رجلًا رائعًا».

«أرجو ذلك لخاطرك أيتها المرأة المتقدة حماسًا، فإيمانك خليق بالنجاح. سأذهب الآن وأرى إسبارطيك الصغير. أين هو؟».

«في غرفتي، ولكن ارفق به يا عزيزي مهما كان فظًا. أنا موقنة بأن هذه الطريقة المثلى لهزيمته. فهو لن يحتمل الصرامة ولا الكثير من القيود، بل ستهديه الكلمة الطيبة والصبر اللامتناهي مثلما هداني».

«كأنك كنت يومًا مثل هذا المحتال الصغير!»، قال السيد باير ضاحكًا، في شيء من الغضب على الفكرة.

«كنت في الطباع، رغم إظهاري لها بصورة مختلفة. أظنني أعرف شعوره بالفطرة، وأني أفهم ما سيظفر به ويؤثر فيه، وأتفهم عيوبه وأخطاءه. ويسعدني أني كذلك لأن هذا سيساعدني في تقديم العون له، وإن استطعت صنع رجل صالح من هذا الصبي الجامح فسيكون أفضل عمل قمت به في حياتي».

«ليبارك الرب العمل، وليكن في عون العاملة!».

تحدث السيد باير بجدية بقدر ما فعلت هي، ودخل كلاهما ليجدا رأس دان على ذراعه كأنما غلبه النوم. لكنه رفع نظره بسرعة، وحاول النهوض حين قال السيد باير مبتهجًا:

t.me/qurssan

«أنت تحب بلمفيلد أكثر من مزرعة پيج إذن. حسن، دعنا نر إن كنا سننسجم هذه المرة انسجامًا أفضل مما فعلنا قبلًا».

«شكرًا لك يا سيدي»، قال دان محاولًا ألا يكون فظًا ووجد الأمر أسهل مما ظن.

«والآن لنر القدم. آخ! هذه ليس بحال جيدة. يجب أن نستدعي الطبيب فيرث غدًا. هاتي ماء دافئًا وقماشًا قديمًا».

غسل السيد باير القدم المجروحة ولفها، أثناء إعداد السيدة جو للسرير الوحيد الفارغ في البيت. كان في غرفة الضيوف الصغيرة القريبة من الردهة، وتستخدم إن كان أحد الصبية مريضًا لأن هذا يجنب السيدة جو مشقة الصعود والنزول، ويمكن للمرضى رؤية ما يجري. حين أعدته رفع السيد باير الصبي بين ذراعيه، وحمله وساعده على خلع ثيابه وأرقده على السرير الصغير الأبيض، وتركه بعد مصافحة أخرى وقوله بأبوية «تصبح على خير يا بني».

نام دان من فوره، ونام نومًا عميقًا لعدد من الساعات، ثم أخذت قدمه تنبض وتؤلمه، فاستيقظ ورفع رأسه قلقًا، محاولًا ألا تندّ عنه آهة خشية أن يسمعه أحد، لأنه كان فتى شجاعًا واحتمل الألم مثل «إسبارطي صغير»، كما سماه السيد باير.

كان من عادة السيدة جو أن تطوف في أنحاء البيت ليلًا، لتغلق النوافذ إن صارت الريح باردة، ولتضع الناموسية فوق فراش تدي، أو لتعتني بتومي الذي يمشي في نومه أحيانًا. وكان أدنى صوت يوقظها، ولأنها كثيرًا ما تسمع لصوصًا وقططًا وحرائق متخيلة،

t.me/qurssan

فإن الأبواب تظل مفتوحة. لذا التقط سمعها الرهيف صوت آهات دان الخفيضة ونهضت في لحظة. كان يضرب وسادته الساخنة ضربة يائسة عندما جاء مصباح يسطع في الرواق، وتسللت السيدة جو داخلة مثل شبح مضحك، وشعرها في عقدة كبيرة على قمة رأسها، ومبذل طويل رمادي ينجر خلفها.

«أتتألم يا دان؟».

«إن الألم فظيع جدًا، لكني لم أقصد إيقاظك».

«إنني بومة من نوع ما أطير ليلًا في أرجاء البيت. أجل، إن قدمك كالنار، ولا بد من وضع ضمادات مبللة مرة أخرى»، وهرعت البومة الأم لجلب مزيد من الأشياء المهدئة وكوب كبير من الماء المثلج.

«أوه، هذا جميل جدًا!»، قال دان حين وضعت على قدمه الضمادة المبللة، وبردت حلقه الظامئ جرعة كبيرة من الماء.

«هيا نم جيدًا الآن، ولا تخف إن رأيتني ثانية، لأني سأتسلل بين الفينة والأخرى، وأجلب لك نضحة ماء أخرى».

بعد أن فرغت السيدة جو من كلامها انحنت وقلبت الوسادة وعدلت الغطاء، حين فوجئت بوضع دان ذراعه حول عنقها وسحبه لها وتقبيلها وقوله بانكسار: «شكرًا لك يا سيدتي»، قالت أكثر مما يفصح عنه خطاب منمق، لأن القبلة العجولة والكلمات الهامسة عنت: «أنا آسف، وسأحاول». فهمت ذلك، وقبلت الاعتراف غير

t.me/qurssan

المنطوق ولم تفسده بأي علامة للدهشة. بل تذكرت أنه ليس له أم، وقبلت خده الأسمر الذي اختفى نصفه على الوسادة، كأنه خجل من لمسة العطف هذه، وتركته قائلة ما تذكره طويلًا: «إنك ولدي الآن، وستجعلني أفخر بقولي هذا وأسعد به إن أردت».

عادت مرة أخرى عند الفجر لتراه ينام نومًا عميقًا ولم يستيقظ، ولم يظهر علامة يقظة حين بللت قدمه، عدا خطوط الألم التي اختفت وجعلت وجهه هادئًا.

كان اليوم التالي يوم الأحد، والبيت لم يزل هادئًا فلم يستيقظ حتى الظهر، وحين نظر حوله رأى وجهًا صغيرًا متلهفًا يسترق النظر إليه عند الباب. فمد ذراعيه، وركض تدي عبر الغرفة ليلقي بنفسه بقوة على الفراش صائحًا: «داني عات!» وهو يعانقه ويضحك فرحًا. جاءت بعده السيدة باير، جالبة الإفطار ولم تنتبه البتة للخجل الذي علا وجه دان لذكرى ما حدث ليلة البارحة. أصر تدي على إطعامه «إفتايه»، وأطعمه مثل طفل فاستمتع دان كثيرًا رغم أنه لا يشعر بجوع شديد.

ثم جاء الطبيب، ومر الإسبارطي بوقت عصيب إذ إن بعض عظام قدمه قد كسرت، وكان تجبيرها عملًا مؤلمًا ابيضت له شفتا دان، وتفصد العرق في حبات كبيرة على جبينه، لكنه لم يبك بل أمسك بيد السيدة جو بقوة جعلتها حمراء لوقت طويل بعد ذلك.

«عليكم إبقاء هذا الصبي مرتاحًا لأسبوع على الأقل، ولا تسمحوا له أن يطأ الأرض بقدمه. عندئذ سأقرر إن كان يستطيع أن

t.me/qurssan

يجحل بمساعدة العكازين، أو أن يلزم فراشه لوقت أطول»، قال الطبيب فيرث، واضعًا الأدوات اللامعة التي لا يحب دان رؤيتها.

«ستتحسن بعد وقت، أليس كذلك؟»، سأل وهو يبدو خائفًا من كلمة «عكازين».

«أرجو ذلك»، وغادر الطبيب تاركًا دان شديد الحزن، لأن فقدان القدم بلاء مروع على صبي مفعم بالحياة.

«لا تحزن، إنني ممرضة جيدة، وستتمكن من التنزه كما السابق في غضون شهر»، قالت السيدة جو وهي تنظر إلى الحالة نظرة متفائلة.

لكن الخوف من العرج استحوذ على دان، ولم تسعده قبلات تدي، لذا اقترحت السيدة جو أن يأتي ولد أو اثنان لزيارته زيارة قصيرة، وسألته عمن يحب رؤيته.

«نات وديمي، كما أريد قبعتي، ففيها شيء أحسبهما يحبان رؤيتها. أظنك رميت صرة متاعي؟»، قال دان وقد بدا عليه القلق وهو يسأل.

«كلا، لقد أبقيتها إذ حسبتها ذات قيمة ما»، وجلبت له السيدة جو قبعته القديمة المصنوعة من القش وقد ملئت بالفراشات والخنافس، ومنديلًا يضم مجموعة من الأشياء الطريفة التقطها في طريقه؛ من مثل بيض طيور وقد غطتها الأشنات جيدًا، وصدفات وأحجار غريبة، وقليل من الفطور، وعدد من السلاطع الصغيرة الساخطة أشد السخط لحبسها.

«أيمكنني الحصول على شيء أضع فيه هؤلاء الصغار؟ وجدناها

t.me/qurssan

أنا والسيد هايد، وهي سلاطع ممتازة، لذا أود الاحتفاظ بها ومراقبتها. أيمكنني ذلك؟»، سأل دان ناسيًا أمر قدمه، وضاحكًا لمرأى السلاطع تمشي مشية جانبية وخلفية على الفراش.

«يمكنك قطعًا، سيكون قفص پولي القديم مناسبًا تمامًا. لا تسمح لها بقضم أصابع قدمي تدي حتى أجلب القفص لك»، وخرجت السيدة جو تاركة دان مفرط السعادة حين رأى أن نفائسه لم تعد قمامة وترمَ.

وصل نات وديمي والقفص معًا، ووضعت السلاطع في بيتها الجديد، وهذا ما أفرح الولدين اللذين نسيا في غمرة إثارة الحدث أي حرج سيعتمل في نفوسهم لتحية الهارب. قص دان لهذين المستمعين المعجبين مغامراته بتفاصيل أكثر مما قصه على آل باير. ثم عرض «متاعه»، ووصف كل غرض فيه وصفًا جيدًا جعل السيدة جو التي خرجت إلى الغرفة المجاورة لتمنحهم الحرية تفاجأ وتتحمس بقدر ما تسلت بحديثهم الصبياني.

«كم يعرف الفتى عن هذه الأمور! كم ينغمس فيها! وحاله الآن مؤسفة، لأنه لا يهتم بالكتب إلا قليلًا، وسيصعب تسليته وهو راقد، لكن بوسع الأولاد تزويده بالخنافس والصخور إلى أبعد حد، ويسرني أنني عرفت ذوقه، وهو جيد ولعله يثبت أنه تغير. إن أصبح عالم طبيعة عظيم ونات موسيقيًا، فلا بد أن أفخر بعمل هذا العام». جلست السيدة جو تبتسم فوق كتابها وهي تبني القصور في الهواء كما اعتادت أن تفعل في صباها، غير أن الأحلام

t.me/qurssan

كانت حينئذ تخصها أما الآن فهي تحلم لأشخاص آخرين، ولعل هذا ما جعلها تتحقق في الواقع، لأن الإحسان أساس متين لبناء أي شيء فوقه.

تحمس نات كثيرًا للمغامرات، لكن ديمي أحب كثيرًا رؤية الخنافس والفراشات، وهو يتشرب تاريخ حياتها القصيرة المتغيرة كأنها قصة خرافية جديدة جميلة. فقد أحسن دان روايته، رغم أسلوبه البسيط، ووجد رضًا عظيمًا حين عرف أن الفيلسوف الصغير يتعلم منه. لقد أثارت اهتمامهما قصة صيد فأر المسك الذي كان جلده بين النفائس، فجاء السيد باير بنفسه ليخبر نات وديمي أن وقت النزهة حان. نظر دان بحزن شديد خلفهما حين ذهبا، فاقترح الأب باير حمله إلى الأريكة في الردهة ليغير قليلًا الهواء والمشهد.

وحين وضع وهدأ البيت، قالت السيدة جو التي جلست بالقرب تري صورًا لتدي بنبرة متحمسة، وهي تومئ برأسها نحو النفائس التي لم تزل بين يدي دان.

«من أين تعلمت كل هذا عن هذه الأشياء؟».

«لقد أحببتها دومًا، لكني لم أعرف الكثير عنها حتى أخبرني السيد هايد».

«ومن السيد هايد؟».

«أوه، كان رجلًا يسكن الغابة لدراسة الأشياء، لست أدري ماذا تسمونه، لقد كتب عن الضفادع والأسماك وغيرها. كان يقيم

t.me/qurssan

في مزرعة بيج، وطلب مني مساعدته، وأمتعني للغاية. إذ أخبرني بالكثير، وكان مرحًا مرحًا كبيرًا وذكيًا. أرجو أن أراه ثانية يوما ما».

«أرجو ذلك»، قالت السيدة جو إذ أشرق وجه دان، وكان مهتمًا بالموضوع فنسي تحفظه المعتاد.

«إنه يجعل الطيور تأتي إليه، ولا تخافه الأرانب ولا السناجب كأنه شجرة. إنه لا يؤذيها، ويبدو أنها تعرفه. هل دغدغت عظاءة بقشة يومًا؟»، سأل دان متلهفًا.

«كلا، لكني أحب تجربة ذلك».

«لقد فعلت. ورؤيتها تتقلب وتتمدد مضحكة للغاية، فهي تحب الدغدغة كثيرًا. اعتاد السيد هايد فعل ذلك، كما أنه يجعل الأفاعي تصغي إليه وهو يصفر، ويعرف متى تتفتح الأزهار، ولا تلسعه النحلات، ويحكي أروع الأشياء عن السمك والذباب، والهنود والصخر».

«أرى أنك أحببت التجول مع السيد هايد، بل إنك تجاهلت السيد بيج»، قال السيدة جو بمكر.

«أجل، فعلت ذلك. لقد كرهت إزالة الحشائش الضارة والعزق إن كان بوسعي التجول مع السيد هايد. رأى بيج أشياء كهذه سخيفة، ووسم السيد هايد بالجنون لأنه يلتقي ساعات يراقب سمكة نراوت أو عصفورًا».

t.me/qurssan

«قل يستلقي بدلًا من يلتقي، فهو أصوب نحوًا»، قالت السيدة جو برفق شديد، ثم أضافت: «صحيح، فبيج مزارع ماهر، ولن يفهم أن عمل عالم الطبيعة مثير، بل قد يضاهي عمله أهمية. اسمعني يا دان، إن كنت محبًا لهذه الأشياء حقًا، كما أحسبك، وأنا مسرورة لذلك، فسيكون عندك الوقت لدراستها، والكتب لتساعدك. غير أني أريد منك فعل شيء إلى جانب ذلك، وأن تفعله بإتقان وإلا ستندم لاحقًا وتجد أن عليك البدء من جديد».

«أجل يا سيدتي»، قال دان بدماثة، وبدا خائفًا بعض الشيء من النبرة الجادة للجملة الأخيرة، فهو يكره الكتب غير أن من الجلي أنه عقد العزم على دراسة أي شيء تقترحه.

«أترى تلك الخزانة ذات الاثني عشر جارورًا؟»، كان سؤالها التالي المفاجئ.

رأى دان خزانتين عتيقتين على جانبي البيانو، وعرفهما جيدًا وكثيرًا ما رأى قطع الخيوط الجميلة والدبابيس والورق البني وغيرها من المتاع النافع يخرج من الجوارير المختلفة. فهز رأسه إيجابًا وابتسم، وتابعت السيدة جو كلامها:

«ألا ترى أن هذه الجوارير ستكون مكانًا مناسبًا لتضع بيضك وصخورك وأصدافك وأشناتك؟».

«أوه، رائع. ولكنك لن تستائي من متاعي «المكدس» كما يقول السيد بيج، أليس كذلك؟»، قال دان وقد اعتدل لتفحص قطعتي الأثاث العتيقتين بعينين لامعتين.

t.me/qurssan

«أحب النثار من هذا النوع، وسأعطيك الجوارير وإن لم أحبها، لأني أقدر نفائس الأطفال الصغيرة، وأرى أنها يجب أن تحظى بالاحترام. سأعقد معك صفقة يا دان، وأرجو أن تلتزم بها بشرف. إليك اثني عشر جارورًا كبيرًا، جارورًا لكل شهر من السنة، وستكون لك ما إن تظفر بها بأدائك بعض الواجبات الصغيرة الموكلة إليك. أؤمن بالمكافآت ذات الطابع المحدد، وبخاصة من أجل الصغار فهي تساعدنا في الانسجام، ورغم أننا نبدأ بداية حسنة حبًا بالمكافأة، إن أحسنا استغلالها، فإننا نتعلم حب الخير من أجل الخير».

«هل حصلت عليها؟»، سأل دان كأن هذا الحديث جديد عليه.

«أجل صدقًا! بل إني لم أتعلم المضي قدمًا لولاها. لم تكن مكافآتي جوارير أو هدايا أو إجازات، بل كانت أشياء أحبها بقدر ما تحب الأشياء الأخرى. إن السلوك الحسن والنجاح لأولادي إحدى المكافآت الأثيرة عندي، وأعمل من أجل ذلك كما أريد منك أن تعمل لأجل خزانتك. افعل ما تكره، وأتقنه، وستنال مكافأتين، الأولى هي الجائزة التي تراها وتلمسها والأخرى الرضا عن أدائك الواجب بفرح. أتفهم هذا؟».

«أجل يا سيدتي».

«نحتاج جميعنا لهذه المساعدات الصغيرة، لذا عليك إنجاز دروسك وأعمالك، وأن تلعب بلطف مع كل الأولاد وتحسن استغلال إجازاتك، وإن جئت إليَّ بتقرير حسن، أو إن رأيته وعرفته دون كلام -لأني سريعة في اكتشاف الجهود الصغيرة لأولادي- فستحصل على

حجيرة في الجارور من أجل نفائسك. اسمع، بعضها مقسم مسبقًا إلى أربعة أقسام، قسم لكل أسبوع، وحين يمتلئ الجارور بالأشياء الطريفة الجميلة، سأفخر به بقدرك، بل أحسبني سأفخر أكثر. إذ سأرى في الأشنات والحصى والفراشات الجميلة مثابرة على الأمور الجيدة، وهزيمة للعيوب، ووعدًا أوفيته به. أنفعل هذا يا دان؟».

أجاب الصبي بنظرة قالت الكثير، إذ أظهرت أنه أحس بأمنيتها وكلماتها وفهمها، رغم أنه لم يحسن الإفصاح عن حماسه أو امتنانه لهذا الحب واللطف. فهمت النظرة، وعرفت من احمرار وجهه الذي بلغ جبينه أنه تأثر، كما تمنت. فلم تقل شيئًا عن هذا الجانب من الخطة، بل فتحت الجارور الأعلى ومسحت الغبار عنه، ووضعته على كرسيين أمام الأريكة قائلة بحيوية:

«والآن، دعنا نبدأ في الحال بوضع هذه الخنافس الجميلة في مكان أمين. ستكفي هذه الحجيرات لحمل الكثير كما سترى. سأسمر الحشرات والفراشات على الجوانب، فتكون بمأمن هناك ونترك مكانًا للأشياء الثقيلة في الأسفل. سأعطيك بعض القطن، وورقًا نظيفًا ودبابيس وستصبح جاهزًا لعمل الأسبوع».

«لكني لا أستطيع الخروج للعثور على أشياء جديدة»، قال دان ناظرًا بأسى إلى قدمه.

«هذا صحيح، لا تقلق، سنكتفي بهذه النفائس لهذا الأسبوع، وأستطيع القول إن الأولاد سيحضرون لك أحمالًا من الأشياء إن سألتهم».

t.me/qurssan

«لا يعرفون النوع الصحيح، ثم إني إن التقيت، كلا إن استلقيت هنا طوال الوقت، فلن أستطيع العمل والدراسة وكسب جواريري».

«ثمة دروس كثيرة يمكنك تعلمها وأنت مستلق، والكثير من الأعمال الصغيرة التي بوسعك فعلها من أجلي».

«حقًا؟»، وعلت الدهشة والسرور وجه دان.

«يمكنك تعلم الصبر والمرح رغم الألم والحرمان من اللعب. يمكنك تسلية تدي من أجلي، أو غزل القطن، أو القراءة لي وأنا أخيط، وفعل الكثير من الأشياء دون إيلام قدمك وهذا سيجعل الأيام تمر بسرعة ولن يكون وقتًا مضاعًا».

عندئذ دخل ديمي حاملًا فراشة كبيرة بيد، وضفدعًا قبيحًا للغاية في يده الأخرى.

«انظر يا دان، لقد وجدتها وجئت لأعطيكها، أليسا جميلين؟»، قال ديمي لاهثًا منقطع الأنفاس.

ضحك دان لرؤية الضفدع، وقال إنه ليس عنده مكان له، لكن الفراشة جميلة وإن أعطته السيدة جو دبوسًا كبيرًا، فسيسمرها في أعلى الجارور.

«لا أحب رؤية المسكينة تتألم على الدبوس، إن كان يجب قتلها فلنرحها في الحال بقطرة من الكافور»، قالت السيدة جو وهي تخرج الزجاجة.

«أعرف كيف أفعل ذلك... فقد قتلها السيد هايد هكذا، لكن

t.me/qurssan

لم يكن عندي كافور لذا استخدمت الدبوس»، وصب دان برفق قطرة على رأس الحشرة، حين خفق الجناحان الأخضران الصافيان لحظة ثم سكنا.

لم يكد هذا الإعدام الرقيق القصير ينتهي حتى صاح تدي من غرفة النوم: «أوه لقد خرجت السلاطع الصغيرة، والكبيرة أكلتها كلها». فركض ديمي وخالته للنجدة، ووجدا تدي يرقص حماسًا على كرسي، والسلطعونين الصغيرين يدبان على الأرض وقد خرجا من بين قضبان القفص الرقيقة. كان ثالث يتشبث بأعلى القفص وواضح أنه خائف على حياته، ففي الأسفل مشهد حزين غير أنه مضحك. حشر السلطعون الكبير نفسه في الفرجة لصغيرة حيث يوضع كوب پولي عادة، وجلس هناك يأكل أحد أقربائه ببرود شديد. اقتُلِعت مخالب الضحية المسكينة، وقُلبت رأسًا على عقب، وقد تعلقت صدفته العليا بأحد مخالبه تحت فم السلطعون الكبير مثل صحن، وهو يأكل منها بهدوء بمخلبه الآخر، متوقفًا بين الحين والآخر ليقلب عينيه الغريبيتن الجاحظتين من جانب لآخر، وليخرج لسانًا رفيعًا ويلعقها بطريقة جعلت الصغيرين ينفجران ضحكًا. حملت السيدة جو القفص إلى دان ليرى المشهد، أما ديمي فقد أمسك بالهاربين وأوقفهما تحت منشفة مقلوبة.

«يجب إطلاق هؤلاء لأني لا أستطيع إبقاؤهم في البيت»، قال دان بأسى واضح.

«سأعتني بها من أجلك إن علمتني كيف، ويمكنها أن تعيش في

t.me/qurssan

خزان السلاحف قدر ما تشاء»، قال ديمي الذي وجدها أكثر إثارة من سلاحفه البطيئة الحبيبة. فأعطاه دان إرشادات عن حاجات السلاطع وعاداتها، وحملها ديمي ليريها بيتها وجيرانها الجدد. «يا له من ولد طيب!»، قال دان وهو يثبت الفراشة الأولى بحذر، متذكرًا أن ديمي قد تخلى عن نزهته ليجلبها له.

«لا بد أن يكون كذلك، فقد فعل الكثير من أجله ليكون هكذا».

«إن له أهلًا يخبرهم بأموره ويساعدونه، وأنا لم يكن لي»، قال دان متنهدًا متذكرًا طفولته المهملة، وهو أمر لا يفعله إلا نادرًا، وأحس بأنه لم يحظَ بقسمة عادلة بصورة ما.

«أعرف ذلك يا عزيزي، ولهذا لا أنتظر منك بقدر ما أنتظر من ديمي رغم أنه يصغرك. ستحظى بكل العون الذي نستطيع تقديمه لك، وأرجو أن أستطيع تعليمك كيف تساعد نفسك بأمثل الطرائق. أنسيت أن الأب باير أخبرك حين كنت هنا قبلًا عن الرغبة في الصلاح، وسؤال العون من الرب؟».

«كلا يا سيدتي»، بصوت خفيض.

«هل جربت هذه الطريقة بعد؟».

«كلا يا سيدتي»، بصوت أخفض.

«أستفعل ذلك كل ليلة لإسعادي؟».

«أجل يا سيدتي»، بوقار شديد.

t.me/qurssan

«سأعتمد على ذلك، وأحسبني سأعرف إن كنت مخلصًا لوعدك، لأن هذه الأمور تظهر للناس الذين يؤمنون بها، دون الحاجة للكلام. والآن سأحكي لك قصة مبهجة عن صبي آذى قدمه أكثر مما فعلت بقدمك، اقرأها وانظر كيف احتمل آلامه».

ووضعت الكتاب الساحر، أولاد كروفتن[1]، بين يديه وتركته لساعة وهي تدخل وتخرج بين الحين والآخر حتى لا يشعر بالوحدة. لم يحب دان القراءة، لكن الكتاب أثار اهتمامه بسرعة وفوجئ بعودة الأولاد إلى البيت. جلبت له ديزي باقة من الزهور البرية، وأصرت نان على المساعدة في تقديم عشائه وهو يستلقي على الأريكة والباب مفتوح على غرفة الطعام، ليرى الفتيان جالسين إلى المائدة، ويستطيعون الإيماء له بلطف من فوق خبزهم وحليبهم.

حمله السيد باير إلى فراشه باكرًا، وجاء تدي بمنامته ليقول له تصبح على خير، لأنه أوى إلى عشه مع الطيور.

«أريد أن أتلو صلواتي لداني، هل أستطيع؟»، سأل ولما قالت أمه «اجل»، جثا الصغير قرب فراش دان، وضم يديه الممتلئتين وقال بهدوء:

«أرجو أن تبارك الجميع أيها الرب، وتساعدني لأكون صالحًا».

ثم خرج يبتسم بعذوبة ناعسة على كتف أمه.

---

(١) رواية للكاتبة هارييت مارتينو، كاتبة بريطانية تعد أول عالمة اجتماع.

t.me/qurssan

ولكن بعد الفراغ من حديث المساء، وغناء أغنية المساء اكتنف الهدوء البيت بصمت الأحد الجميل، ورقد دان أرقًا في غرفته الجميلة، مفكرًا بأفكار جديدة وشاعرًا بآمال وأمنيات جديدة تدور في قلبه الصبياني، إذ دخله ملاكان طيبان، وأخذ الحب والامتنان يعملان العمل الذي سينجزه الزمن والجهد. وضم دان يديه في الظلمة، متمنيًا بصدق أن يفي بوعده الأول وهمس بهدوء يتلو صلاة ندي:

«أرجو أن تبارك الجميع أيها الرب، وتساعدني لأكون صالحًا».

t.me/qurssan

t.me/qurssan

(١١)
العم تدي

لم يتحرك دان لأسبوع إلا من الفراش إلى الأريكة، وكان أسبوعًا طويلًا شاقًا، لأن ألم القدم الجريحة يشتد أحيانًا، وكانت الأيام الهادئة صعبة على الفتى المفعم بالحيوية، وهو يتحرق شوقًا للاستمتاع بطقس الصيف، وصعب عليه أن يكون صبورًا. لكن دان بذل جهده، وساعده الجميع بشتى الطرق، فمر الوقت ونال ثمرة صبره أن سمع الطبيب يقول في صباح السبت:

«لقد تعافت هذه القدم بأفضل مما ظننت. أعطوا الفتى عكازين عصر اليوم، ودعوه يتجول في البيت قليلًا».

«مرحى!»، هتف نات وركض ليخبر الأولاد الآخرين بالأخبار المفرحة.

سر الجميع، وتجمع الكل بعد الغداء ليشهدوا مشي دان على عكازيه في الرواق جيئة وذهابًا بضع مرات قبل أن يجلس في المدخل المسقوف ليقيم ما يشبه استقبالًا. وابتهج كثيرًا لرؤية الاهتمام واللطف اللذين لقيهما، وأشرق وجهه أكثر فأكثر بمرور الوقت.

t.me/qurssan

إذ جاء الأولاد لتقديم احترامهم، وصخبت بجانبه الفتاتان الصغيرتان حاملتين المخدات ومساند الأقدام، وحرسه تدي كأنه كائن ضعيف يعجز عن فعل أي شيء بنفسه. كانوا جلوسًا ووقوفًا على العتبات، عندما توقفت عربة أمام البوابة، ولوحت منها قبعة، وركض روب مسرعًا وهو يصيح «العم تدي! العم تدي!» يقطع الطريق المشجر قدر ما استطاعت ساقاه القصيرتان أن تسرعا به. ركض خلفه كل الأولاد عدا دان ليروا من منهم سيفتح البوابة أولًا، وسرعان ما درجت العربة والأولاد يتسلقونها، وجلس العم تدي وسطهم يضحك وابنته الصغيرة جالسة على ركبتيه.

«أوقفوا عربة النصر ودعوا جوبتر ينزل»، قال وقفز صاعدًا العتبات ليلتقي بالسيدة باير التي وقفت تبتسم وتصفق مثل فتاة.

«كيف الحال يا تدي؟».

«على ما يرام يا جو».

ثم تصافحا، ووضع السيد لوري بِس بين ذراعي خالتها قائلًا حين عانقتها الصغيرة: «أرادت غولدِلوكس رؤيتك بشدة، فجئت بها مسرعًا، لأني أردت رؤيتك أيضًا. نود أن نلعب مع أولادك لساعة أو نحوها، ولنرى كيف تبلي «المرأة العجوز التي تعيش في حذاء، وعندها أطفال كثيرون ولا تدري ما تفعل»[1]».

---

(١) إحدى الحكايات الخرافية وظهرت منها نسخ عديدة، فقد نشرت أول مرة في «كتابي المصور الأول» عام ١٨٧٥، وتوجد في أناشيد الأم الإوزة، كما أن ليمان فرانك بام كتب قصة قصيرة بالعنوان نفسه.

t.me/qurssan

«أنا سعيدة للغاية! فالعبوا إذن ولا تثيروا المتاعب»، أجابت السيدة جو حين تحلق الأولاد حول الصغيرة الجميلة، مفتونين بشعرها الذهبي الطويل وثوبها الأنيق وأسلوبها الرفيع. إذ لم تسمح «الأميرة» الصغيرة، كما يسمونها، لأحد أن يقبلها بل جلست تبتسم لهم، وتربت على رؤوسهم بكياسة بيديها الصغيرتين البيضاوين. لقد أحبوها جميعًا، وبخاصة روب الذي عدّها دمية ما، ولم يجرؤ على لمسها خشية أن تنكسر، لكنه أحبها من مسافة كافية وفرح بكل إشارة عرضية للاستحسان من سموها. ولما أرادت رؤية مطبخ ديزي في الحال، حملتها السيدة جو يتبعهما قطار من الأولاد الصغار. أما الآخرون، عدا نات وديمي، فقد ركضوا إلى مجموعة الوحوش والبساتين لترتيبها، لأن السيد لوري يفتش المكان، ويبدو خائبًا إذ لم تكن الأشياء مرتبة.

استدار السيد تدي، وهو واقف على العتبات، نحو دان قائلًا كأنه صديق قديم رغم أنه لم يرَه من قبل إلا مرة أو اثنتين:

«كيف حال القدم؟».

«أفضل يا سيدي».

«لقد سئمت من البيت، أليس كذلك؟».

«أحسب أنني كذلك!»، وسرحت عينا دان إلى التلال الخضراء والغابات التي يتوق أن يكون فيها.

«ما قولك إن تجولنا جولة قصيرة قبل عودة الآخرين؟ ستكون

t.me/qurssan

هذه العربة الكبيرة السلسة آمنة ومريحة تمامًا، وسيكون تنشق الهواء النقي مفيدًا لك. أحضر مخدة ووشاحًا يا ديمي، ولنحمل دان إلى العربة».

ظن الأولاد أنها فكرة رائعة، وابتهج دان لكنه سأل بدفقة مفاجئة من الرصانة:

«أتوافق السيدة باير على ذلك؟».

«أوه، أجل لقد اتفقنا على ذلك قبل قليل».

«لكنكما لم تذكرا شيئًا عن ذلك، لذا لست أدري كيف اتفقتما»، قال ديمي متسائلًا.

«إن عندنا وسيلة للتراسل فيما بيننا دون كلام. وهذا شكل مطور من البرقيات».

«عرفت... إنها العيون، لقد رأيتك ترفع حاجبيك وتشير برأسك نحو العربة، وضحكت السيدة باير وهزت رأسها موافقة»، قال نات الذي غدا على سجيته مع السيد لوري اللطيف.

«صحيح. هلموا الآن»، وفي لحظة وجد دان نفسه جالسًا في العربة، وقدمه على مخدة على المقعد المقابل، وقد لف بالوشاح جيدًا، الذي سقط في اللحظة المناسبة من الغرف العليا بغموض شديد. صعد ديمي العربة إلى جانب الحوذي الأسود بيتر. وجلس نات بجانب دان في مكان الشرف، أما العم تدي فجلس في المقعد المقابل ليعتني بالقدم، كما قال، لكن الحقيقة أنه أراد تفحص الوجهين

t.me/qurssan

الماثلين أمامه؛ كلاهما سعيدان غير أنهما مختلفان للغاية. فقد كان وجه دان مربعًا وأسمر وقويًا، أما وجه نات فطويل فاتح البشرة وضعيف قليلًا، لكنه أليف بعينيه الرقيقتين وجبينه الجميل.

«صحيح، إن عندي كتابًا في مكان ما هنا قد تود رؤيته»، قال للولد الأكبر في المجموعة، غائصًا تحت المقعد مخرجًا كتابًا جعل دان يصيح دهشة:

«أوه! أليس هذا ساحرًا بحق السماء؟»، وهو يقلب الصفحات ويرى لوحات لفراشات وطيور جميلة، وكل صنوف الحشرات المثيرة ملونة بألوانها الحقيقية. لقد فتن كثيرًا فنسي أن يشكر السيد لوري، الذي لم يكترث لهذا بل سر غاية السرور لرؤية فرحة الصبي ولهفته، وسماع تعليقاته على أصدقائه الصغار القدامى حين يصل صفحاتهم. اتكأ نات على كتفه ليرى، وأدار ديمي ظهره للجياد، وجعل قدميه تتدليان داخل العربة،حتى يتمكن من المشاركة في الحديث.

عندما وصلوا فصل الخنافس، أخرج السيد لوري شيئًا غريبًا صغيرًا من جيب صداره، ووضعه في راحة يده وقال:

«هذه خنفساء عمرها آلاف الأعوام». وحين أخذ الفتية يتمعنون في الحشرة المتحجرة الغريبة التي تبدو رمادية وقديمة للغاية، أخبرهم كيف خرجت من لفافات مومياء بعد أن ظلت لقرون في قبر شهير. ولما رأى اهتمامهم، واصل الحديث عن المصريين، والآثار الغريبة الرائعة التي خلفوها؛ وعن النيل وإبحاره في النهر العظيم مع الرجال السمر الوسيمين الذي يجذفون القارب، وصيده التماسيح،

t.me/qurssan

ورؤيته السباع والطيور العجيبة، وقطعه الصحراء على ظهر جمل، الذي ترجّح به مثل سفينة في عاصفة.

«إن العم تدي يحكي قصصًا جميلة مثل قصص جدي»، قال ديمي مستحسنًا بعد انتهاء الحكاية وتطلعت عيون الفتية للمزيد.

«شكرًا لك»، قال السيد لوري بوقار لأنه اعتبر ثناء ديمي ثناء عظيمًا، إذ إن الأطفال نقاد جيدون في مثل هذه الحالات، ونيل إعجابهم إنجاز يفخر به الجميع.

«إليكم شيئًا أو شيئين صغيرين دسستهما في جيبي وأنا أقلب حوائجي لأرى إن كنت سأجد شيئًا يفرح دان»، وأخرج العم تدي رأس سهم جميل وخيطًا من الومبم[١].

«أوه! احك لنا عن الهنود»، قال ديمي الذي يحب لعب الوغم[٢].

«إن دان يعرف عنهم الكثير»، أضاف نات.

«أستطيع القول إنه يعرف أكثر مما أعرف. احك لنا شيئًا»، وبدا السيد لوري مهتمًا بقدر الصبيين الآخرين.

«لقد أخبرني السيد هايد، وقد عاش بينهم، ويجيد التحدث بكلامهم ويحبهم»، قال دان الذي سر باهتمامهم، غير أنه شعر بشيء من الحرج لوجود مستمع راشد بينهم.

---

(١) عقد من الصدف يتزين به الهنود الحمر في أمريكا الشمالية، أو يتعاملون به بوصفه عملة.

(٢) كوخ بيضوي أو مستدير الشكل عند الهنود الحمر.

t.me/qurssan

«فيم يستخدم الومبم؟»، سأل ديمي الفضولي من مجلسه.

وسأل الآخران أسئلة مماثلة، ودون أن يدرك دان، أخذ يقص كل ما حكاه له السيد هايد، وهما يبحران في النهر قبل بضعة أسابيع. أحسن السيد لوري الإصغاء، غير أنه وجد الصبي مثيرًا أكثر من الهنود. فقد أخبرته السيدة جو عن دان، ولا بد أنه تخيل الفتى الجامح الذي هرب مثلما ود أن يفعل هو، والذي روّضه الألم والصبر رويدًا رويدًا.

«خطر لي أنه يجدر بكم أيها الفتية أن تنشئوا متحفكم الخاص؛ أيْ مكانًا تجمعون فيه كل الطرائف والنفائس التي تجدونها وتصنعونها وتهدى لكم. إن السيدة جو لطيفة ولا تشتكي، ولكن يشق عليها أن يتكدس البيت بشتى صنوف الأشياء المقعقعة، أو أن تجد أفضل مزهرياتها قد ملئ نصفها بخنافس الدورة، فقد سُمّر وطواطان ميتان على المدخل الخلفي مثلًا، وأعشاش الدبابير تتدلى فوق الرؤوس، والحجارة ملقاة في كل مكان، تكفي لرصف الطريق المشجّر. ما من نساء كثيرات يطقن هذا الأمر، أليس كذلك؟».

ولما تحدث السيد لوري ونظرة مرحة تتراقص في عينيه، ضحك الأولاد ووكز أحدهم الآخر. إذ يبدو أن أحدًا من المدرسة قد وشى بهم، وإلا كيف عرف بوجود كل هذه النفائس الغريبة.

«وأين يمكننا وضعها إذن؟»، قال ديمي مقاطعًا ساقيه ومائلًا للأسفل ليناقش المسألة.

«في مرآب العربات القديم».

t.me/qurssan

«لكنه يسرب الماء، وليس فيه نافذة ولا مكان لوضع الأشياء، كما أنه مليء بالغبار وبيوت العناكب».

«انتظروا حتى نتولى أمره أنا وغبس، فستحبونه. سيأتي يوم الاثنين لتحضيره، ثم سآتي السبت القادم وسنصلحه، ونبدأ على الأقل بتأسيس متحف صغير جميل. يمكن للجميع إحضار مقتنياته، ويكون له مكان يضعها فيه، وسيكون دان مديره، لأنه يعرف كثيرًا عن أمور كهذه، وسيكون عملًا بهيجًا هادئًا له الآن إذ لا يستطيع التجوال كثيرًا في الوقت الراهن».

«أليس هذا برائع؟»، قال نات، وشقت وجه دان ابتسامة عريضة ولم يفه بكلمة، لكنه حضن كتابه ونظر إلى السيد لوري كأنه يراه واحدًا من أعظم المحسنين الشهيرين الذين أنعموا على العالم يومًا.

«هل نذهب في جولة أخرى يا سيدي؟»، قال بيتر حين بلغوا البوابة، بعد جولتين بطيئتين في مثلث نصف ميل.

«كلا، علينا أن نكون عاقلين، وإلا لن نستطيع القدوم ثانية. يجب أن أتفقد الأراضي وألقي نظرة على المرآب، وأتحدث قليلًا مع السيدة جو قبل ذهابي». وبعد أن وضع العم تدي دان على أريكته لينال قسطًا من الراحة ويستمتع بكتابه، ذهب ليلهو مع الأولاد الذي ملؤوا المكان ضجيجًا بحثًا عنه. جلست السيدة باير قرب دان، بعد أن تركت الفتيات الصغيرات في الأعلى ليلعبن، واستمعت إلى قصه متحمسًا عن النزهة حتى عاد الجمع، مغبرين

t.me/qurssan

يشعرون بالحر والحماس يملؤهم لأجل المتحف الجديد الذي رآه كل واحد منهم ألمع أفكار القرن.

«أردت دومًا أن أهبكم مرفقًا ما، وسأبدأ بهذا»، قال السيد لوري وهو يجلس على مسند قدمين قرب قدمي السيدة جو.

«لقد وهبتنا واحدًا من قبل. فماذا تسمي هذه؟»، وأشارت السيدة جو إلى الفتية ذوي الوجوه الفرحة، الذي احتشدوا على الأرض قربهما.

«أسميها بستان باير الواعد، وأنا فخور بأني عضو فيها. أتعلمون أنني كنت أول فتيان هذه المدرسة؟»، سأل ملتفتًا نحو دان، مغيرًا الموضوع ببراعة، لأنه يكره أن يشكر على ما قدمه بكرمه.

«حسبت فرانز الأول!»، أجاب دان متسائلًا عما يعنيه الرجل.

«أوه، لا يا عزيزي! لقد كنت أول صبي اعتنت به السيدة جو، وكنت فتى سيئًا للغاية، فهي لم تفرغ من تأديبي بعد رغم أنها عملت على ذلك لسنوات وسنوات».

«لا بد أنها عجوز جدًا!»، قال نات ببراءة.

«لقد بدأت باكرًا كما ترى. يا للمسكينة! كانت في الخامسة عشرة فحسب حين تعهدتني. لقد أتعبتها كثيرًا، وعجيب أنها ليست مغضنة ولا رمادية الشعر ولا منهكة»، قال السيد لوري ونظر إليها ضاحكًا.

«لا تفعل يا تدي، لن أسمح لك أن تسيء لنفسك هكذا!»،

t.me/qurssan

ومسدت السيدة جو الشعر الأسود الأجعد المسند إلى ركبتيها بود كالمعتاد، فبالرغم من كل شيء لم يزل تدي فتاها.

«لولاك لما وُجدت بلمفيلد. لقد كان نجاحي معك يا سيدي، هو ما منحني الشجاعة لتجربة خطتي الأثيرة. لذا يجب أن يشكرك الأولاد على هذا، ويسموا المبنى الجديد «متحف نورنس» تكريمًا لمؤسسه، أليس كذلك، يا أولاد؟»، أضافت وقد بدت كأنها جو النابضة بالحياة من الأيام الخالية.

«سنفعل! سنفعل!»، هتف الأولاد ملقين بقبعاتهم. إذ رغم خلعهم لقبعاتهم عندما دخلوا البيت، وفقًا للقوانين، فإنهم كانوا مستعجلين للغاية ولم يعلقوها.

«إنني جائع مثل دب، أيمكنني الحصول على بسكويتة؟»، سأل السيد لوري، عندما خفت الهتاف وأعرب عن شكره بانحناءة رائعة.

«اذهب واسأل آسيا أن تعطيك صندوق خبز الزنجبيل يا ديمي. الأكل بين الوجبات ممنوع، ولكننا لن نمانع احتفالًا بالمناسبة السعيدة، وسيحصل كل واحد على بسكويتة»، قالت السيدة جو. وحين جاء صندوق البسكويت، وزعته بيدٍ سخية وأخذ الكل يمضغ وهم يتحلقون حول بعضهم.

قال السيد لوري فجأة وهو يأكل: «ويح قلبي، لقد نسيت صرة الجدة!»، وأسرع إلى العربة وعاد حاملًا رزمة بيضاء مثيرة، تبين بعد فتحها أنها تحوي مجموعة منوعة من الكيك الطازج المسكر

t.me/qurssan

والمخبوز باللون البني الجميل في أشكال من السباع والطيور والأشياء الجميلة.

«لكل واحدة كيكة، ورسالة تبين كل واحدة تعود لمن. لقد صنعتها جدتي وهانا وإني لأرتجف خوفًا حين أفكر بما سيحدث لي لو أني نسيت أن أجلبها».

ثم وزعت قطع الكيك وسط الضحك والمرح. سمكة لأجل دان، وكمان لنات، وكتاب لديمي وقرد لتومي، وزهرة لديزي، وطوق لنان التي ذارت حول المثلث مرتين دون توقف، ونجمة لإميل الذي شمخ بأنفه لأنه يدرس الفلك، وأجمل القطع كانت حافلة لفرانز الذي يهوى قيادة حافلة العائلة. حصل ستفي على خنزير سمين، وحصل الأولاد الصغار على عصافير وقططٍ وأرانب لها عيون سود من الكشمش.

«عليَّ الذهاب الآن. أين فتاتي غولدلوكس؟ ستأتي أمها طائرة لتجلبها إن لم نعد باكرين»، قال العم تدي حين اختفى آخر الفتات. وهو ما حدث بسرعة قطعًا.

ذهبت السيدات الصغيرات إلى الحديقة، وأثناء انتظارهن مجيء فرانز إليهن، وقفت جو وتدي عند الباب يتحدثان.

«كيف تبلي المشاكسة الصغيرة؟»، سأل، إذ أضحكته مقالب نان كثيرًا، ولم يسأم من مغايظة جو بشأنها.

«على خير ما يرام، إنها تصبح أكثر تهذيبًا، وأخذت تدرك خطأ أسلوبها الصاخب».

t.me/qurssan

«ألا يشجعها عليه الأولاد؟».

«بلى، لكني أظل أتحدث وقد تحسنت كثيرًا في الآونة الأخيرة. ألم ترها كيف صافحتك مصافحة أنيقة، ولطفها مع بس؟ لقد كان لمثال ديزي أثر عليها، وإني واثقة أننا سنرى العجائب في غضون أشهر قليلة».

عندئذ قاطع حديث السيدة جو ظهور نان تجري عند الزاوية بسرعة مفرطة، قائدة مجموعة تتقد نشاطًا من أربعة أولاد، تتبعهم ديزي تدفع بس في عربة يدوية. خلعت القبعات وطار الشعر وقرقع السوط، وارتجت العربة، وجاؤوا في غيمة غبار وهم يبدون مثل مجموعة صاخبة من السليطات بقدر ما يود المرء رؤية ذلك.

«هؤلاء هم الأطفال المثاليون إذن، أليس كذلك؟ من حسن الحظ أنني لم أحضر السيدة كيرتس لترى مدرستك لتهذيب الأخلاق والسلوك. فلم تكن لتتعافى من صدمة هذا المنظر»، قال السيد لوري ساخرًا من فرح السيدة جو المبتسر لتحسن سلوك نان.

«اسخر كما تشاء، لكني سأنجح. كما اعتدت القول في الكلية، مقتبسًا من أستاذ ما «رغم فشل التجربة، لكن المبادئ تظل ثابتة»»، قالت السيدة باير، مجارية إياه في مزاحه.

«أخشى أن يؤثر نموذج نان على ديزي، بدلًا من حدوث العكس. انظري إلى أميرتي الصغيرة! لقد نسيت أناقتها تمامًا، وتصرخ مثل البقية. ما معنى هذا أيتها الشابات؟»، وأنقذ السيد لوري ابنته الصغيرة من الهلاك الوشيك، لأن الخيول الأربعة كانت

t.me/qurssan

تركض وتقمص بجنون حولها، وهي جالسة تلوح بسوط كبير بكلتا يديها.

«إننا نتسابق، وسأفوز أنا»، صاحت نان.

«لولا أنني أخشى إسقاط بس لجريت بسرعة أكبر»، هتفت ديزي.

«مرحبًا! أسرعي!»، قالت الأميرة، ضاربة بسوطها ضربة قوية جعلت الخيول تركض أسرع ولم تعد ترى.

«يا لطفلتي الغالية! تعالي من هذا الحشد الصاخب وإلا فسد سلوكك. إلى اللقاء يا جو! حين آتي في المرة القادمة سأنتظر رؤية الأولاد يصنعون المرقعات».

«لن يضرهم ذلك في شيء، وتذكر أنني لا أستسلم لأن تجاربي تفشل دومًا بضع مرات قبل أن أحصد نجاحها. بلّغ حبي لإيمي ومارمي الجميلة»، قالت السيدة جو والعربة تبتعد، وآخر ما رآه منها السيد لوري، كانت تواسي ديزي لخسارتها بجولة في العربة اليدوية، كأنها تحب ذلك.

كان الحماس عظيمًا طوال الأسبوع إزاء الإصلاحات في المرآب، التي مضت على قدم وساق رغم أسئلة الأولاد الملحة ونصائحهم وتدخلهم. كاد غبس العجوز أن يجن بكل هذا، غير أنه أفلح في إنجاز عمله، وبحلول ليلة الجمعة غدا المكان جاهزًا، فقد أصلح السقف، وركبت الرفوف، وطليت الجدران بالأبيض، وفتحت نافذة كبيرة في الخلف تسمح بدخول قدر كبير من ضوء الشمس،

t.me/qurssan

وتمنحهم إطلالة جميلة على الغدير والمروج والروابي البعيدة. وكتب «متحف لورنس» بحروف حمراء فوق الباب الكبير.

كان الأولاد يخططون طوال صباح السبت لتأثيث المتحف بغنائمهم، وعندما وصل السيد لوري جالبًا معه حوض سمك قالت السيدة إيمي إنها سئمت منه، كان فرحهم عظيمًا.

انقضت العصرية في ترتيب الأشياء، وحين انتهى الركض والجر والضرب بالمطرقة، دعيت السيدات لرؤية المبنى.

كان مكانًا بهيجًا بلا ريب، حسن التهوية ونظيفًا ومشمسًا. وهزت حشيشة الدينار أجراسها الخضر حول النافذة المفتوحة، ووضع حوض السمك الجميل وسط المكان، والنبتات المائية الرقيقة ترتفع فوق الماء، والأسماك الذهبية تبدي زينتها وهي تسبح جيئة وذهابًا في الأسفل. وضعت رفوف على جانبي النافذة، جاهزة لاستقبال الطرائف التي سيعثر عليها. ووضعت خزانة ذات العالية أمام الباب الكبير الذي ألغي، وسيستعمل الباب الصغير عوضًا عنه. وضع على الخزانة تمثال هندي غريب، قبيح للغاية لكنه مثير جدًا، أرسله السيد لورنس العجوز، إلى جانب سفينة الينك الصينية بكل أشرعتها، التي أفرغ لها مكان بارز على الطاولة الكبيرة وسط المرآب. في الأعلى، علقت پولي التي ماتت لتقدم العمر، تتأرجح في حلقات كأنها على قيد الحياة، وقد حنطت بعناية وقدمتها السيدة جو. زينت الجدران بمختلف صنوف الأشياء. من قبيل جلد حية، وعش دبابير كبير وزورق مصنوع من لحاء البتولا، وسليكة من

t.me/qurssan

بيض الطيور، وأكاليل من الأشنات الرمادية من الجنوب، وحزمة من أجراس القطن. حظي الوطواطان الميتان بمكان، وكذلك صدفة السلحفاة، وبيضة نعام قدمها ديمي فخورًا، وقد تطوع لشرح هذه الطرائف النادرة للضيوف كلما أرادوا. كانت الحجارة كثيرة ولم يكن بالمستطاع حفظها كلها، لذا نظمت بعض من أفضلها بين الأصداف على الرفوف، وكومت البقية في الزوايا ليفحصها دان كلما سنح له الوقت.

تلهف الجميع لتقديم شيء ما، حتى سايلس الذي أرسل إلى دياره طالبًا قطًا بريًا محنطًا صاده في شبابه. كان باليًا أكلته العثة نوعًا ما، ولكنه بدا جميلًا حين رُفع على كتيفة عالية بإبراز الجانب الجيد منه، وبدا حيًا إذ لمعت العينان الصفراوان الزجاجيتان وزمجر فمه، مما جعل تدي ترتعد فرائصه لدى رؤيته عندما جاء حاملًا شرنقة كنزه الأغلى، لتوضع في معبد العلم.

«أليس هذه رائعًا؟ لم أعلم أننا نملك هذا القدر من الطرائف. جلبت هذه، ألا تبدو جميلة؟ يمكننا جمع الكثير من المال إن تقاضينا مالًا من الناس ليروا المتحف».

أدلى جاك بهذا الاقتراح الأخير أثناء حديث العائلة الذين تجمعوا لرؤية المكان.

«هذا متحف مجاني وإن سمعت أن أحدًا خالف ذلك فسأكتب اسمه على الباب»، قال السيد لوري ملتفتًا بسرعة جعلت جاك يتمنى لو حفظ عليه لسانه.

t.me/qurssan

«اسمعوا! اسمـ '!»، قال السيد باير.

«نريد خطـ يد خطبة!»، أضافت السيدة جو.

«لا أستطيع. فأنا خجول جدًا. فلتلق عليهم محاضرة، فأنت معتادة»، أجاب السيد لوري متراجعًا نحو النافذة محاولًا الهرب. لكنها أمسكت به بسرعة وقالت ضاحكة وهي تنظر إلى الأيادي القذرة المحيطة بها:

«إن ألقيت محاضرة، فستكون عن الكيماويات والخصائص المنظفة للصابون. هلم الآن، عليك حقًا أن تقول لنا بضع عبارات في الخلق الحسن، بوصفك مؤسسًا للمكان، وسنصفق لك بحرارة».

ولما رأى السيد لوري أن لا مناص، نظر إلى پولي المعلقة في الأعلى، كأنه يجد الإلهام في الطائر العجوز الذكي، وجلس على طاولة قائلًا بأسلوبه المرح:

«ثمة أمر واحد أود الإشارة إليه يا أولاد، وهو بأن تحصلوا من هذا على بعض الفائدة إلى جانب الكثير من المرح. ووضع الطرائف فحسب لن يحقق ذلك، لذا لتقرؤوا عنها لتتمكنوا من الإحاطة بها وإجابة من يسألكم عنها. كنت أنا أيضًا أحب هذه الأشياء، وأحب الاستماع إلى الحديث عنها إذ نسيت كل ما أعرفه. لم يكن ذلك بالقدر الكبير، أليس كذلك يا جو؟ عندكم دان، لديه الكثير من الحكايات عن الطيور والحشرات وغيرها، دعوه يعتنِ بالمتحف. أما البقية؛ فسيقرأ واحد منكم كل أسبوع مقالًا، أو يحكي عن حيوان أو معدن أو نبات. سنحب هذا جميعًا،

t.me/qurssan

وأحسبه سيملأ عقولكم بقدر كبير من المعرفة النافعة. ما قولك أيها الأستاذ؟».

«أحب ذلك كثيرًا، وسأقدم للأولاد كل ما استطعت من عون. لكنهم سيحتاجون كتبًا للقراءة حول هذه المواضيع الجديدة، وأخشى أننا لسنا نملك منها الكثير». قال السيد باير والفرحة بادية عليه، ويفكر بكثير من المحاضرات حول علم الأرض الذي يحبه. «يجب أن يكون عندنا مكتبة من أجل هذا الهدف الرائع».

«أهذا الكتاب مفيد يا دان؟»، سأل السيد لوري مشيرًا إلى المجلد المفتوح فوق الخزانة.

«أوه، نعم! إن فيه ما أريد معرفته عن الحشرات. جلبته هنا لأعرف كيف أثبت الفراشات تثبيتًا صحيحًا. لقد جلدته حتى لا يتلف»، ورفعه دان وهو يخشى أن يظنه معيرُه مهملًا.

«أعطه لي لحظة»، وأخرج السيد لوري قلمه الرصاص وكتب اسم دان عليه قائلًا وهو يضع الكتاب في طرف أحد الرفوف لا شيء عليه سوى طير محنط لا ذيل له «إليك، هذه بداية مكتبة المتحف. سأبحث عن مزيد من الكتب، وسيحرص ديمي على ترتيبها. أين تلك الكتب الرائعة التي كنا نقرأها يا جو؟ أحدها عنوانه بيوت الحشرات أو عنوان مشابه، وكله عن معارك النمل، وملكات النحل، والجداجد تقرض ثيابنا وتسرق الحليب، وأشياء ممتعة من هذا القبيل».

«في البيت في العلية. سأخرجها وسنغوص في التاريخ الطبيعي بهمة ونشاط»، قالت السيدة جو المستعدة لأي شيء.

«ألن تكون الكتابة عن أشياء كهذه صعبة؟»، قال نات الذي يكره كتابة المقالات.

«ربما تكون كذلك في البداية، لكنك ستحبها سريعًا. إن كنت ترى هذا صعبًا، فما قولك إن أعطيت هذا المقال كما أعطي لفتاة في الثالثة عشرة: حوار بين ثيمستوكلس وأرستيديس وبريكليس[1] حول المخصصات المقترحة من أموال حلف جزيرة ديلوس لتزيين أثينا؟»، قالت السيدة جو.

امتعض الصبية لوقع الأسماء الطويلة فحسب، وضحك الرجلان على غرابة الدرس.

«هل كتبته؟»، سأل ديمي بنبرة مذهولة.

«أجل، ولكن تخيلوا المقال الذي كتبته، رغم أنها كانت طفلة لامعة».

«ليتني رأيته»، قال السيد باير.

«لعلي أجده لك، لقد ارتدت المدرسة معها»، وبدت السيدة جو ماكرة جدًا، فعرف الجميع من الفتاة الصغيرة.

فرح الأولاد بأنهم سيكتبون عن أشياء مألوفة بعدما سمعوا عن هذا الموضوع المرعب. وحدد عصر الأربعاء موعدًا لسماع

---

(1) ثيمستوكلس: قائد أثيني، أقنع الأثينيين بزيادة القوات البحرية ونقل الميناء من فالرون إلى بيروس وتمكن باقتراحاته هذه من إنقاذ أثينا من الفرس. أرستديس: سياسي وقائد عسكري أثيني يلقب بالعادل، اشتهر بدوره في الحرب ضد الفرس. بيركلس: قائد أثيني تولى حكم أثينا في العصر الذهبي.

t.me/qurssan

المحاضرات، كما فضلوا تسميتها، إذ اختار بعضهم أن يتحدث بدلًا من الكتابة. ووعد السيد باير بحفظ المقالات المكتوبة في ملف، وقالت السيدة باير أنها ستحضر هذه الصفوف بسعادة كبيرة.

ثم ذهب ذوو الأيادي القذرة للاغتسال يتبعهم الأستاذ، محاولًا تهدئة قلق روب الذي قال له تومي إن كل المياه مليئة بالشراغف.

«أحببت الفكرة كثيرًا، ولا يكن سخاؤك كبيرًا يا تدي»، قالت السيدة باير عندما ظلا وحدهما. «تعلم أن على معظم الأولاد أن يجدفوا زوارقهم بأنفسهم عندما يغادروننا، ولن يجديهم الدلال نفعًا كبيرًا».

«سأكون معتدلًا، ولكني دعيني أمتع نفسي. إني أسأم سأمًا كبيرًا من التجارة أحيانًا، ولا شيء يجدد روحي مثل اللهو الجيد مع أولادك. أحببت دان كثيرًا يا جو. إنه ليس نزاعًا لإبداء مشاعره، لكن له عيني صقر، وإن روضته قليلًا بعد فسيكون عونًا لك».

«يسرني أنك ترى هذا. شكرًا جزيلًا على لطفك معه، وبخاصة على هذا المتحف. سيجعله هذا سعيدًا أثناء توعكه، ويمنحني فرصة لترقيق هذا الفتى المسكين الجلف وتهدئته، وجعله يحبنا. ما الذي أوحى لك بفكرة جميلة مفيدة كهذه يا تدي؟»، سألت السيدة باير ناظرة إلى المكان البهيج، وهي تستدير لتغادره.

أخذ لوري كلتا يديها في يديه، وأجاب بنظرة جعلت عينيها تغرورقان بدموع الفرح:

t.me/qurssan

«عزيزتي جو! إني أعلم معنى أن يكون الولد بلا أم، ولن أنسى ما حييت ما فعلت لي أنت وأمك من أجلي كل هذه السنين».

t.me/qurssan

(١٢)
جني توت العنبية

في عصر يوم من أيام أغسطس، وقع الكثير من ارتطام الدلاء الصفيحية، والكثير من الركض جيئة وذهابًا، وتعالت طلبات مستمرة لتناول شيء، إذ كان الأولاد ذاهبين لجني العنبية، وتحمسوا كثيرًا لذلك كأنهم ذاهبون للبحث عن الممر الشمالي الغربي[١].

«والآن يا فتيتي، اخرجوا بهدوء قدر ما استطعتم، إذ أنتم في مأمن من روب ولن يراكم»، قالت السيدة باير، وهي تعقد شريط قبعة ديزي العريضة، وترتب الميدعة الزرقاء الكبيرة التي ألبستها لنان.

لكن الخطة لم تنجح، إذ سمع روب صخبهم وعزم على الذهاب وأعد نفسه دون تفكير بالخيبة. كان الجيش قد مضى قليلًا حين جاء الرجل الصغير ينزل الدرج معتمرًا أفضل قبعاته، حاملًا في يده دلوًا صفيحيًا لامعًا، ووجهه يشع سرورًا.

(١) الممر البحري الذي يربط المحيط الأطلسي بالمحيط الهادي عبر أرخبيل القطب الشمالي الكندي.

t.me/qurssan

«أوه يا إلهي! والآن ستبدأ المأساة»، تنهدت السيدة باير التي تعرف أن ولدها الأكبر صعب القياد أحيانًا.

«أنا مستعد تمامًا»، قال روب وأخذ مكانه في الصفوف بغفلة تامة عن خطئه، وكان رده خائبًا أمرًا صعبًا حقًا.

«إن المكان بعيد عليك يا حبي، ابق هنا واعتن بي لأني سأظل وحيدة»، قالت أمه.

«عندك تدي. أنا ولد كبير، لذا أستطيع الذهاب، قلت إني أستطيع حين أكبر، وهأنا كبرت»، أصر روب، وأخذت غيمة تكدر صفو وجهه السعيد.

«نحن ذاهبون إلى المرعى الكبير، وهو بعيد للغاية، ولا نريدك أن تؤخرنا»، قال جاك الذي لا يحب الأولاد الصغار.

«لن أفعل، بل سأركض وأواكبكم. ماما! دعيني أذهب! وأريد بشدة أن أملأ دلوي الجديد، وسأجلب كل ما أجنيه لك. أرجوك أرجوك، سأكون مطيعًا!»، توسل روبي ناظرًا إلى أمه، الحزينة المحبطة وقد أخذ قلبها يلين.

«ولكن يا عزيزي، ستشعر بالتعب والحر ولن تستمتع بوقتك. انتظر حتى أذهب، فنقضي كل النهار ونجني من التوت ما تشاء».

«أنت لا تفعلين هذا أبدًا، فأنت مشغولة جدًا، وقد سئمت من الانتظار. أفضل الذهاب بنفسي وإحضار التوت إليك. أحب قطفه، أريد بشدة ملء دلوي»، نشج روب.

t.me/qurssan

رقت قلوب السيدات الحاضرات للمنظر الحزين من الدموع الكبيرة التي تتدحرج في الدلو الجديد، وتنذر بملئه بالماء المالح عوضًا عن العنبية. ربتت الأم على ظهر الباكي، وعرضت عليه ديزي أن تبقى في البيت معه وقالت نان بأسلوبها الحازم:

«دعيه يأتِ، سأعتني به».

«لو أن فرانز ذاهب لما مانعت، فهو حريص جدًا، لكنه يجفف التبن مع الأب، ولست واثقة بحرص بقيتكم»، قالت السيدة باير.

«إنه بعيد جدًا»، تدخل جاك.

«لو كنت ذاهبًا لحملته، ليتني أستطيع»، قال دان متنهدًا.

«شكرًا لك يا عزيزي، ولكن عليك الاعتناء بقدمك. ليتني أستطيع الذهاب. انتظروا لحظة، أحسب أن بوسعي تدبر ذلك»، وركضت السيدة باير نحو العتبات ملوحة بمئزرها بحماس.

كان سايلس يقود عربة التبن، لكنه عاد ووافق في الحال حين طلبت السيدة جو أن يأخذ الجمع كله إلى المرعى، ويعود لأخذهم في الساعة الخامسة.

«سيؤخر ذلك عملك قليلًا ولكن لا بأس، سنعوضك بفطائر العنبية»، قالت السيدة جو وهي تعرف نقطة ضعف سايلس.

أشرق وجهه الخشن الأسمر وقال مبتهجًا: «هوا هوا يا سلام، إن كنت سترشينني، فسأوافق في الحال يا سيدة باير».

«والآن يا أولاد، لقد رتبت لكم الأمر حتى يتسنى لكم جميعًا

t.me/qurssan

الذهاب»، قالت السيدة باير وقد عادت إليهم وهي تشعر بالراحة لأنها تحب إسعادهم، وتحزن كلما كدرت صفو خاطر ولديها الصغيرين، إذ تؤمن بوجوب احترام الكبار لآمال الأطفال وخططهم ومسراتهم الصغيرة، وألا يُسخر منها أو يحط من شأنها بوقاحة.

«أيمكنني الذهاب؟»، قال دان.

«لقد فكرت بك خاصة. كن حذرًا، ولا تهتم بجني العنبية بل اجلس وتمتع بالأشياء الجميلة التي تجيد العثور عليها حولك»، أجابت السيدة باير وقد تذكرت عرضه اللطيف في الاعتناء بابنها.

«أنا أيضًا! أنا أيضًا!»، ترنم روب وهو يرقص فرحًا ويصفق بدلوه الغالي وغطائه مثل الصنجات.

«أجل، ويجب أن تعتني بك ديزي ونان جيدًا. تجمعوا عند السياج عند الساعة الخامسة، وسيأتي سايلس لإحضاركم».

ألقى روبي بنفسه على أمه في دفقة امتنان، واعدًا أن يجلب لها كل ثمرة يقطفها وألا يأكل واحدة. ثم حملوا جميعًا في عربة التبن، ودرجت تقعقع. كان الوجه الأكثر إشراقًا بين الوجوه وجه روب، إذ جلس بين أميه المؤقتتين، مبتسمًا للعالم كله، وملوحًا بأفضل قبعاته لأن أمه المتسامحة لم تواتها الشجاعة لحرمانه من الرحلة، إذ كان هذا يوم سعده.

لقد قضوا عصرية سعيدة، رغم كل الحوادث التي تقع عادة في رحلات كهذه! وقع حادث لتومي، فقد تعثر بعش دبابير ولدغ،

t.me/qurssan

ولأنه اعتاد المصائب، فقد احتمل الألم برجولة، حتى اقترح دان وضع التراب الرطب الذي خفف الألم. رأت ديزي أفعى، وخسرت نصف ما جمعت من توت. لكن ديمي ساعدها لتملأ دلوها ثانية، وتحدث طوال ذلك عن الأفاعي بعلم واسع. وقفز ند من شجرة، وشق سترته من الخلف، لكنه لم يصب بأذى. تشاجر إميل وجاك وكل منهم يدعي أحقيته في رقعة كثيفة، وإذ هما يتشاجران حول ذلك جرد ستفي الأغصان بهدوء وأسرع ليكون في حماية دان الذي استمتع كثيرًا. لم يعد بحاجة للعكازين، وسر لرؤية قوة قدمه وهو يطوف في أنحاء المرعى الكبير المليء بالصخور والجدعات المثيرة، وفي العشب حيوانات صغيرة يعرفها، وحشرات يعرفها ترقص في الهواء.

غير أن المغامرة التي كان بطلاها روب ونان أكثر مغامرات هذه العصرية إثارة، وظلت لوقت طويل إحدى القصص المفضلة للعائلة. أخذت نان تقطف التوت اللامع مثل خرزات سوداء كبيرة على الأغصان الخضراء الخفيضة، بعد أن استكشفت الأرض استكشافًا تامًا، وقدّت ثلاثة شقوق في ثوبها، وخدشت وجهها شجيرة البرباريس. كانت أصابعها الرشيقة سريعة، لكنها لم تملأ سلتها بسرعة قدر ما تمنت، لذا ظلت تتجول هنا وهناك باحثة عن أفضل الأماكن، بدلًا من القطف باستمرار ورضا كما تفعل ديزي. تبع روب نان، إذ أعجبه نشاطها أكثر من صبر ابنة خالته، وقد كان هو الآخر متحمسًا للحصول على أكبر الثمار وأفضلها لأمه.

«أواصل وضعها لكن السلة لا تمتلئ، وقد تعبت»، قال روب

t.me/qurssan

متوقفًا لحظة ليريح ساقيه القصيرتين، وأخذ يرى أن جني العنبية لم يكن قط مثل الصورة التي رسمها له، فالشمس حارقة، ونان تقفز هنا وهناك مثل الجندب، والتوت يسقط من دلوه ما إن يضعه فيه، إذ كثيرًا ما انقلب الدلو وروب يجاهد لإبعاد الأغصان.

«آخر مرة جئنا فيها كانت أكثر خلف هذا السور، في ثمار هائلة، وثمة كهف أشعل فيه الأولاد النار. لنذهب ونملأ دلوينا بسرعة، ثم نختبئ في الكهف ليبحث عنا الآخرون»، اقترحت نان وهي تتعطش للمغامرة.

وافق روب، وذهبا يتسلقان السور ويركضان في الحقول المنحدرة على الجانب الآخر، حتى اختفيا خلف الصخور والأجمات. كان التوت كثيرًا، وامتلأ الدلوان أخيرًا. وكان المكان باردًا وظليلًا، وشرب الطفلان الظمآنان ماء منعشًا من مياه الجدول الصغير التي تكسوها الطحالب.

«سنذهب الآن وننال قسطًا من الراحة في الكهف، ونتناول غداءنا»، قالت نان راضية عن نجاحها حتى الآن.

«أتعرفين طريق العودة؟»، سأل روب.

«أعرفه طبعًا، لقد جئت هنا قبلًا وأتذكر دومًا. ألم أذهب وأجلب صندوق متاعي؟».

أقنع هذا روب، وتبع نان بثقة عمياء وهي تمشي فوق الجدول والصخور، وجاءت به بعد تسكع طويل إلى فسحة صغيرة في الصخور، إذ أثبتت الصخور المسودة أن نارًا أشعلت هنا.

t.me/qurssan

«أليس هذا جميلًا؟»، سألت نان وهي تخرج قطعة من الخبز المدهون بالزبدة، وقد تلفت قليلًا لاختلاطها مع المسامير وشصوص الصيد والحجارة وغيرها من الأشياء الغريبة في جيب الشابة.

«بلى. أتظنينهم سيجدوننا قريبًا؟»، سأل روب الذي وجد الوهدة الظليلة معتمة قليلًا، وتحرق لوجود مزيد من الأصحاب.

«كلا، لا أظن. لأني سأختبئ إن سمعت أصواتهم وأضحك وهم يبحثون عني».

«قد لا يأتون».

«لا تلق بالًا، يمكنني العودة بنا إلى البيت».

«أهو طريق طويل؟»، سأل روب ناظرًا إلى حذائه الصغير العريض، وقد خُدش وتبلل من المشي الطويل.

«أظنه يبلغ ستة أميال»، كان تصور نان عن المسافات مشوشًا، وإيمانها بقدراتها عظيمًا.

«أحسب أنه يجدر بنا الذهاب»، قال روب أخيرًا.

«لن أذهب حتى أقطف ثماري»، وبدأت نان ما رآه روب مهمة لا نهائية.

«أوه يا إلهي! لقد قلت إنك ستعتنين بي جيدًا»، تنهد حين أخذت الشمس تغرب خلف الرابية فجأة.

«حسن، إنني أعتني بك قدر ما أستطيع. لا تكن شكسًا يا صغير،

t.me/qurssan

سأعود بعد لحظة»، قالت نان التي لم ترَ في روبي إلا طفلًا في الخامسة مقارنة بنفسها.

لذا جلس روب ينظر حوله قلقًا، وينتظر صابرًا، لأنه وثق ثقة عظيمة بنان رغم بعض المخاوف.

«أظن أن الليل سيهبط قريبًا»، قال كأنما يحدث نفسه حين قرصته بعوضة وأخذت الضفادع في سبخة قريبة تعزف مقطوعتها المسائية.

«يا ربي! هذا صحيح. تعال معي في الحال، وإلا ذهبوا عنا»، قالت نان وقد رفعت رأسها عن عملها وأدركت فجأة أن الشمس غربت.

«لقد سمعت نفيرًا قبل زهاء ساعة، لعلهم كانوا يصفرون لنا»، قال روب مهرولًا خلف مرشدته وهي تصعد التل العالي.

«أين كان؟»، سألت نان وقد توقفت قليلًا.

«من هذا الطريق»، أشار بإصبع قذرة في الاتجاه الخاطئ تمامًا.

«لنذهب من هذا الطريق لنلاقيهم»، وركضت نان، وأخذت تهرول بين الشجيرات وقد ساورها شيء من القلق، إذ كان في الأنحاء كثير من دروب البقر فلم تتذكر من أيها جاءا.

وسارا فوق الصخور والجذول، يتوقفان بين الفينة والأخرى ليصغيا للنفير الذي لم يصفر ثانية، بل كان مواء بقرة عائدة إلى البيت.

«لا أتذكر رؤية تلك الكومة من الصخور، أتذكرها؟»، سألت نان حين جلست على السور لترتاح لحظة وتنظر إلى ما حولها.

«لست أذكر شيئًا، لكني أريد العودة إلى البيت»، وتهدج صوت روب قليلًا مما حدا بنان أن تلف ذراعيها حوله وترفعه برفق قائلة بأسلوبها الواثق جدًا:

«سأعود بك بأقصى ما استطعت من سرعة يا عزيزي، فلا تبك، وحين نصل إلى الطريق سأحملك».

«وأين الطريق؟»، ومسح روبي عينيه ليراه.

«هناك قرب الشجرة الكبيرة. ألا تدري أن هذه التي سقط منها ند؟».

«جيد. لعلهم ينتظرونا، أود العودة إلى البيت بالعربة، ألا تريدين ذلك؟»، وابتهج روبي وهو يتثاقل نحو طرف المرعى الكبير.

«كلا، بل أفضل المشي»، أجابت وهي واثقة بأنها ستضطر لفعل ذلك، وأعدت ذهنها لهذا الأمر.

مشية طويلة أخرى خلال الغسق الذي يزداد عتمة ومنّيا بخيبة أخرى، إذ لما وصلا الشجرة، اكتشفا خائفين أنها لم تكن التي تسلقها ند، ولم يظهر الطريق في أي مكان.

«أضللنا الطريق؟»، ارتعد روب، متشبثًا بدلوه يائسًا.

«ليس كثيرًا. لست أعرف أي طريق نسلك، وأحسب أنه يجدر بنا أن ننادي».

t.me/qurssan

فأخذ كلاهما يصرخ حتى بح صوتاهما، ولم يجبهما إلا الضفادع في جوقة كاملة.

«ثمة شجرة باسقة أخرى هناك، لعلها تلك»، قالت نان التي حزنت رغم أنها لم تتزل تتحدث بشجاعة.

«لا أحسبني قادرًا على السير أكثر، إن حذائي ثقيل جدًا ولا يمكنني جره»، وجلس روبي على صخرة منهكًا تمامًا.

«علينا البقاء هنا طوال الليل إذن. إن لم تأتِ الأفاعي فلا بأس بهذا».

«أنا أخاف الأفاعي، ولا يمكنني البقاء طوال الليل. أوه يا إلهي! لا أحب أن أضيع»، وغمس روب وجهه ليبكي حين خطرت له فكرة مفاجئة وقال بنبرة واثقة تمامًا:

«ستأتي ماما للبحث عني، إنها تفعل دومًا، وأنا لست بخائف الآن»

«لن تعرف مكاننا».

«لم تعرف أنني محبوس في مخزن الثلج، لكنها وجدتني. أعلم أنها ستأتي»، أجاب روبي واثقًا فشعرت نان بالارتياح وجلست قربه قائلة بتنهيدة ندم:

«ليتنا لم نهرب».

«لقد أخذتني، لكني لا أهتم. ستحبني أمي الحب نفسه»، أجاب روب متشبثًا بطوق النجاة الوحيد بعد أن خابت كل الآمال.

t.me/qurssan

«أنا جائعة جدًا. لنأكل التوت»، قالت نان بعد صمت وهز روب رأسه.

«وأنا كذلك، لكني لن آكل ثماري، فقد وعدت أمي أن أبقيها لها كلها».

«سيتعين عليك أكلها إن لم يأتِ أحد لأجلنا»، قالت نان التي شعرت برغبة في الاعتراض على كل شيء عندئذ. «إن ظللنا هنا لأيام عدة سنأكل التوت في الحقول كلها، ثم سنتضور جوعًا»، أضافت عابسة.

«سآكل الساسفراس. أعرف شجرة كبيرة من أشجارها، وأخبرني دان أن السناجب تحفر بحثًا عن الجذور وتأكلها، وأنا أحب الحفر»، أجاب روب دون أن يتأثر بفكرة التضور جوعًا.

«أجل، ويمكننا صيد الضفادع وطبخها. أكل أبي بعضها ذات مرة، وقال إنها لذيذة جدًا»، قالت نان وقد أخذت تجد نكهة رومانسية حتى وهما ضائعان في حقل العنبية.

«كيف نطبخ الضفادع؟ ليس عندنا نار».

«لا أدري. سأحمل في جيبي أعواد الثقاب معي في المرة القادمة»، قالت نان وقد أحبطت قليلًا لهذه العقبة التي تحول دون طبخ الضفادع.

«ألا يمكننا إشعال النار باليراعة؟»، سأل روب مفعمًا بالأمل وهو يراها تطير جيئة وذهابًا مثل شرر مجنح.

t.me/qurssan

«النجرب»، وقضيا عدة دقائق سعيدة في صيد اليراعات، محاولين جعلها تضرم النار في غصين أخضر أو اثنين. «إن تسميتها بذبابة النار خاطئة ما دام ليس فيها نار»، قالت نان ملقية بحشرة تعسة بعبوس، رغم أنها أضاءت قدر جهدها، ومشت طائعة على الأغصان لتسعد المجربين البريئين.

«ستأتي أمي بعد قليل»، قال روب بعد صمت آخر راقبا أثناءه النجوم في الأعالي، وتنشقا السرخس المسحوق تحت الأقدام، وأصغيا إلى نشيد الجداجد.

«لست أفهم لم خلق الرب الليل، إن النهار أكثر بهجة»، قالت نان بتبصر.

«خلقه للنوم»، أجاب روب متثائبًا.

«نم إذن»، قالت نان آسفة.

«أريد فراشي. أوه ليتني أستطيع رؤية تدي!»، قال روب متحسرًا، وقد ذكرته بالبيت سقسقة العصافير الرقيقة وهي آمنة في أعشاشها الصغيرة.

«لا أظن أمك ستجدنا أبدًا»، قالت نان التي يئست لأنها تكره الانتظار بصبر بكل صوره «إن المكان مظلم جدًا ولن ترانا».

«كان المكان مظلمًا للغاية في مخزن الثلج، وكنت خائفًا جدًا فلم أنادِها لكنها رأتني وستراني الآن، مهما كان الظلام دامسًا»، أجاب روب المؤمن، وقد وقف متظرًا في العتمة العون الذي لم

t.me/qurssan

،خلَ عنه قط. «إني أراها! إني أراها!»، قال وركض بسرعة قدر ،ا سمحت له ساقاه المتعبتان نحو شيء معتم يقترب. لكنه توقف ،منه، ثم استدار وعاد متعثرًا يصرخ في هلع شديد.

«كلا، إنه دب كبير أسود!»، وأخفى وجهه في تنورة نان.

جبنت نان للحظة، وخانتها شجاعتها لرؤية دب حقيقي، وكادت تستدير وتفر هاربة في صخب عظيم، حين حولت «موا» هادئة فزعها إلى مرح، وقالت ضاحكة:

«إنها بقرة يا روبي! البقرة السوداء اللطيفة التي رأيناها عصر اليوم».

كأن البقرة أحست أن رؤية طفلين صغيرين في المرعى بعد حلول الظلام أمر ليس بعادي، ووقفت البهيمة الأليفة لتسأل عن الحال. سمحت لهما بالتربيت عليها، ووقفت تحملق فيهما بعينيها الرقيقتين بهدوء، وساورت نان، التي لا تخشى من الحيوانات إلا الدب، رغبة في حلبها.

«علمني سايلس الحلب، وسيكون التوت لذيذًا مع الحليب»، قالت وهي تفرغ ما بدلوها في قبعتها، وأقدمت على مهمتها الجديدة بجسارة، أما روب فقد وقف قربها وردد بناء على طلبها قصيدة من الأم الإوزة:

أيتها البقرة الأليفة الجميلة، أغدقي حليبك

أغدقي عليَّ حليبك

t.me/qurssan

وسأعطيك دثارًا من الحرير

دثارًا من الحرير ووتدًا من الفضة

لم يكن للأنشودة الخالدة من الأثر إلا قليل، إذ حُلبت البقرة الودودة من قبل، ولم تعط إلا نصف غِل للطفلين الظمآنين.

«شو! اذهبي! لست إلا حمقاء عجوز شكسة»، قالت نان جاحدة وهي تكف عن المحاولة في يأس، ومشت مولي المسكينة بغرغرة ناعمة دهشة وامتعاضًا.

«يمكن لكل منا أن يرشف رشفة، ثم علينا أن نمشي. لأننا سننام إن لم نفعل، ولا يجدر بالتائه أن ينام. ألا تعرف كيف نامت هانا لي في الحكاية الجميلة تحت الثلج وماتت؟».

«ولكن ما من ثلج هنا، والجو جميل ودافئ»، قال روب الذي لم يتمتع بخيال متقد بقدر نان.

«لا يهم، سنمشي قليلًا وننادي، وإن لم يأتِ أحد سنختبئ تحت الشجيرات مثل عقلة الإصبع وإخوته».

سارا قليلًا فحسب، إذ كان روب نعسًا للغاية ولم يستطع المضي قدمًا، وتعثر كثيرًا فنفد صبر نان تمامًا، التي أربكتها المسؤولية التي حملتها على عاتقها.

«إن تعثرت ثانية سأهزك»، قالت وهي تنهض الرجل الصغير المسكين برفق وهي تتكلم، إذ كان صراخ نان أسوأ من عضتها.

«لا تفعلي أرجوك. إن حذائي ينزلق باستمرار»، وكتم روب

t.me/qurssan

.. هولة البكاء الذي أوشك على الانفجار، قائلًا بصبر وحزن رق ا، «لـ نان: «لولا عضات البعوض لنمت حتى تأتي أمي».

«ضع رأسك على حجري وسأغطيك بميدعتي. أنا لا أخاف الليل»، قالت نان جالسة تحاول إقناع نفسها أنها لا تبالي بالظلال ، لا بالحفيف الغامض من حولها.

«أيقظيني حين تأتي»، قال روب وغط في نوم عميق في خمس دقائق ورأسه في حجر نان تحت الميدعة.

جلست الفتاة الصغيرة لخمس عشرة دقيقة، تحدق فيما حولها بعينين ملؤهما القلق، وتشعر بكل دقيقة كأنها ساعة. ثم أخذ ضوء شاحب يتلألأ أعلى التلة، فقالت في نفسها:

«أحسب الليل انصرم وقد طلع الصبح. أحب رؤية شروق الشمس، لذا سأرقبه وحين تطلع يمكننا أن نجد طريق العودة».

ولكن نان غطت في النوم قبل أن يطلع القمر بوجهه المدور فوق التلة ليحطم أملها، متكئة على تعريشة من السراخس الطويلة، وكانت في عمق حلم متصف لليلة صيف مليء باليراعات والميادع الزرقاء، وجبال توت العنبية، وروبي يمسح دمع البقرة السوداء التي بكت قائلة: «أريد العودة إلى البيت! أريد العودة إلى البيت!».

أثناء نوم الطفلين، يهدهدهما الطنين الناعس للكثير من البعوض المجاور، كان أفراد العائلة في البيت في لغط عظيم. إذ جاءت عربة التبن في الخامسة، وكان الجميع عند السور بانتظارها عدا جاك وإميل

t.me/qurssan

ونان وروب. قادها فرانز بدلًا من سايلس، وحين قال له الأولاد إن الآخرون عادوا إلى البيت عبر الغابة قال مستاء: «كان عليهم أن يجعلوا روب يركب العربة. سيتعبه المشي الطويل».

«إن الطريق أقصر من هناك، وسيحملونه»، قال ستفي الذي كان في عجلة من أمره لتناول عشائه.

«أواثقون أن نان وروب ذهبا معهما؟».

«بالطبع، لقد رأيتهم يعبرون السور، وقلت لهم إن الساعة زهاء الخامسة، فقال جاك إنهم ذاهبون من الطريق الآخر»، أوضح تومي.

«جيد جدًا. اركبوا إذن»، وقعقعت عربة التبن تحمل الأطفال المتعبين والدلاء الممتلئة.

وجمت السيدة جو لدى سماعها بانقسام الجمع، وأرسلت فرانز ممتطيًا توبي ليبحث عن الصغار ويعيدهم إلى البيت. انتهى العشاء، وجلست العائلة في الرواق البارد كعادتهم، حين عاد فرانز يعدو قلقًا مغبرًا يشعر بالحر.

«هل عادوا؟»، قال حين قطع نصف الطريق المشجر.

«كلا!»، وهبّت السيدة جو من كرسيها والخوف بادٍ عليها مما حدا بالجميع إلى النهوض والتجمع حول فرانز.

«لم أجدهم في أي مكان»، قال لكنه ما إن قال ذلك حتى أفزعتهم «مرحبًا!» عالية، وسرعان ما وصل جاك وإميل إلى البيت.

t.me/qurssan

«أين نان وروب؟»، قالت السيدة جو ممسكة بتلابيب إميل على نحو جعله يظن عمته فقدت عقلها.

«لا أدري. لقد عادا إلى البيت مع الآخرين، أليس كذلك؟»، أجاب بسرعة.

«كلا، قال جورج وتومي إنهما ذهبا معكما».

«لم يفعلا. لم أرهما. لقد سبحنا في البركة وعدنا من طريق الغابة»، قال جاك وقد بدا عليه الخوف الشديد.

«ناد السيد باير، واجلب القناديل وأخبر سايلس أني أريده».

كان هذا كل ما قالته السيدة جو، لكنهم عرفوا ما تعني وركضوا لتنفيذ أوامرها. في عشر دقائق انطلق السيد باير وسايلس إلى الغابة، وانطلق فرانز إلى أقصى الطريق على آندي العجوز ليفتش المرعى الكبير. أخذت السيدة جو بعض الطعام من الطاولة، وزجاجة صغيرة من البراندي من خزانة الأدوية، وأخذت قنديلًا وأمرت جاك وإميل بمرافقتها، والآخرين بأن يكونوا هادئين، وهرولت ممتطية توبي دون أن تتوقف لأخذ وشاح أو قبعة. سمعت أحدهم يركض خلفها، لكنه لم يقل كلمة فتوقفت لتنادي وتصغي، وسطع ضوء قنديلها على وجه دان.

«ابق هنا! لقد أخبرت جاك ليأتي»، قالت غير راغبة في إعادته، إذ تحتاج عونه كثيرًا.

«لم أسمح له، إذ لم يتناول هو وإميل عشاءهما بعد، وأردت

t.me/qurssan

المجيء أكثر منها»، قال آخذًا القنديل منها مبتسمًا لها وفي عينيه نظرة ثابتة جعلتها تشعر أن عندها من تعتمد عليه، رغم أنه ليس إلا صبيًا.

فنزلت وأمرته بامتطاء توبي رغم توسلاته لها ليمشي، ثم انطلقا على امتداد الدرب المنعزل المغبر يتوقفان بين الفينة والأخرى ليناديا ويصغيا حابسين الأنفاس انتظارًا لصوتين صغيرين يجيبانها.

حين وصلا المرعى الكبير، شاهدا مصابيح أخرى تخفق جيئة وذهابًا مثل سراب، وسمع صوت السيد باير يصيح: «نان! روب! روب! نان!»، في كل جزء من الحقل. صفر سايلس وهدر، وتوغل دان هنا وهناك ممتطيًا توبي الذي بدا أنه فهم واقع الحال، ومضى في أوعر الأماكن بلياقة تامة. أسكتتهم السيدة جو كثيرًا، قائلة وفي حلقها غصة: «قد تخيفهما هذه الأصوات، دعوني أنادِ؛ سيعرف روبي صوتي»، فنادت الاسم الحبيب بكل نبرة حنونة، حتى تهمس بها الأصداء همسًا ناعمًا، وتحملها الريح طواعية، دون مجيب.

كانت السماء ملبدة بالغيوم، ولم يرَ من القمر إلا لمحات خاطفة، وشق الغيوم الداكنة برق عديم الرعد بين الحين والحين، وأنذر ضجيج خافت بعيد يشبه الرعد بهبوب عاصفة صيفية.

«آه يا روبي! آه يا روبي!»، بكت السيدة جو، وهي تطوف هنا وهناك مثل شبح أبيض، وظل دان بجانبها مثل يراعة مخلصة. «ماذا أقول لوالد نان إن حدث لها مكروه؟ لماذا سمحت لصغيري أن

t.me/qurssan

بعد عني؟ أتسمع شيئًا يا فرتز؟»، وحين عادت إليها «لا» حزينة، مصرت يديها يائسة، فترجل دان عن ظهر توبي وربط اللجام إلى السياج وقال بأسلوبه العازم:

«لعلهما ذهبا إلى الجدول، سأذهب لألقي نظرة».

فتخطى السور وذهب بسرعة ولم تستطع اللحاق به. ولكنها حين وصلت البقعة، أنزل القنديل وأراها سعيدًا آثار أقدام صغيرة في الأرض اللينة حول الجدول. فتهاوت على ركبتيها لتفحص الأثر ثم نهضت قائلة بلهفة:

«أجل، هذه آثار حذاء روبي الصغير! لنذهب من هنا، لا بد أنهما تقدما».

يا له من بحث مضنٍ! لكن غريزة يتعذر شرحها قادت الأم الخائفة، إذ ندّت عن دان صرخة وأمسك بشيء صغير لامع ملقى على الدرب. كان غطاء الدلو الصفيحي الجديد، الذي أسقطه روب عندما عرف أنهما تائهان. حضنت السيدة جو الغطاء وقبلته كأنه شيء حي، ولما أوشك دان أن يصيح صيحة فرح ليدعو الآخرين إلى المكان أوقفته قائلة وهي تسرع: «كلا، دعني أجدهما. لقد سمحت لروب بالذهاب وأود أن أعيده إلى أبيه بنفسي».

عثرا بعد قليل على قبعة نان، وبعد المرور بالمكان أكثر من مرة، وجدا الطفلين في الغابة وكلاهما نائم نومًا هادئًا. لم ينس دان قط الصورة التي سطع عليها نور قنديله تلك الليلة. حسب أن السيدة جو ستصرخ، لكنها اكتفت بالهمس: «هش!» وهي تبعد الميدعة

t.me/qurssan

بهدوء وترى تحتها الوجه المحمر الصغير. كانت الشفتان الملطختان بالتوت منفرجتين قليلًا والنفس يدخل منهما ويخرج، والشعر الأشقر الرطب مرخى على الجبين الدافئ، وكلتا اليدين الممتلئتين تمسكان بالدلو بقوة.

مس شغاف قلب السيدة جو رؤية الحصاد الطفولي، المكنوز من أجلها رغم كل متاعب الليلة، ورفعت ابنها وأخذت تبكي برقة وحرقة، فاستيقظ، وبدا محتارًا في البدء. ثم تذكر وعانقها قائلة بضحكة انتصار:

«عرفت أنك ستأتين! آه يا ماما! لقد أردتك بشدة!»، تبادلا القبل وتشبثا ببعضهما للحظة، ناسين العالم كله، إذ لا يهم كم يتوه الأولاد الضالون ويتسخون وينهكون، فبمقدور الأمهات أن ينسين ويصفحن عن كل شيء وهن يضممنهم بين أذرعهن الحانية. يا لسعادة الابن الذي يبقى إيمانه بأمه ثابتًا، والذي أبقى خلال كل تطوافه علامة بَنَوية ليرد لها حبها الشجاع والحنون.

رفع دان أثناء ذلك، نان من تحت الشجيرة، وبرقة لم يرها أحد فيه إلا تدي، هدأ مخاوفها لدى استيقاظها المفاجئ، وجفف دمعها إذ أخذت نان تبكي فرحًا. كانت رؤية وجه لطيف والإحساس بالذراع القوية حولها أمرًا جيدًا بعدما ما بدا لها قرونًا من الوحدة والخوف.

«لا تبكي يا فتاتي الصغيرة المسكينة! إنك بأمان الآن، ولن يلومك أحد الليلة»، قالت السيدة جو آخذة نان في حضنها الرحب،

t.me/qurssan

، معانقة الطفلين مثلما تجمع الدجاجة فراخها الضائعة تحت جناحيها الأموميين.

«كان خطئي، لكني آسفة. حاولت الاعتناء به، وغطيته وجعلته ينام ولم ألمس ثماره، رغم أني جائعة، ولن أفعل هذا ثانية... صدقًا أبدًا، أبدًا»، نشجت نان وقد غرقت في بحار الندم والامتنان.

«نادهم الآن، ولنعد إلى البيت»، قالت السيدة جو، وتسلق دان السور وصاح بكلمة سعيدة «وجدناهما!»، ترن في الحقل.

جاءت المصابيح ترقص من كل صوب، وتحلقت حول الجماعة الصغيرة بين أجمات السراخس الحلوة! عناق وتقبيل وحديث وبكاء، لما استمر أذهل الحباحب وأبهج البعوض بلا ريب، إذ طنت بحماس، وجاءت أسراب العث إلى المجموعة، ونقت الضفادع كأنها لم تعبر عن فرحها بصوت عال بما يكفي.

ثم انطلقوا عائدين إلى البيت في جمع غريب. وسبقهم فرانز لينقل الأخبار السارة، وتقدم الموكب دان وتوبي، ثم تلته نان تحملها ذراعا سايلس القويتان، الذي عدها «أجمل حقيبة صغيرة رآها»، وغايظها طوال طريق العودة حول مقالبها. لم يسمح السيد باير لأحد سواه بحمل روب، واعتدل الصغير وقد أنعشه النوم وتحدث جذلًا، شاعرًا بأنه بطل، أما أمه فقد مشت بجانبه تمسك بأي عضو من جسمه الصغير الغالي يكون في متناول يدها، ولم تسأم من قوله «عرفت أن أمي ستأتي»، أو ميله عليها ليقبلها، ويضع في فمها توتة مكتنزة، «لأنه قطفها كلها من أجلها».

t.me/qurssan

سطع القمر حين وصلوا الدرب المشجر، وخرج كل الأولاد للقائهم يهتفون، فحُمل الضالان منتصرين آمنين، وأنزلا في غرفة الطعام، إذ طلب الصغيران العمليان العشاء بدلًا من القبل والعناق. وأجلسا لتناول الخبز والحليب، ووقف جميع من في البيت حولهما ينظر إليهما. استعادت نان نشاطها، وقصت كربها بجذل وقد انتهى الآن. أما روب فكان منهمكًا في تناول طعامه، غير أنه وضع ملعقته فجأة وندت عنه صرخة مخيفة.

«لماذا تبكي يا حبيبي؟»، سألت أمه التي لم تزل واقفة قربه.

«إني أبكي لأني ضعت»، صاح روب محاولًا أن يعصر دمعة وفشل تمامًا.

«لكننا وجدناك. قالت نان إنك لم تبك في الحقل، وأنا سعيدة أنك ولد شجاع».

«لقد كنت منشغلًا للغاية بخوفي فلم يتسن لي الوقت حينئذ، لكني أريد البكاء الآن»، أوضح روب وهو يجهد بين النوم والعاطفة ولقمة من الخبز والحليب.

انفجر الأولاد ضاحكين على هذا الأسلوب الطريف في تعويض الوقت الضائع، فتوقف روب لينظر إليهم، وكان الفرح معديًا، إذ انفجر ضاحكًا بعد نظرة دهشة: «ها ها!»، وضرب ملعقته على الطاولة كأنها أعجبته الطرفة كثيرًا.

«إنها العاشرة، فليخلد إلى النوم كل رجل منكم»، قال السيد باير ناظرًا إلى ساعة يده.

t.me/qurssan

«وحدًا للرب أن لن يكون أي سرير منها فارغًا الليلة»، أضافت السيدة باير بعينين مغرورقتين، وذهب روبي محمولًا بين ذراعي أبيه، وبان يصحبها ديزي وديمي الذي عدها أكثر بطلات مجموعتهم إثارة.

«إن العمة جو المسكينة متعبة للغاية ولا بد من حملها»، قال فرانز الحنون واضعًا ذراعه حولها حين وقفت أسفل الدرج باديًا عليها الإرهاق من الذعر والسير الطويل.

«لنصنع كرسيًا بذراعين»، قال تومي.

«كلا، شكرًا يا أولادي. ولكن ليعطني أحدكم كتفه أتكئ عليها»، أجابت السيدة جو.

«أنا! أنا!»، وتدافع الجميع، وكل منهم يود أن يقع عليه الاختيار، إذ كان في الوجه الأمومي الشاحب شيئًا رقت له قلوبهم الدافئة تحت ستراتهم الممتلئة.

لما رأت السيدة جو أنهم يرون في طلبها تشريفًا، منحته لمن استحقه ولم يتذمر أحد حين وضعت ذراعها على كتف دان العريضة قائلة بنظرة جعلته يحمر فخرًا وسعادة: «لقد وجد الطفلين، وأحسب أن عليه مساعدتي في الصعود».

أحس دان أنه كوفئ جيدًا على عمل هذه الليلة، ليس لأن الاختيار وقع عليه دونًا عن البقية ليصعد بفخر حاملًا القنديل فحسب، بل لأن السيدة جو قالت بحرارة حين تركها أمام غرفتها: «تصبح على خير يا بنيّ! باركك الرب!».

t.me/qurssan

«ليتني كنت ابنك»، قال دان الذي أحس أن الخطر والقلق قد قربه منها أكثر من ذي قبل.

«ستكون ابني الأكبر»، وختمت وعدها بقبلة جعلت دان ابنها تمامًا.

كان روب بخير في اليوم التالي، لكن نان عانت من الصداع، واستلقت على أريكة السيدة باير وقد طُلي خدش وجهها بدهان مهدئ. تبدد ندمها تمامًا، وبدا جليًا أنها رأت التيه متعة جميلة. لم يعجب السيدة جو هذه الحال، ولم ترغب أن يضل أولادها عن درب الفضيلة، أو أن ينام تلاميذها في حقول توت العنبية. لذا تحدثت حديثًا جديًا مع نان، وحاولت أن تبين لها الفرق بين الحرية وبين أن يتصرف المرء على هواه، وهي تحكي حكايات كثيرة لتعزيز موعظتها. لم تقرر كيف تعاقب نان، ولكن إحدى هذه الحكايات أوحت لها بعقوبة، وجربتها السيدة جو لأنها تحب العقوبات الغريبة.

«كل الأطفال يهربون»، توسّلت نان كأنه أمر طبيعي وحتمي كالحصبة أو السعال الديكي.

«ليس كلهم، وبعض من يهربون لا يُعثر عليهم أبدًا»، أجابت السيدة جو.

«ألم تفعلي ذلك؟»، سألت نان التي رأت عيناها الثاقبتان الصغيرتان آثارًا قليلة لتوءم روحها في السيدة الجادة التي تخيط بهدوء أمامها.

ضحكت جو واعترفت أنها فعلت.

t.me/qurssan

«احكي لي عن ذلك»، قالت نان شاعرة أن لها اليد الطولى في النقاش.

رأت السيدة جو هذا، وهدأت في الحال قائلة بهزة ندم من رأسها:

«لقد فعلتها عدة مرات، وجعلت حياة أمي صعبة بلهوي حتى أدبتني».

«كيف؟»، واعتدلت بوجه ملؤه الاهتمام.

«كان عندي حذاء، وأردت أن أتباهى به، رغم أني حذرت بألا أغادر الحديقة. فهربت وقضيت اليوم كله في التجوال. كان ذلك في المدينة، ولست أدري كيف لم أقتل. يا للوقت الممتع الذي قضيته! ولهوت في المتنزه مع الكلاب، وسيّرت القوارب في باك باي مع أولاد غرباء، وأكلت السمك المملح والبطاطا مع متسولة إيرلندية صغيرة، وعثر عليّ نائمة نومًا عميقًا على عتبة باب ألفّ ذراعي حول كلب كبير. كان الوقت آخر المساء، وكنت متسخة مثل خنزير صغير، وتلف الحذاء الجديد، فقد مشيت كثيرًا».

«يا للروعة!»، قالت نان وبدت مستعدة للذهاب وفعل ذلك بنفسها.

«لم يكن رائعًا في اليوم التالي»، وحاولت السيدة جو ألا تفضح عيناها استمتاعها بذكريات حماقات الأيام الخالية.

«أضربتك أمك؟»، سألت نان بفضول.

t.me/qurssan

«لم تضربني إلا مرة واحدة، ثم طلبَت أن أسامحها، وإلا ما سامحتها على ذلك طوال حياتي، فقد آلمتني كثيرًا».

«لماذا طلبت السماح منك؟ إن أبي لا يفعل هذا».

«لأنها حين فعلت ذلك استدرتُ وقلت «أنت غاضبة مثلي، ولا بد أن تُضربي». فنظرت إليَّ لحظة، ثم تلاشى كل غضبها وقالت كأنها تشعر بالخجل: «إنك محقة يا جو، أنا غاضبة، فلماذا أعاقبك على غضبك إن كنت أنا قدوة سيئة؟ اغفري لي يا عزيزتي، ودعينا نحاول مساعدة بعضنا بعضًا على نحو أفضل». لم أنس ذلك قط، وقد أدبني أكثر مما ستفعل اثنتا عشرة عصًا».

جلست نان تتفكر وهي تقلب علبة الدهان المهدئ لحظة، ولم تفه السيدة جو بشيء، بل سمحت لهذه الأفكار أن تتعمق في الرأس الصغير المشغول، السريع في رؤية ما يجري حوله والإحساس به.

«أحببت ذلك»، قالت نان أخيرًا، وبدا وجهها أقل خبثًا، بعينيها الثاقبتين وأنفها الفضولي وثغرها الماكر. «ماذا فعلت بك أمك حين هربت تلك المرة؟».

«ربطتني إلى عمود السرير بحبل طويل، فلم أستطع الخروج من الغرفة، وظللت هناك طوال اليوم والحذاء البالي يتدلى فوقي ليذكرني بخطئي».

«أحسب أن هذا سيؤدب أي أحد»، قالت نان التي تثمن حريتها فوق كل شيء.

t.me/qurssan

«لقد أدبني، وأظنه سيؤدبك لذا سأجربه»، قالت السيدة جو فجأة وهي تخرج كرة من الحبال القوية من جارور في طاولة أشغالها.

بدت نان كأنها خسرت الجدال قطعًا، وجلست تشعر بالخجل والسيدة جو تربط طرف الحبل حول خصرها والطرف الآخر بذراع الأريكة، قائلة حين فرغت:

«لا أحب ربطك مثل كلب مشاكس صغير، ولكني سأعاملك معاملة الكلب إن لم يكن سلوكك أفضل من سلوكه».

«سأقبل ربطي بطيب خاطر، إذ أحب التظاهر بأني كلب»، وتقنعت نان بقناع اللامبالاة، وأخذت تنبح وتحبو على الأرض.

لم تهتم السيدة جو، بل تركت لها كتابًا أو اثنين ومنديلًا، وذهبت تاركة الآنسة نان لشؤونها. لم يكن هذا مستحسنًا، وبعد الجلوس لحظة حاولت حلّ الحبل. لكنه ثبّت بحزام المئزر من الخلف، فأخذت تحل العقدة في الطرف الآخر. انفكت سريعًا، وجمعت نان الحبل وأوشكت على الخروج من النافذة، عندما سمعت السيدة جو تقول لأحدهم وهي تمر بالرواق:

«كلا، لا أظنها ستهرب الآن. إنها فتاة صغيرة نزيهة، وتعلم أني فعلته لمساعدتها».

عادت نان أدراجها، وربطت نفسها وأخذت تخيط بحماس. دخل روب بعد قليل وفتن بالعقاب الجديد كثيرًا، فجلب حبل قفز وربط نفسه إلى الذراع الآخر من الأريكة بأكثر الأساليب هدوءًا.

t.me/qurssan

«لقد ضعت أنا أيضًا، لذا يجب ربطي مثل نان»، أوضح لأمه حين رأت الأسير الجديد.

«لست أقول إنك لا تستحق عقابًا صغيرًا، لأنك عرفت أن الابتعاد عن الآخرين خطأ».

«أخذتني نان»، قال روب جذلًا بالعقاب الجديد، لكنه ليس راغبًا بتحمل اللوم.

«لم يجدر بك الذهاب. إن لك ضميرًا رغم أنك ولد صغير، وعليك تعلم الاستماع له».

«لكن ضميري لم يؤنبني البتة حين قالت: «لنتجاوز السور»»، أجاب روب مقتبسًا أحد تعابير ديمي.

«هل توقفت لترى إن كان سيؤنبك؟».

«كلا».

«لست تدري أنه لم يفعل إذن».

«أظنه ضميرًا صغيرًا لا يؤنب بقسوة كافية لأشعر به»، أضاف روب بعد تقليب الأمر للحظة.

«علينا إيقاظه. أن الضمير الخامل ليس بالأمر الحسن، لذا يمكنك البقاء هنا حتى موعد الغداء، والتحدث عنه مع نان. أثق بأنكما لن تحلا رباط بعضكما بعضًا حتى أقول كلمتي».

«كلا، لن نفعل»، قال كلاهما شاعرين بإحساس بالفضيلة لمساعدتهما بعضهما بعضًا في عقاب نفسيهما.

t.me/qurssan

كانا على ما يرام لساعة واحدة، ثم سئما البقاء في مكان واحد وأرادا الخروج. لم يبد الرواق أكثر ألفة، بل حتى غرفة النوم الصغيرة أضحت مثيرة فجأة، وودا الذهاب إليها وبناء خيمة من ظلة أفضل الأسرة. أثارت النوافذ المفتوحة حماسهما لأنهما لا يستطيعان الوصول إليها، وبدا العالم الخارجي شديد الجمال، وتساءلا كيف واتتهما الشجاعة يومًا لوصفه بالممل. تلهفت نان لسباق حول المرج، وتذكر روب حزينًا أنه لم يطعم كلبه هذا الصباح، وتساءل كيف يبلي پولكس المسكين. راقبا الساعة، وحسبت نان الدقائق والثواني حسابًا ممتعًا، وتعلم روب الساعات بين الثامنة والواحدة جيدًا فلن ينساها أبدًا. كان استنشاق روائح الغداء وأن يعرفا أنه سيقدم سكتاش وحلوى توت العنبية، وأن يشعرا أنهما لن يكونا موجودين لينالا حصصًا كبيرة من كليهما، أمورًا تثير الجنون. حين أخذت ماري آن تعد المائدة، كادا ينشطران وهما يحاولان رؤية أي نوع من اللحم سيقدم، وعرضت نان أن تساعدها في تسوية الأسرّة، إن حرصت أن تحصل في حلواها «على كثير من الصلصة».

حين خرج الأولاد من الصف صاخبين، وجدوا الطفلين مربوطين بمقوديهما مثل مهرين حرونين، تهذبوا وضحكوا كثيرًا على عاقبة مغامرات الليلة المثيرة.

«حلي وثاقي الآن، إن ضميري سيخزني مثل دبوس في المرة القادمة يا ماما، أعلم أنه سيفعل»، قال روب حين قرع الجرس وجاء تدي ليراه مندهشًا حزينًا.

t.me/qurssan

«سنرى»، أجابت أمه وهي تطلق سراحه. فركض مسرعًا عابرًا الرواق وعاد عبر غرفة الطعام، واقترب من نان وهو يشع رضًا نبيلًا.

«أيمكنني أن آخذ لها غداءها؟»، سأل مشفقًا على رفيقته الحبيسة.

«هذا ولدي الحنون الصغير! أجل، اسحب الطاولة وأحضر كرسيًا»، وأسرعت السيدة جو لتهدئ صخب الآخرين، الذين يثيرون الضجيج من جوعهم ظهرًا.

أكلت نان وحدها، وأمضت عصرًا طويلًا مربوطة إلى الأريكة. مددت السيدة باير وثاقها حتى تستطيع أن تطل من النافذة، فوقفت هناك ترقب الصبية يلعبون، وكل الحيوانات تستمتع بحريتها في الصيف. أخذت ديزي الدمى في نزهة على المرج، حتى ترى نان لعبها وإن لم تستطع الانضمام إليها. وأدى تومي أجمل شقلباته لتسليتها، وجلس ديمي على العتبات يقرأ لنفسه جهرًا، فاستمتعت نان كثيرًا، وجلب دان ضفدع شجر صغير ليريها إياه بأرق ما استطاع من اهتمام.

غير أن لا شيء كفّر عن خسارة الحرية، وبضع ساعات من التقييد علمت نان نفاستها. جالت أفكار كثيرة في الرأس الصغير المستند إلى أسكفة النافذة خلال الساعة الأخيرة حين ذهب كل الأطفال إلى الغدير لرؤية إبحار سفينة إميل الجديدة. لقد منحت السفينة اسمًا، وتمنت أن تحطم زجاجة نبيذ الكشمش على القيدوم إذ سُميت جوزفين تيمنًا بالسيدة باير. لكنها خسرت الفرصة، ولن

t.me/qurssan

نفعلها ديزي جيدًا بقدرها. اغرورقت عينا نان بالدمع وقد تذكرت أن الخطأ خطؤها وقالت ذلك بصوت عال، مخاطبة نحلة سمينة تحوم في القلب الأصفر لوردة تحت النافذة:

«إن كنت هاربة، فيجدر بك العودة إلى البيت في الحال، وأن تقولي لأمك إنك آسفة ولن تفعلي ذلك ثانية».

«يسرني سماع نصيحتك الجيدة لها، وأظنها قد عملت بها»، قالت السيدة جو باسمة حين بسطت النحلة جناحيها المغبرين وطارت.

مسحت نان قطرة أو قطرتين لمعتا على أسكفة النافذة، وسكنت إلى صديقتها حين وضعتها على ركبتها مضيفة بحنان إذ رأت القطرات الصغيرة وعرفت معناها:

«أترين عقاب أمي للهرب عقابًا جيدًا؟».

«أجل يا سيدتي»، أجابت نان وقد أذعنت جراء يومها الهادئ.

«آمل ألا أضطر لتكراره ثانية».

«لا أرى داعيًا»، ورفعت نان نظرها بوجه جاد صغير أرضى السيدة جو، ولم تقل شيئًا آخر لأنها أحبت أن يؤدي العقاب دوره ولم تفسد أثره بكثير من الوعظ.

دخل روب عندئذ حاملًا بحذر شديد ما سمته آسيا «فطيرة الصحن»، أي الفطيرة التي تُخبز في الصحن.

«لقد صنعت من بعض ثماري، وسأعطيك نصفها وقت العشاء»، قال متحمسًا.

t.me/qurssan

«ما الذي يدعوك لفعل ذلك وأنا المشاكسة جدًا؟»، سألت نان بألفة.

«لأننا ضللنا الطريق معًا. لن تكوني مشاكسة مرة أخرى، أليس كذلك؟».

«أبدًا»، قالت نان بعزم شديد.

«أوه عظيم! والآن لنذهب ونقل لماري آن لتقطع لنا هذه لتكون جاهزة للأكل، إنه وقت الشاي»، وأشار روب إلى الفطيرة اللذيذة.

مشت نان ثم توقفت وقالت:

«نسيت، لا يمكنني الذهاب».

«جربي لتري»، قالت السيدة باير التي حلت الحبل بهدوء أثناء كلامها.

رأت نان أنها حرة، وبعد أن قبلت السيدة جو قبلة خاطفة، انطلقت مثل عصفور طنان يتبعها روبي، يقطر منه عصير توت العنبية وهو يركض.

t.me/qurssan

(١٣)
غولدلوكس

بعد الأحداث المثيرة الأخيرة ساد الهدوء في پلمفيلد وظل سائدًا دون تغيير لعدة أسابيع، إذ شعر الأولاد الكبار أن فقدان روب ونان كان وشيكًا، ورعاهم الجميع رعاية أبوية وسئموا ذلك، أما الصغار فاستمعوا لسرد نان لكربها مرات عديدة، ورأوا الضياع أسوأ بلاء ورثه البشر، ولم يجرؤوا على إخراج أنوفهم الصغيرة خارج البوابة الكبيرة، خشية أن يهبط عليهم الليل فجأة، وتلوح لهم أشباح الأبقار السوداء في الغسق.

«لن يستمر هذا طويلًا»، قالت السيدة جو إذ علمتها سنوات من تربية الأولاد أن هدوءًا كهذا يعقبه اندلاع شيء ما. وأعدت نفسها لثورة مفاجئة للبركان الخامد، في الوقت الذي تتوهم فيه النساء قليلات الخبرة أن الأولاد قد أصبحوا قديسين.

كان أحد أسباب هذا الهدوء الأليف زيارة الصغيرة بِس، إذ جلبها والداها لسفرهما مع الجد لورنس المعتل. نظر الأولاد إلى غولدلوكس على أنها مزيج من الطفلة والملاك والجنية إذ كانت طفلة

t.me/qurssan

صغيرة جميلة، وطوّقها شعرها الذهبي الذي ورثته عن أمها الشقراء مثل خمار لامع، وابتسمت من خلفه لعشاقها حين يكونون كيسين، وخبأت نفسها فيه عند الغضب. لم يقبل والدها بقص شعرها، فتدلى أسفل ظهرها ناعمًا وجميلًا ولامعًا للغاية، وأصر ديمي على أنه حرير مغزول من الشرنقة. مدح الجميع الأميرة الصغيرة، لكن ذلك لم يفسدها، بل علمها أن حضورها يجلب البهجة، وابتساماتها تقابَل بابتسامات الوجوه الأخرى، وأحزانها الطفولية تملأ القلوب كلها بالرقة والحنان.

لقد أفادت رعيتها دون أن تعي أكثر مما يفعل ملوك حقيقيون، فقد كان حكمها لطيفًا جدًا، وقوتها تحس ولا ترى. جعلتها رقتها الطبيعية دمثة في كل شيء، وكان لها أثر حسن على الأولاد المهملين حولها: فلم تسمح لأحد أن يلمسها بخشونة أو بيدين قذرتين، وأثناء زيارتها استُخدم الصابون أكثر من أي وقت آخر، إذ عد الأولاد السماح لهم بحملها أعظم الشرف، والخزي الأكبر أن ترفض أحدًا منهم بعبارة مزدرية «ابتعد أيها الولد القذر!».

كانت الأصوات العالية تزعجها، والشجار يخيفها، لذا كانت نبرة الأصوات الصبيانية رقيقة وهم يخاطبونها، وكثيرًا ما أخمد المتفرجون النزاعات في حضورها إن لم يستطع المديران كبحها. كانت تحب أن تُخدم، لذا قضى لها الأولاد الكبار حاجاتها هامسين، أما الصغار فكرسوا أنفسهم عبيدًا لها في كل الأمور. إذ توسلوا ليسمح لهم بجر عربتها، وحمل سلة التوت العائدة إليها، أو تمرير

t.me/qurssan

طبقها على المائدة. لم يمانع الأولاد في خدمتها قط، بل إن تومي وند تشاجرا قبل أن يقررا من منهما سينال شرف فك رباط حذائها الصغير.

استفادت نان على وجه الخصوص من أسبوع بصحبة سيدة رفيعة الخلق، رغم أنها صغيرة للغاية. إذ نظرت بس بمزيج من الدهشة والخوف في عينيها الكبيرتين الزرقاوين إلى الفتاة الطائشة حين صرخت وصخبت، وخافت منها كأنها تراها حيوانًا بريًا. وأحست نان طيبة القلب بهذا كثيرًا، وقالت في البدء: «أف! لا أكترث!»، لكنها اكترثت وجُرحت حين قالت بس: «أحب ابنة خالتي أكثر، لأنها هادئة»، فهزت ديزي المسكينة حتى اصطكت أسنانها، ثم ركضت إلى الحظيرة لتبكي حزينة. ووجدت الراحة والعزاء الكبير من مكان أو آخر في ذلك الملاذ الكبير للأرواح المعذبة. لعل طيور السنونو من أعشاشها المبنية من طين في الأعلى زقزقت لها موعظة قصيرة عن حلاوة اللطف. وكيفما حدث ذلك فإنها خرجت هادئة تمامًا، وبحثت بعناية في البستان عن نوع من التفاح في بواكيره تحبه بس لحلاوته وصغره وحمرته. واقتربت من الأميرة، حاملة قربان السلام الصغير، وقدمته لها بتواضع. وفرحت فرحًا عظيمًا لما تُقبّل قبولًا حسنًا، وحين قبّلت ديزي نان قبلة الصفح، فعلت بس مثلها، كأنها أحست أنها قست على نان كثيرًا وأرادت الاعتذار. بعد هذا لعبتا معًا لعبًا بهيجًا، وتمتعت نان بحب الأميرة لأيام. صحيح أنها شعرت شعور الطائر البري الحبيس في قفص جميل، واضطرت للتسلل أحيانًا لتمطط جناحيها في طيران طويل،

t.me/qurssan

أو لتغني بأعلى صوتها، دون أن تزعج القمرية المكتنزة ديزي، أو عصفور الكناري الذهبي الرقيق بس. لكن هذا نفعها، وقد رأت حب الجميع للأميرة الصغيرة لأجل مناقبها وكياستها الصغيرة، فأخذت تقلدها إذ أرادت نان الحب الكبير وجهدت لتظفر به.

كان أثر الطفلة الجميلة على كل ولد في البيت جليًا، وتحسن سلوكهم دون أن يعرفوا كيف أو لماذا، إذ يصنع الأطفال المعجزات في قلوب الذين يحبونهم. وجد بلي المسكين سرورًا عظيمًا في النظر إليها، ورغم أنها لا تحب ذلك فقد أذنت له دون أن تعبس، بعد إفهامها أنه ليس مثل البقية، ولذا يجب معاملته برفق شديد. وأمطرها دك ودولي بصفارات الصفصاف، وكانت الشيء الوحيد الذي يجيدان صنعه، وقبلتها منهما لكنها لم تستخدمها قط. وخدمها روب مثل عاشق صغير، ولحقها تدي ككلب أليف. أما جاك فلم تحبه لأنه مبتلىً بالثآليل وله صوت خشن. وأزعجها ستفي لأنه لا يأكل بلباقة، وحاول جورج جاهدًا ألا يلتهم الأكل التهامًا لئلا يثير اشمئزاز السيدة الصغيرة الرقيقة الجالسة مقابله. وطُرد ند من البلاط بخزي عظيم حين عُثر عليه يعذب فأر حقل تعس. لم تنس غولدلوكس المنظر الحزين قط، واختبأت خلف خمارها حين اقترب، وأبعدته بيد صغيرة مستبدة، قائلة بصوت امتزج فيه الحزن والغضب:

«كلا، لا أحبه، إنه يقطع ذيول الفئران المسكينة، والفئران تصرّ!».

t.me/qurssan

تنازلت ديزي عن عرشها لدى وصول بس، واتخذت ، صبًا متواضعًا بوصفها رئيسة الطهاة، أما نان فكانت وصيفة الشرف الأولى، وإميل وزير المال، وأنفق أموال العامة بسخاء لشراء نظارات كلفته تسعة بنسات كاملة. وكان فرانز رئيس الوزراء وأدار شؤون ولايتها، وخطط للمواكب الملكية في المملكة وحافظ على نظام القوات الأجنبية. وكان ديمي فيلسوفها وأصاب نجاحًا أكثر مما يفعل رجال من هذا النوع بين الرؤوس المتوجة. وكان دان جيشها المتأهب ودافع عن أراضيها ببسالة، أما تومي فكان بهلوان البلاط، ونات الموسيقي ريزيو لماري الصغيرة[1].

سر العم فرتز والخالة جو بهذا اللعب الهادئ، وشاهدا هذه المسرحية الجميلة التي قلد فيها الصغار كبارهم دون أن يدركوا، ودون إضافة المأساة القادرة على إفساد الأحداث الجارية على خشبة المسرح الأكبر.

«إننا نتعلم منهم بقدر ما نعلمهم»، قال السيد باير.

«بورك الأحبّة! لا يدركون الإلماحات الكثيرة التي يوحون بها إلينا لتكون أفضل الطرائق في تنشئتهم»، أجابت السيدة جو.

«أحسبك محقة بشأن التأثير الحسن لوجود الفتيات بين الأولاد. لقد بعثت نان النشاط في ديزي، وعلمت بس الدببة الصغار السلوك

(١) (١٥٣٣ - ١٥٦٦)، كان إيطاليًا وهو أحد أفراد الحاشية الملكية، وُلِد بالقرب من تورينو، وهو من سلالة أسرة قديمة ونبيلة لا تزال تعيش في بيدمونت، ترقى ليصبح السكرتير الخاص لماري ملكة اسكتلندا.

t.me/qurssan

الحسن أفضل منا. إن استمر هذا التحول كما بدأ، فسأشعر قريبًا بما حققه الطبيب بلمبر ورجاله الصغار المثاليون»[1]، قال الأستاذ ضاحكًا لما رأى أن تومي لم يخلع قبعته فحسب، بل خلع عن ند قبعته أيضًا حين دخلا الرواق حيث تمتطي فيها الأميرة الحصان الهزاز، يحرسها روب وتدي منفرجي السيقان على الكراسي، ويمثلان دور فارسين باسلين بأقصى ما استطاعا.

«لن تكون بلمبر أبدًا يا فرتز. ولن تستطيع فعل ذلك ولو حاولت، وأولادك لن يخضعوا لتلك العملية الإجبارية لذلك المستنبت سيء السمعة. لست أخشى أنهم سيصبحون شديدي التأنق، فالأولاد الأمريكيون يحبون الحرية كثيرًا. غير أنهم سيكتسبون السلوك الحسن، إن نحن منحناهم الروح الطيبة التي تشع من أبسط السلوك، فتجعلها دمثة ودودة، مثل سلوكك يا فتاي الكبير الحبيب».

«تسه! تسه! لن نتبادل الإطراء، فإنك ستهربين إن بدأت، وأود الاستمتاع بنصف الساعة هذه حتى نهايتها»، غير أن السيد باير سر بالإطراء لأنه صادق، وأحست السيدة جو أنها تلقت أفضل ما استطاع زوجها منحه، بقوله إنه يجد راحته الحقيقية السعيدة بصحبتها.

(١) شخصية في رواية دومبي وابنه لتشارلز دكنز، وهذا الطبيب عنده «أكاديمية» لتنشئة الرجال المهذبين.

t.me/qurssan

«لنعد إلى موضوع الأولاد؛ عندي برهان جديد على أثر مولدلوكس الحسن»، قالت السيدة جو مقربة كرسيها من الأريكة حيث يستلقي الأستاذ بعد يوم عمل طويل في بساتينه المتنوعة. «إن نان تكره الخياطة، ولكنها قضت نصف العصرية منهمكة في صنع حقيبة جميلة لتقدم فيها اثنتي عشرة حبة طماطم لمعبودتها حين تعود. أثنيت عليها لذلك، وقالت بأسلوبها الحاذق: «أحب الخياطة للآخرين، فالخياطة لنفسي أمر غبي». ففهمت الإشارة وسأعطيها بعضًا من القمصان والمآزر الصغيرة لأطفال السيدة كارني. إنها كريمة وستفني أصابعها من أجلهم، ولن أجعل من ذلك عملًا».

«غير أن شغل الإبرة ليس عملًا بارزًا يا عزيزتي».

«يا للأسف! غير أن على صغيراتي تعلم كل ما بوسعي تعليمهن، وإن كففن عن تعلم اللاتينية والجبر وست فروع من المعرفة، إذ يعد تشويش أذهان الفتيات المسكينات بهذا ضروريًا هذه الأيام. تنوي إيمي أن تجعل من بس امرأة كيسة، لكن سبابة الحبيبة الصغيرة مثقبة مسبقًا، ولدى أمها نماذج عديدة من شغل الإبرة تُغليها أكثر من عصفور الصلصال عديم المنقار الذي أفعم لوري بالفخر عندما صنعته بس».

«وأنا أيضًا عندي برهان على تأثير الأميرة»، قال السيد باير وهو يراقب السيدة جو تخيط زرًا بازدراء لنظام التعليم الدارج. «كره جاك تصنيفه مع ستفي وند، اللذين تنفر منهما بس، فجاء إليّ قبل قليل وطلب مني أن أضع مادة كاوية على ثآليله. عرضت عليه

t.me/qurssan

كثيرًا من قبل لكنه لم يقبل، لكنه اليوم تحمل الألم برجولة، وسكّن آلامه الحالية بأمل أن يلقى الحب في المستقبل، حين يمد للسيدة النيقة يدًا ناعمة».

ضحكت السيدة باير على القصة، فدخل ستفي عندئذ ليسأل إن كان بوسعه إعطاء غولدلوكس بعضًا من السكاكر التي أرسلتها له أمه.

«لا يسمح لها بتناول السكاكر، ولكن إن شئت إعطاءها الصندوق الجميل الذي بداخله وردة زهرية من عجينة السكر، ستحبه كثيرًا»، قالت السيدة جو كارهة أن تفسد هذا الحدث من إنكار الذات، إذ إن الفتى البدين لم يعرض مشاطرة سكاكره إلا نادرًا.

«ألن تأكلها؟ لا أريدها أن تصاب بالمرض»، قال ستفي ناظرًا بحب إلى الفاكهة المجففة، غير أنه وضعها في الصندوق.

«أوه نعم. لن تمسها إن قلت لها إنها تستطيع النظر إليها لا أكلها. ستحتفظ بها لأسابيع ولن تفكر في تذوقها. أيمكنك فعل هذا؟».

«أرجو ذلك! إنني أكبر منها كثيرًا»، قال ستفي ممتعضًا.

«حسن، أظننا سنحاول. تعال، ضع سكاكرك في هذا الكيس، ولنر كم يمكنك الإبقاء عليها. دعني أعدها؛ قلبان وأربع سمكات حمر، وثلاثة خيول من الشعير المسكّر، وتسع لوزات واثنتا عشرة

t.me/qurssan

كرة شوكولاته. أتوافق علي هذا؟»، سألت السيدة جو الماكرة، وهي تدس السكاكر في حقيبة الخيطان.

«أجل»، قال ستفي متنهدًا، ووضع الفاكهة المحرمة في جيبه وذهب ليعطي الهدية لبس، فظفر بابتسامة منها وإذن بمرافقتها في جولة في الحديقة.

«لقد انتصر قلب ستفي المسكين على بطنه في نهاية المطاف، وستزداد محاولاته بعد مكافآت بس له»، قالت السيدة جو.

«السيد هو الرجل الذي يمكنه دس الإغراء في جيبه ويتعلم إنكار ذاته من معلمة صغيرة حلوة للغاية»، أضاف السيد باير حين مر الطفلان بالنافذة، وقد شع وجه ستفي المكتنز بالرضا والهدوء، وغولدلوكس تمعن النظر في وردتها باهتمام مهذب، رغم أنها آثرت وردة حقيقية «ذات شذى جميل».

حين جاء أبوها ليعيدها إلى البيت، أعول الجميع وأمطروها بهدايا الوداع التي ضاعفت متاعها إلى حد عرض فيه السيد لوري إخراج العربة الكبيرة للذهاب بها إلى البلدة. أعطاها الجميع شيئًا ما، وقد صعب حزم الفئران البيضاء والكيك، ورزمة من الصدف والتفاح، وأرنب يركل بقوة في كيس، ورأس ملفوف كبير لطعامه، وزجاجة من سمك المنوّة، وباقة زهر كبيرة. كان مشهد الوداع مؤثرًا، إذ جلست الأميرة على طاولة الرواق، يحيط بها رعاياها. فقبلت ابني خالتها، ومدت يدها للأولاد الآخرين الذين صافحوها برفق بكلام عذب كثير، فقد تعلموا ألا يخجلوا من إبداء عواطفهم.

t.me/qurssan

«تعالي ثانية في وقت قريب يا صغيرتي الحبيبة»، همس دان مثبتًا أفضل خنافسه بلونيها الأخضر والذهبي على قبعتها.

«لا تنسيني يا أميرتي مهما فعلت»، قال تومي الجذاب، ممسدًا على الشعر الجميل للمرة الأخيرة.

«سآتي إلى منزلكم الأسبوع القادم، وسأراك عندئذ»، أضاف نات كأنه وجد العزاء في هذا.

«صافحيني الآن»، قال جاك مادًا كفه الناعم.

«هاتان صفارتان جديدتان لتتذكرينا بهما»، قال دك ودولي مقدمين صفارتين جديدتين، دون أن يعلما أن السبع القديمة قد وضعت سرًا في موقد المطبخ.

«يا صغيرتي الغالية! سأصنع لك فاصل كتاب من نوري، وعليك أن تحتفظي به دائمًا»، قالت نان بعناق دافئ.

ولكن من كل مشاهد الوداع، كان وداع بلي المسكين أكثرها إثارة للشفقة، إذ لم يطق فكرة ذهابها، فألقى بنفسه أمامها، حاضنًا حذاءها الأزرق الصغير وهاذرًا بتذرّا يائسًا: «لا تذهبي! أوه لا تفعلي!»، رق قلب غولدلوكس لدفقة الأحاسيس، فمالت ورفعت رأس الفتى المسكين، وقالت بصوتها الناعم الصغير:

«لا تبك يا بلي المسكين! سأقبّلك وسأعود ثانية قريبًا».

هدأ هذا الوعد بلي، وتراجع مشرق الوجه مزهوًا بالشرف غير المعتاد الذي أسبغ عليه.

t.me/qurssan

«أنا أيضًا! أنا أيضًا!»، هتف دك ودولي شاعرين أن إخلاصهما يستحق بعض المكافأة. بدا الآخرون كأنما يودون الهتاف أيضًا، فتأثرت الأميرة بشيء ما في الوجوه اللطيفة الفرحة، فبسطت ذراعيها وقالت بتلطف متهور:

«سأقبل الجميع!».

أحاط الأولاد المعجبون برفيقتهم الجميلة كما يحوم النحل على زهرة حلوة جدًا، وقبلوها حتى صارت شبيهة بالوردة الصغيرة، ليس بفظاظة بل بحماس حتى لم يظهر منها إلا قمة قبعتها. ثم أنقذها أبوها، وذهبت وهي لم تزل تبتسم وتلوح بيديها، أما الأولاد فجلسوا على السياج يزعقون مثل سرب من الغرغر: «عودي! عودي!»، حتى اختفت عن الأنظار.

افتقدوها كلهم وشعر كل منهم قليلًا أنه أصبح أفضل لمعرفته طفلة جميلة ورقيقة وعذبة للغاية. فقد راقت لبس الصغيرة فطرة الشهامة فيهم ورأتها شيئًا جديرًا بالحب والإعجاب والحماية بنوع رقيق من الإكبار. يتذكر كثير من الرجال طفلة جميلة سكنت قلبه وأبقت ذكراها حية بسحر بسيط من براءتها. وكان هؤلاء الرجال الصغار يتعلمون الإحساس بهذه القوة وأن يحبوها لتأثيرها الرقيق، دون خجل من السماح لليد الصغيرة بإرشادهم، ولا من إخلاصهم لجنس النساء وإن كان لم يزل في براعمه.

t.me/qurssan

t.me/qurssan

(١٤)

دامون وپِثِيَس [١]

كانت السيدة باير محقة، فالهدوء لم يدم إلا وقتًا قصيرًا، وكانت عاصفة تتجمع، وهز أرجاء پلمفيلد زلزال أخلاقي بعد يومين من مغادرة بس.

كانت دجاجات تومي أساس المتاعب، ولولا أنها أصرت على وضع الكثير من البيض لما باعها وكسب مالًا كهذا. إن المال أساس الشرور، غير أنه في الوقت نفسه نافع لنا ولا يمكننا العيش دونه إلا بقدر ما نستطيع العيش دون بطاطا. لم يستطع تومي قطعًا، إذ بذّر نقوده وأصر السيد باير أن يحفظها في حصالة، وقدم له واحدة خاصة به، على هيئة بيت فاخر من الصفيح يحمل اسمه على بابه،

---

(١) أسطورة إغريقية عن رجلين، اتهم أحدهما -پِثِيَس- بالتآمر ضد ديونيسيوس المستبد وحكم عليه بالموت، غير أنه طلب من ديونيسيوس إمهاله فترة يقضي فيها حاجاته ويعود، على أن يأخذ صديقه دامون أسيرًا عنده، فإن لم يعد قتله بدلًا عنه. لكن پِثِيَس عاد مما أثار عجب ديونيسيوس لحب الصديقين وثقتهما ببعضهما بعضًا فأطلق سراح الاثنين. في الأدب العربي قصة مماثلة عن النعمان والرجلين، وقد ظهر أحدهما، وكان ذا فضل على النعمان، في يوم بؤسه وافتداه شخص حتى يذهب ليقضي شؤون أهله ويعود بعد عام، ولما حل الموعد عاد الرجل، وأبطل النعمان تلك العادة.

t.me/qurssan

وله مدخنة عالية تسقط منها النقود، لتقرقع في الأسفل قرقعة مغرية حتى يُمنح الإذن بفتح باب صغير في الأرضية.

ازداد وزن البيت بسرعة، ورضي تومي عن استثماره كل الرضا، وخطط للشراء بنقوده نفائس ما سمعت بها أذن. واحتفظ بدفتر حسابات للأموال التي يودعها، ووعد أن يفتح الحصالة ما إن يجمع خمسة دولارات، شرط أن ينفق المال إنفاقًا حكيمًا. كان ينقصه دولار واحد فقط، ويوم دفعت له السيدة جو مقابل ثمانٍ وأربعين بيضة فرح كثيرًا، وركض إلى الحظيرة ليري الأرباع اللامعة لنات، الذي جمع المال أيضًا لشراء الكمان الذي انتظره طويلًا.

«ليتها عندي فأضيفها إلى دولاراتي الثلاث، فيكون عندي ما يكفي لشراء الكمان»، قال ناظرًا بحزن إلى المال.

«لعلي أقرضك بعضه. لم أقرر بعد ما سأفعل بمالي»، قال تومي وهي يرمي بأرباعه ويلتقطها.

«مرحبًا! يا صاحبيّ! تعالا إلى الغدير وشاهدا الأفعى الكبيرة المدهشة التي وجدها دان!»، ناداهما صوت من خلف الحظيرة.

«هلم»، قال تومي وخبأ ماله داخل آلة الذرو القديمة، وذهب يتبعه نات.

كانت الأفعى مثيرة للغاية، فاستحوذت على ذهن تومي ووقته تمامًا إلى جانب مطاردة غراب أعرج وصيده، فلم يفطن لماله حتى خلد في فراشه مطمئنًا في الليل.

t.me/qurssan

«لا تقلق، فلا أحد سوى نات يعرف مكانه»، قال الفتى البسيط ، مط في النوم دون أن يزعجه قلق حيال ثروته.

حين اجتمع الأولاد للمدرسة في الصباح التالي، اندفع تومي ،اخلًا الفصل منقطع الأنفاس سائلًا:

«من منكم أخذ دولاري؟».

«عم تتحدث؟»، سأل فرانز. فأوضح تومي وأيد نات كلامه.

أنكر الجميع معرفتهم بشيء عن المال، وأخذوا ينظرون بريبة محو نات الذي ازداد خوفًا وارتباكًا مع كل إنكار.

«لا بد أن أحدًا أخذه»، قال فرانز وتومي يهز قبضته متوعدًا الجمع كله، وقال وهو يستشيط غضبًا:

«بحق سلاحف البرق! إن أمسكت باللص فسألقنه درسًا لن ينساه بسرعة».

«اهدأ يا توم، سنعرفه فاللصوص يقعون في المتاعب دومًا»، قال دان كأنه يعرف ذلك حق اليقين.

«لعل شاردًا نام في الحظيرة وأخذه»، قال ند.

«كلا، لن يسمح سايلس بهذا، ثم إن الشارد لن يذهب للبحث عن المال في تلك الآلة القديمة»، قال إميل بازدراء.

«أمن الممكن أن سايلس من سرقه؟»، قال جاك.

«عجبًا، اسمعوا هذا! إن ساي العجوز نزيه كضوء النهار، ولن

t.me/qurssan

» يلمس بنسًا من مالنا»، قال تومي وهو يبريء معجبه الكبير ..ة من هذا الاتهام.

«يجدر بمن أخذه كائنًا من كان أن يعترف وألا ينتظر حتى ..تضح أمره»، قال ديمي كأنما حل بالعائلة مصاب جلل.

«أعلم أنكم تظنوني الفاعل»، قال نات محمرًا وثائرًا.

«إنك الوحيد الذي يعرف مكان المال»، قال فرانز.

«لا أطيق هذا... لم آخذه. أقول لكم إني لم آخذه... لم أفعل!»، ..ل نات يائسًا.

«على رسلك يا بني! علام كل هذه الضجة؟»، قال السيد باير و قد توسطهم.

قص تومي حكاية خسارته، واكفهر وجه السيد باير وهو يصغي، إذ إن الأولاد كانوا نظيفي اليد حتى الآن رغم كل عيوبهم وأخطائهم.

«اجلسوا»، قال، و ..ين اتخذ الكل مجالسهم، أضاف بهدوء وعيناه تنتقلان من وجه لآخر بنظرة جادة، احتمالها أصعب من الكلمات العاصفة:

«والآن يا أولاد، سأسأل كلًا منكم سؤالًا واحدًا، وأريد له إجابة صادقة. لن أحاول إرهابكم أو رشوتكم أو استنطاق الحقيقة منكم، إذ إن لكل واحد منكم ضميرًا ويعرف وظيفته. حان الوقت للتراجع عن الخطأ الذي ارتكب في حق تومي وأن تقوّموا أنفسكم

t.me/qurssan

ا.امنا جميعًا. يمكنني أن أصفح عن الانسياق وراء الإغراء المفاجئ ا.نر مما أصفح عن الكذب. فلا تضيفوا الكذب إلى السرقة، بل اعترفوا بصراحة وسنحاول مساعدتكم لننسى ونسامح».

صمت لحظة، ويمكن للمرء عندئذ سماع رنة الإبرة إذ كانت الغرفة هادئة للغاية. ثم سأل سؤالًا لكل واحد بهدوء.وحزم، ملقيًا الإجابة نفسها بنبرات مختلفة منهم جميعًا. احمرت كل الوجوه واضطربت، فلم يتسن للسيد باير اعتبار اللون دليلًا، وخاف بعض الأولاد الصغار خوفًا عظيمًا فتلعثموا في لفظ الكلمتين القصيرتين كأنهم مذنبون، رغم أن براءتهم كانت جلية. حين وصل إلى نات، رق صوته إذ بدا الفتى المسكين محطمًا للغاية، وأشفق عليه السيد باير. لقد حسبه المذنب، ورجا أن ينقذ الصبي من كذبة أخرى، فيجعله يقول الحقيقة دون خوف.

«والآن يا بني، أجبني إجابة صادقة. هل أخذت المال؟».

«كلا يا سيدي!»، ونظر إليه نات متوسلًا.

ولما خرجت الكلمات من شفتيه المرتعشتين همس أحدهم.

«كفى!»، قال السيد باير ضاربًا على مكتبه ضربة قوية، ونظر إلى الزاوية بغضب حين سمع الصوت.

جلس هناك ند وجاك وإميل، وبدا الخجل على الأولين، غير أن إميل قال:

«لست أنا يا عمي! سأخجل من نفسي إن آذيت رفيقًا في كربه».

t.me/qurssan

«أحسنت!»، قال تومي الذي حزن لما فعله دولاره المشؤوم من ألم.

«صمتًا!»، أمر السيد باير، ولما ساد الصمت قال بهدوء:

«إنني في غاية الأسف يا نات، ولكن الأدلة ضدك، وخطؤك القديم يجعلنا ميالين للشك بك أكثر مما لو عرفنا صدقك، كما عرفنا صدق بعض الأولاد الآخرين الذين لا يكذبون أبدًا. ولكن اسمع يا بني، لست أتهمك بهذه السرقة ولن أعاقبك عليها ولن أسأل عن الأمر حتى أتأكد تمامًا. سأترك الأمر لك ليحاسبك ضميرك، فإن كنت مذنبًا تعال إليَّ في أي ساعة من الليل أو النهار واعترف بذلك، وسأسامحك وأساعدك في إصلاح الأمر. وإن كنت بريئًا فستظهر الحقيقة عاجلًا أم آجلًا، وحينئذ سأكون أول من يطلب عفوك على شكنا بك، وسأبذل قصارى جهدي بكل سرور على إبراء ذمتك أمامنا جميعًا».

«لم أفعل! لم أفعل!»، بكى نات ورأسه بين ذراعيه، إذ لم يطق نظرات الشك والازدراء التي قرأها في العيون الكثيرة التي ترمقه.

«أرجو ذلك»، صمت السيد باير لحظة كأنما ليمنح المذنب أيًا يكن، فرصة أخرى. ولكن لم يتحدث أحد، ولم يكسر الصمت إلا نشيج بعض الصغار الذين أشفقوا على نات. هز السيد باير رأسه وأضاف محزونًا:

«لن نفعل شيئًا آخر إذن، وظل عندي أمر واحد أقوله؛ لن أتحدث عن هذا ثانية، وأرجو منكم جميعًا أن تحذوا حذوي. لن

t.me/qurssan

انتظر منكم أن تعاملوا من تشتبهون فيه كمعاملتكم إياه من قبل، مع أني أنتظر وأرجو ألا تعذبوا المشتبه به بأي شكل، إذ سيكون الوقت عصيًا عليه بما يكفي دون تعذيبكم. عودوا إلى دروسكم الآن».

«لقد تساهل الأب باير مع نات كثيرًا»، غمغم ند لإميل وهما يخرجان كتبهما.

«احفظ لسانك»، قال إميل الذي شعر أن هذا الحادث كان وصمة في شرف العائلة.

اتفق كثير من الأولاد مع ند، لكن السيد باير محق، وكان الأجدر بنات أن يعترف في اللحظة لينهي المشكلة، إذ كانت أقسى الضربات التي تلقاها من أبيه أهون بكثير من النظرات الباردة وتجنبه، والشك الكبير الذي حاصره من كل صوب. وإن تعرض صبي للإغضاء والتحاشي فقد كان نات المسكين، وكابد أسبوعًا من العذاب البطيء، رغم أن أحدًا لم يرفع يدًا نحوه ولا قيلت له كلمة.

كان هذا أسوأ ما في الأمر، ولو أنهم تحدثوا إليه، أو ضربوه لاحتمل ذلك أكثر من الشك الصامت الذي جعل رؤية كل وجه أمرًا مريعًا. وأظهر وجه السيدة باير أيضًا علامات لذلك، رغم أن سلوكها ظل لطيفًا كالمعتاد. وجرحت النظرة الحزينة القلقة في عيني السيد باير قلب نات، إذ أحب معلمه حبًا جمًا، وعرف أنه خيب آماله كلها بهذا الخطأ المضاعف.

t.me/qurssan

لم يصدقه في البيت كله إلا واحد، ودافع عنه بقوة ضد البقية. كانت هذه ديزي، ولم تعرف كيف تشرح ثقتها به ضد كل المعطيات، غير أنها أحست أنها لا يمكن أن تشك به، وقوّاها عطفها الصادق لتأخذ جانبه. لم تقبل بسماع كلمة عنه من أي أحد، بل إنها صفعت أخاها الحبيب ديمي عندما حاول إقناعها أن السارق هو نات قطعًا، فلا أحد آخر عرف بمكان النقود إلاه.

«لعل الدجاجات أكلته، فهي حيوانات جشعة»، قالت ديزي وعندما ضحك ديمي، استشاطت غضبًا وصفعت الولد المذهول وانفجرت بالبكاء وذهبت مسرعة وهي تقول: «لم يفعل! لم يفعل! لم يفعل!».

لم يحاول العم ولا الخالة زعزعة ثقة الطفلة بصديقها، وأملا أن تكون فطرتها البريئة محقة، وأحباها أكثر لأجل ذلك. كرر نات كثيرًا بعد انتهاء الأمر أنه ما كان ليحتمل لولا ديزي. لما تحاشاه الكل اقتربت منه أكثر من ذي قبل وأدرات ظهرها للبقية. لم تعد تجلس على الدرج حين يسلي نفسه بالعزف على الكمان القديم، بل دخلت وجلست بجانبه مستمعة بوجه ملؤه الثقة والإعجاب، ونسي نات مصابه لبعض الوقت وكان سعيدًا. طلبت منه أن يساعدها في دروسها، وأعدت له خبيصات لذيذة في مطبخها أكلها بحماس، غير عابئ بها كانت إذ أضفى الامتنانُ نكهة حلوة على أكثرها بغضًا. واقترحت ألعابًا صعبة في الكرة والكركت، حين رأت أنه يخشى الانضمام إلى الأولاد الآخرين. ووضعت باقات صغيرة من حديقتها على مكتبه، وحاولت أن تظهر بشتى

t.me/qurssan

الصور أنها ليست صديقة في السراء فحسب، بل صديقة مخلصة في اسراء والضراء. حذت نان حذوها، في اللطف على الأقل، إذ أمسكت لسانها السليط، وحفظت أنفها الصغير المحتقر من إظهار الامتعاض أو الشك، وكان هذا حسنًا من السيدة المشاكسة، إذ إنها امنت إيمانًا قويًا بسرقة نات للمال.

تركه معظم الأولاد يعاني الوحد بقسوة، إلا دان الذي قال إنه استاء منه لجبنه، وحرسه بشيء من الحماية الشرسة، وتشاجر مع أي فتى تجرأ على مضايقة صديقه أو إخافته. كان تصوره عن الصداقة ساميًا كتصور ديزي، وتمثله بإخلاص بأسلوبه الخشن.

تناهى إلى سمع دان ذات عصرية وهو جالس قرب الغدير، منهمكًا في تدارس عادات عناكب الماء، شيء من حديث على الطرف الآخر من السور. كان ند الذي يُعرف بفضوله الشديد، على أحر من الجمر لمعرفة الفاعل حقًا، فقد أخذ غير صبي في الآونة الأخيرة يظنون أنهم مخطئون، إذ كان نات ثابتًا في إنكاره، وحليمًا في احتماله لتجاهلهم. أرهق هذا الشك صبرَ ند، وأمطر نات بأسئلته خلسة عددًا من المرات، متجاهلًا أمر السيد باير الصريح. ولما وجد ند نات يقرأ وحده في الجانب الظليل من السور، لم يقاوم التوقف للحديث قليلًا في الموضوع المحظور. وأزعج نات لعشر دقائق قبل وصول دان، وكان أول ما سمعه دارس العناكب، بصوت نات المتوسل الصبور:

«لا تفعل يا ند! أوه لا تفعل! لا يمكنني أن أخبرك لأني لا

t.me/qurssan

أعلم، وإنها لوضاعة منك أن تظل تناكدني سرًا، وقد أخبرك الأب باير ألا تضايقني. لو كان دان هنا لما جرؤت على فعل هذا».

«أنا لست خائفًا من دان، فهو ليس إلا متنمر كبير. لا أرى إلا أنه أخذ مال توم وأنت تعلم وتكتم الأمر. قل الآن!».

«لم يفعل ذلك، وإن فعل فإني سأدافع عنه. لقد كان طيبًا معي دومًا»، قال نات بجد فنسي دان أمر عناكبه ونهض بسرعة ليشكره، لكن كلمات ند التالية حبسته.

«أعلم أن دان فعلها وأعطاك المال. ولن أعجب ما دام قد كسب قوته من النشل قبل قدومه إلى هنا، ولا أحد يعرف عنه شيئًا إلاك»، قال ند دون اقتناع بكلماته، لكنه أمل أن يحصل على الحقيقة من نات بإغضابه.

ونجح في جزء من أمنيته الحقيرة، إذ صاح نات بقوة: «إن قلت ذلك ثانية فسأذهب وأخبر السيد باير عن الأمر برمته. لا أريد أن أكون واشيًا ولكن بحق السماء! سأفعل إن لم تترك دان وشأنه».

«فستكون نمامًا وكذابًا ولصًا»، قال ند ساخرًا، إذ احتمل نات إهاناتهم له بخنوع، ولم يصدق ند أنه سيجرؤ على مواجهة الأستاذ للدفاع عن دان.

ولست أدري ما قال بعد، فلم تكد الكلمات تخرج من فمه حين أمسكت بياقته ذراع طويلة من الخلف، وألقت به من فوق السور جزافًا، وأسقطته وسط الغدير مرشرشًا.

t.me/qurssan

«كرر ما قلت وسأضربك حتى تعجز عن الرؤية!»، قال دان

»أنه عملاق رودس، وهو يقف واضعًا قدمًا على كل ضفة من الغدير الصغير، ناظرًا شزرًا إلى الفتى المهزوم في الماء.

«كنت أمزح فحسب»، قال ند.

«إنك أنت النمام بإزعاجك لنات. إن رأيتك تفعل هذا ثانية، سأغرقك في النهر المرة القادمة. انهض واغرب عن وجهي!»، أرعد دان غاضبًا.

فر ند وهو يقطر، وقد نفعه حمام القعود الطارئ كثيرًا، إذ أظهر احترامه للولدين بعد هذه الحادثة، وبدا أنه ترك فضوله في الغدير. لما اختفى عن الأنظار قفز دان من فوق السور ووجد نات مستلقيًا دأنه منهك تمامًا ومسحوق من متاعبه.

«أحسبه لن يضايقك ثانية. وإن فعل أخبرني وسأتولى أمره»، قال دان محاولًا تهدئته.

«لست آبه بما يقوله عني كثيرًا، لقد اعتدت»، أجاب نات، «لكني أكره تعريضه بك».

«وكيف تعرف أنه ليس محقًا؟»، سأل دان مشيحًا بوجهه.

«ماذا، عن المال؟»، قال نات ناظرًا بهيئة متعجبة.

«أجل».

«لكني لا أصدق! أنت لا تهتم بالمال، وكل ما تريده هو حشراتك وأشياؤك القديمة»، وضحك نات ضحكة شك.

t.me/qurssan

«أريد شبكة لصيد الفراشات بقدر ما تريد أنت كمانًا، فلماذا لا أسرق المال كما قد تفعل أنت؟»، قال دان ولم يزل مشيحًا بوجهه ويشغل نفسه بحفر حفر في الأرض بعصاه.

«لا أظنك تفعل. إنك تحب الشجار وضرب الأولاد أحيانًا، لكنك لا تكذب ولا أصدق أنك قد تسرق»، وهز نات رأسه بحزم.

«لقد فعلت كلا الأمرين. لقد كذبت كثيرًا، وتورطت في المتاعب، وسرقت من البساتين لأكل حين هربت من بيج، لذا فإني كما ترى فتى سيء»، قال دان متحدثًا بأسلوب لا مبالٍ فظ تعلم التخلي عنه مؤخرًا.

«أوه يا دان! لا تقل إنك الفاعل! أفضل أن أكون الفاعل على أي أحد من الصبية»، قال نات بنبرة حزينة فسُرَّ دان، وأظهر سروره عندما استدار وعلى وجهه تعبير غريب رغم أنه لم يقل إلا:

«لن أقول شيئًا عن ذلك. ولكن لا تحزن، وسترى أننا سننجو منها معًا، أراهنك على ذلك».

وأوحى شيء في وجهه وأسلوبه لنات بفكرة جديدة، وقال ضاغطًا يديه معًا متلهفًا التماسه:

«أحسبك تعرف الفاعل. فإن كنت تعرفه، توسل إليه ليعترف يا دان. يصعب عليَّ أن يكرهوني كلهم دون سبب، ولا أظنني أطيق ذلك أكثر. لو كان عندي مكان ألجأ إليه لهربت رغم حبي الكبير لبلمفيلد. لكني لست شجاعًا وكبيرًا مثلك، لذا عليَّ البقاء والانتظار حتى يثبت لهم أحد أنني لم أكذب».

t.me/qurssan

بدا نات في حديثه محطمًا ويائسًا، ولم يحتمل دان ذلك فهمس بصوت أجش:

«لن تنتظر طويلًا»، وركض مسرعًا ولم يُرَ بعد ذلك لساعات.

«ما خطب دان؟»، تساءل الأولاد عددًا من المرات في يوم الأحد الذي جاء بعد أسبوع بدا أنه لن ينتهي. كان دان نكدًا في أحيان كثيرة، غير أنه كان حزينًا جدًا وصامتًا ذلك اليوم ولم يستطع أحد أن يعرف منه شيئًا. حين ذهبوا للتنزه ابتعد عن البقية وعاد متأخرًا. ولم يشارك في أحاديث المساء، بل جلس في الظل منشغلًا بأفكاره فلم يسمع ما قيل إلا لمامًا. حين عرضت عليه السيدة جو تقريرًا رائعًا في كتاب الضمير نظر إليه دون أن يبتسم وقال حزينًا: «أنت تظنينني أتحسن، أليس كذلك؟».

«تحسنًا رائعًا يا دان! وأنا مسرورة للغاية، لأني أيقنت دومًا أنك تحتاج قليلًا من العون لنصنع منك صبيًا نفخر به».

فنظر إليها وفي عينيه السوداوين نظرة غريبة، مزيج من الفخر والحب والحزن لم تفهمها عندئذ، لكنها تذكرتها لاحقًا:

«أخشى أن يخيب رجاؤك لكني أحاول»، قال مغلقًا الكتاب دون أثر للفرح بما جاء في الصفحة التي أحب قراءتها والحديث عنها مرارًا.

«أأنت مريض يا عزيزي؟»، سألت السيدة جو واضعة يدها على كتفه.

«قدمي تؤلمني قليلًا، وأحسبني سأخلد للنوم. طابت ليلتك يا أمي»، أضاف ووضع اليد على خده للحظة، ثم ذهب كأنه ودع شيئًا عزيزًا.

«يا لدان المسكين! إنه يتألم لمحنة نات كثيرًا. إنه ولد غريب، وأتساءل إن كنت سأفهمه حق الفهم يومًا ما؟»، قالت السيدة جو لنفسها وهي تفكر بتحسن دان في الآونة الأخيرة برضا كبير، غير أنها أحست أن الفتى يضمر أكثر مما توقعت في البدء.

كان فعل تومي أحد الأشياء التي جرحت نات جرحًا عميقًا، إذ قال له تومي بعد خسارته المال بلطف وحزم:

«لا أرجو إيذاءك يا نات، لكنك تفهم أني لا أتحمل خسارة مالي. لذا أحسب أننا لن نعود شريكين»، ثم مسح تومي عبارة «ت بانغز وشركاه».

كان نات فخورًا بـ «شركاه»، وطارد الدجاجات بجد، وحفظ حساباته بنزاهة، وأضاف مبلغًا كبيرًا إلى دخله من حصته في التجارة.

«أوه يا توم، أيتوجب ذلك؟»، قال وقد أحس أن سمعته الحسنة قد زالت إلى الأبد في عالم التجارة إن حدث هذا.

«عليَّ ذلك»، أجاب تومي حازمًا، «يقول إميل إن الرجل حين يختلس (أظن أن هذه الكلمة أي حين يأخذ المال ويهرب به) مالًا من شريكه، يقاضيه الآخر أو يهاجمه بصورة ما، ويقطع أي علاقة

. امد اختلست مالي، لكني لن أقاضيك ولن أهاجمك، بل أفض ا ، اكة لأني لا أثق بك ولا أريد أن أخسر».

«لا أستطيع إجبارك على تصديقي، ولن تقبل أخذ مالي غير أني أكون سعيدًا بتقديم دولاراتي إن قلت إنك لا تصدق أني أخذت المال. دعني أبحث لك، ولن أتقاضى منك أجرًا بل سأفعلها بلا مقابل، فأنا أعرف كل الأماكن وأحب ذلك»، توسل نات.

لكن تومي هز رأسه، وبدا وجهه المرح المكتنز شكاكًا وقاسيًا حين قال بإيجاز: «لا أستطيع، ليتك لم تعرف الأماكن. احرص على ألا تذهب للبحث عن البيض سرًا وتبيعه».

تألم نات المسكين ألمًا عظيمًا ولم يستطع احتماله. فقد شعر أنه لم يخسر شريكه وراعيه فحسب، بل إنه خسر النزاهة وأحس أنه منبوذ من عالم التجارة. لم يصدق أحد كلامه، قولًا أو كتابة رغم محاولاته في التخلص من كذبه في الماضي، فقد أنزلت اللافتة وفضت الشركة وهو ليس إلا رجل محطم. لم تعد الحظيرة، التي كانت وول ستريت عند الأولاد، تعرفه. وأخذت كوكلتب وأخواتها يوقوقن على خسارته، وكأنهن تشعرن ببلائه كثيرًا إذ صار البيض أقل، وبعض الفراخ آوت مشمئزة إلى أعشاش جديدة لم يعثر عليها تومي.

«إنها تثق بي»، قال نات عندما سمع بذلك ورغم اعتراض الأولاد على الفكرة فقد وجد نات فيها شيئًا من راحة. فحين يشتبه العالم بامرئ ما، تكون ثقة دجاجة مرقطة عزاء كبيرًا.

t.me/qurssan

لم يتخذ تومي شريكًا جديدًا، إذ داخله الشك وعكر صفو روحه المطمئنة قبلًا. عرض ند أن يشاركه لكنه رفض قائلًا بشيء من العدل جعله محط احترام:

«قد يتضح أن نات لم يأخذ مالي، فنعود شريكين. لا أظن هذا سيحدث لكنني أعطيه فرصة وسأبقي المكان شاغرًا لوقت أطول».

كان بلي الوحيد الذي رأى تومي أنه يمكنه الوثوق به في عمله، وتعلم بلي البحث عن البيض وتسليمها سليمة، وقد رضي تمامًا بأجر من تفاحة أو برقوقة مجففة. في الصباح الذي تلا يوم الأحد الكئيب لدان، قال بلي لرب عمله وهو يضع ثمرة بحث طويل:

«اثنتان فقط».

«إن الأمر يزداد سوءًا، لم أرَ يومًا دجاجات مثيرة للحنق كهذه»، هر تومي متذكرًا الأيام التي حصل فيها على ست بيضات يفرح بها. «حسن، ضعهما في قبعتي وأعطني قطعة جديدة من الطباشير، يجب أن أسجلهما».

صعد بلي مكيال البك، ونظر فوق الآلة حيث يحتفظ تومي بأدوات الكتابة.

«يوجد الكثير من النقود هنا»، قال بلي.

«كلا لا يوجد. لن أترك نقودي مبعثرة»، أجاب تومي.

«إني أراها، واحد اثنان أربعة ثمانية، دولاران»، أصر بلي الذي لم يعرف الأرقام تمام المعرفة.

t.me/qurssan

«يا لك من أحمق!»، وقفز تومي ليجلب الطباشير بنفسه لكنه كاد يسقط، إذ وجد أربعة أرباع لامعة في صف ومعها قصاصة كتب عليها «إلى تومي بانغز»، فلم يبق مجال للخطأ.

«بحق سلاحف البرق!»، قال تومي وأخذها وهرع إلى البيت يصرخ متحمسًا: «كل شيء على ما يرام! وجدت نقودي! أين نات؟».

وسرعان ما وجده، وكانت دهشته وسروره عظيمين وداخل قليلين الشك بكلامه حين أنكر معرفته بأمر النقود.

«كيف أعيدها في حين أني لم آخذها؟ صدقوني وصادقوني ثانية»، قال بتضرع فصفعه إميل على ظهره وقال، إنه سيكون أول الأصدقاء.

«وأنا أيضًا، وإني لسعيد أنك لست الفاعل. ولكن من الشيطان؟»، قال تومي بعد أن صافح نات بحرارة.

«لا عليك ما دمت وجدت نقودك»، قال دان وقد ثبت نظره على وجه نات السعيد.

«أود ذلك! لن أسمح بسرقة متاعي ثم إعادته إليَّ مثل خدع الحُواة»، قال تومي ناظرًا إلى نقوده كأنه يشك بوجود سحر.

«سنعرفه بصورة ما، رغم أنه كان ماكرًا في كتابة الرسالة بحروف منفصلة، حتى لا يميز خطه أحد»، قال فرانز وهو يمعن النظر في القصاصة.

«إن ديمي يكتب الحروف منفصلة على أحسن وجه»، قال روب دون أن يكون لديه أدنى معرفة عن سبب الجلبة.

t.me/qurssan

«لا أصدق أنه هو، ولا إن ظللت تقول هذا حتى تزرق»، قال تومي واستهجن الآخرون ذلك، إذ كان الشماس الصغير كما يسمونه فوق الشبهات.

أحس نات بالفرق بين حديثهم عن ديمي وعنه، وود أن يتخلى عن كل شيء ليحظى بهذه الثقة، إذ أدرك أن ثقة الآخرين سهلة خسارتها، صعب الفوز بها، وغدا الصدق عزيزًا عنده بعد ما عانى من إهماله.

فرح السيد باير لأن خطوة اتخذت نحو الاتجاه الصحيح، وانتظر لانجلاء الأمور أكثر. واتضحت أسرع مما ظن، وبصورة أدهشته وأحزنته للغاية. حين جلسوا لتناول العشاء تلك الليلة، وصلت رزمة مربعة إلى السيد باير من جارتهم السيدة بيتس. وأرفقت رسالة قصيرة مع الرزمة، وفك ديمي الغلاف أثناء قراءة السيد باير لها، وقال حين رأى محتواها:

«عجبًا، إنه الكتاب الذي أهداه العم تدي لدان!».

«يا للشيطان!»، ندت عن دان الذي لم يهذب نفسه من الشتم بعد رغم محاولاته الدؤوب.

رفع السيد باير ناظره لدى سماعه الصوت، وحاول دان النظر في عينيه لكنه ما استطاع وأطرق ببصره يعض شفتيه ويزداد حمرة حتى غدا صورة للخجل.

«ما هذا؟»، سأل السيد باير مستاء.

t.me/qurssan

«فضلت الحديث عن هذا بيننا، لكن ديمي أفسد الأمر لذا عليّ أن أتحدث عنه الآن»، قال السيد باير وقد بدا حانقًا قليلًا كما يبدو ممن يُخضع كذبةً أو احتيالًا للمحاكمة.

«هذه الرسالة من السيدة بيتس وتقول إن ابنها جيمي أخبرها أنه اشترى الكتاب من دان السبت الماضي. ورأت أنه يستحق أكثر من دولار، وظنت في الأمر خطأ وأرسلت إليّ. هل بعته يا دان؟».

«أجل يا سيدي»، كان الجواب الهادئ.

«لماذا؟».

«احتجت المال؟».

«لأي شيء؟».

«لأدفع لأحدهم».

«لمن تدين؟».

«تومي».

«لم يقترض مني سنتًا في حياته»، قال تومي خائفًا، لأنه عرف ما حدث وشعر أنه يفضل السحر، إذ إنه معجب بدان كثيرًا.

«لعله أخذ النقود»، قال ند الذي يضمر ضغينة لدان بعدما ضربه، ولأنه بشر فقد أحب رد الضربة.

«أوه يا دان!»، قال نات مشابكًا يديه متجاهلًا الزبدة والخبز فيهما.

t.me/qurssan

«يصعب عليَّ فعل هذا، ولكن لا بد من تسوية الأمر لأني لا أحب مراقبتكم بعضكم بعضًا كالمحققين، وتضطرب كل المدرسة هكذا. هل وضعت الدولار في الحظيرة هذا الصباح؟»، سأل السيد باير.

نظر دان إلى وجهه وأجاب بهدوء: «أجل أنا من وضعه».

تهامس الجالسون إلى المائدة، وأسقط تومي كوبه محدثًا خبطة وقالت ديزي: «عرفت أنه ليس بنات»، وبكت نان وتركت السيدة جو الغرفة بادٍ على وجهها الخيبة والأسف والخجل الذي لم يطقه دان. فدفن وجهه بين يديه للحظة، وقوّم كتفيه كأنه يضع عليهما حملًا وقال بنظرة عنيدة ونبرة بين الطيش والعزم تحدث بها حين جاء أول مرة: «أنا فعلتها، ويمكنكم الآن فعل ما شئتم بي، لكني لن أقول كلمة أخرى عن ذلك».

«ولن تقول إنك نادم؟»، قال السيد باير مستاء من التغيير الذي طرأ عليه.

«لست بنادم».

«سأسامحه دون أن يعتذر»، قال تومي شاعرًا أن رؤية دان الشجاع مجللًا بالعار أقسى من رؤية نات في الموقف نفسه.

«لا أريد أن تسامحني»، قال دان بفظاظة.

«لعلك تفعل حين تفكر في الأمر بهدوء وحدك. لن أخبرك بذهولي وخيبتي الآن، لكني سآتي وأتحدث إليك في غرفتك لاحقًا».

t.me/qurssan

«لن يشكل ذلك أي فرق»، قال دان محاولًا الحديث بوقاحة، غير أنه فشل حين نظر إلى وجه السيد باير الحزين، وغادر دان الغرفة بعد أن اعتبر كلامه إذنًا بالانصراف إذ استحال عليه البقاء هناك.

ولو أنه بقي لكان حسنًا له، إذ ناقش الأولاد الأمر مرارًا بأسف صادق وشفقة وعجب، قد تؤثر فيه فيطلب الصفح. لم يفرح أحد بمعرفة أنه الفاعل، ولا حتى نات إذ أحب الجميع دان رغم كل عيوبه الكثيرة، فتحت مظهره الخارجي الجلف تكمن سمات رجولية نحبها كلنا ونعجب بها. كانت السيدة جو السند الرئيس لدان إلى جانب كونها مهذبته، وانفطر قلبها وحزنت لرؤية ابنها الجديد والأكثر إثارة قد تحول إلى شرير هكذا. كانت السرقة سيئة، لكن الكذب بشأنها وجعل آخر يقاسي كثيرًا من الشك الظالم كان أسوأ. أما الأدهى والأمرّ فكان محاولة إعادة المال سرًا، إذ لم تظهر نقصًا في الشجاعة فحسب، بل قدرة على الخداع تنذر بشرّ في المستقبل. وكان رفضه الحاسم في الحديث عن الأمر، أو طلب الصفح أو إبداء الندم أصعب. مرت الأيام وتابع دروسه وعمله صامتًا عابسًا غير تائب. ولم يطلب شفقة أحد، ورفض تقرب الأولاد كأنه تعلم من معاملتهم لنات، فقضى ساعات فراغه يطوف في الحقول والغابات محاولًا العثور على رفاق يلعب معهم من الطيور والبهائم، ونجح أكثر مما قد ينجح الأولاد الآخرون، لأنه عرف هذه الكائنات وأحبها.

«إني لأخشى أن يهرب ثانية، إن استمر هذا وقتًا أطول. فهو

t.me/qurssan

صغير جدًا على احتمال حياة كهذه»، قال السيد باير وقد وهنت عزيمته بعد فشل كل محاولاته.

«قبل مدة قصيرة كنت واثقة تمام الثقة بأنه لن يغريه شيء بالهرب، لكنني الآن مستعدة لأي شيء فقد تغير كثيرًا»، أجابت السيدة جو المسكينة التي بكت على ولدها، ولم يهدأ لها بال لأنه تجنبها أكثر من الآخرين، واكتفى بالنظر إليها بعينين فيهما قوة وتوسل لحيوان بري وقع في شرك حين حاولت الحديث إليه وحدهما.

لحق نات بدان مثل ظله، ولم يبعده دان بوقاحة كما يفعل مع الآخرين، بل قال بأسلوبه الجلف: «إن أمورك على ما يرام، ولا تقلق بشأني. يمكنني احتمال الأمر أكثر منك».

«لكني لا أحب بقاءك وحيدًا»، قال نات حزينًا.

«أنا أحبه»، ومضى دان زافرًا أحيانًا، لأنه كان وحيدًا.

مر ذات يوم وهو يمشي في أجمة البتولا بعدد من الأولاد الذين يتسلون بتسلق الأشجار والنزول منها زحلقة، وانحنت جذوعها اللدنة حتى مست قممها الأرض. توقف دان لحظة ليرى اللعبة، دون أن يعرض عليهم الانضمام إليهم، وإذ هو واقف هناك حان دور جاك. غير أنه لسوء الحظ اختار شجرة كبيرة جدًا، فلما أراد النزول منها زحلقة لم تنحن إلا قليلًا وتركته معلقًا في علو مخيف.

«عد أدراجك! لا يمكنك النزول!»، قال له ند من الأسفل.

حاول جاك لكن الأغصان انزلقت من بين يديه، ولم يستطع

t.me/qurssan

لف ساقيه حول الجذع. فركل وتلوى، وتشبث بلا جدوى ثم استسلم وتدلى منقطع الأنفاس قائلًا بيأس:

«أمسكوا بي! ساعدوني! لا بد أن أقفز!».

«سيموت إن فعل ذلك»، قال ند خائفًا فاقدًا صوابه.

«تمسك!»، قال دان وصعد الشجرة ماضيًا حتى كاد يصل جاك الذي نظر إليه خائفًا ومفعمًا بالأمل.

«ستسقطان معًا»، قال ند وهو يرقص حماسًا على المنحدر في الأسفل، أما نات فبسط ذراعيه آملًا بقوة أن يخفف وطأة السقوط.

«هذا ما أريده، ابتعدوا»، أجاب دان ببرود وأثناء حديثه أحنى وزنه الشجرة أقدامًا عدة قريبًا من الأرض.

فقفز جاك بأمان، لكن شجرة البتولا اعتدلت فجأة بعد تخففها من نصف الوزن، وحين أراد دان أن يضع قدميه على الأرض أولًا فقد توازنه وسقط سقوطًا عنيفًا.

«لم أصب بأذى، سأكون بخير في الحال»، قال معتدلًا وهو يبدو شاحبًا ودائخًا حين تحلق الأولاد حوله، يغمرهم الإعجاب والخوف.

«إنك شجاع يا دان، وسأظل مدينًا لك»، قال جاك ممتنًا.

«لم أفعل شيئًا»، همس دان وهو ينهض ببطء.

«بل كان أمرًا رائعًا، وسأصافحك رغم أنك...»، وبتر ند الكلمة التعسة على لسانه، ومد يده شاعرًا أنه أمر جميل يفعله.

t.me/qurssan

«لكني لن أصافح نهامًا»، وأدار دان ظهره ناظرًا إليه شزرًا فتذكر ند الغدير. وتراجع بسرعة وخجل.

«لنعد إلى البيت يا رفيقي، سأرافقك»، ومشى نات معه تاركًا الآخرين للحديث عما حدث، وللتساؤل عن عودة دان إليهم، وليتمنوا أن نقود تومي «المقيتة كانت في أريحا البعيدة قبل أن تكون سببًا في هذه الجلبة».

حين دخل السيد باير الفصل في الصباح التالي بدا سعيدًا للغاية، فتساءل الأولاد عما حدث له، وظنوه فقد صوابه حين رأوه يتجه نحو دان، ويمسك بكلتا يديه وقال مرة واحدة وهو يصافحه بحرارة:

«عرفت الأمر كله، وإني لأسألك الصفح. كان من طبعك فعل هذا، وإني أحبك من أجل هذا رغم أن الكذب ليس بالأمر الحسن حتى من أجل الصديق».

«ما الأمر؟»، قال نات لأن دان لم يفه بكلمة، بل رفع رأسه كأن عبئًا ثقيلًا أزيح من على كاهله.

«لم يسرق دان نقود تومي»، وهتف السيد باير بهذا فقد كان في غاية السرور.

«ومن فعلها؟»، قال الأولاد بصوت واحد.

أشار السيد باير إلى مقعد فارغ، واتجهت نحوه كل الأنظار ولم ينطق أحد بكلمة للحظة، إذ كانوا مذهولين.

t.me/qurssan

«عاد جاك إلى البيت باكرًا هذا الصباح، لكنه ترك هذه خلفه».
أثناء صمتهم قرأ السيد باير الرسالة التي وجدها مربوطة إلى مقبض باب غرفته عندما استيقظ.

«لقد أخذت دولار تومي. استرقت النظر من صدع، فرأيته يضعها هناك. خفت أن أعترف من قبل رغم أني أردت ذلك. لم أهتم كثيرًا لأمر نات، لكن دان شجاع ولا أطيق الأمر أكثر. لم أنفق النقود، وهي تحت السجادة في غرفتي خلف المغسلة تمامًا. أنا آسف جدًا، سأعود للبيت ولا أظنني سأعود للمدرسة، ويمكن لدان أخذ متاعي.

جاك».

لم يكن اعتذارًا أنيقًا، وقد كتب بخط رديء كثير الأخطاء، وكان مقتضبًا جدًا غير أنه كان رسالة نفيسة عند دان. وحين صمت السيد باير ذهب الصبي إليه يقول بصوت متهدج وبعينين صافيتين بالأسلوب الصريح المهذب الذي حاولا تعليمه إياه:

«سأقول إنني آسف الآن، وأطلب منك أن تسامحني يا سيدي».

«لقد كانت كذبة لطيفة يا دان، ولا أستطيع سوى أن أغفر لك، لكنك ترى أنها لم تجدِ نفعًا»، قال السيد باير واضعًا يديه على كتفي دان، والارتياح والحب باديان على وجهه.

«لقد كف الأولاد عن مضايقة نات، ولهذا كذبت. لقد أتعسه الأمر كثيرًا، لكني لم أبالِ»، أوضح دان كأنه سعيد بالكلام بعد صمته الشاق.

t.me/qurssan

«كيف فعلت ذلك؟ لقد كنت دومًا رفيقًا بي»، قال نات وقد انتابته رغبة قويه بعناق صديقه والبكاء. وكان هذان الفعلان من أفعال الفتيات وكانا سيجلبان الخزي لدان إلى أبعد درجة.

«كل شيء على ما يرام الآن يا صاحبي، فلا تكن أحمق»، قال مزدردًا غصة في حلقه، وضحك كما لم يفعل منذ أسابيع. «أتعرف السيدة باير؟»، سأل متلهفًا.

«أجل، وهي سعيدة للغاية ولست أدري ما ستفعل بك»، قال السيد باير ولكنه لم يكمل إذ احتشد الأولاد حول دان في هياج من السرور والفضول، ولكن قبل أن يرد على اثني عشر سؤالًا قال صوت:

«ثلاثة هتافات لأجل دان!»، وظهرت السيدة جو عند الباب تلوح بمنشفة الصحون، كأنها تود رقص الجغ فرحًا كما اعتادت أن تفعل في صباها.

«هيا إذن»، قال السيد باير وقاد الهتاف المتعالي الذي أذهل آسيا في المطبخ، وجعل السيد روبرتس العجوز يهز رأسه وهو يقود عربته بالجوار ويقول:

«لم تعد المدارس كما كان عهدي بها في صباي!».

احتمل دان الأمر للحظة، غير أن رؤيته سعادة السيدة جو قد ضايقته، فهرع خارجًا فجأة من الرواق نحو الردهة، فتبعته ولم يرَ أي منهما لنصف ساعة.

t.me/qurssan

وجد السيد باير مشقة في تهدئة جمعه الصاخب، ولما رأى استحالة إعطاء الدروس في هذه اللحظة، جذب انتباههم بسرد قصة قديمة جميلة عن الصديقين اللذين خلد اسميهما إخلاصُهما لبعضهما بعضًا. استمع الأولاد وتذكروا إذ مس شغاف قلوبهم ولاء صديقين متواضعين. كان الكذب خطأ، لكن الحب الذي دعا إليه والشجاعة التي احتملت في صمت ذنب أحد آخر جعلت دان بطلًا في أعينهم. وصار للصدق والشرف معنى جديدًا، فالسمعة الحسنة أنفس من الذهب، ولا يمكن شراؤها بالمال، إن ولت. وتصديق بعضنا بعضًا يجعل الحياة هينة وسعيدة أكثر من أي شيء آخر.

أعاد تومي اسم الشركة فخورًا، وأصبح نات مخلصًا لدان وحاول كل الأولاد أن يكفروا للاثنين عن شكهم وتجاهلهم السابقين. ابتهجت السيدة جو بأولادها، ولم يسأم السيد باير قط من قص حكاية دامون وبِثْيَس الصغيرين.

t.me/qurssan

(١٥)

في شجرة الصفصاف

شهدت الشجرة العجوز كثيرًا من الأشياء وسمعت كثيرًا من الأسرار ذلك الصيف، فقد غدت الملاذ الأثير لكل الأطفال، وبدت الشجرة تحب ذلك، إذ لقيتهم بترحيب حار في كل مرة، وأبهجتهم للغاية الساعات الهادئة التي قضوها بين أذرعها. وفي عصر يوم سبت كان حولها كثير من الأصحاب وقصّت عصفورة صغيرة ما جرى هناك.

في البدء جاءت نان وديزي حاملتين حوضين ولوحي صابون، إذ تصيبهما نوبة نظافة بين الفينة والأخرى، فغسلتا كل ثياب الدمى في الغدير. لم تكن آسيا لتسمح لهما «بالعبث» في مطبخها، وحُرّم عليهما استخدام الحمام منذ نسيت نان إغلاق الصنبور حتى فاضت المياه وأخذت ترشح من السقف. شرعت ديزي بالعمل بنظام إذ بدأت بغسل الثياب البيضاء ثم الملونة، وشطفتها بعناية ونشرتها لتجف على حبل ثُبّت على شجيرتي برباريس، وثبتتها بمشابك صغيرة صنعها ند لها. لكن نان وضعت كل الثياب لتنقعها في

t.me/qurssan

حوض واحد، ثم نسيت أمرها وهي تجمع زغب الشوك لتحشو وسادة من أجل «سميراميس ملكة بابل»، كما سمت إحدى الدمى. استغرق هذا بعض الوقت، وحين عادت السيدة المشاكسة لتخرج ثيابها، وجدت بقعًا خضراء داكنة على كل شيء، فقد نسيت بطانة خضراء من الحرير لرداء ما، وانحل لونها تمامًا على الثياب الزرقاء والزهرية، وعلى الأقمصة وعلى أفضل التنانير الداخلية المكشكشة.

«أوه يا ربي! يا للفوضى!»، تنهدت نان.

«ضعيها على العشب لتزول البقع»، قالت ديزي بشيء من الخبرة.

«سأفعل، ويمكننا الجلوس في العش ومراقبة الثياب حتى لا تطير».

نُشرت ثياب ملكة بابل على الضفة، وقلبت الغسّالتان حوضيهما ليجفا ثم تسلقتا إلى العش، وانهمكتا في أحاديثهما، كما تفعل السيدات في استراحاتهن من الأعمال المنزلية.

«سيكون لي فراش من الريش يتماشى مع وسادتي الجديدة»، قالت السيدة المشاكسة، وهي تنقل زغب الشوك من جيبها إلى منديلها، ففقدت نصفه أثناء ذلك.

«لن أفعل. تقول الخالة جو إن فراش الريش ليس صحيًا. لن أدع صغاري ينامون على شيء إلا الحشايا»، ردت السيدة شكسپير سمث بحزم.

t.me/qurssan

«لا يهمني، فصغاري أقوياء جدًا إذ ينامون على الأرض أحيانًا ولا يزعجهم ذلك»، (وقد كان صحيحًا)، «ولا يمكنني شراء تسع حشايا، كما أني أحب صنع الفرش بنفسي».

«ألن يطلب تومي مالًا مقابل الريش؟».

«ربما، لكني لن أدفع له، ولن يعترض»، قالت السيدة المشاكسة مستغلة طيبة ت. بانغز الشهيرة.

«أظن اللون الزهري سيبهت من ذلك الثوب قبل أن تزول البقعة الخضراء»، قالت السيدة س، ناظرة من مجلسها وقد غيرت الموضوع، إذ كانت تختلف مع رفيقتها في نقاط عدة، وكانت السيدة سمث سيدة متحفظة.

«لا تلقي بالًا، لقد سئمت من الدمى وأحسبني سأتخلص منها كلها وأهتم بمزرعتي، فأنا أحبها أكثر من لعب «بيت بيوت»»، قالت السيدة المشاكسة وهي تعرب دون أن تدري عن رغبات كثير من السيدات الأكبر سنًا اللاتي لا يستطعن التخلي عن أسرهن بالسهولة نفسها.

«ولكن لا يجدر بك التخلي عنهم، سيموتون دون أمهم»، قالت السيدة سمث الرقيقة.

«فليموتوا إذن، سئمت من الاعتناء بالأطفال وسألعب مع الأولاد، إنهم بحاجة إلى عنايتي»، أجابت السيدة العنيدة.

لم تعرف ديزي شيئًا عن حقوق المرأة، فهي تحصل على كل ما

t.me/qurssan

تريد بهدوء، ولم ينكر عليها أحد حقها لأنها لم تتول ما لا تستطيع الاستمرار فيه. غير أنها دون وعي استخدمت الحق القوي لتأثيرها للفوز بأي امتياز من الآخرين أثبتت جدارتها به. حاولت نان بشتى الطرق، ولم تقهرها الإخفاقات الرهيبة، وطالبت بقوة ليسمح لها بفعل كل ما يفعله الأولاد. سخروا منها وأبعدوها، وعارضوا تطفلها على شؤونهم. لكنها لم تستسلم ولا بد من منازعها إذ كانت إرادتها قوية، وكانت تتمتع بروح المصلح الثائر. تعاطفت معها السيدة باير، لكنها حاولت كبح رغبتها في الحرية الكاملة، مبينة لها أن عليها الانتظار قليلًا، وأن تتعلم ضبط النفس وأن تتعلم استغلال حريتها قبل المطالبة بها. وافقت نان على هذا حين كانت في فترة هدوء، وشيئًا فشيئًا أخذت تظهر نتائج عملها: فلم تعد تقول إنها ستكون قائدة قاطرة أو حدادة، بل حولت اهتمامها نحو الزراعة ووجدت فيها متنفسًا للطاقة الكامنة في جسمها النشط الصغير. لم ترضها تمام الرضا إذ كان القصعين والمردقوش الحلو اللذين زرعتهما أخرسين ولا يمكنهما شكرها على رعايتها. وقد أرادت شيئًا بشريًا تحبه وتعمل لأجله وتحميه، ولم تكن يومًا بأسعد حالًا منها يوم يأتي الأولاد الصغار إليها بأصابعهم المجروحة، أو رؤوسهم المعجّرة أو عظامهم المكدومة «لتصلحها». ولما رأت السيدة جو دلك، اقترحت عليها أن تتعلم فعل ذلك جيدًا، وصار لدى المربية تلميذة بارعة في التضميد والتكميد ووضع اللصوق. أخذ الأولاد يسمونها الطبيبة غدي غادي [المشاكسة]، وأعجبها جدًا، إذ قالت السيدة جو للأستاذ يومًا:

t.me/qurssan

«إنني أعرف ما سنفعل لهذه الطفلة يا فرتز. إنها ترغب بشيء مش لأجله، وستكون واحدة من النساء السليطات القويات ا..اخطات إن لم تنله. يجدر بنا ألا نستهجن طبعها القلق الصغير، ل أن نبذل قصارى جهدنا لنمنحها العمل الذي تحبه، ونقنع أباها لا حقًا ليسمح لها بدراسة الطب. ستصبح طبيبة رائعة، إذ تتحلى الشجاعة والبأس الشديد والقلب الرحيم والحب الكبير والعطف مل الضعفاء والمرضى».

ابتسم السيد باير في البدء، لكنه وافق على المحاولة وأعطى نان ستان أعشاب وعلمها الخصائص العلاجية المتنوعة للنبتات التي تعنى بها، وسمح لها أن تجرب مزاياها على الأطفال في الوعكات الصغيرة التي تصيبهم من حين لآخر. وتعلمت بسرعة وتذكرت جيدًا، وأظهرت اهتمامًا وإدراكًا شجعا أستاذها الذي لم يسد الأبواب في وجهها لأنها امرأة صغيرة.

كانت تفكر بهذا وهي تجلس في الصفصافة ذلك اليوم، و سين قالت ديزي بأسلوبها الناعم:

«أحب إدارة المنزل، وأنوي أن أدير بيتًا جميلًا لأجل ديمي حين نكبر ونعيش معًا».

فأجابت نان بحزم:

«ليس عندي إخوة، ولا أريد بيتًا يشغلني. سيكون لي عيادة، فيها الكثير من الزجاجات والجوارير وأطحن فيها أشياء، وسيكون لي عربة وحصان لأداوي المرضى. سيكون هذا ممتعًا للغاية».

t.me/qurssan

«أغ! كيف تحتملين الأشياء كريهة الرائحة والمساحيق البغيضة وزيت الخروع والسنا وشراب العنصلان؟»، قالت ديزي وهي ترتعش.

«لن أتناول شيئًا منها، لذا فإني لا أهتم. ثم إنها تجعل الناس بصحة جيدة وأنا أحب مداواة الناس. ألم يشفِ شاي القصعين الذي أعددته صداع الأم باير، وألم توقف حشيشة الدينار ألم سن ند في خمس ساعات؟ ما رأيك؟!».

«هل ستضعين العلقات على الناس، وتبترين السيقان وتخلعين الأسنان؟»، سألت ديزي خائفة من تخيل ذلك.

«أجل، سأفعل كل شيء، ولن أخاف إن جاء أحد مسحوقًا فإني سأصلحه. كان جدي طبيبًا، ورأيته يخيط جرحًا كبيرًا في خد رجل، وأمسكت له الإسفنجة ولم أخف البتة، وقال جدي إني فتاة شجاعة!».

«كيف استطعت؟ أحزن لحال المرضى وأحب الاعتناء بهم، لكن ذلك يجعل ساقيّ تقصفان لذا أهرب. أنا لست فتاة شجاعة»، تنهدت ديزي.

«يمكنك أن تكوني ممرضتي، وتهدئي مرضاي عندما أداويهم وأبتر سيقانهم»، قالت نان التي كان عملها عمل امرأة شجاعة.

«يا بحاري السفينة! أين أنت يا نان؟»، قال صوت من الأسفل.

«ها نحن أولاءِ».

t.me/qurssan

«حسن، حسن!»، قال الصوت وظهر إميل يمسك يده بيده الأخرى، وقد تغضن وجهه كأنه يتوجع.

«ما الأمر؟»، قالت ديزي في قلق.

«شظية بغيضة في إبهامي، ولا يمكنني إخراجها. انزعيها يا نان، هلا فعلت؟».

«إنها منغرزة عميقًا وليس عندي إبرة»، قالت نان متفحصة باهتمام إبهامًا أسود كالقطران.

«هاك دبوسًا»، قال إميل متعجلًا.

«كلا، إنه كبير جدًا وطرفه ليس حادًا».

عندئذ نبشت ديزي في جيبها وأخرجت علبة خياطة صغيرة أنيقة فيها أربع إبر.

«إنك الأميرة التي تحمل دومًا ما نريد»، قال إميل، وعزمت نان على أن تحمل حافظة إبر في جيبها منذئذ، إذ تطرأ عليها حالات كهذه دومًا في تدريبها.

غطت ديزي عينيها، لكن نان جست الشظية ونزعتها بيد ثابتة، وقدم إميل إرشادات لم تُعرف في أي عمل أو كتاب للطب.

«إلى اليمين الآن! اثبتوا الآن يا أولاد، اثبتوا! غيروا اتجاه السفينة. ارفعوا الشراع. ها هي!».

«العق إصبعك»، قالت الطبيبة وهي تمعن النظر في الشظية بعين خبيرة.

t.me/qurssan

«قذرة جدًا»، أجاب المريض وهو يهز يده النازفة.

«انتظر، سأربطها لك إن كان عندك منديل».

«ليس عندي، خذي إحدى تلك الخرق».

«يا إلهي الرحيم! كلا قطعًا، هذه ثياب الدمى»، قالت ديزي بامتعاض.

«خذ واحدًا من ثياب دماي، أود مساعدتك»، قالت نان ونزل إميل وأمسك بأول «خرقة رآها». وكانت تلك التنورة المكشكشة، لكن نان شقتها دون تردد، وحين تحولت التنورة الداخلية الأنيقة إلى ضمادة صغيرة أنيقة، صرفت المريض آمرة:

«أبقها رطبة، ولا تعبث بها، عندها ستبرأ تمامًا ولن تلتهب».

«ما أجرك؟»، سأل رئيس العمارة ضاحكًا.

«لا شيء، إني أدير مستوصفًا خيريًا، وهذا مكان يتلقى فيه الفقراء العلاجَ مجانًا بلا مقابل»، أوضحت نان بكبرياء.

«شكرًا لك أيتها الطبيبة المشاكسة. سآتي إليك دومًا كلما وقع لي حادث»، وذهب إميل لكنه نظر للوراء ليقول -إذ يجب رد الإحسان بالإحسان- «إن أسمالك تطير أيتها الطبيبة».

تغاضت السيدتان عن الكلمة المسيئة «أسمال»، ونزلتا مسرعتين وجمعتا غسيلهما، وعادتا إلى البيت لإشعال الموقد الصغير وبدأتا بكيّها.

t.me/qurssan

هز الصفصافة العجوز نسيم الهواء، كأنها ضحكت على الحديث الطاولي الذي جرى في العش، ولم تكد تتمالك نفسها حتى صعد عصفوران آخر يسقسقان بالأسرار.

«سأخبرك بالسر الآن»، قال تومي الذي بدا عليه الكِبر لأهمية ما يحمله من أخبار.

«هات ما عندك»، قال نات متمنيًا أنه جلب كمانه، فقد كان المكان ظليلًا وهادئًا.

«كنا نتحدث -نحن الأولاد- عن القضية المثيرة للبرهان الاستدلالي»، قال تومي مقتبسًا خبط عشواء من خطاب ألقاه فرانز في النادي، «واقترحت تقديم شيء لدان لإظهار احترامنا وما إلى ذلك، أنت تفهمني؛ شيء جميل ونافع ويمكنه الاحتفاظ به دومًا. ماذا اخترنا بقولك؟».

«شبكة لصيد الفراشات، فهو يريدها كثيرًا»، قال نات وقد بدت عليه الخيبة لأنه أراد شراءها له.

«كلا يا سيدي، سيكون مجهرًا، مجهرًا حقيقيًا أنيقًا، حتى نرى به تلك التي لست أدري ماذا يسمونها في الماء، والنجوم وبيض النمل وشتى صنوف الطرائد كما ترى. أليست هدية مدهشة؟»، قال تومي وهو يخلط قليلًا بين المجهر والمقراب في شرحه.

«رائعة للغاية! إنني سعيد! ألن تكلف كثيرًا من المال؟»، قال نات شاعرًا أن صديقه ينال التقدير.

t.me/qurssan

«ضبعًا، ولكن كلًا منا سيسهم بالقليل. كنت أول المساهمين وقدمت دولاراتي الخمسة، فإن أردنا فعل ذلك، يجدر بنا فعله بصورة حسنة».

«ماذا؟! كلها؟ لم أرَ قط فتى كريمًا مثلك»، وابتسم له نات بإعجاب خالص.

«كما تعلم لقد قلقت كثيرًا على أموالي وسئمت ذلك، ولن أدخر بعد اليوم، بل سأنفقها في الحال ولن يغار مني أحد أو يرغب بسرقتها، ولن أشك في الآخرين وأقلق على نقودي القديمة»، رد تومي الذي أثقلت كاهله هموم المليونير ومخاوفه.

«أسيسمح لك السيد باير بذلك؟».

«إنه يراها خطة من الطراز الأول، وقال إن بعض أفضل الرجال الذين يعرفهم يؤثرون فعل الخير بأموالهم، على كنزها ليتشاجر عليها الآخرون بعد موتهم».

«إن أباك غني، فهل يفعل فعلك؟».

«لست أدري، إنه يعطيني كل ما أريد وهذا ما أعرفه. لكنني سأتحدث إليه عندما أعود للبيت. وسأكون له مثالًا يحتذى على أية حال»، وكان تومي جادًا للغاية، فلم يجرؤ نات على الضحك لكنه قال بإكبار: «ستكون قادرًا على فعل الكثير بمالك، أليس كذلك؟».

«هذا ما قاله السيد باير، ووعدني أنه سينصحني بطرق مفيدة لإنفاقه. سأبدأ بدان، وحين أحصل على دولار في المرة القادمة

سأفعل شيئًا من أجل دك، فهو ولد صغير طيب، ولا يحصل إلا على سنت مصروفًا للأسبوع. لا يمكنه كسب الكثير كما تعلم، لذا سأتعهده»، وتحرق تومي الطيب ليبدأ.

«أظنها خطة جميلة، ولن أحاول شراء الكمان، بل سأشتري لدان الشبكة التي يريد، وإن بقي عندي شيء من النقود فسأفعل شيئًا لإسعاد بلي المسكين. فهو يحبني كثيرًا، ورغم أنه ليس بفقير فإنه يحب الحصول على شيء صغير مني، لأني أعرف ما يريد أكثر منكم»، وتخيل نات السعادة التي ستجلبها دولاراته الثلاثة.

«وهذا ما سأفعله. والآن تعال واسأل السيد باير إن كان بوسعك الذهاب معي إلى البلدة عصر الاثنين لتشتري الشبكة وأشتري المجهر. سيذهب فرانز وإميل أيضًا، وسنقضي وقتًا ممتعًا في التجوال بين الحوانيت».

مشى الولدان يدًا بيدًا، يناقشان الخطط الجديدة بجدية مضحكة، وقد بدأا يشعران بالرضا العذب الذي يحس به الذين يحاولون، مهما كانت محاولاتهم بسيطة، أن يكونوا عونًا على الأرض للفقراء والعاجزين، ويذهّبوا أفعالهم الصغيرة بذهب الإحسان قبل أن يضعوه حيث لا يمكن للصوص الاقتحام وسرقته.

«لنصعد ونسترح قليلًا ريثما نفرز أوراق الشجر، فالمكان بارد ومبهج هنا»، قال ديمي حين جاء هو ودان يتهاديان نحو البيت بعد نزهة طويلة في الغابة.

«حسن!»، أجاب دان الذي كان ولدًا قليل الكلام، وصعدا.

t.me/qurssan

«ما الذي يجعل أوراق البتولا تهتز أكثر بكثير من أوراق الأشجار الأخرى؟»، سأل ديمي الفضولي الذي كان واثقًا دومًا بالحصول على الجواب من دان.

«إنها تتدلى بصورة مختلفة. ألا ترى أن الساق تتصل بالورقة من جانب، أما حين تتصل بالغصن فإنها تتصل به من جانب آخر، وهذا يجعلها تهتز لدى أخف هبة هواء، لكن أوراق شجرة الدردار تتدلى مستقيمة وتظل ساكنة».

«يا للعجب! وماذا عن هذه؟»، ورفع ديمي عسلوج سنط كسره من شجرة صغيرة في المرج لأنه كان جميلًا جدًا.

«كلا، هذه من نوع ينغلق حين تلمسه. مرر إصبعك وسط السويق، وانظر إن لم تلتف الأوراق»، قال دان الذي كان يدرس قليلًا من البلق[1].

مرر ديمي إصبعه والتفت الأوراق الصغيرة، حتى ظهر على العسلوج صف واحد من الأوراق عوضًا عن الصفين.

«أحب هذا، أخبرني عن الأُخر. ماذا تفعل هذه؟»، وسأل ديمي رافعًا غصنًا جديدًا.

«تغذي ديدان القز، فهي تعيش على أوراق التوت، حتى تأخذ بغزل الشرنقة حول نفسها. عملت في مصنع للحرير يومًا، وفيه غرف مليئة بأرفف مغطاة كلها بورق التوت، وتأكلها الديدان بسرعة

---

(١) مادة شبه زجاجية تتميز بقابليتها للانفلاق السريع إلى رقاقات بالغة الرقة.

t.me/qurssan

ويسمع لها حفيف. أحيانًا تأكل كثيرًا فتموت. قل هذا لستفي»، وضحك دان حين تفحص كسرة صخر أخرى عليها أشنة.

«أعرف أمرًا واحدًا عن ورقة البوصير هذه، أن الجنيات يتخذن منها دثارًا»، قال ديمي الذي لم يفقد إيمانه بوجود الجنيات الصغيرات في الغابات.

«لو أن عندي مجهرًا، لأريتك شيئًا أجمل من الجنيات»، قال دان متسائلًا إن كان سيملك يومًا ذلك الكنز المشتهى. «أعرف امرأة عجوزًا استخدمت أوراق البوصير لصنع قبعة ليلية لأن وجهها يؤلمها. فخاطت الوريقات ووضعتها طوال الوقت».

«يا للطرافة! أكانت جدتك؟».

«لم يكن لي جدة. كانت عجوزًا غريبة الأطوار، وعاشت وحدها في بيت متداعٍ مع تسع عشرة قطة. سماها الناس الساحرة، لكنها ليست ساحرة رغم أن ثيابها بالية. كانت تحسن إليّ حين عشت في ذلك المكان، وتدعوني للاستدفاء بنارها حين قسا عليَّ الناس في الملجأ».

«أعشت في ملجأ؟».

«قليلًا. لا تهتم بهذا، فلم أنوِ الحديث عنه»، وقطع دان إسهابه في الحديث الذي لم يعتده.

«احك لي عن القطط من فضلك»، قال ديمي شاعرًا أنه سأل سؤالًا بغيضًا وندم على ذلك.

t.me/qurssan

«لا شيء عندي أقوله سوى أنها عندها الكثير منها وأبقتها في برميل ليلًا، كنت أقلب البرميل أحيانًا وأجعلها تدور في كل أنحاء البيت، فتغضب العجوز وتوبخها وتطاردها وتضعها في البرميل، وهي تبصق وتصرخ مثل امرأة سليطة».

«أكانت تحسن إلى القطط؟»، سأل ديمي وهو يضحك ضحكًا طفوليًا حارًا حلوًا سماعه.

«أحسبها كذلك. يا لها من عجوز مسكينة! كانت تؤوي كل القطط الضائعة والمريضة في البلدة، وإن أراد أحد قطة ذهب إلى مارم وبر، وتجعله ينتقي أي نوع ولون يريد، ولم تطلب مقابلًا إلا تسعة بنسات، إذ كانت تسعد لحصول قططها على بيت جميل».

«أود رؤية مارم وبر، فهل أستطيع إن ذهبت إلى ذاك المكان؟».

«لقد ماتت، كل من أعرفهم ماتوا»، قال دان باقتضاب.

«أنا آسف»، وصمت ديمي للحظة باحثًا عن موضوع آمن يتحدث فيه تاليًا. شعر بالحزن للحديث عن السيدة الراحلة، لكن القطط أثارت فضوله ولم يستطع تجنب السؤال بهدوء:

«أكانت تداوي المريضات من القطط؟».

«أحيانًا. كُسرت ساق واحدة وربطتها لها بعصا وشفيت. ومرضت أخرى فداوتها بالأعشاب حتى شفيت. وماتت بعضها ودفنتها، وأخَر لم يتحسن حالها فقتلتها لتريحها».

«كيف؟»، سأل ديمي شاعرًا بوجود جاذبية غريبة في هذه

t.me/qurssan

العجوز، وشيء من الطرافة في القطط لأن دان كان يبتسم. «علمتها .سيدة لطيفة تحب القطط كيف تفعل ذلك، وأعطتها بعض الأشياء ، أرسلت كل قططها لتقتل على هذا النحو. كانت مارم تضع إسفنجة مبللة بالأثير في أسفل حذاء قديم، ثم تدس رأس القطة فيه. كان الأثير ينومها بسرعة، ثم تغرقها في ماء دافئ قبل أن تستيقظ».

«أرجو أن القططَ لم تشعر بشيء. سأخبر ديزي عن ذلك. إنك تعرف الكثير من الأشياء الممتعة، أليس كذلك؟»، سأل ديمي وأخذ يتفكر في الخبرة الواسعة لصبي هرب أكثر من مرة، واعتنى بنفسه في مدينة كبيرة.

«أحيانًا أتمنى لو لم أكن كذلك».

«لماذا؟ ألا يشعرك تذكرها بشعور حسن؟».

«كلا».

«إن صعوبة التحكم بالعقل لأمر غريب»، قال ديمي شابكًا يديه حول ركبتيه وناظرًا إلى السماء كأنه يبحث عن معلومات حول موضوعه الأثير.

«صعب لعين... لا، لا أعني ذلك»، وعض دان شفتيه إذ انزلقت منه الكلمة المحظورة رغمًا عنه، وقد أراد أن يتوخى أقصى حذره مع ديمي دونًا عن كل الأولاد.

«سأتظاهر أنني لم أسمعها. وأثق أنك لن تكررها ثانية»، قال ديمي.

t.me/qurssan

«إن استطعت تجنبها. هذا من الأمور التي لا أحب تذكرها. ل أحاول، ولكن لا يبدو أنني أبلي حسنًا»، قال دان فاتر الهمة.

«بلى، فأنت لم تعد تقول أكثر من نصف الكلمات البذيئة التي ت تقولها، والخالة جو مسرورة إذ قالت إنها عادة يصعب الإقلاع نها».

«حقًا؟»، وابتهج دان قليلًا.

«يجب عليك أن تضع الشتم في جارور أخطائك وتقفل عليه، كذا أفعل بأخطائي وعيوبي».

«ماذا تعني؟»، سأل دان كأنه وجد ديمي مسليًا بقدر خنفساء و جُعلِ ديكي جديدين.

«إنها واحدة من ألعابي المفضلة، وسأخبرك عنها لكني أحسبك ستسخر منها»، قال ديمي مسرورًا بالحديث عن هذا الموضوع الأنيس. «أتخيل عقلي غرفة مدورة، وروحي كائن صغير ذو أجنحة يسكنها. إن الجدران مليئة بالرفوف والجوارير، وفيها أحفظ أفكاري ومناقبي ومثالبي وغيرها. وأحفظ المناقب في مكان حيث أراها، وأقفل على المثالب بإحكام لكنها تخرج وأظل أضعها وأضغطها، لكنها قوية جدًا. ألعب مع الأفكار حين أكون وحدي أو في فراشي، فأختلق منها وأفعل بها ما شئت. في كل أحد أرتب غرفتي، وأتحدث إلى الروح الصغيرة التي تسكنها، وأخبرها بما عليها فعله. إنها شريرة للغاية أحيانًا، ولا تستمع لي فأوبخها وآخذها إلى جدي، الذي يجعلها دومًا تحسن التصرف وتندم على أخطائها، لأن جدي

t.me/qurssan

هذه اللعبة، ويعطيني أشياء جميلة أضعها في الجوارير، ويخبرني كيف أحبس المشاكسين. ألا يجدر بك أن تجرب هذه الطريقة؟ إنها جيدة جدًا؟»، وبدا ديمي جادًا للغاية ومفعمًا بالإيمان، ولم يسخر دان من خياله الغريب، بل قال بوقار:

«لست أظن أن ثمة قفلًا قويًا لحبس عيوبي. غير أن غرفتي مبعثرة ولا أدري كيف أرتبها».

«إنك تبقي جواريرك في الخزانة مرتبة للغاية، فلماذا لا ترتب الأخرى؟».

«لم أعتد ذلك، هلا علمتني كيف أفعل؟»، كأنما مال دان لتجربة طريقة ديمي الطفولية في إبقاء الروح مرتبة.

«أحب ذلك، سوى أني لا أعرف وسيلة إلا أن أتحدث كما يتحدث جدي. لن أكون جيدًا مثله لكني سأحاول».

«لا تخبر أحدًا، وسنأتي إلى هنا بين الحين والآخر لنناقش الأمر، وسأدفع لك مقابل ذلك بإخبارك كل ما أعرف عن أشيائي، أيكفي ذلك؟»، ومد دان يده الخشنة الكبيرة.

ومد ديمي يده الناعمة الصغيرة بسرعة، وانعقد الحلف، إذ تلعب الأسود والحملان معًا، والكبار يتعلمون من الصغار في العالم السعيد الهادئ الذي عاش فيه الولد الأصغر.

«صه!»، قال دان مشيرًا نحو البيت حين أوشك ديمي على الاستغراق في واحد الخطابات عن أفضل الطرائق للتخلص من

t.me/qurssan

العيوب وإبقائها بعيدة، فنظرا من مكانهما وشاهدا السيدة جو تمشي بتؤدة وتقرأ أثناء المشي وتدي يجري خلفها، جارًا عربته الصغيرة مقلوبة.

«انتظر حتى يريانا»، همس ديمي وجلس الاثنان هادئين حتى اقترب الثنائي، والسيدة جو مستغرقة في كتابها حتى كادت تمشي في الغدير لولا أن أوقفها تدي بقوله:

«أريد سمكة يا ماما».

فأنزلت السيدة جو الكتاب الساحر الذي كانت تقرأه منذ أسبوع، وبحثت عن صنارة صيد، إذ اعتادت صنع ألعاب من لا شيء. وقبل أن تكسر غصنًا من الشجيرة، سقط غصن صفصاف رشيق عند قدميها، فرفعت نظرها ورأت الولدين يضحكان في العش.

«فوق! فوق!»، قال تدي مادًا ذراعيه وخافقًا بتنورته كأنه سيطير.

«سأنزل وأنت تصعد. يجب أن أذهب إلى ديزي الآن»، ونزل ديمي وذهب ليحكي قصة القطط التسع عشرة وحكاية الحذاء والبرميل.

رفع تدي سريعًا ثم قال دان ضاحكًا: «اصعدي أنت أيضًا، فالمكان واسع. سأمد لك يدي».

نظرت السيدة جو إلى الخلف ولكنها لم ترَ أحدًا، فضحكت

t.me/qurssan

وكان طرافة الأمر أعجبتها فقالت: «أظنني سأفعل إن لم تخبر أحدًا بالأمر»، وصعدت إلى الشجرة بخطوتين رشيقتين.

«لم أتسلق شجرة منذ زواجي. كنت مولعة بتسلق الأشجار في صباي»، قالت وقد ابتهجت بمجلسها الظليل.

«اقرئي الآن إن شئت، وسأعتني بتدي»، عرض عليها دان وقد أخذ يصنع صنارة للصغير نافد الصبر.

«لا أظنني أود القراءة الآن. ماذا تفعلان أنت وديمي في الأعلى هنا؟»، سألت السيدة جو ظانة أن في ذهن دان شيئًا بفضل النظرة على وجهه.

«أوه، كنا نتحدث. كنت أخبره عن الأوراق وغيرها، وهو يخبرني عن واحدة من ألعابه الغريبة. هاك أيها الرائد، اصطد الآن»، وأنهى دان عمله بوضع ذبابة زرقاء كبيرة على المشبك المعوج في طرف الخيط الذي عقده على غصن الصفصاف.

انحنى تدي من فوق الشجرة، وانهمك سريعًا في مراقبة السمكة الذي كان واثقًا من قدومها. أمسكه دان من صدارته، خشية أن يغطس غطسة رأسية في الغدير، وجعلته السيدة جو يشاركها الحديث.

«أنا سعيدة لأنك أخبرت ديمي عن أوراق الشجر وغيرها، فهذا ما يحتاجه، وأتمنى أن تعلمه وتأخذه معك للتنزه».

«أود ذلك فهو ذكي، ولكن...».

t.me/qurssan

«ولكن ماذا؟».

«لا أظنك ستثقين بي».

«ولم لا؟».

«إن ديمي رائع وطيب للغاية، وأنا لست إلا فتى سيء، وظننتك تودين إبعاده عني».

«ولكنك لست فتى سيئًا كما تقول، وأنا أثق بك كل الثقة يا دان، لأنك تحاول مخلصًا أن تتحسن، وتتقدم أسبوعًا بعد آخر».

«حقًا؟»، ورفع دان نظره إليها وقد انقشعت غمامة من الجزع عن وجهه.

«أجل، ألا ترى ذلك؟».

«لقد تمنيت ذلك لكني لم أعرف».

«لقد كنت أنتظر وأراقب بهدوء، لأني رأيت اختبارك أولًا، وإن نجحت فسأكافئك أعظم مكافأة عندي. وقد نجحت نجاحًا كبيرًا، ولن أعهد إليك بديمي فحسب، بل بابنيّ أيضًا، إذ بوسعك تعليمهما شيئًا أفضل من أي أحد منا».

«حقًا؟»، ودهش دان لقولها.

«لقد عاش ديمي بين الكبار كثيرًا وهو بحاجة إلى ما عندك، معرفة الأشياء العادية والقوة والشجاعة. إنه يراك أشجع الأولاد، وتعجبه طريقتك في فعل الأشياء. ثم إنك تعرف الكثير عن الطبيعة،

t.me/qurssan

، يمكنك إخباره حكايات عجيبة عن الطيور والنحل وأوراق الشجر والحيوانات، أكثر مما تقدمه له كتب القصص، وستنفعه قصصك كثيرًا لأنها قصص حقيقية. أعرفت الآن كم بوسعك مساعدته، ولماذا أحب قضاءه الوقت برفقتك؟».

«لكني أشتم أحيانًا، وقد أقول له شيئًا لا يليق. لست أعني ذلك، لكن الكلام يزلق من فمي، كما انزلقت كلمة «شيطان» قبل دقائق»، قال دان متحمسًا لأداء واجبه والاعتراف لها بمثاليه.

«أعلم أنك تحاول ألا تقول أو تفعل شيئًا للإساءة للصغير، وأحسب أن ديمي سيساعدك في هذا، لأنه بريء وحكيم بطريقته البسيطة، وما أحاول تقديمه لك يا عزيزي هو المبادئ الحسنة. إن الوقت لا يكون باكرًا أبدًا إن حاولت وزرعتها في الطفل، كما أن الأوان لا يفوت أبدًا على محاولة غرسها في أكثر الأشخاص جهلًا. أنتما لستما إلا صبيين، ويمكنكما تعليم بعضكما بعضًا. سيعزز ديمي دون أن يدرك حسك الأخلاقي، وستعزز أنت حس المنطق عنده، وسأشعر أنني ساعدت كليكما».

لم تفِ الكلمات لوصف بهجة دان وتأثره بهذه الثقة والثناء. لم ينل ثقة أحد من قبل، ولم يكترث أحد بالبحث عن الطيبة داخله ورعايتها، ولم يخمن أحد يومًا مكنونات صدر ذلك الفتى المهمل، الذي يسهل تحطيمه، ولكنه يشعر بالعطف والعون ويقدرهما. لم يكن لأي شرف يناله يومًا أن يكون أغلى من الحق في تعليم حسناته القليلة ومخزونه البسيط من العلم للطفل الذي يجله كثيرًا، وما

t.me/qurssan

من قيد محكم فرض عليه أكبر من الرفيق البريء الذي عهد إليه برعايته. فوجد الشجاعة الآن لإخبار السيدة جو بالخطة التي وضعها مع ديمي من قبل، وفرحت لأن الخطوة الأولى قد أنجزت بسهولة. وبدا كل شيء يسير سيرًا حسنًا مع دان، وسرت به، فقد بدت مهمة شاقة. غير أن العمل بإيمان قوي في إمكان الإصلاح في حالات أسوأ منه وأكبر قد أثمرت تغيرًا مأمولًا وسريعًا وهذا ما بث الحماس في روحها. أما هو فقد أحس بأن عنده أصدقاء ومكانًا في الدنيا وشيئًا يعيش ويعمل من أجله، ورغم أنه لم يقل إلا قليلًا، إلا أن أفضل ما في طباعه وأشجعه الذي اكتسبه من التجارب استجاب للحب والإيمان اللذين أغدقا عليه، وحينها تأكد خلاص دان.

قاطع حديثهما الهادئ صرخة فرح من تدي، الذي فاجأهما بصيد سمكة تراوت حيث لم يُرَ هذا النوع من السمك منذ سنوات. كان فرحًا للغاية بنجاحه وأصر على عرض غنيمته على العائلة قبل أن تطهوها آسيا للعشاء، لذا نزل الثلاثة وذهبوا معًا سعيدين مسرورين بعمل نصف الساعة تلك.

كان ند الزائر التالي إلى الشجرة، لكنه لم يطل المكوث، بل جلس هناك مرتاحًا، ودك ودولي يصيدان له ملء دلو من الجنادب والجداجد. لقد أراد ممازحة تومي، وعزم على دس بعض من الحشرات المزعجة في فراشه، فإن خلد بانغز إلى الفراش سقط منه سريعًا، وقضى ردحًا من الليل في مطاردة الجنادب في الغرفة. انتهى

t.me/qurssan

الصيد بسرعة، ودفع ند للصيادين قطعًا من حلوى النعناع ثم عاد لبعد فراش تومي.

تنهدت شجرة الصفصاف العجوز وغنت وحدها لساعة، وتحدثت مع الغدير وراقبت الظلال الممتدة عند غروب الشمس. كان أول الأشعة الوردية يلمس أغصانها الرشيقة عندما جاء صبي يعدو في الدرب المشجر وعبر المرج، ولما رأى بلي عند ضفة الغدير ذهب إليه وقال في نبرة غامضة:

«اذهب وأخبر السيد باير أنني أريد رؤيته هنا من فضلك، ولا تدع أحدًا يسمعك».

هز بلي رأسه وانطلق، وتسلق الصبي الشجرة وجلس هناك بادٍ عليه القلق، وشعر بسحر المكان والوقت في الآن نفسه. ظهر السيد باير في خمس دقائق، وقفز السياج ومال نحو العش وقال بلطف:

«تسرني رؤيتك يا جاك، ولكن لم لا تدخل وترانا جميعًا؟».

«أردت رؤيتك أولًا يا سيدي. أجبرني عمي على العودة. أعلم أني لا أستحق شيئًا، ولكني أرجو ألا يقسو عليَّ الأولاد».

لم يكن جاك المسكين على ما يرام، بل كان خجله وندمه جليين، وأراد أن يستقبل كالمعتاد قدر المستطاع، فقد ضربه عمه ضربًا مبرحًا ووبخه بقوة لاقتدائه به. توسل جاك حتى لا يعود، لكن المدرسة رخيصة والعم فورد أصر، لذا عاد الصبي بهدوء قدر استطاعته، ولاذ بالسيد باير.

«أرجو ذلك، لكني لا أستطيع الرد عنهم، رغم أني لست أراهم ظالمين. لقد قاسى دان ونات كثيرًا، وهما بريئان، فلا بد أن تقاسي لأنك مذنب. أليس كذلك؟»، سأل السيد باير مشفقًا على جاك، موقنًا أنه يستحق العقاب على خطأ ليس له مبرر.

«أظن ذلك، لكني أعدت نقود تومي واعتذرت، أليس هذا بكافٍ؟»، قال جاك بشيء من التجهم، إذ إن الولد الذي فعل شيئًا وضيعًا كهذا، ليس شجاعًا بما يجعله يتحمل العواقب.

«نعم. عليك أن تسأل الصفح من الأولاد الثلاثة، على الملأ وبإخلاص. لا تحسبهم يثقون بك ويحترمونك لبعض الوقت، ولكن يمكنك احتمال الكرب إن حاولت، وسأساعدك. إن السرقة والكذب إثمان بغيضان، وأرجو أن يكون هذا درسًا لك. يسعدني أنك تشعر بالخجل فهذه علامة جيدة، تحمله بصبر وابذل قصارى جهدك لتكسب سمعة حسنة».

«سأقيم مزادًا علنيًا أبيع فيه كل متاعي برخص التراب»، قال جاك مبديًا الندم بأكثر الصور غرابة.

«أرى أن التبرع بها أفضل، وابدأ بداية جديدة. اجعل شعارك «الصدق منجاة»، وحققه بأفعالك وأقوالك وأفكارك، ورغم أنك لم تجنِ سنتًا هذا الصيف، فإنك ستكون ولدًا ثريًا في الخريف»، قال السيد باير بجد.

كان ذلك أمرًا صعبًا، لكن جاك وافق إذ أحس أن الخداع لن يجديه نفعًا، وأراد أن يستعيد صداقة الأولاد. كان قلبه معلقًا بمتاعه

t.me/qurssan

، بكى في قرارة نفسه لأنه سيتبرع بأشياء ثمينة. كان طلب السماح على الملأ أهون من فعل هذا، ثم أخذ يتبين أن أشياء أخرى، لا ترى بالعين لكنها نفيسة للغاية، ثروة تفضل السكاكين وشصوص الصيد والنقود. لذا قرر شراء الأمانة وإن كانت بثمن باهظ، واستعادة احترام رفاقه، رغم أن هذا لم يكن غرضًا يمكن بيعه.

« حسن، سأفعل»، قال بعزم مفاجئ أبهج السيد باير.

«جيد! وأنا سأساندك. والآن هيا وابدأ في الحال».

وأعاد السيد باير الفتى المفلس إلى العالم الصغير، الذي استقبله استقبالًا فاترًا في البدء، ثم أبدى له حرارة رويدًا رويدًا، حين أظهر أنه استفاد من الدرس وكان متحمسًا للغاية للدخول في تجارة أفضل ببضاعة جديدة.

t.me/qurssan

t.me/qurssan

(١٦)
ترويض المهر

«ما الذي يفعله هذا الصبي بحق السماء؟»، قالت السيدة جو لنفسها وهي ترى دان يركض حول المثلث البالغ نصف ميل كأنه في رهان. كان وحده وكأنه ممسوس برغبة الجري وحده حتى تصيبه الحمى أو يدق عنقه، إذ بعد دورات عدة حاول قفز السياج وتشقلب في الدرب المشجَر، ثم سقط على العشب في نهاية المطاف أمام الباب كأنه منهك.

«أتتمرن من أجل سباق يا دان؟»، سألت السيدة جو من النافذة حيث تجلس.

فرفع نظره وكف عن اللهاث ليجيب ضاحكًا:

«كلا، إنني أصرف الفائض من طاقتي».

«ألا يمكن العثور على طريقة أهدأ لفعل ذلك؟ ستمرض إن ظللت تجري هكذا في الطقس الحار»، قالت السيدة جو وهي تضحك ورمت له بمروحة كبيرة من ورق النخيل.

t.me/qurssan

«لا أستطيع. يجب أن أركض في مكان ما»، أجاب دان وفي عينيه القلقتين نظرة غريبة، أقلقت السيدة جو وسألت في الحال:

«أضاقت عليك بلمفيلد؟».

«ليتها كانت أكبر قليلًا، لكني أحبها. غير أن الشيطان يتسلل إليَّ أحيانًا، فأرغب بالهرب».

خرجت الكلمات رغمًا عنه، إذ لاحت عليه أمارات الندم ما إن قالها، وظن أنه يستحق التوبيخ لجحوده. لكن السيدة جو تفهمت شعوره، ورغم أسفها لرؤية ذلك فإنها لم تلق باللوم على الصبي لاعترافه. بل نظرت إليه قلقة، ورأت أنه غدا طويلًا وقويًا ووجهه مفعم بالحيوية وعيناه متحمستان وفمه عازم. ولما تذكرت الحرية التي عاشها لسنوات من قبل، أدركت أن القيد اللطيف للبيت يثقل على كاهله أحيانًا حين تتقد في داخله روح التمرد القديمة. فقالت في نفسها: «أجل، إن صقري الكبير يحتاج قفصًا أكبر، غير أني أخشى ضياعه إن تركته يطير. يجب أن أحاول العثور على إغراء قوي يبقيه آمنًا».

«أعرف ذلك تمامًا»، أضافت بصوت عال، «إنه ليس الشيطان كما تسميه بل الرغبة الطبيعية بالحرية التي تتقد في كل الشباب. لقد كنت أشعر بهذا، وذات مرة شعرت حقًا أنني سأهرب».

«ولماذا لم تفعلي؟»، قال دان وقد جاء ليتكئ على أسكفة النافذة الواطئة، برغبة جلية في متابعة الحديث.

«عرفت أنها حماقة، وأبقاني حب أمي في البيت».

t.me/qurssan

«ليس عندي أم»، قال دان.

«حسبت عندك أم الآن»، قالت السيدة جو وهي تبعد برفق الشعر الخشن من على جبينه.

«إنك حنون عليَّ للغاية، ولا أستطيع يومًا إيفاءك من الشكر ما يكفي، غير أن الأمر ليس نفسه، أليس كذلك؟»، ونظر إليها دان بنظرة حزينة تواقة مست شغاف قلبها.

«كلا يا عزيزي، ليس الأمر نفسه ولا يمكن أن يكون. أحسب أن أمي كانت ستفعل الكثير لك. ولكن ما دام هذا ليس ممكنًا، فعليك أن تجعلني أحل محلها. أخشى أني لم أفعل كل ما يجب علي فعله، وإلا ما رغبت في تركي»، أضافت بحزن.

«بلى فعلت!»، قال دان بحماس، «ولا أريد الرحيل، ولن أرحل إن استطعت. غير أني أشعر بين الحين والآخر بأني سأنفجر بصورة ما. لذا تنتابني رغبة في الذهاب إلى مكان ما وتحطيم شيء ما أو لكم أحد ما. لا أدري لماذا، ولكن هذا ما يحدث وهذا كل ما في الأمر».

ضحك دان وهو يتحدث لكنه عنى ما قاله، إذ عقد حاجبيه السوداوين وضرب بقبضته على الأسكفة بقوة طار معها كشتبان السيدة جو إلى العشب. أعاده إليها ولما أخذته أمسكت اليد السمراء الكبيرة لحظة وهي تقول بنظرة أظهرت أن الكلمات شقت عليها:

«حسن يا دان، اهرب إن كان يتعين عليك ذلك، ولكن لا تهرب بعيدًا وعد إليَّ بسرعة، لأني أحتاجك كثيرًا».

t.me/qurssan

بُوغت بهذا الإذن المفاجئ ليتغيب، وقلل ذلك من رغبته في الذهاب بصورة ما. لم يفهم السبب لكن السيدة جو فهمت، وعرفت عناد العقل البشري، واعتمدت على ذلك ليكون عونًا لها. أدركت بغريزتها أن الصبي كلما زادت قيوده تمرد عليها، ولكنه إن ترك حرًا فسيهدئه إحساس الحرية، إضافة إلى معرفته بأن وجوده عزيز على الذين يحبونه كثيرًا. كانت تجربة صغيرة لكنها نجحت، إذ صمت دان للحظة ونزع أوراق المروحة دون وعي وقلّب الأمر في عقله. وأحس أنها لمست قلبه وشرفه واعترف بإدراكه إذ قال بمزيج من الندم والعزم في وجهه:

«لن أرحل لبعض الوقت. وسأخطرك بذهابي قبل هربي، هذا عدل أليس كذلك؟».

«بلى، وسنبقي الأمر هكذا. والآن أريد أن أفكر بطريقة ما تتخلص بها من فائض طاقتك أفضل من الركض في أرجاء المكان مثل كلب مجنون وإفساد مراوحي والشجار مع الأولاد. ماذا يمكننا أن نبتدع؟»، وأثناء محاولة دان إصلاح ما جنته يداه، أعملت السيدة جو عقلها بحثًا عن وسيلة جديدة لتبقي المارق بأمان حتى يتعلم أن يحب دروسه أكثر.

«ما رأيك أن تكون مرسالي؟»، قالت وقد طرأت لها فكرة مفاجئة.

«أذهب إلى البلدة وأقضي الحاجات؟»، سأل دان وقدا بدا عليه الحماس.

t.me/qurssan

«أجل، فقد سئم فرانز من هذا، ولا يمكننا التخلي عن سايلس في هذا الوقت، وليس لدى السيد باير وقت. إن آندي العجوز حصان أمين، وأنت فارس جيد، وتعرف دروب المدينة بقدر ساعي البريد. لنجرب ذلك ولنر إن كانت القيادة مرتين أو ثلاث في الأسبوع ستجديك نفعًا كأنك تهرب مرة في الشهر».

«أحب ذلك كثيرًا غير أن عليَّ الذهاب وحدي وفعل كل شيء وحدي. لا أريد أحدًا من الأولاد يزعجني»، قال دان وقد أعجبته الفكرة الجديدة كثيرًا وأخذ يملي شروطه.

-إن لم يمانع السيد باير فستكون وحدك. أحسب إميل سيعترض لكنه لا يجيد التعامل مع الخيول، أما أنت فتحسنه. بالمناسبة، إن غدًا يوم السوق، ويجب أن أعد قائمتي. يحسن بك أن تتأكد من العربة، وأن تخبر سايلس أن يجهز الخضار والفاكهة لأمي. سيتعين عليك النهوض باكرًا والعودة قبل بدء الصفوف، أيمكنك ذلك؟».

«إنني ممن يستيقظون باكرًا، فلا مانع عندي»، ولبس دان سترته على عجل.

«أنا واثقة أن المبكر سيصيب النجاح هذه المرة»، قالت السيدة جو مرحة.

«وسيكون نجاحًا مبهرًا!»، أجاب دان وقد ذهب يضحك ليضع جلازًا جديدًا للسوط، ويغسل العربة، ويخبر سايلس بإعداد كل شيء بجدية ساعي بريد شاب.

t.me/qurssan

«سأجد له شيئًا آخر قبل أن يسأم من هذا، لأكون مستعدة حين تعتريه النوبة القادمة من القلق»، قالت السيدة جو لنفسها وهي تكتب قائمتها بإحساس عميق من الامتنان بأن أولادها ليسوا كلهم مثل دان.

لم يعجب السيد باير بالخطة الجديدة كثيرًا، لكنه وافق على تجربتها، مما استحث دان لبذل أقصى جهده، وجعله يتخلى عن بعض الأفكار الجامحة التي كان الجلاز الجديد والتل العالي جزءًا منها. استيقظ في الصباح التالي وغادر باكرًا، مقاومًا بعزم إغراء السباق مع بائعي الحليب الذاهبين إلى البلدة. وما إن وصل هناك حتى أدى مهامه بحرص، وعاد إلى البيت يعدو قبل الصفوف، ففوجئ به السيد باير وسرت السيدة جو سرورًا عظيمًا. تذمر قائد العمارة من ترفيع دان، لكنه أرضي بقفل حلقي كبير لمرفئه الجديد، وبالقول إن البحارة يُراد لهم شرف أرفع من قيادة عربة السوق وقضاء حاجات العائلة. لذا شغل دان موقعه الجديد على خير ما يرام لأسابيع، ولم يذكر شيئًا عن الهرب. غير أن السيد باير وجده يومًا يلكم جاك، الذي كان يصرخ طلبًا للرحمة تحت ركبتيه.

«ويحك يا دان، حسبتك كففت عن الشجار»، قال وقد تقدم لإنقاذ الولد.

«إننا لا نتشاجر بل نتصارع»، أجاب دان وقد نهض بلا مبالاة.

«يبدو شجارًا وهو كذلك، أليس صحيحًا يا جاك؟»، قالت السيد باير حين نهض المهزوم بمشقة.

t.me/qurssan

«لن أتصارع معه ثانية، لقد كاد يسحق رأسي»، زمجر جاك، وهو يمسك بذلك الجزء من جسمه كأنه سقط حقًا على كتفيه.

«في الحقيقة لقد بدأنا الأمر لعبًا، ولكني حين أطحت به أرضًا لم أستطِع تجنب ضربه. أنا آسف لأني آلمتك يا صاح»، أوضح دان وقد بدا عليه الخجل.

«فهمتك. كنت تتحرق شوقًا لتضرب أحدًا فلم تقاوم. إنك مثل البرسركي[1] يا دان، والمصارعة حاجة عندك كحاجة نات للموسيقى»، قال السيد باير الذي عرف بما دار بين الصبي والسيدة جو.

«لا أستطيع منع نفسي. لذا ابتعد عن طريقي ما لم ترغب بأن نُضرب»، أجاب دان وفي عينيه السوداوين نظرة تحذير جعلت جاك يولي هاربًا.

«إن أردت أحدًا تتصارع معه، فسأقدم لك شخصًا أقوى من جاك»، قال السيد باير ومشى نحو باحة الحطب، وأشار إلى بعض جذور الأشجار التي عزقت في الربيع، وظلت هناك بانتظار فلقها.

«اسمع، إن راودتك رغبة في الإساءة للأولاد، تعال وأفرغ طاقتك هنا، وسأكون شاكرًا لك».

---

(١) أي محارب اسكندنافي قديم ممن عرفوا بقتالهم المسعور.

t.me/qurssan

«سأفعل»، وأمسك دان بالفأس الملقاة بالقرب، وسحب جذرًا متينًا، وأخذ يضربه بهمة حتى طارت شظايا منه هنا وهناك، وفر السيد باير بحياته.

فرح دان فرحًا كبيرًا، فقد عمل بنصيحة السيد باير، وكثيرًا ما شوهد يتصارع مع العُقد البغيضة، وقد خلع سترته وقبعته، واحمر وجهه والغضب يملأ عينيه، إذ استشاط غضبًا على خصومه، ولعنهم سرًا حتى هزمهم، فابتهج ومضى إلى الحظيرة حاملًا ملء ذراعيه من حطب البلوط المعجر منتصرًا. لقد امتلأت يداه بالقروح وأنهك ظهره وكلّت فأسه، لكن ذاك نفعه، ونال راحة من الجذور القبيحة أكثر مما يتصور أي أحد، لأن كل ضربة أفرغت شيئًا من الطاقة الحبيسة التي لربما صرفت صرفًا أقل إيذاء.

«لست أدري حقًا ما أفعل حين ينتهي هذا»، قالت السيدة جو في نفسها، إذ لم يأتِها الإلهام وقد نضب معين أفكارها.

غير أن دان وجد لنفسه شغلًا جديدًا، واستمتع به لبعض الوقت قبل أن يعرف أحد سبب هدوئه. أبقي حصان صغير جميل عائد للسيد لوري في بلمفيلد ذلك الصيف، يركض كما يشاء في المرعى الكبير بعد الغدير. فرح كل الأولاد بالحيوان الجميل المفعم بالحيوية، وأحبوا لبعض الوقت مشاهدته يعدو ويمرح وذيله الناعم يتراقص، ورأسه الجميل في الهواء. لكنهم ضجروا من ذلك، وتركوا الأمير تشارلي وشأنه. كلهم عدا دان، إذ لم يسأم قط من النظر إلى الحصان، ولم يزره إلا وهو يحمل له شيئًا

t.me/qurssan

.ن السكر أو قطعة خبز أو تفاحة ليألفه. كان تشارلي ممتنًا، وقبل صداقته، وتحابا كأن رابطًا قويًا يتعذر شرحه يربطهما. أينما كان تشارلي في الحقل الواسع، فإنه يأتي مسرعًا حين يصفر له دان عند السياج، ولم يكن الولد يومًا بأسعد حالًا منه حين يضع الحيوان الجميل الرشيق رأسه على كتف دان، ناظرًا إليه بعينين ملؤهما الحب القوي.

«إننا نفهم بعضنا بعضًا دون حديث، أليس كذلك يا صاحبي؟»، قال دان مزهوًا بثقة الحصان، وغيورًا عليه فلم يخبر أحد عن ازدهار صداقتهما، ولم يطلب من أحد مرافقته في هذه الزيارات اليومية إلا ندي.

كان السيد لوري يأتي بين الحين والآخر ليرى كيف يبلي تشارلي، وذكر شيئًا عن وضع الشكيمة له في فصل الخريف.

«لن يحتاج الكثير من الترويض، فهو حيوان رقيق هادئ الطباع. سآتي وأجرب وضع السرج عليه بنفسي ذات يوم»، قال في إحدى هذه الزيارات.

«لقد سمح لي بوضع رسن، لكني لا أظنه يحتمل السرج حتى إن وضعته أنت»، أجاب دان الذي حضر دومًا لقاءات تشارلي وصاحبه.

«سألاطفه ليحتمله، ولن أمانع في قليل من السقطات في البدء. لم يلق معاملة قاسية من قبل، رغم أنه سيفاجأ بالخطوات الجديدة، وأحسبني لن أخاف ولن يؤذيني سلوكه».

t.me/qurssan

«أتساءل ماذا سيفعل»، قال دان في نفسه حين ذهب السيد لوري مع الأستاذ وعاد تشارلي إلى القفص الذي جلب منه حين جاء الرجلان.

استولت على الصبي رغبة جريئة ليجرب، حين جلس على أعلى القضبان والظهر اللامع المغري قربه. فانصاع لرغبته، ولم يفكر بخطورتها. فاتخذ دان مجلسه على ظهر تشارلي بسرعة وهدوء، وتشارلي يقضم التفاحة التي مدها إليه متشككًا. غير أن جلوس دان لم يطل، فقد شب تشارلي بنخرة ذهول، وأسقط دان أرضًا. لم تؤلمه السقطة، إذ كان العشب طريًا فنهض وهو يقول ضاحكًا:

«لكني فعلتها على أية حال! تعال أيها المحتال وسأجرب ثانية».

لكن تشارلي رفض الاقتراب، وتركه دان عازمًا على النجاح في النهاية، إذ إن هذا الصراع يلائمه تمامًا. في المرة التالية أخذ رسنًا، وحين وضعه لعب مع الحصان قليلًا، قائدًا إياه جيئة وذهابًا، وجعله يمرح كما شاء حتى تعب، فجلس دان على السور وأعطاه خبزًا، لكنه تحين فرصته، وأمسك بالرسن جيدًا وامتطى ظهر تشارلي. جرب تشارلي خدعته السابقة، غير أن دان تمسك جيدًا، وقد نال تدريبه على يد توبي الذي يعتريه شيء من العناد بين الحين والآخر ويحاول إسقاط راكبه. دهش تشارلي واستاء، وبعد الوقوف للحظة انطلق يعدو، ومضى بدان مقلوبًا رأسًا على عقب. لو لم يكن دان من صنف الأولاد الذي يجربون شتى المخاطر دون أن ينالهم أذى، لاندق عنقه. وما حدث أنه سقط

t.me/qurssan

لطة قوية واستلقى يستجمع شجاعته، أما تشارلي فقد ركض ‎ير الحقل رافعًا رأسه بكل علائم السرور لما أصاب راكبه. غير ‎انه شعر أن مكروهًا وقع لدان، ولما كان شهم الطباع، فقد ذهب ‎يستجلي الأمر. تركه دان يتنشقه وقد بدت عليه علائم الحيرة ‎لبضع لحظات ثم نظر إليه بحزم كأن الحصان يفهمه:

«تحسب أنك هزمتني، لكنك مخطئ يا فتاي، وسأمتطيك، أراهنك على ذلك».

لم يجرب مرة أخرى ذلك اليوم، غير أنه بعد وقت قصير جرب طريقة جديدة بوضع حمل على تشارلي. إذ ربط دثارًا مطويًا على ظهره، ثم تركه يجري ويشب ويدور ويغضب كما شاء. ورضخ تشارلي بعد عدة نوبات من التمرد، وسمح لدان بامتطائه في غضون أيام قليلة، وتوقف أثناء ذلك لينظر حوله كأنه يقول في شيء بين الصبر والتوبيخ:

«لست أفهم ذلك، لكني أحسبك لا تقصد إيذائي لذا سأسمح لك».

ربت دان وأثنى عليه، وأخذه في جولة قصيرة كل يوم، وسقط كثيرًا لكنه أصر على المتابعة، وهو يتحرق لوضع السرج واللجام، دون أن يجرؤ على الإقرار بما كان يفعل. وتحققت أمنيته، إذ تبين أن ثمة شاهدًا على كل ما فعل وأثنى عليه.

«أتعرف ما الذي كان يفعله ذاك الفتى في الآونة الأخيرة؟»، سأل سايلس سيده ذات مساء، وهو يتلقى أوامر اليوم التالي.

t.me/qurssan

«أي فتى؟»، سأل السيد باير بشيء من الحزم منتظرًا بوحًا حزينًا.

«دان، لقد كان يروض المهر يا سيدي، ولأَمُت إن لم يروضه»، أجاب سايلس ضاحكًا.

«كيف عرفت؟».

«إنني أراقب الفتية الصغار، وأعرف عادة ما يعتزمون فعله، لذا حين رأيت دان يعكف على الذهاب إلى المرعى، ويعود تغطيه الكدمات، خشيت أن أمرًا يجري. لم أقل شيئًا، لكني تسللت إلى الحظيرة، ومن هناك رأيته يلاعب تشارلي شتى الألعاب. ولتحل عليَّ اللعنة إن لم يسقطه ويحاول ثانية ويوقعه مثل كلب قرب طعام. لكن عزيمة الصبي انتصرت، ويبدو أنه أحبه فظل يحاول حتى تغلب عليه».

«ولكن كان عليك إيقاف ذلك يا سايلس، فلربما قتل الصبي»، قال السيد باير متسائلًا عن البلية التي سيجلبها تاليًا فتاه الذي لا يكبح.

«أحسب ذلك، ولكن لم يكن ثمة خطر حقيقي، فليس تشارلي بالمحتال، كما أنه حصان له أجمل الطباع التي رأيتها في حصان. لم أطِق إفساد اللعبة، إذ لو كنت أحب أمرًا فإنه العزم ودان فتى مفعم به. غير أني عرفت الآن أنه يتوق للحصول على سرج، ولن يأخذ القديم خلسة، لذا رأيت أن آتي وأخبرك فلعلك تجعله يجرب ما يمكنه فعله. لن يمانع السيد لوري، وتشارلي كذلك».

«سننظر في الأمر»، وذهب السيد باير ليبحث في الأمر.

t.me/qurssan

وافق دان من فوره، وأثبت بفخر أن سايلس كان محقًا في الحديث عن سيطرته على تشارلي، إذ بالكثير من الملاطفة والقليل من الجزر وبالدأب المتواصل، نجح في امتطاء المهر برسن ودثار. فرح السيد لوري كثيرًا، وأعجب بشجاعة دان ومهارته، وجعله يشارك في ما يعتزم فعله مستقبلًا، إذ بدأ في تعليم تشارلي في الحال، قائلًا إنه لن يُهزم على يد ولد. الفضل لدان في تقبل تشارلي برفق للسرج واللجام حين حمل نفسه على الإذعان لإذلال الشكيمة، وبعد أن دربه السيد لوري قليلًا، سمح لدان بركوبه، في ظل حسد الأولاد الآخرين وإعجابهم.

«أليس جميلًا؟ ألا يرتاح لي مثل حمل؟»، قال دان يومًا وقد ترجل ووقف واضعًا ذراعه على عنق تشارلي.

«بلى، ثم أليس بحيوان نافع ولطيف أكثر من المهر الجامح الذي أمضى أيامه في الجري في الحقل، قافزًا السياج وهاربًا بين الحين والآخر؟»، سألت السيدة باير من فوق العتبات حيث تقف دومًا كلما امتطى دان تشارلي.

«بلى قطعًا. لن يهرب الآن وإن لم أمسكه، ثم إنه يأتي إليَّ حين أصفر، لقد أحسنت ترويضه، أليس كذلك؟»، وبدا دان فخورًا وسعيدًا بحق، إذ أحبه تشارلي أكثر من صاحبه، رغم تنازعهما.

«إنني أروض مهرًا أيضًا، وأحسبني سأنجح مثلك إن تحليت بالصبر والدأب»، قالت السيدة جو مبتسمة له ابتسامة كبيرة، ففهم دان وأجاب ضاحكًا غير أنه جاد:

t.me/qurssan

«لن نقفز من فوق السياج ونهرب، بل سنبقى ونجعلهم يصنعون لنا حياة جميلة نافعة، أليس كذلك يا تشارلي؟».

t.me/qurssan

(١٧)
يوم الإنشاء

«أسرعوا يا أولاد، إنها الثالثة والعم فرتز يحب أن نلزم الدقة كما تعلمون»، قال فرانز عصر يوم أربعاء عندما رن الجرس، وشوهد جمع من الرجال الصغار الذين لهم سيماء الباحثين وهم يحملون الكتب والأوراق ميممين شطر المتحف.

كان تومي في الصف منحنيًا على مقعده، ملطخًا بالحبر، محمرًا من اتقاد الإلهام وفي عجلة كبيرة كعادته، إذ إن بانغز الطائش لا يستعد إلا في اللحظات الأخيرة. وعندما دخل فرانز يبحث عن المتلكئين، محا تومي وكتب -في تأنق- لآخر مرة ثم خرج قافزًا من النافذة وهو يهز ورقته ليجف حبرها في الطريق. لحقت به نان واكتسى وجهها بكثير من الجدية، حاملة في يدها لفيفة طويلة، ورافق ديمي ديزي وكلاهما مترع بسر بهيج.

كان المتحف مرتبًا للغاية، وصنعت أشعة الشمس التي تخللت عروق الجنجل ظلالًا على الأرض وهي تطل من النافذة الكبيرة. جلس السيد والسيدة باير في جانب من المكان، وعلى الجانب الآخر

t.me/qurssan

طاولة توضع عليها المقالات بعد قراءتها، وجلس الأطفال في نصف دائرة على مقاعد المخيم التي تنطوي أحيانًا وتُسقِط الجالس عليها فتجنب الجمع لذلك أي تكلف. ولما كانت قراءة الجميع تستغرق وقتًا فقد تناوبوا، وكان هذا العصر دور التلاميذ الأصغر، أما الكبار فتلطفوا بالاستماع إليهم ونقدهم بحرية.

«السيدات أولًا، لذا لتبدأ نان»، قال السيد باير حين فُرِغ من تنظيم المقاعد وخفت حفيف الورق.

وقفت نان بجانب الطاولة الصغيرة، وضحكت في البدء ثم قرأت المقالة المثيرة التالية عن «الإسفنج»:

«إن الإسفنج يا أصدقائي نبات مثير ونافع. فهو ينمو على الصخور تحت الماء، وأظنه نوعًا من أعشاب البحر. يذهب الناس لصيده وتجفيفه وغسله، لأن الأسماك والحشرات الصغيرة تسكن في ثقوب الإسفنج، وقد وجدت صدفًا ورملًا في إسفنجتي الجديدة. يكون بعضه ناعمًا وجميلًا، يُغسل به الأطفال. للإسفنج استخدامات عدة، وسأذكر بعضًا منها وأرجو أن يتذكر أصدقائي ما أقول. إنه يستخدم لغسل الوجه، رغم أني لا أحبذ ذلك لكني أفعله لأني أريد لوجهي أن يكون نظيفًا، وبعض الناس لا يفعلون فتكون وجوههم قذرة». وهنا استقرت نظرة القارئة بحزم على دك ودولي اللذين خافا منها، وعزما في الحال على دعك وجهيهما جيدًا في كل الأوقات. «ويستخدم أيضًا في إيقاظ الناس، وأنا أشير إلى الأولاد حصرًا». وصمتت مرة أخرى بعد الكلمة الطويلة

t.me/qurssan

يستمتع بالضحك المكتوم في المكان. «لا ينهض بعض الأولاد عند أحلامهم، فتعصر ماري آن الماء من إسفنجة مبلولة على وجوههم، من جنونهم فيستيقظون»، عندئذ انفجر الجميع بالضحك، وقال ... كأنه المعني:

«أحسبك خرجت عن الموضوع».

«كلا لم أفعل. طلب منا كتابة مقال عن النبات والحيوان، وقد كتبت عن كليهما، إذ إن الأولاد حيوانات، أليس كذلك؟» قالت نان، ولم تتأثر بـ«لا!» المهينة التي صرخت في وجهها، بل واصلت بهدوء:

«يمكن صنع شيء مثير آخر بالإسفنج، فيضع الأطباء الأثير عليه ويقربونه من أنوف المرضى عند خلع أسنانهم. سأفعل ذلك حين أكبر، وأضع الأثير للمريض فينام ولا يشعر بي وأنا أبتر ساقه وذراعه».

«أعرف أحدًا قتل القطط به»، قال ديمي الذي أخرسه دان بسرعة وقد تململ في مقعده وغطى وجهه بقبعة.

«يجب ألا يقاطعني أحد»، قالت نان عابسة للشجار الذي جرى في غير أوانه. وساد النظام بسرعة، وختمت السيدة الصغيرة مقالها بالتالي:

«إن لمقالي ثلاث عِبَر يا أصدقائي»، فهمهم أحدهم مستنكرًا، غير أنها لم تبال بالإساءة. «أولها أن تحافظ على نظافة وجهك، وثانيًا

t.me/qurssan

أن تنهض باكرًا، أما الثالثة فإن وضعت إسفنجة مبللة بالأثير على أنفك فاستنشقه جيدًا ولا تركل وسيخلع ضرسك بسهولة. هذا كل ما لديَّ»، وجلست الآنسة نان وسط تصفيق حار.

«إن هذا المقال رائع، ونبرته عالية وفيه كثير من الدعابة. أحسنت يا نان. دورك يا ديزي»، وابتسم السيد باير لسيدة صغيرة وهو يومي للأخرى.

احمر وجه ديزي كثيرًا حين وقفت، وقالت بصوتها الهادئ الصغير: «أخشى أنكم لن تحبوا مقالي، فهو ليس جميلًا ولا مضحكًا كمقال نان. لكني لم أستطع كتابة أفضل».

«إننا نحب مقالاتك دومًا يا زهرتي»، قال العم فرتز، وهمهم الأولاد بلطف كأنهم يؤكدون قوله. فتشجعت ديزي وقرأت مقالها الصغير واستمع إليه باهتمام جليل.

«القطة: القطة حيوان رائع، أحبها كثيرًا. فهي جميلة ونظيفة وتحبك إن كنت بها رفيقًا. إنها ذكية للغاية، وتعرف الطريق بسهولة. تسمى القطط الصغيرة هريرات، وهي حلوة جدًا. لديَّ اثنتان اسماهما هَز وبَز وأمهما توباز (الياقوت الأصفر)، لأن لها عينين صفراوين. أخبرني عمي قصة جميلة عن رجل لطيف اسمه محمد، كان له قطة لطيفة وحين نامت في ردنه وأراد الذهاب قطع كمه لئلا يوقظها[1]. أظنه رجلاً رحيماً. بعض القطط تصطاد السمك».

(١) المقصود بذلك أبو هريرة.

t.me/qurssan

«وأنا أيضًا!»، قال تدي وهو يقفز لهفة ليحكي عن سمكة التراوت التي صادها.

«صه!»، قالت أمه وهي تجلسه بسرعة، إذ تكره ديزي المنظمة أن يقاطعها أحد، كما قالت نان.

«قرأت عن قطة تصيد السمك بمكر شديد، وحاولت تعليم ذلك لتوپاز لكنها لا تحب الماء وخمشتني. إنها تحب الشاي، وحين ألعب في مطبخي تربَّت على إبريق الشاي بكفها حتى أعطيها شيئًا منه. إنها قطة أنيقة تأكل پودنغ التفاح والدبس، ومعظم القطط لا تأكل ذلك».

«إنها مقالة رفيعة الطراز»، قال نات وعادت ديزي مسرورة بثناء صديقها.

«إن ديمي يتحرق شوقًا فيجب أن نسمعه وإلا جُنَّ جنونه»، قال العم فرتز وركض ديمي مسرورًا.

«كتبت قصيدة!»، أعلن بنبرة انتصار، وقرأ محاولته الأولى بصوت عال رصين:

«أكتب عن الفراشة
إنها شيء جميل
تطير في الأنحاء كالعصافير
لكنها لا تغني
تكون في البدء دودة صغيرة

t.me/qurssan

ثم تغدو شرنقة صفراء جميلة
ثم فراشة
تشق طريقها.
تتغذى على الندى والعسل
وليس لها قفير
ولا تلسع مثل الدبور والنحل والزنبور
ويجب أن نسعى لنكون بمثل طيبتها
أحب أن أكون فراشة جميلة
ملونة بالأصفر والأزرق والأخضر والأحمر
لكني لا أحب
أن يضع دان كافورًا على رأسي الصغير المسكين».

فأعجبت دفقة العبقرية المفاجئة الجمع كله، وألزم ديمي بقراءتها ثانية، وكانت مهمة صعبة إذ لم يكن فيها علامات ترقيم، فانقطعت أنفاس الشاعر الصغير قبل أن يصل إلى نهاية بعض السطور الطويلة.

«سيكون شكسبير يومًا»، قالت الخالة جو ضاحكة ضحكًا شديدًا، إذ ذكرتها هذه القصيدة الفذة بقصيدتها التي كتبتها في العاشرة من عمرها وتبدأ بمطلع كئيب:

«ليت لي قبرًا هادئًا
قرب جدول صغير

t.me/qurssan

حيث العصافير والنحل والفراشات

تغني على التل».

«هيا يا تومي. إن كان في ورقتك بقدر ما على ظهرها من حبر، فسيكون مقالًا طويلًا»، قال السيد باير حين أقنع ديمي بترك قصيدته الحلوس.

«إنه ليس مقالًا، بل رسالة. لقد نسيت أنه دوري حتى انتهى اليوم الدراسي، ثم لم أعرف عما أكتب ولم يكن عندي وقت كافٍ للقراءة، لذا حسبتك لن تمانع في قراءتي رسالة كتبتها لجدتي. إن فيها شيئًا عن الطيور، لذا ظننتها تفي بالغرض».

بعد هذا العذر الطويل، غاص تومي في بحر من الحبر، وتقدم متعثرًا وهو يصمت بين الحين والآخر ليفك مغالق إحدى عباراته المتكلفة.

«جدتي العزيزة، أرجو أنك بخير. أرسل إليَّ العم جيمس مسدسًا. إنه أداة قتل صغيرة جميلة، لها هذا الشكل -(وعرض تومي عندئذ رسمًا جميلًا لما بدا شبيهًا بالمضخة المعقدة، أو باطن قاطرة بخارية)- إن الرقم ٤٤ يشير إلى المهداف، و٦ إلى المقبض الإضافي المناسب تمامًا، و٣ إلى القداح، و٢ إلى زناد المسدس. ويمكن تلقيمه من المؤخرة، ويطلق بقوة ومباشرة. سأذهب لصيد المناجب قريبًا، وقد صدت لأجل المتحف عددًا من الطيور الجميلة، لها صدور مرقطة وأعجب بها دان كثيرًا. فحنطها بأحسن ما يكون التحنيط وها هي تقف على

t.me/qurssan

الشجرة كأنها حية، عدا واحدًا إذ يبدو عرضة للانقلاب. جاء إلينا رجل فرنسي يعمل قبل أيام، وقالت آسيا اسمه بصورة مضحكة للغاية، فسأقص لك ما حدث. كان اسمه جيرمين، فنادته جيري أولًا لكننا ضحكنا عليها، فغيرته إلى جيرميا، لكن العاقبة كانت مضحكة، لذا صار اسمه السيد جيرمني [ألمانيا]، فضحكنا ثانية فصار اسمه غاريمن وظل هذا اسمه منذئذ. لست أكتب لك كثيرًا لأني منشغل جدًا، لكني أفكر بك كثيرًا وأشفق عليك وأرجو مخلصًا أن تتعافي بأقرب وقت دوني.

حفيدك المحب

تومس بكِماستر بانغز

ملاحظة: إن صادفت أي طوابع بريدية فاذكريني.

حاشية: أبلغي حبي للجميع، وحبي الكبير للعمة أَلميرا. أتخبز كعك البرقوق اللذيذ الآن؟

ملاحظة: ترسل لك السيدة بابر تحياتها.

ملاحظة: وكذلك السيد باير لو عرف أنني أكتب رسالة.

حاشية: سيهديني أبي ساعة يد في عيد ميلادي. أنا سعيد، فليس عندي ما أعرف به الوقت راهنًا، وأتأخر كثيرًا على المدرسة.

ملاحظة: أرجو أن أراك قريبًا، ألا تريدين أن ترسلي لي شيئًا؟

ت. ت. ب».

t.me/qurssan

لما استقبل الأولاد كل حاشية بضحك عارم، لم يكد تومي يصل الحاشية السادسة حتى أنهك، وسر حين جلس ومسح وجهه الأحمر.

«أرجو أن تعيش السيدة العجوز أثناء قراءتها»، قال السيد باير ملال الضجيج.

«إن غضضنا الطرف عن الإشارة الواضحة في الحاشية الأخيرة، فإنها ستحتمل الرسالة أكثر من زيارة تومي»، أجابت السيدة جو، وقد تذكرت أن السيدة العجوز ترقد في الفراش عادة بعد كل زيارة من حفيدها الذي لا يكبح جماحه.

«دوري الآن»، قال تد الذي حفظ شيئًا من الشعر، وتحمس لقراءته فظل يقفز ويقفز أثناء قراءة الآخرين، ولم يعد كبحه ممكنًا.

«أخشى أن ينسى إن انتظر، وقد كابدت مشقة عظيمة في تعليمه»، قالت أمه.

تقدم تدي إلى المنبر، وانحنى وأومى برأسه في الوقت نفسه، كأنه يتلهف لإرضاء الجميع، ثم قرأ قصيدته بنفس واحد بصوته الطفولي، مشددًا على الكلمات الخطأ:

«قطرات صغيرة من الماء
حبيبات صغيرة من الرمل
تصنع محيطًا عظيما
وأرضًا سعيدة

t.me/qurssan

كلمات صغيرة لطيفة
نقولها كل يوم
تجعل البيت جنة
وتساعدنا بصورة ما»[1].

وصفق في النهاية، ثم حيى تحية ثنائية أخرى، وركض ليضع رأسه في حجر أمه، وقد سر بنجاح «قصيدته»، إذ كان التصفيق هائلًا.

لم يكتب دك ودولي، بل طلب منهما مراقبة عادات الحيوانات والحشرات ونقل ما شاهداه. أعجب هذا دك وكان عنده دومًا الكثير مما يقول، لذا حين نودي اسمه تقدم ونظر إلى الجمهور بعينيه البراقتين الواثقتين، وقص حكايته برصانة شديدة، فلم يضحك أحد على جسمه المحدودب، لأن روحه «المستقيمة» سطعت خلاله سطوعًا قويًا.

«كنت أراقب اليعسوب، وقرأت عنه في كتاب دان، وسأحاول إخباركم بما أتذكره. يطير الكثير من اليعاسيب حول البركة، وهي زرقاء كبيرة العينين ولها أجنحة مزركشة جميلة جدًا. أمسكت بواحد منها ونظرت إليه وأظنه أجمل حشرة رأيتها في حياتي. إن اليعسوب يصيد حشرات أصغر منه ليأكلها، وله خطاف غريب ينثني إن لم يكن يصيد. يحب اليعسوب ضياء الشمس، ويرقص في

(١) قصيدة للشاعرة جوليا أبيغيل فلتشر، فحواها أن الأشياء الصغيرة تحدث فرقًا.

t.me/qurssan

الأنحاء طوال النهار. دعوني أتذكر! ماذا أقول لكم عنه أيضًا؟ أوه، ... رت! يضع بيوضه في الماء، فتنزل إلى القاع وتفقس في الوحل، ... رج منها حشرات صغيرة قبيحة، لا أعرف اسمها، لكنها بنية ... ظل جلدها يتغير وتكبر وتكبر. ولكن اسمعوا! إنها تحتاج إلى ... امين لتصبح يعسوبًا! سأتحدث الآن عن الجزء الأغرب، فأصغوا ... مهدًا لأني لا أحسبكم تعرفونه. إنها تعرف متى يحين الوقت، ... فتنسلق الديدان القبيحة وتخرج من الماء على عشبة التيفا أو نبات البردي، وينشق ظهرها».

«هيا، أنا لا أصدق هذا»، قال تومي الذي لم يكن فتى مراقبًا، و ... ظن حقًا أن دك «اختلق» ذلك.

«إن ظهرها ينشق حقًا، أليس كذلك؟»، وناشد دك السيد باير الذي هز رأسه مؤكدًا بحزم، فسر المتحدث الصغير سرورًا كبيرًا.

«ثم يخرج اليعسوب مكتملًا، ويجلس في الشمس؛ كأنه يعود إلى الحياة كما ترون، فيصبح قويًا ثم ينشر جناحيه الجميلين، ويطير في الهواء عاليًا، ولا يكون دودة أبدًا. هذا كل ما أعرفه، لكني سأراقبه وأحاول رؤيته يفعل ذلك، لأني أرى أن التحول إلى يعسوب جميل أمر رائع، ألا توافقوني؟».

حكى دك حكايته على نحو حسن، وحين وصف طيران الحشرة الجديدة، لوح بيديه ونظر للأعلى كأنه رآها وأراد اتباعها. أوحى شيء ما في وجهه إلى المستمعين الكبار بأن دك الصغير سيحقق أمنيته يومًا ما، وبعد سنوات من الألم والعجز سيصعد إلى الشمس ذات

t.me/qurssan

يوم سعيد، مخلفًا جسمه الصغير الضعيف وراءه، ليجد قوامًا جديدًا رائعًا في عالم أجمل من هذا. جذبته السيدة جو نحوها، وقالت وهي تقبل خده النحيل: «إنها قصة حلوة قصيرة يا عزيزي، وقد تذكرتها جيدًا. سأكتب لأمك وأخبرها بهذا»، فجلس دك على ركبتها يبتسم راضيًا لثنائها عليه، عازمًا أن يراقب جيدًا ليرى اليعسوب حين يتخلى عن جسمه القديم لأجل الجديد، ويرى كيف يفعله. كان لدولي بعض الملاحظات حول البط، وتلاها بإيقاع رتيب، إذ حفظها عن ظهر قلب، ووجد في قراءتها مشقة عظيمة.

«يصعب صيد البط البري، لذا يختبئ الرجال ويطلقون النار عليه، ويحملون معهم بطات أليفة توقوق لإغراء البطات البرية بالاقتراب فيطلق الصيادون النار عليها. كما أنهم يحملون بطات خشبية، ويجعلونها تسبح، فتقترب البطات البرية لرؤيتها. أظنها غبية. إن بطاتنا أليفة جدًا، وهي تأكل كثيرًا، وتذهب للتسكع في الوحل والماء. كما أنها لا ترعى بيضها، بل تتركه يفسد و...».

«بطاتي لا تفعل ذلك!»، قال تومي.

«لكن بطات بعض الناس تفعل، هذا ما قاله سايلس. ترعى الدجاجات البطيطات الصغيرة، غير أنها لا تحب خوضها في الماء فتحدث جلبة كبيرة. لكن الصغار لا يكترثون البتة. أحب كل البط بعد حشوه، مع الكثير من صلصلة التفاح».

«عندي ما أقوله حول البوم»، قال نات الذي أعد مقالته بعناية حول هذا الموضوع بمساعدة من دان.

t.me/qurssan

«للبومة رأس كبير وعينان مدورتان ومنقار معقوف ومخالب قوية. بعض البوم رمادي وبعضها أبيض وبعضها ذات لونين أسود وأصفر. ريشها ناعم للغاية وشديد البروز. تطير البومة بهدوء وتصيد الوطاويط والفئران والطيور الصغيرة وما إلى ذلك. كما أنها تبني أعشاشها في الحظائر وتجاويف الأشجار، وبعضها يستولي على أعشاش الطيور الأخرى. تبيض البومة المقرنة الكبيرة بيضتين أكبر من بيض الدجاجة لونهما بني محمر. وتضع البومة الغبراء خمس بيضات ناعمة وبيضاء، وهذا هو النوع الذي ينعب ليلًا. أما صوت النوع الآخر فمثل زعيق العصفور. إنها تأكل الفئران والوطاويط كاملة، أما الأجزاء التي لا يمكنها هضمها فتصنع منها كرات صغيرة وتبصقها».

«يا رب السموات! يا للغرابة!»، علقت نان.

«لا تستطيع البومة الرؤية نهارًا، وإن خرجت في النور فإنها تخفق بأجنحتها نصف عمياء، فتلاحقها الطيور الأخرى وتنقرها وكأنها تلهو. إن البومة المقرنة بومة كبيرة للغاية، بحجم العقاب تقريبًا. وهي تأكل الأرانب والجرذان والأفاعي والطيور، وتعيش في الصخور والبيوت القديمة الخربة. إن لها صراخًا متنوعًا وتزعق كأن أحدهم اختنق، وتقول «ووهوو! ووهوو!» فتفزع الناس في الغابات ليلًا. تعيش البومة البيضاء قرب البحر وفي الأماكن الباردة، وتشبه قليلًا البازيّ. يحفر أحد أنواع البوم حفرًا ليسكن فيها مثل المناجذ، يُدعى البوم الحفّار وهو صغير جدًا. أما النوع الأكثر انتشارًا فهو

t.me/qurssan

بوم الحظائر، وقد راقبت واحدة تجلس في تجويف شجرة، وتشبه قطة رمادية صغيرة، تغمض عينًا وتفتح الأخرى. إنها تأتي في الغسق وتجلس بانتظار الوطاويط، وقد صدت واحدة وها هي ذي».

وعندئذ أخرج نات فجأة من جيبه الداخلي طيرًا صغيرًا أزغب، طرف بعينيه ونفش ريشه، وهو يبدو مكتنزًا وناعسًا وخائفًا.

«لا تلمسوه! سيدأ بالتباهي»، قال نات، عارضًا حيوانه الجديد بفخر عظيم. فوضع أولًا قبعة مردودة على رأس البومة، وضحك الأولاد على المنظر الطريف، ثم وضع نظارة ورقية، فمنح البومة مظهر الحكمة فهتف الأولاد مرحًا. ختم العرض بإغضاب البومة ورؤيتها تتشبث بمنديل مقلوب، وتنقر وتقرق، كما قال روب. وسمح لها بالطيران بعد هذا، وحطت على كومة من أكواز الصنوبر فوق الباب، إذ جلست تحدج الحشد في الأسفل بشموخ ناعس أضحكهم كثيرًا.

«ألديك شيء لنا يا جورج؟»، سأل السيد باير عندما ساد الهدوء في المكان ثانية.

«لقد قرأت وعرفت كثيرًا من الأشياء عن المناجذ، لكني أقر بأني نسيت كل شيء مما قرأت، عدا أنها تحفر حفرًا تسكن فيها، وأنه يمكن صيدها بسكب الماء في جحورها، وأنها لا يمكنها العيش دون أن تأكل كثيرًا»، وجلس ستفي، متمنيًا أنه لم يكن شديد الكسل فلم يكتب ملاحظاته القيمة، إذ علت الابتسامة الوجوه حين ذكر آخر الحقائق الثلاث التي مكثت في ذاكرته.

t.me/qurssan

«لقد انتهيت من ... دان» السيد باير، لكن تومي قال في عجالة:

«كلا، لم ننته. ألا تعرف؟ يجب أن نقدم الشيء»، وغمز بعينيه حين جعل أصابعه على هيئة العينية.

«ويح قلبي، لقد نسيت! حان دورك الآن يا توم»، وعاد السيد باير للجلوس، وبدا كل الأولاد، عدا دان، مسرورين لأمر ما.

غادر نات، وتومي، وديمي، وعادوا مسرعين يحملون حافظة صغيرة من الجلد المراكشي الأحمر وضعت بأبهة على أفضل أطباق السيدة جو الفضية. حملها تومي وتقدم يصحبه ديمي ونات إلى دان الذي لم يرتب بشيء، ونظر إليهم كأنه يحسبهم يسخرون منه. أعد تومي خطابًا رائعًا بليغًا لهذا الحدث، ولكنه نسيه كله عندما حانت اللحظة، فاكتفى بالقول من أعماق قلبه الصبياني الرقيق:

«إليك يا صاحبنا، لقد أردنا جميعًا أن نهديك شيئًا لنعتذر عما حدث قبل مدة، ولنظهر لك حبنا لأنك شجاع. أرجو أن تقبله، وأن تقضي به وقتًا ممتعًا».

فوجئ دان ولم يقل شيئًا عدا أنه احمر بقدر حمرة الحافظة الصغيرة، وغمغم «شكرًا لكم يا أولاد!»، وهو يهرع لفتحها. ولكن حين رأى ما بداخلها، أشرق وجهه فأمسك بالكنز الذي طال انتظاره قائلًا بحماس أبهج الجميع رغم أن كلامه لم يكن منمقًا:

«يا للروعة! أقول إنكم طيبون للغاية يا أولاد إذ قدمتم لي هدية كهذه. فهذا ما أردته حقًا. هات كفك يا تومي».

t.me/qurssan

فمدت له كفوف كثيرة، وصافحوه بحرارة، إذ فرح الأولاد ببهجة دان، وتجمعوا حوله ليصافحوه ويسهبوا في الحديث عن مزايا هديتهم. ووسط هذا الحديث المرح، اتجه نظر دان إلى السيدة جو، التي وقفت بعيدًا عن الجمع فرحة بالمنظر فرحًا كبيرًا.

«كلا، ليس لي دخل في ذلك، لقد كانت فكرة الأولاد»، قالت ردًا على نظرة الامتنان التي تشكرها على اللحظة السعيدة. ابتسم دان وقال بنبرة لا يفهمها سواها:

«الأمر سيان»، ومشى بين الأولاد ومد يده نحوها أولًا ثم إلى الأستاذ الطيب الذي ابتسم ابتسامات ودودة لتلاميذه.

فشكر كليهما بضغطة ودودة على اليدين الكريمتين اللتين مدتا له وقادتاه نحو بر الأمان في هذا البيت السعيد. لم يقل شيئًا، لكنهما أحسا بما أراد قوله وأعرب تدي عن سعادتهما بدلًا منهما حين مال من بين ذراعي أبيه ليعانق الصبي ويقول بأسلوبه الطفولي:

«داني التيب! الجميع يحبونه الآن».

«هلم يا دان وأرنا مقرابك، ودعنا نرَ تكبيرًا لبعض من الشراغف والكائنات الدقيقة كما تسميها»، قال جاك الذي لم يرتح أثناء هذا كله وأراد التسلل خارجًا لولا أن منعه إميل.

«حسن، ألقِ نظرة على هذا وقل لي ما رأيك»، قال دان مسرورًا بعرض مجهره الثمين.

لقد وضعه فوق خنفساء كانت على الطاولة، وانحنى جاك

t.me/qurssan

ليلقي نظرة، لكنه رفع رأسه وقال مذهولًا: «وا عجبًا! يا لقراضتي هذه الخنفساء! فهمت الآن لماذا نتألم حين نمسك بجُعل فيقرصنا».

«لقد غمز لي»، قالت نان التي دست رأسها من تحت مرفق جاك واختلست نظرة ثانية.

نظر الجميع، ثم أراهم دان الريش الجميل لجناح العثة، والأطراف المريشة الأربعة لشعرة، والعروق على ورقة شجر لا ترى بالعين المجردة، لكنها تبدو مثل شبكة سميكة تحت العدسة العجيبة الصغيرة، والجلد على أصابعهم الذي يبدو مثل تلال ووديان غريبة، وشبكة عنكبوت تشبه قطعة من حرير رديء الحياكة، وإبرة نحلة.

«إنه مثل النظارات السحرية في كتاب القصص، غير أنها أغرب»، قال ديمي مفتونًا بالعجائب التي شاهدها.

«إن دان ساحر الآن، ويمكنه أن يريكم معجزات كثيرة مما حولكم، إذ يملك شيئين ضروريين؛ الصبر وحب الطبيعة. إننا نعيش في عالم جميل وعجيب يا ديمي، وكلما عرفت عنه أكثر غدوت أفضل وأكثر حكمة. سيكون المجهر الجديد معلمًا جديدًا لكم، وبوسعكم أن تتعلموا منه دروسًا جميلة إن شئتم»، قال السيد باير مسرورًا لرؤية اهتمام الأولاد بالموضوع.

«أيمكنني رؤية روح أي أحد عبر هذا المجهر إن نظرت جيدًا؟»، سأل ديمي الذي فتن كثيرًا بقدرة المجهر الصغير.

«كلا يا عزيزي، إنه ليس قويًا قوة كافية لهذا، ولا يمكن صنع

t.me/qurssan

واحد كهذا. عليك أن تنتظر طويلًا قبل أن يصبح نظرك حادًا لترى أكثر معجزات الرب خفاء. ولكن النظر إلى الأشياء الجميلة التي تشاهدها سيعينك في إدراك الأشياء الأجمل التي لا تراها»، أجاب العم فرتز ويده على رأس الصبي.

«نظن أنا وديزي أن أجنحة الملائكة تشبه أجنحة الفراشات كما نراها عبر المجهر، غير أنها ذهبية وأنعم».

«صدق ذلك إن أردت، وأبق جناحيك زاهيين وجميلين، ولكن لا تطر بعيدًا لوقت طويل».

«كلا لن أفعل»، وأوفى ديمي بوعده.

«إلى اللقاء يا أولادي، علي الذهاب الآن. لكني سأترككم مع أستاذكم الجديد للتاريخ الطبيعي»، وخرجت السيدة جو سعيدة بيوم الإنشاء.

t.me/qurssan

(١٨)
الحصاد

أتت البساتين أكلها ذلك الصيف، وقطفت المحاصيل في سبتمبر بكثير من البهجة. ضم جاك وند بستانيهما وزرعا البطاطا، إذ كانت صالحة للبيع. وحصدا اثني عشر بوشلًا، مع حساب البطاطا الصغيرة، وباعاها للسيد باير بسعر منصف، فالبطاطا تستهلك سريعًا في ذلك البيت. وخصص فرانز وإميل بستانيهما لزراعة الذرة، وقضيا وقتًا ممتعًا في تقشيرها في الحظيرة، وأخذاها بعدئذ إلى المطحنة، وعادا فخورين يحملان قدرًا يكفي لإمداد العائلة بالپودنغ السريع وخبز الذرة لوقت طويل. لم يتقاضيا مالًا مقابل محصولهما، إذ قال فرانز:

«لا يمكننا أبدًا أن نرد للعم ما فعله من أجلنا ولو قضينا عمرنا في زراعة الذرة».

قطف نات الفاصولياء الوفيرة، ويئس من استطاعته تقشيرها، حتى اقترحت السيدة جو طريقة جديدة نجحت نجاحًا باهرًا. فنثرت القرون اليابسة على أرض الحظيرة، وعزف نات على الكمان،

t.me/qurssan

ورقص الأولاد رقصة الكدريل[1] فوقها، حتى قشرت بكثير من الفرح وقليل من الجهد.

أما فول تومي الذي زرعه لستة أسابيع فقد فشل فشل ذريعًا، إذ أضرت به فترة جفاف في أول الفصل لأنه لم يسقه، وبعد ذلك كان واثقًا أن الفول سيحسن العناية بنفسه، فترك المحصول المسكين يقاسي من الحشرات والحشائش الضارة حتى أنهك ومات موتًا بطيئًا. لذا عزق تومي مزرعته ثانية وزرع البازلاء. لكنه تأخر في ذلك وأكلت الطيور الكثير منها، ولأن الغرسات لم تزرع جيدًا فقد وقعت أرضًا، وحين طلعت البازلاء المسكينة في نهاية المطاف، لم يعتن بها أحد فقضت نحبها، ولم يرجَ منها خير. عزّى تومي نفسه بعمل خيري، إذ زرع كل ما وجده من الشوكيات واعتنى بها جيدًا من أجل توبي، الذي يحب أكل النباتات الشائكة، وأكل كل ما وجده منها في أي مكان. سخر الأولاد كثير من حوض الشوك في بستان توم، لكنه أصر على أن الاهتمام بتوبي المسكين أفضل من الاهتمام بنفسه، وأعلن أنه في العام القادم سيكرس مزرعته بأكملها لزراعة الشوكيات، وتربية الديدان والحلازين، حتى تجد سلاحف ديمي وبومة دان الطعام الذي تحبه مثل الحمار. هذا ما كان من أمر تومي الخامل طيب القلب خلي البال!

أمد ديمي جدته بالخس طوال الصيف، وأرسل في الخريف سلة من الملفوف إلى جده، وقد فرك كل واحدة منها حتى بدت مثل

(١) رقصة لأربعة أزواج من الراقصين.

t.me/qurssan

بهمة بيضاء كبيرة. كانت الجدة تحب السلطة، وكان أحد اقتباسات جده الأثيرة:

اقتصاد لوكولوس مثير

فقد أكل الملفوف المحمر في مزرعة سابين

لذا كانت هذه القرابين من الخضروات للإله والإلهة في البيت رقيقة ولائقة ورائعة.

لم تزرع ديزي في رقعتها الصغيرة سوى الزهور، وتفتحت طوال الصيف بتعاقب الزهور الجميلة أو الشذية. كانت محبة لحديقتها، وقلبت تربتها كل الوقت، وهي ترقب ورودها وزهور الثالوث والجلبان العَطِر والبليحاء العطرية، بإخلاص ورقّة كاعتنائها بدُماها أو أصدقائها. أرسلت باقات صغيرة إلى البلدة في كل المناسبات، وكانت تولي المزهريات في أنحاء البيت عنايتها الخاصة. وكانت تتخايل لها أزهارها بشتى الخيالات الجميلة، وأحبت أن تقص على الأطفال قصة زهرة الثالوث، وتريهم جلسة زوجة الأب الورقة في كرسيها الأخضر لابسة ثيابًا باللونين البنفسجي والذهبي، وجلوس صغيريها الأصفرين الفاقعين كل في مجلسه، أما أخواهما غير الشقيقين ذوا الألوان الباهتة، فيجلسان على مقعدين صغيرين، والأب الصغير المسكين معتمرًا قلنسوة النوم الحمراء بعيد عن الأنظار في وسط الزهرة. وأن زهرة داكنة أطلت من نبتة تاج الملوك، وأن أزهار الكبوسين تشبه كثيرًا طيور الكناري الرقيقة وهي ترفرف بأجنحتها الصفراء، حتى ليخيل للمرء أنها ستطير،

t.me/qurssan

وزهرة الخطم التي تنبثق مثل الطلقات إن فلقتها. وصنعت دمى رائعة من زهر الخشخاش الأبيض والقرمزي، وقد لبست ثيابًا مكشكشة وتحزمت بنطاق من نصال العشب، واعتمرت قبعات مدهشة من زهور البقية على رؤوسها الخضراء. استقبلت القوارب المصنوعة من قرون البازلاء، لها أشرعة من أوراق الورد هؤلاء الزهريين، وأبحرت بهم في بحيرة هادئة بأروع ما يكون الإبحار. إذ لما تيقنت ديزي من عدم وجود الأقزام، صنعت أقزامها وأحبت أصدقاءها الصغار المتأنقين الذين شاطروها الحياة هذا الصيف.

اهتمت نان بالأعشاب، وصار عندها معرفة بالنبتات النافعة، فاعتنت بها باهتمام ورعاية يتزايدان باستمرار. كانت شديدة الانشغال في سبتمبر، إذ جنت محصولها الجميل وجففته وحزمته، وكتبت في دفتر صغير استخدام الأعشاب المختلفة. لقد جربت تجارب عدة، وارتكبت أخطاء عدة، لذا أرادت أن تتحرى الدقة خشية أن يصيب هَز الصغير وعكة أخرى بإعطائها الأفنستين بدلًا من نعناع الهررة.

عزق كل من دك ودولي وروب مزرعته الصغير، وضج بشأنها أكثر مما فعل البقية. كان الجزر الأبيض والجزر محصول الولدين د، وانتظرا على أحر من الجمر أن يحين وقت نزع الخضروات النفيسة. تفحص دك جزره خلسة، وزرعها ثانية، موقنًا أن سايلس كان محقًا عندما قال إن الوقت باكر لحصاده.

أما محصول روب فكان أربع قرعات صغيرات ويقطينة (برتقالية)

t.me/qurssan

كبيرة. كانت «ضخمة» كما قال الجميع، وأؤكد لكم أنها تسع طفلين صغيرين للجلوس عليها، كأنما امتصت كل خيرات البستان الصغير وضياء الشمس التي سطعت عليها، وها هي ذي مدورة كبيرة مثل كرة ذهبية، ناضحة بالإيحاءات الغنية لفطائر اليقطين لأسابيع قادمة. كان روبي فخورًا بثمرته الضخمة واصطحب الجميع ليروها، وحين بدأ هجوم الصقيع غطاها كل ليلة بلحاف قديم، مثبتًا أطرافه حولها كأنها طفل صغير حبيب. ولما حان يوم قطافها لم يسمح لأحد سواه بلمسها، وكاد يكسر ظهره وهو يحملها إلى الحظيرة في عربته اليدوية الصغيرة، وسخّر دك ودولي في الأمام ليسحباها طوال الطريق. ووعدته أمه أن تصنع فطائر عيد الشكر من يقطينته، وألمحت إلماحة غامضة إلى فكرة ستجلب المجد لليقطينة المدهشة وصاحبها.

زرع بلي المسكين الخيار، غير أنه لسوء الحظ عزق الخيار وترك عشبة الخنازير. أحزنه هذا الخطأ حزنًا شديدًا لعشر دقائق ثم نسي الأمر، وبذر حفنة من الأزرار اللامعة مما جمع، ولا ريب أنه حسبها بعقله الضعيف نقودًا، وستطلع وتتضاعف، فيصبح عنده كثير من الأرباع مثل تومي. لم يزعجه أحد، وفعل ما شاء بقطعته، التي سرعان ما بدت كأن زلازل عدة قد ضربتها. ولما جاء يوم الحصاد الكبير، لم يكن عنده سوى الحجارة والحشائش ليعرضها، لولا أن علقت آسيا الحنون ست برتقالات على الشجرة الميتة التي غرسها في الوسط. سر بلي بمحصوله، ولم يفسد أحد فرحته بالمعجزة الصغيرة التي جلبها له العطف بجعل الأغصان الميتة تحمل فاكهة غريبة.

t.me/qurssan

مر ستفي باختبارات عدة مع بطيخاته، إذ تحرق شوقًا ليتذوقها فاستمتع وحده بها قبل أن تنضج، فتوعك وعكة شديدة حتى ظن ليوم أو اثنين أنه لن يأكل منها أبدًا. لكنه تجاوزها بسلام، وقدم أول شمامة دون أن يتذوقها، فتبين أنه بطيخ رائع، إذ كان عنده منحدر دافئ لها فنضجت بسرعة. كانت آخرها وأفضلها باقية على عروقها، وأعلن ستفي أنه سيبيعها إلى جار. خيب هذا أمل الصبية، الذين تمنوا أن يأكلوا البطيخ وأفصحوا عن استيائهم بأسلوب جديد لافت. ذهب ستفي ذات صباح ليلقي نظرة على ثلاث بطيخات حمر أبقاها لبيعها، فذعر حين رأى كلمة خنزير محفورة بحروف بيضاء على القشر الأخضر، تحدجه على كل بطيخة. استشاط غضبًا وهرع إلى السيدة جو طلبًا للإنصاف. فاستمعت إليه وشاطرته استياءه ثم قالت:

«إن أردت أن تقلب الأمر عليهم فسأخبرك كيف تفعل ذلك، ولكن عليك أن تتنازل عن البطيخ».

«سأفعل، إذ لا يمكنني هزيمة كل الأولاد، لكني أود تلقينهم درسًا لن ينسوه، أولئك المحتالين اللئيمين»، زمجر ستفي ولم يزل حانقًا.

عرفت السيدة جو من فعل ذلك فقد رأت ثلاثة رؤوس قريبة من بعضها على نحو مريب في طرف الأريكة الأمسية الماضية، وحين أومت هذه الرؤوس ضاحكة هامسة، عرفت المرأة الخبيرة أنهم يخططون لأذى. وأكد شكوكها ليلة مقمرة وحفيف في شجرة الكرز

العجوز قرب نافذة إميل وجرح في إصبع تومي. ولما هدَّأت غضب ستفي قليلًا، أرسلته ليجلب بطيخاته التي نالها الأذى إلى غرفتها، والا يقول كلمة لأي أحد عما حدث. ففعل ودهش المحتالون الثلاثة لرؤية دعابتهم مرت بسلام، فقد أفسد هذا متعتهم، كما أن اختفاء البطيخات أقلقهم. وكذا فعل ستفي طيب القلب، إذ بدا أكثر هدوءًا واكتنازًا من ذي قبل، ونظر إليهم بشيء من الإشفاق الهادئ وأثار حيرتهم.

وعرفوا السبب عند الغداء، إذ حل عليهم انتقام ستفي، وانقلب الأمر عليهم. فحين فرغ من تناول البودنغ، وجلبت الفاكهة، عادت ماري آن تضحك ضحكًا عاليًا، حاملة بطيخة كبيرة وتبعها سايلس حاملًا أخرى، وكان آخرهم دان الذي حمل الثالثة. ووضعت واحدة أمام كل واحد من الأولاد المذنبين، وقرؤوا على القشر الناعم الأخضر هذه الإضافة على ما كتبوه «مع تحيات الخنزير». وقرأها الجميع أيضًا، وانفجر كل من على المائدة ضحكًا، إذ إنهم تناقلوا خبر مكرهم، ففهم الجميع الجزء الثاني. لم يعرف إميل وند وتومي أين ينظرون، ولم يكن عندهم ما يقولونه لذا شاركوهم الضحك وقطعوا البطيخ ومرروها بينهم وقالوا ما اتفق عليه الجميع إن ستفي قد رد مكرهم ردًا ذكيًا ومرحًا.

لم يكن لدان بستان، فقد كان غائبًا أو متوعكًا ردحًا كبيرًا من الصيف، لذا ساعد سايلس أينما استطاع، وقطع الحطب لآسيا واعتنى بالمرج جيدًا حتى يكون للسيدة جو دومًا درب ناعم وعشب مجزوز جيدًا أمام بابها.

t.me/qurssan

شعر بالأسى حين جلب الآخرون محاصيلهم، فلم يكن عنده ما يعرضه، ولكن بقدوم الخريف، فكر لنفسه بمحصول من الغابة ولن ينازعه أحد عليه، وسيكون له حصرًا. كان يخرج وحده كل سبت إلى الغابات والحقول والتلال ويعود دائمًا محملًا بالغنائم، فهو يعرف المروج التي تنبت فيها أفضل جذور السوسن، والأجمة التي ينبت فيها أشد أشجار الساسفراس لذعً، والأماكن التي تتردد عليها السناجب بحثًا عن الجوز، والبلوط الأبيض الذي كان لحاؤه نفيسًا، والحامول الصغير الذي تحب المربية أن تداوي به الأكلة. جلب دان شتى صنوف الأوراق الصفر والحمر الزاهية إلى السيدة جو لتزين ردهتها بها؛ من قبيل النجيل ذي البذور الأنيقة، وشُرّابات الظيان والتوت الشمعي الأصفر الناعم الأملس، والأشنات ذات الحواف الحمراء أو البيضاء أو بأخضر الزمرد.

«لست بحاجة لأتحسر على الغابة لأن دان يجلب الغابة إلي»، اعتادت السيدة جو أن تقول وهي تزين الجدران بأغصان القيقب، وأكاليل صريمة الجدي القرمزية، أو تملأ مزهرياتها بأغصان الأشنات الخمرية، وعساليج الشوكران المثقلة بالأكواز الجميلة، وأزهار الخريف الجسورة، فقد راق لها محصول دان كثيرًا.

كانت العلية الكبيرة ممتلئة بالمخزون الصغير للأطفال، وكان من أجمل المناظر في البيت لبعض الوقت. فقد وضعت بذور أزهار ديزي في أكياس ورقية صغيرة أنيقة كتب عليها كلها، في جارور الطاولة الثلاثية القوائم. وعلقت أعشاب نان في حزم على الجدار،

مالئة الهواء بنسيم عطر. وكان لتومي سلة من الشوكيات فيها بذور صغيرة لأنه عزم على زرعها العام القادم، إن لم تتطاير كلها قبل ذلك. وعلّق دان حزمًا من حب الذرة لتجفيفها، ووضع ديمي أكوازًا ومختلف صنوف الحبوب من أجل الحيوانات. لكن محصول دان كان أجملها، إذ اكتسى نصف الأرضية بالثمار التي جلبها، وكانت من شتى الأنواع لأنه تجول أميالًا في الغابة وتسلق أعلى الأشجار، وشق طريقه في أكثف الأجمات بحثًا عن غنائمه. ووضع الجوز والكستناء والبندق وجوز الزان في حجيرات منفصلة لتسمرّ وتجف وتحلوّ لتكون جاهزة لمرح الشتاء.

كان في المكان شجرة جوز أرمد واحدة، وادّعى روب وتدي أنها شجرتهما. فآتت أكلها جيدًا هذا العام، وتساقطت ثمارها الداكنة واختبأت بين الأوراق الميتة، إذ عثرت عليها السناجب النشطة أكثر مما فعل ولدا باير الكسولان. قال الأب (للولدين لا السناجب) إنهما سيحصلان على الجوز إن التقطاه دون مساعدة أحد. كان عملًا سهلًا أحبه تدي، غير أنه تعب بسرعة وملأ نصف سلته وتركها لليوم التالي. لكن اليوم التالي لم يأت سريعًا، وأثناء ذلك جدت السناجب الماكرة في العمل وهي تتسلق أشجار الدردار وتخزن فيها الجوز حتى امتلأت بيوتها، ثم قطفت ما على الأغصان في أوقات فراغها. ضحك الولدان لأفعالها الطريفة الصغيرة حتى قال سايلس ذات يوم:

«أبعتها الجوز على السناجب؟».

«كلا»، أجاب روب، دون أن يدرك مقصد سايلس.

t.me/qurssan

«عليكما أن تسرعا إذن وإلا لن تترك لكما السناجب الصغيرة شيئًا».

«أوه، يمكننا أن نهزمها حين نبدأ. ثمة الكثير من الجوز وسنحصل على قدر وفير».

«لن يتساقط الجوز، وقد أخذت السناجب كل ما سقط على الأرض، اذهب وانظر».

ذهب روبي ليلقي نظرة، وذعر لما رأى القليل الباقي منه. فنادى تدي وعملا جاهدين طوال العصر، وجلست السناجب على السياج تهذر معترضة.

«علينا أن نحترس ونقطف بأقصى سرعتنا، يا تد، وإلا لن نحصل على أكثر من بوشل وسيسخر منا الجميع إن لم نفعل».

«لن تحصل عليه السناجب المشاكسة. سأقطف وأركض وأضعه في الحظيرة بسرعة»، قال تدي عابسًا في وجه فرسكي الصغير، الذي هذر وحرك ذيله بازدراء.

هبت ريح قوية تلك الليلة وأسقطت مئات حبات الجوز، وحين جاءت السيدة جو لتوقظ ولديها قالت مرحة:

«هيا يا ولديّ، إن السناجب جادة في أمرها، وسيكون عليكما العمل جيدًا اليوم وإلا ستحصل على كل جوزة على الأرض».

«كلا، لن تفعل»، ونزل روبي مسرعًا وازدرد إفطاره وانطلق كالسهم لينقذ ثروته.

t.me/qurssan

ذهب تدي أيضًا، وعمل مثل قندس صغير، وهو يركض مبنة وذهابًا حاملًا سلالًا ممتلئة وأخرى فارغة. وضع بوشل آخر في مخزن الذرة وكانا يبحثان عن الجوز بين أوراق الشجر حين رن جرس المدرسة.

«أوه يا أبي! دعني أبقَ لأجني الجوز. ستحصل هذه السناجب اللئيمة على جوزي إن لم تسمح لي. سأنجز دروسي لاحقًا»، قال روب وهو يدخل الصف محمرًا ومشعث الشعر من الريح المنعشة الباردة وعمله الجاد.

«لو استيقظت باكرًا كل صباح وجنيت قليلًا لما كنت في عجلة الآن. أخبرتك بذلك يا روب، ولكنك لم تبالِ. لا يمكن تجاهل الدروس كما تجاهلت العمل، وستحصل السناجب على أكثر من نصيبها هذا العام، وهي تستحق ذلك فقد عملت بجهد أكبر. يمكنك الخروج مبكرًا بساعة، وهذا كل شيء»، وأخذ السيد باير روب إلى مكانه، أما الرجل الصغير فانكب على كتبه كأنه يريد ضمان حصوله على الساعة الموعودة.

كان أمرًا يثير الجنون الجلوسُ بهدوء ورؤية الريح تهز آخر الثمار وتسقطها، واللصوص ذوي الهمة يركضون ويتوقفون بين الحين والآخر لأكل جوزة أمام ناظريه وهز ذيولهم كأنهم يقولون مغايظين «سنحصل عليها رغمًا عنك أيها الكسول روب». وكان الأمر الوحيد الذي هدأ الصبي في لحظاته العصيبة رؤية تدي يعمل وحده. لقد كان دأب الصبي الصغير وهمته رائعين بحق. فالتقط

t.me/qurssan

والتقط حتى آلمه ظهره، وهرول جيئة وذهابًا حتى كلت ساقاه الصغيرتان، وتحدى الريح والتعب والسناجب اللئيمة حتى تركت أمه عمله وحملت عنه الجوز، معجبة بالفتى الصغير اللطيف الذي حاول مساعدة أخيه. حين انصرف روب، وجد تدي يرقد على سلة البوشل وقد أنهك، لكنه لا يرغب بترك الميدان، فقد أبعد بقبعته اللصوص الصغار بيد صغيرة قذرة، وأنعش نفسه بتفاحة كبيرة حملها بيده الأخرى.

شرع روب في العمل وأخليت الأرض قبل الساعة الثانية، ووضعت الثمار بمأمن في علية مخزن الذرة، وفرح العاملان المنهكان بنجاحهما. غير أن فرسكي وزوجته ليسا ممن ينهزم بسهولة، وحين ذهب روب ليتفقد ثماره بعد بضعة أيام تعجب لرؤيتها قد نقصت بعضًا. لا يمكن أن يكون أحد الأولاد سرقها، لأن الباب مقفل، ولا يمكن للحمامات أن تأكلها وليس في المكان جرذان. أعول ولدا باير كثيرًا حتى قال دك:

«لقد رأيت فرسكي على سطح مخزن الذرة، فلعله سرقها».

«أعلم أنه فعل، سأضع فخًا وأقتله»، قال روب مشمئزًا من طبع فرسكي الجشع.

«ربما أمكنك بالمراقبة أن تعرف أين أخفاها، وربما استطعت استعادتها لك»، قال دان الذي استمتع بالنزاع بين الولدين والسناجب.

فراقب روب ورأى السيدة والسيد فرسكي ينزلان من أغصان

t.me/qurssan

،مرة الدردار المتدلية ويصعدان سطح مخزن الذرة، ويتسللان من ا مد الأبواب الصغيرة، وأزعجا الحمامات أشد الإزعاج وخرجا ممل كل منهما جوزة في فمه. ولما كانا محملين هكذا، فلم يستطيعا الخروج من مدخلهما، بل نزلا إلى السطح المنخفض على امتداد الجدار وقفزا في زاوية واختفيا للحظة ثم ظهرا دون غنيمتهما. ركض روب إلى المكان، وفي حفرة تحت أوراق الشجر وجد كومة من محصوله المسروق مخبأة ليحملاها إلى بيتهما لاحقًا.

«أوه، أيها اللئيمان الصغيران! سأخدعكما الآن، ولن أترك لكما واحدة»، قال روب وأفرغ الزاوية ومخزن الذرة، ووضع الجوز المتنازع عليه في العلية، حريصًا على ألا يكون أي لوح في النوافذ مكسورًا فيسمح للسناجب الوضيعة بالدخول. وبدا أنهما أدركا انتهاء النزاع وعادا إلى بيتهما، غير أنهما لم يقاوما بين الحين والآخر رمي قشور الجوز على رأس روب، ساخطين بشدة كأنهما لن يغفرا له ولن ينسيا فوزه في المعركة.

كان محصول الأم والأب باير محصولًا مختلفًا، ويتعذر وصفه، لكنهما كانا مسرورين به، وأحسا أن عملهما في الصيف قد أثمر ثمرًا حسنًا، وحصدا حصادًا أسعدهما أخيرًا.

t.me/qurssan

t.me/qurssan

(١٩)
جون بروك

«استيقظ يا عزيزي ديمي! إني بحاجة إليك».

«عجبًا، لقد أويت لفراشي قبل قليل، ولا يعقل أن الصبح طلع»، وطرف ديمي بعينيه كالبومة الصغيرة حين استيقظ من نومه الهانئ.

«إنها العاشرة فحسب، لكن أباك مريض، وعلينا الذهاب إليه الآن. أوه يا صغيري جون! عزيزي جون المسكين!»، ووضعت السيدة جو رأسها على الوسادة بنشيج أطار النوم من عيني ديمي وملأ قلبه خوفًا وعجبًا، إذ أحس قليلًا لم دعته الخالة جو بـ «جون»، وبكت قربه كأن مصيبة حلت به وجعلته مسكينًا. تشبث بها دون أن ينبس بكلمة، فاستعادت هدوءها في لحظة وقالت وهي تطبع قبلة حنونًا لما رأت وجهه القلق:

«سنذهب لوداعه يا عزيزي، وليس عندنا وقت نضيّعه، لذا البس ثيابك بسرعة وتعال إلي في غرفتي. يجب أن أذهب إلى ديزي».

«أجل سأفعل»، وحين ذهبت الخالة جو، نهض ديمي الصغير

t.me/qurssan

بهدوء ولبس ثيابه كأنه يحلم، وترك تومي ينام نومًا عميقًا ومشى في البيت الصامت، يراوده إحساس بأن شيئًا جديدًا محزنًا سيحدث، شيئًا سيفرقه عن الأولاد الآخرين لبعض الوقت، ويجعل العالم مظلمًا وهادئًا وغريبًا كما تبدو هذه الغرف في الليل. انتظرت عربة أرسلها السيد لوري أمام الباب. استعدت ديزي بسرعة وأمسك الأخوان بيدي بعضهما طوال الطريق إلى البلدة، أثناء الرحلة الصامتة الحزينة مع الخالة والعم في الطرق المعتمة ليودعا أباهما.

لم يعلم أحد من الصبية بما حدث إلا فرانز وإميل، وحين نزلا الصباح التالي كان ذهولهما وحزنهما عظيمين إذ بدا البيت كئيبًا دون سيده وسيدته. كان الإفطار وجبة مغيّمة دون جلوس السيدة جو المرحة عند إبريق الشاي، ومكان الأب باير فارغًا عندما حان وقت الصفوف. وطاف الأولاد في أرجاء البيت طوافًا موحشًا لساعة، منتظرين أخبارًا جديدة، وآملين أن يتحسن والد ديمي إذ أحب الأولاد جون بروك كثيرًا. صارت الساعة العاشرة ولم يأت أحد ليهدئ روعهم. وعزفوا عن اللعب، فمر الوقت بطيئًا وجلسوا حزانى قلقين. ثم نهض فرانز فجأة وقال بأسلوبه المقنع:

«اسمعوني يا أولاد! لنذهب إلى الصف ونتعلم دروسنا كأن عمي موجود. سيجعل هذا النهار يمر مرورًا أسرع وأعلم أن هذا سيسعده».

«ولكن من سيسمعنا ونحن نتعلمها؟»، سأل جاك.

t.me/qurssan

«أنا. لست بأعلم منكم، لكني الأكبر هنا، وسأحاول أن أحل
محل عمي حتى يعود إن كنتم لا تمانعون».

أثر قول فرانز هذا بتواضع وجدية في الأولاد، فرغم أن عيني
الصبي المسكين كانتا حمراوين من البكاء على العم جون بروك في
تلك الليلة الطويلة الحزينة، فإن فيه رجولة جديدة كأنما بدأ يدرك
مخاوف الحياة ومتاعبها وحاول مواجهتها بشجاعة.

«سأكون الأول»، وذهب إميل إلى مقعده، متذكرًا أن أول
واجبات البحار طاعة رؤسائه.

حذا الآخرون حذوه، فجلس فرانز في مكان عمه وساد النظام
الساعة. حفظت الدروس وسمعت، وكان فرانز معلمًا صبورًا
بارعًا، وقد حذف بذكاء الدروس التي لم يكن كفؤًا لتعليمها،
وحفظ النظام بوقاره العفوي الذي أسبغه عليه الحزن أكثر من أي
شيء قاله. كان الأولاد الصغار يقرؤون حين سمعوا وقع أقدام
في الرواق، ورفع الجميع أعينهم ليقرؤوا الأخبار الجديدة في وجه
السيد باير عند دخوله. وأخبرهم الوجه الحنون أن ديمي فقد أباه،
إذ كان شاحبًا ومتعبًا يملؤه الحزن الرقيق الذي لم يترك له كلمات
يجيب بها روب حين ركض إليه معاتبًا:

«ما الذي دعاك للذهاب في الليل وتركي يا بابا؟».

جعلت ذكرى الأب الذي ترك أبناءه في النيل دون عودة السيد
باير يحضن ابنه، وخبأ وجهه للحظة في شعر روبي الأجعد. ووضع
إميل رأسه على ذراعيه، وتقدم فرانز ووضع يدًا على كتف عمه،

t.me/qurssan

وقد شحب وجهه من الحزن والشفقة، وجلس الآخرون في صمت مطبق سُمع فيه الحفيف الناعم لأوراق الشجر المتساقطة في الخارج لم يفهم روب ما حدث تمامًا، غير أنه كره رؤية أبيه حزينًا، لذا رفع الرأس المطرق وقال بصوته الصغير المسقسق:

«لا تبك يا أبي! لقد كنا جميعًا هادئين، وحفظنا دروسنا دونك وكان فرانز المعلم».

فرفع السيد باير رأسه وحاول أن يبتسم وقال بنبرة امتنان جعلت الأولاد يشعرون أنهم قديسون: «أشكركم جزيل الشكر يا أولادي. إنها طريقة جميلة لمساعدتي وتهدئتي، وأؤكد لكم أني لن أنسى هذا».

«هذه فكرة فرانز وكان معلمًا من الطراز الأول أيضًا»، قال نات وغمغم الآخرون موافقين وقد أسعد هذا الأستاذ الشاب.

أنزل السيد باير روب ووقف ووضع يده حول كتف ابن أخيه الطويل وقال بفرح حقيقي:

«هذا يجعل يومي العصيب أسهل، ويجعلني أثق بكم جميعًا. إنهم بحاجتي في البلدة وعليَّ ترككم لبضع ساعات. فكرت بمنحكم إجازة أو إرسال بعضكم إلى بيته، ولكن إن أردتم البقاء ومتابعة ما بدأتموه فسأسر بأولادي الصالحين وأفخر بهم».

«سنبقى»، «نفضل البقاء»، «يمكن لفرانز الاعتناء بنا»، قال عدد منهم فرحين بالثقة الممنوحة لهم.

t.me/qurssan

«ألن تعود أمي إلى البيت؟»، سأل روب حزينًا، فالبيت دون «ماما»، كالعالم دون الشمس عنده.

«سنعود كلانا الليلة، لكن الخالة مغ العزيزة بحاجة للأم أكثر منك، واعلم أنك ستقرضها لها لبعض الوقت».

«حسن، سأفعل. لكن تدي يبكي في طلبها، وصفع المربية، وكان مشاكسًا للغاية»، أجاب روب كأن الأخبار ستعيد أمه إلى البيت.

«أين رجلي الصغير؟»، سأل السيد باير.

«خرج به دان ليهدئه، إنه بخير الآن»، قال فرانز مشيرًا إلى النافذة، وقد شوهد من خلالها دان يجر طفلًا في عربته الصغيرة والكلاب تمرح حوله.

«لن أراه، فهذا سيبكيه ثانية، ولكن أخبروا دان أني أترك تدي في رعايته. إني أعتمد عليكم أيها الأولاد الكبار لتتولوا شؤونكم بأنفسكم ليوم واحد. سيوجهكم فرانز وسيكون سايلس موجودًا لمراقبة الأمور. إلى اللقاء الليلة».

«قل لي شيئًا عن العم جون»، قال إميل حابسًا السيد باير وهو يسرع للخروج ثانية.

«لقد اعتل لساعات قليلة فحسب ومات كما عاش بهدوء وفرح شديدين، حتى ليخيل إلي أن إفساد جمال رحيله بأي حزن شديد أو أناني إثم كبير. لقد وصلنا في اللحظة المناسبة لوداعه، وكان ديمي

t.me/qurssan

وديزي بين ذراعيه حين أغمض عينيه على صدر الخالة مغ. هذا يكفي، فلا أستطيع احتماله»، وذهب السيد باير مسرعًا وقد انحنى ظهره حزنًا، إذ فقد برحيل جون بروك أخًا وصديقًا، وما من أحد سيأخذ مكانه.

كان البيت هادئًا جدًا طوال ذلك النهار، ولعب الأولاد الصغار بهدوء في غرفة الأطفال، أما البقية، الذين أحسوا كأن يوم الأحد جاء وسط الأسبوع، فقد أمضوه في التنزه والجلوس في شجرة الصفصاف أو بين حيواناتهم وكلهم يتحدثون كثيرًا عن «العم جون»، وراودهم إحساس بأن شيئًا رقيقًا وقويًا وعادلًا قد اختفى من عالمهم الصغير، مخلفًا إحساسًا بالفقد يكبر كل ساعة. عاد السيد والسيدة باير إلى البيت عند الغسق وحدهما، فقد كان ديمي وديزي أفضل عزاء لأمهما الآن ولم يستطيعا تركها. كانت السيدة جو المسكينة منهكة للغاية، وحاجتها إلى شيء من العزاء جلية، إذ كان أول ما قالته حين صعدت الدرج: «أين صغيري؟».

«هنا، ها أنا»، أجاب صوت صغير، ووضع دان تدي بين ذراعيها مضيفًا وهي تعانقه بقوة: «لقد اعتنى بي داني طوال اليوم، وكنت هادئًا».

استدارت السيدة جو لتشكر الراعي الأمين، لكن دان كان يهش على الأولاد الذين تجمعوا في الرواق للقائها وقال بصوت خفيض: «ابتعدوا، لا نريد أن نزعجها الآن».

«كلا لا تبتعدوا. أريدكم جميعًا. تعالوا إليَّ واعتنوا بي يا أولادي.

t.me/qurssan

الا نمبت عنكم كل اليوم»، ومدت السيدة جو يديها لهم فتجمعوا ،، افقوها إلى غرفتها، يقولون القليل لكنهم يبدون الكثير بنظراتهم المحبة ومحاولاتهم الخرقاء الصغيرة لإظهار حزنهم ومواساتهم.

«إني متعبة للغاية، لذا سأضطجع هنا وأحضن تدي، فاجلبوا لي بعض الشاي»، قالت وهي تحاول الكلام بمرح من أجلهم.

أعقب ذلك اندفاع جماعي إلى غرفة الطعام، وكادوا يفسدون مائدة العشاء لولا تدخل السيد باير. اتفق على أن تُدخِل فرقة واحدة الشايَ للأم، وأخرى تخرجه. فنال الأربعة الأقرب والأعز شرف الدخول، وحمل فرانز إبريق الشاي وحمل إميل الخبز، وحمل روب الحليب، وأصر تدي على حمل السكرية، التي كانت تنقصها عدد من المكعبات عند وصولها. قد ترى بعض النساء في مثل هذا الوقت دخول الأولاد وخروجهم إزعاجًا، وهم يقرقعون الأكواب ويجلجلون بالملاعق في محاولاتهم الصادقة ليكونوا هادئين وذوي نفع. لكن هذا وافق السيدة جو لأن قلبها كان رقيقًا عندئذ وتذكرت أن عددًا من أولادها فقدوا آباءهم أو أمهاتهم، فحنت عليهم ووجدت العزاء في حبهم المرتبك. كان هذا الغذاء الذي قواها أكثر من الخبز السميك والزبدة الذي قدموه لها، وهمسة قائد العبارة الخشنة:

«تماسكي يا خالتي، إنها ريح قوية لكننا سننجو منها بصورة ما»، وهذا أسعدها أكثر من الكوب المراق الذي جلبه لها، طافحًا بالشاي المر كأنه أسقط فيه دمعة مالحة في الطريق. وحين انتهت

t.me/qurssan

من عشائها، جاء وفد آخر لرفع الصينية وقال دان مادًا يديه لتدي الصغير النعس: «دعيني أضعه في فراشه، إنك متعبة جدًا يا أمي»

«هلا ذهبت معه يا حلوي؟»، سألت السيدة جو سيدها ومولاها الصغير، الذي استلقى على ذراعها بين مخدات الأريكة.

«سأفعل طبعًا»، فأخذه حماله الأمين.

«ليتني أفعل شيئًا»، قال نات متنهدًا حين مال فرانز على الأريكة ودلك جبين الخالة جو الساخن برفق.

«يمكنك يا عزيزي. اذهب وائت بكمانك واعزف لي الألحان الصغيرة الحلوة التي أرسلها لك العم تدي في الآونة الأخيرة. ستريحني الموسيقى الليلة أكثر من أي شيء آخر».

فهرع نات وجلب كمانه وجلس خارج الغرفة وعزف كما لم يفعل من قبل، فقد أحس الموسيقى بقلبه، وكأنها ألقت برُقية على أصابعه. جلس الأولاد الآخرون هادئين على العتبات، حريصين على ألا يزعج قادم جديد البيت، ومكث فرانز في موقعه. وهكذا بعد أن هدأ الأولاد السيدة جو المسكينة وخدموها وحرسوها، نامت ونسيت حزنها لساعة.

مر يومان هادئان، وفي اليوم الثالث دخل السيد باير بعد الصفوف حاملًا رسالة في يده وهو مسرور ومتأثر في آن معًا.

«أود أن أقرأ لكم شيئًا يا أولاد»، قال ولما تجمعوا حوله قرأ عليهم هذا:

t.me/qurssan

«عزيزي الأخ فرتز، تناهى إلى سمعي أنك لن تجلب اولادك اليوم ظانًا أني لن أحب هذا. أحضرهم من فضلك، فإن رؤية ديمي لأصدقائه ستساعده على اجتياز اللحظات العصيبة، وأريد للأولاد أن يسمعوا ما يقوله أبي عن جون الغالي. أعلم أن هذا سيكون مفيدًا لهم. وإن غنوا إحدى الترانيم القديمة التي علمتها لهم جيدًا فسيسعدني ذلك أكثر من اي موسيقى، وأرى أنها تلائم المناسبة كثيرًا. اطلب منهم ذلك من فضلك.

مع حبي
مغ».

«أتذهبون؟»، ونظر السيد باير إلى الأولاد الذين تأثروا كثيرًا بكلمات السيدة بروك الرقيقة وأمانيها.

«أجل»، أجابوا بصوت واحد وذهبوا بعد ساعة ليشاركوا في جنازة جون بروك البسيطة. بدا البيت الصغير هادئًا مشمسًا وأليفًا كما دخلته مغ عروسًا قبل عشر سنوات، غير أن ذاك حدث في باكورة الصيف وتفتحت الورود في كل مكان، أما الآن فقد كان أول الخريف وحفّت الأوراق الميتة حفيفًا ناعمًا في سقوطها مخلفة الأغصان عارية. غدت العروس أرملة ولكن وجهها أشرق بالصفاء الجميل نفسه، وجعل التسليمُ العذب لذاتٍ تقية بحق في حضورها عزاءً لأولئك الذين جاؤوا لمواساتها.

«أوه يا مغ! كيف تصبرين هكذا؟»، همست جو حين استقبلتهم

t.me/qurssan

عند الباب بابتسامة ودودة، ولم يتغير شيء في أسلوبها عدا أنه كان أرقّ.

«عزيزتي جو، إن الحب الذي أغدق عليَّ لعشر سنوات سعيدة يواسيني تمامًا. لا يمكن لهذا أن يموت، وسيكون جون معي أكثر من ذي قبل»، همست مغ وفي عينيها كانت الثقة الرقيقة جميلة ولامعة، فصدقتها جو وحمدت الرب على حب خالد كحبها.

كان الجميع حاضرًا، الأم والأب والعم تدي والخالة إيمي والسيد لورنس العجوز وقد اشتعل رأسه شيبًا ووهن عظمه، والسيد والسيدة باير وأولادهما، والعديد من الأصدقاء جاؤوا لتقديم الاحترام للميت. قد يقول المرء إن جون بروك المتواضع في حياته الهادئة المشغولة البسيطة لم يكن عنده الوقت لعقد الصداقات، لكنهم ظهروا من كل مكان؛ كبارًا وصغارًا، أغنياء وفقراء، من علية المجتمع وطبقاته الوضيعة، إذ امتد أثره على نطاق واسع بعفوية، وذكرت مناقبه وظهر إحسانه السري ليباركه. أبّنته المجموعة الواقفة قرب تابوته تأبينًا أبلغ مما بوسع أي أحد من آل مارش أن يفعل. فقد كان في الجمع أثرياءَ خدمهم مخلصًا لسنوات، وعجائز فقيرات خصهن بإحسانه تخليدًا لذكرى أمه، وزوجة أسعدها سعادة لا يمكن للموت أن يفسدها البتة، وإخوة وأخوات احتل مكانًا في قلوبهم للأبد، وابن وابنة صغيران أحسا بفقدان ذراعه القوية وصوته الحنون، وأطفال صغار يبكون لما أصاب رفيقهم، وأولاد طوال يرقبون بوجوه مشفقة منظرًا لن ينسوه أبدًا. أقيم قداس بسيط جدًا وقصير جدًا، لأن الصوت الأبوي للسيد مارش

t.me/qurssan

..لي تهدج في طقوس الزواج، عجز تمامًا عندما جهد للتعبير عن ..ه وإجلاله للابن الذي بجّله كثيرًا. لم يقطع شيء الصمت الطويل ..لي أعقب آخر «آمين» سوى هديل الصغيرة جوزي في الأعلى، إلى أن أشار السيد باير إلى الأولاد الذين تمرنوا جيدًا، فصدحت أصواتهم بالترنيمة، مفعمة بالمرح النبيل، فانضم إليهم الجميع واحدًا إثر واحد يغنون بقلوب محبة، ووجدوا أرواحهم المضطربة تسمو إلى السلام على أجنحة ذلك المزمور العذب الرائع.

أحست مغ وهي تسمع بأنها فعلت حسنًا، إذ لم تعزّها تلك اللحظة بالتأكيد على أن آخر تهويدة لجون غنتها له الأصوات الصغيرة التي أحبها كثيرًا فحسب، بل لأنها رأت أيضًا في وجوه الأولاد أنهم وجدوا جمال الفضيلة في أبهى صورها، وأن ذكرى الرجل الطيب المسجى أمامهم ستعيش طويلًا وتساعدهم على تذكره جيدًا. وضعت ديزي رأسها في حجر أمها، وأمسك ديمي بيدها ناظرًا إليها كل حين بعينين شبيهتين بعيني أبيه، وبإيماءة صغيرة كأنه يقول «لا تحزني يا أمي، فأنا هنا»، وأحاط بها أصدقاء تستند عليهم وتحبهم، فوضعت مغ الصبورة التقية حزنها الثقيل جانبًا، موقنة أن أفضل معين لها أن تعيش للآخرين كما فعل زوجها جون.

ذلك المساء، حين جلس أولاد بلمفيلد على العتبات كعادتهم، تحت نور القمر في سبتمبر المعتدل، شرعوا يتحدثون عن حدث اليوم.

t.me/qurssan

بدأ إميل بالقول بأسلوبه المندفع: «إن العم فرانز هو الأكثر حكمة، والعم تدي الأكثر مرحًا، غير أن العم جون هو الأفضل، وأحب أن أكون مثله على أي رجل رأيته».

«وأنا أيضًا. أسمعت ما قاله الرجال المحترمون للجد اليوم؟ أحب أن يُقال هذا عني حين أموت»، وندم فرانز على أنه لم يقدر العم جون حق قدره.

«ماذا قالوا؟»، سأل جاك الذي أذهلته مشاهد اليوم.

«أحد شركاء السيد لورنس، حيث يعمل العم جون منذ زمن طويل، كان يقول إنه شديد الحرص ولم يخطئ بوصفه رجل تجارة، كما أنه فوق النقد في كل شيء. وقال رجل محترم آخر إن المال لا يمكنه رد الإخلاص والنزاهة اللذين خدمهما به العم جون، ثم أخبرهما الجد بما هو أفضل من ذلك. كان العم جون يعمل في مكتب لرجل يغش، ولما طلب من العم جون أن يساعده في ذلك رفض رغم الأجر الكبير الذي عرض عليه. غضب الرجل وقال: «لن تبلي حسنًا في التجارة بمبادئ كهذه»، فرد عليه العم «ولن أحاول أن أبلي حسنًا دونها» وترك العمل إلى عمل أصعب وأقل مردودًا».

«جيدا»، قال عدد من الأولاد بحرارة لأنهم كانوا مهيئين لفهم القصة الصغيرة والعبرة منها أفضل من ذي قبل. «لم يكن ثريًا، أليس كذلك؟»، سأل جاك.

«كلا».

t.me/qurssan

«ولم يفعل شيئًا يغير العالم، أليس كذلك؟».

«كلا».

«أكان صالحًا فحسب؟».

«هذا كل شيء»، وتمنى فرانز لو أن العم جون فعل شيئًا يتفاخر به، إذ كانت خيبة جاك من إجاباته جلية.

«صالح فحسب، وهذا كل شيء»، قال السيد باير الذي سمع الكلمات الأخيرة، وعرف ما يدور في أذهان الفتية.

«دعوني أحكِ لكم قليلًا عن جون بروك وستعرفون لماذا يجله الرجال، ولماذا رضي بأن يكون صالحًا عوض أن يكون ثريًا أو مشهورًا. لقد أدى واجبه في كل شيء، وأداه بفرح وإخلاص مما جعله صبورًا شجاعًا سعيدًا في سنوات الفقر والوحدة والعمل الشاق. كان ابنًا بارًا، وتخلى عن طموحه ليبقى مع أمه عندما احتاجته. وكان صديقًا مخلصًا، وعلم لوري الكثير إلى جانب اللاتينية والإغريقية، ولعله فعل ذلك دون قصد بأن كان مثالًا رائعًا للرجل النزيه. لقد كان عاملًا مخلصًا، وقدره الذين وظفوه وصعب عليهم العثور على من يحل محله. كان زوجًا وأبًا صالحًا رقيقًا وحكيمًا ومتبصرًا وتعلمنا منه أنا ولوري الكثير، وأيقنا من حبه الكبير لعائلته حين عرفنا ما فعله من أجلهم، دون عون ولا غش».

صمت السيد باير للحظة، وجلس الأولاد كالأصنام تحت نور القمر حتى تابع كلامه بصوت خافت لكنه جدي: «حين

t.me/qurssan

رقد محتضرًا قلت له: «لا تقلق على مغ والصغار، سأحرص على ألا يحتاجوا شيئًا»، فابتسم وضغط يدي ورد بأسلوبه المرح: «لا حاجة لذلك، فلقد كفيتهم». وهذا ما فعله، إذ حين نظرنا في أوراقه كانت كلها مرتبة، وليس عليه دين، وادخر ما يكفي مغ لتعيش مرتاحة مكتفية. فعرفنا عندئذ لمَ عاش متقشفًا، وأنكر على نفسه الكثير من المباهج، عدا الإحسان، وعمل بجد وإني لأخشى أنه قصّر عمره. لم يطلب يومًا مساعدة لنفسه، بل كثيرًا ما طلبها لآخرين، لكنه حمل أعباءه وأدى واجباته بشجاعة وهدوء. لا يمكن لأحد أن يشتكي منه فقد كان عادلًا وكريمًا ولطيفًا. أما الآن وقد رحل، وجدنا الثناء والحب والتبجيل وإني لأفخر أن كنت صديقه، وأحب أن أترك لأولادي الإرث الذي تركه لأولاده أكثر من أي ثروة كبيرة. بلى! إن الصلاح الحقيقي البسيط هو أفضل رأسمال تبنى عليه تجارة في هذه الحياة. فهو يدوم حين ينفد المال والشهرة، وهو الثروة الوحيدة التي نخرج بها من هذه الدنيا. تذكروا هذا يا أولادي، وإن أردتم أن تكسبوا الاحترام والثقة والحب فاتبعوا خطوات جون بروك».

عندما عاد ديمي إلى المدرسة بعد أسابيع قضاها في البيت، كأنه تعافى من حزنه بفضل المرونة المباركة للطفولة، وهذا ما فعله إلى حد ما. لكنه لم ينس، إذ كان من طبعه أن تستقر الأشياء عميقًا ليتفكر بها وتمتصها التربة التي تنمو فيها الفضيلة سريعًا. فلعب ودرس، وغنى، وعمل كالسابق، ولم يرتب أحد بأنه تغير إلا في شيء واحد –ورأته الخالة جو– إذ راقبت الصبي بكل حبها محاولة ملء مكان

t.me/qurssan

حون بأسلوبها البسيط. لم يتحدث عن فقده إلا لمامًا، لكن الخالة حو سمعت نشيجًا مكتومًا في الفراش الصغير ليلًا، وحين ذهبت لتهدئته ظل يردد: «أريد أبي! أوه، أريد أبي!»، إذ كانت الآصرة بينهما رقيقة، ونزف قلب الصغير حين انقطعت. لكن الزمن حنا عليه، وأخذ يحس شيئًا فشيئًا أنه لم يفقد أباه، بل هو خافٍ عن عينيه لبعض الوقت وسيجده ثانية، معافى وقويًا ومحبًا كعادته، وإن رأى الصبي زهور النجمية البنفسجية تتفتح على قبره مرات ومرات قبل أن يلتقيا. تمسّك ديمي بإيمانه هذا ووجد فيه العون والعزاء، إذ قاده دون أن يدري من الاشتياق الرقيق لأبيه الذي رآه، إلى ثقة الطفل في الأب الذي لم يرَه. وكان كلاهما في السماء، فصلى لكليهما محاولًا أن يكون صالحًا لينال حبهما.

انسجم التغير الظاهر مع تغير الباطن، إذ طالت قامة ديمي في أسابيع قليلة، وأخذ يهجر لعبه الطفولي، ليس لأنه يخجل منه كما يفعل بعض الأولاد، بل لأنه كبر عليه وأراد شيئًا أكثر رجولة. بدأ يدرس علم الحساب الكريه، وبرع فيه كثيرًا فسر به عمه، رغم أنه لم يفهم هذا الهوى حتى قال ديمي:

«سأكون محاسبًا حين أكبر، مثل بابا، ويجب أن أتعلم الأرقام وما شابهها وإلا لن تكون دفاتر حساباتي جميلة ومرتبة كدفاتره».

وفي وقت آخر جاء إلى خالته بوجه جاد جدًا وقال:

«ماذا يفعل صبي صغير ليجني المال؟».

«لِمَ تسأل يا عزيزي؟».

t.me/qurssan

«أوصاني أبي أن أعتني بأمي والبنتين الصغيرتين، وأنا أريد ذلك لكنني لا أعرف من أين أبدأ».

«لم يقصد أن تفعل الآن يا ديمي، بل في وقت لاحق حين تكبر».

«لكنني أود البدء الآن إن استطعت، إذ أحسب أن عليَّ جمع المال لشراء ما يلزم العائلة. لقد بلغت العاشرة، وبعض الأولاد ممن يصغرونني يكسبون بعض البنسات أحيانًا».

«حسن إذًا، عليك أن تجرف أوراق الأشجار الميتة وتغطي حوض الفراولة. وسأدفع لك دولارًا مقابل ذلك»، قالت الخالة جو.

«أليس هذا مبلغًا كبيرًا؟ يمكنني فعل هذا في يوم واحد. يجب أن تكوني عادلة، ولا تدفعي كثيرًا لأني أود أن أكسب المال بشرف».

«يا صغيري جون، سأكون عادلة ولن أدفع بنسًا أكثر مما يجب. لا تتعب نفسك في العمل، وحين تنهي هذا سأجد لك عملًا آخر»، قالت السيد جو وقد تأثرت برغبته في المساعدة، وحسه بالعدل مثل أبيه الدقيق.

حين فرغ من جمع الأوراق الميتة، حمل عدة حمولات بالعربة من قطع الخشب من الغابة إلى مخزن الحطب، فكسب دولارًا آخر. ثم ساعد ديمي في تجليد دفاتر المدرسة، وهو يعمل مساء تحت إرشادات فرانز، وهو يعمل بجد على كل دفتر، دون أن يسمح

t.me/qurssan

لأحد بمد يد العون له، ونال أجره بسرور عظّم شأن الورقات النقدية الضئيلة في عينيه.

«صار عندي دولار لكل منهن، وأود أن آخذ نقودي إلى أمي بنفسي، لترى أنني عملت بوصية أبي».

فذهب ديمي في رحلة تزينها المسؤولية إلى أمه، التي أخذت النقود القليلة كأنها كنز نفيس، ولم تكن لتمسها لولا أن توسل إليها ديمي أن تشتري شيئًا نافعًا لها وللسيدتين الصغيرتين، الذي شعر أنهن في رعايته.

أسعده هذا كثيرًا، ورغم أنه ينسى مسؤولياته كثيرًا لبعض الوقت، إلا أن رغبته في المساعدة لم تخفت وازدادت قوة بسني عمره. كان دومًا يقول «أبي» بشيء من الفخر الأنيق، وكثيرًا ما قال كأنه يعلن لقبًا طافحًا بالشرف: «لا تنادني ديمي بعد اليوم. إنني جون بروك». وهكذا انطلق الصغير ذو العاشرة إلى العالم، وقد قوي بالأمل والهدف، ودخل إليه بميراثه؛ بذكرى أب حكيم حنون، وإرث الاسم الشريف.

t.me/qurssan

t.me/qurssan

(٢٠)
حول النار

اشتعلت النار البهيجة في المصطليات الكبيرة بقدوم صقيع أكتوبر، وساعد حطب الصنوبر الجاف الذي جمعه ديمي حطبَ البلوط الذي جمعه دان في الاضطرام اضطرامًا فاخرًا، ومعمعت في المدخنة بصوتها الأنيس. كان الجميع مسرورين لاجتماعهم حول المصطلى، إذ صار المساء أطول، فلعبوا أو قرؤوا أو وضعوا الخطط لفصل الشتاء. لكن أفضل تساليهم كانت القَصص، وكان منتظرًا من السيد والسيدة باير أن يكون عندهما مخزون وفير من الحكايات النابضة بالحياة جاهزة لقصها. كان مخزونها ينفد أحيانًا، فيلجأ الأولاد إلى مصادرهم ولم ينجح ذلك دومًا. في وقت من الأوقات كانت لعبة الأشباح بدعة سائرة، وكمنت المتعة في هذه اللعبة في إطفاء الأنوار وترك النار تخمد ثم الجلوس في الظلمة، وحكاية أشد القصص رعبًا مما يمكنهم اختلاقه. ولما كان لهذا عواقب مخيفة على الأولاد، إذ سار تومي في نومه على سطح السقيفة، وبث الذعر في نفوس الأولاد الصغار، حظر لعبها، وعاد الأولاد إلى تسالٍ أقل ضررًا.

t.me/qurssan

ذات مساء حين وضع الصغار في فرشهم الدافئة، وكان الأولاد الكبار يسترخون أمام مصطلى الصف، يحاولون أن يجدوا شيئًا يفعلونه، اقترح ديمي شيئًا جديدًا للرد على هذا السؤال.

ذرع الغرفة جيئة وذهابًا، وهو يمسك بفرشاة المصطلى، وقال: «قفوا صفًا، صفًا صفًا»، فضحكوا وتدافعوا ووقفوا في صف فقال: «سأمهلكم دقيقتين لتفكروا بلعبة». كان فرانز يكتب وإميل يقرأ حياة اللورد نلسن، ولم ينضم أي منهما للعب، غير أن الآخرين فكروا مليًا وحين انتهى الوقت استعدوا للإجابة.

«دورك يا توم!»، ونال ضربة خفيفة بالمسعر على رأسه.

«الغميضة».

«جاك!».

«التجارة، لعبة جيدة بالأدوار وفيها سنتات من أجل السباحة بالبركة».

«عمي يمنع لعبنا من أجل المال. وماذا تريد أنت يا دان؟».

«لنلعب معركة بين الإغريق والرومان».

«ستفي؟».

«نحمر تفاحًا ونشوي ذرة ونكسر جوزًا».

«جميل! جميل!»، قال عدد منهم، وفازت فكرة ستفي بعد التصويت.

t.me/qurssan

ذهب بعضهم إلى القبو لجلب التفاح، وذهب بعضهم إلى العلية لجلب الجوز، وأعد الآخرون المفتقة[1] والذرة.

«ألا يجدر بنا أن نطلب من الفتيات الانضمام إلينا؟»، قال ديمي في نوبة تهذيب مفاجئة.

«إن ديزي تثقب الكستناء جيدًا»، أضاف نات الذي أراد صديقته الصغيرة أن تشاطره المتعة.

«ونان تشوي الذرة على أحسن ما يكون الشواء، يجب أن ناديها»، أضاف تومي.

«استدعوا حبيبتيكما، فلسنا نمانع»، قال جاك الذي سخر من الاهتمام البريء للصغار ببعضهم بعضًا.

«لا تسمّ أختي حبيبة، فهذا سخيف جدًا!»، قال ديمي بهيئة أثارت ضحك جاك.

«إنها محبوبة نات، أليس كذلك أيها المسقسق الكبير؟».

«أجل إن قبل ديمي. لا أخفي أني أحبها فهي رفيقة بي»، أجاب نات بجدية وحياء، إذ ضايقته فظاظة جاك.

«نان حبيبتي وسأتزوجها بعد نحو عام، لذا لا يعترضن أحد منكم سبيلي»، قال تومي بحزم، إذ خطط هو ونان مستقبلهما بطريقة الأطفال، وسيسكنان شجرة الصفصاف، وينزلان سلة لتملأ بالطعام، ويفعلان أشياء أخرى فاتنة مستحيلة.

(١) آنية لتحميص الذرة.

t.me/qurssan

أطفأ قرار تومي غضبَ ديمي الذي تأبّط ذراعه وأخذه لإحضار السيدتين. كانت نان وديزي منكبتين مع الخالة جو على خياطة ثياب صغيرة لمولود السيدة كارني.

«عفوك يا سيدتي، أيمكنك إقراضنا الفتاتين لبعض الوقت؟ سنعتني بهما جيدًا»، قال تومي غامزًا بعين واحدة ليشير إلى التفاح، ومفرقعًا بأصابعه ليمثل شي الذرة، وصارًا على أسنانه ليشرح كسر الجوز.

فهمت الفتاتين التمثيل الصامت من فورهما، وأخذتا تتخلصان من كشتبانيهما قبل أن تعرف السيدة جو إن كان تومي يختلج أو أنه يدبر شيئًا خبيثًا جديدًا. شرح ديمي بإطناب فمنح لهما الأذن وغادر الولدان مع مكافأتهما.

«لا تتحدثي إلى جاك»، همس تومي حين قطع هو ونان الرواق لجلب شوكة ينخسان بها التفاح.

«ولم لا؟».

«إنه يسخر مني، لذا لا أود أن تتحدثي معه».

قالت نان وقد كرهت افتراض توم القاصر بأنه سيدها وله سلطة عليها:

«سأتحدث إليه إن أردت».

«لن تكوني حبيبتي إذن».

«لا أبالي».

t.me/qurssan

«ويحك يا نان، ظننتك مغرمة بي!»، وكان صوت تومي مفعمًا بالتأنيب الرقيق.

«إن كنت تهتم لسخرية جاك فلن أهتم لأمرك البتة».

«بوسعك استعادة خاتمك القديم إذن، لن أضعه بعد اليوم»، ونزع تومي خاتم شعر الحصان عربون الحب الذي أعطته إياه نان مقابل مجس قريدس.

«سأعطيه لند»، كان ردها القاسي، إذ إن ند يحب السيدة المشاكسة، وقدم لها مشابك غسيل وصناديق وبكرات خيطان كافية لتدبير شؤون بيت.

قال تومي: «بحق سلاحف البرق!»، وكانت المتنفس الوحيد للأسى المكظوم، وأفلت ذراع نان، وعاد حانقًا تاركًا إياها لتتولى أمر الشوكة، فعاقبته نان المشاكسة على تجاهله بمتابعته نخز قلبه بالغيرة كأنه تفاحة أخرى.

كُنست المجمرة، ووُضعت تفاحات بولدون الحمر لتُشوى، وسُخن جاروف وتراقصت عليه حبات الكستناء بمرح، أما الذرة ففرقعت في حبسها المسلّك. كسر دان أفضل جوزاته، وضحك الكل وهذروا، والمطر يضرب ألواح النافذة والريح تعوي حول البيت.

«لماذا يشبه بلي هذا الجوز؟»، سأل إميل الذي يأتي دومًا بأحجيات ماكرة.

t.me/qurssan

«لأنه «معطوب»»، أجاب ند.

«هذا ليس عدلًا، لا يجدر بكم السخرية من بلي لأنه لا يستطيع الرد عليكم. هذا لؤم»، قال دان وهو يكسر جوزة بغضب.

«إلى أي عائلة من الحشرات ينتمي بليك؟»، سأل فرانز صانع السلام وقد رأى خجل إميل وهدوء دان.

«السكيتة»، أجاب جاك.

«لماذا تشبه ديزي النحلة؟»، قال نات الذي انهمك في التفكير لبضع دقائق.

«لأنها ملكة القفير»، قال دان.

«كلا».

«لأنها - نوة».

«لكن النحل ليس حلوًا».

«استسلمنا».

«لأنها تصنع أشياء حلوة، ودائمة الانشغال وتحب الزهور»، قال نات مكومًا إطراءاته الصبيانية حتى احمرت ديزي مثل ورقة نفل حمراء.

«ولماذا تشبه نان الدبور؟»، سأل تومي ناظرًا إليها شزرًا ومضيفًا دون أن يمنح أحدًا الوقت للرد، «لأنها ليست حلوة وتجعجع كثيرًا بلا طحن وتلسع لسعات قوية».

t.me/qurssan

«تومي غاضب وأنا سعيد»، قال ند عندما رفعت نان رأسها وردت بسرعة:

«ما الذي يشبه توم في خزانة الخزفيات؟».

«علبة الفلفل»، أجاب ند مقدمًا لنان لب الجوزة بضحكة مستفزة، أحس عندها تومي أنه يود القفز مثل الكستناء وضرب أحدهم.

لما رأى فرانز أن السخرية قد غلبت على مزاح الجماعة، انبرى يعظهم ثانية.

«لنضع قانونًا يجعل أول من يدخل الغرفة يحكي لنا حكاية. كائنًا من كان، عليه فعل ذلك، وسيكون ترقب أول قادم أمرًا ممتعًا».

وافق الآخرون، ولم ينتظروا طويلًا، إذ سمعوا وقع أقدام ثقيلة يخبط في الرواق، وظهر سايلس حاملًا ملء ذراع حطبًا. حياه الكل بالهتاف، ووقفوا يحدجونه وعلى وجهه الكبير الأحمر ابتسامة حيرة، حتى أوضح له فرانز الأمر.

«شو! لا أجيد القص»، قال منزلًا حمله ومتأهبًا لمغادرة المكان. لكن الأولاد انقضوا عليه، وأجبروه على الجلوس وحبسوه هناك وهم يضحكون ويمرحون طلبًا للحكاية، حتى هزم العملاق طيب القلب.

«لا أعرف إلا قصة واحدة، وهي عن حصان»، قال فرحًا بالترحيب الذي لوقيت به.

t.me/qurssan

«احكها! احكها!»، قال الأولاد.

«حسن»، قال سايلس مميلًا ظهر كرسيه إلى الجدار، واضعًا إبهاميه في تقويرتي صدرته: «انضممت إلى كتيبة من سلاح الفرسان إبان الحرب، وشهدت الكثير من القتال. كان حصاني ميجور حصانًا رائعًا، وكنت أحبه كثيرًا كأنه بشري. لم يكن جميلًا لكنه أكثر ما رأيت من الحيوانات هدوءًا وثباتًا وحبًا. أول معركة خضناها، لقنتني درسًا لن أنساه وسأحكي لكم كيف حدث هذا. لا داعي أن أصف لكم أيها الصغار صخب المعركة ورعبها واضطرابها، إذ لا تسعفني الكلمات لفعل هذا، غير أني أود الاعتراف بأني اضطربت واستأت من ذلك في البدء، فلم أعلم ما أنا مقبل عليه. أمرنا أن نطلق النار، فمضينا قدمًا طائعين، ولم نتوقف قط لنحمل الذين سقطوا في المناوشات. أصبت بطلق في ذراعي، وسقطت عن سرجي دون أن أدري كيف، لكني تركت هناك مع اثنين أو ثلاثة آخرين بين قتيل وجريح إذ تقدم الآخرون كما قلت. تحاملت على نفسي ونهضت أبحث عن ميجور، شاعرًا أني نلت كفايتي لهذا الوقت. لم أرَه في أي مكان، وأخذت أغذ السير نحو المخيم حين سمعت حمحمة مألوفة. نظرت حولي ووجدت ميجور واقفًا بانتظاري على مبعدة، كأنه لم يفهم لماذا أتوانى في الذهاب إليه. فصفرت وجاء إليَّ كما علمته. امتطيته بأفضل ما استطعت وذراعي اليسرى تنزف، وكدت أنطلق نحو المخيم، ولا بد لي من القول إن الإحساس بالوهن والغثيان راوداني مثل امرأة، وهذا ما يحدث للمرء في أول معركة له. ولكن كلا يا سيدي! كان ميجور أشجع مني ولم يذهب، فهو ليس خنزيرًا،

t.me/qurssan

،ل شب ورقص ونخر واضطرب كأن رائحة البارود والضجيج قد أفقداه صوابه. فعلت ما بوسعي لكنه لم يطعني، فاستسلمت. أتعلمون ماذا فعل ذلك الحيوان المقدام؟ أسرع إلى ممر بين هضبتين وركض عائدًا مثل إعصار إلى المعارك المحتدمة!».

«لقد أحسن فعلًا!»، قال دان متحمسًا، ونسي الأولاد الآخرون التفاح والجوز في خضم إثارتهم.

«ليتني أموت إن لم أقل إن خجلت من نفسي»، تابع سايلس، وقد تحمس لذكرى ذلك اليوم «كنت مجنونًا مثل دبور، ونسيت جرحي واندفعت هائجًا جامحًا حتى وقعت قذيفة مدفع وسطنا، وحين انفجرت أطاحت بالكثيرين منا. فقدت الوعي لبعض الوقت، وحين صحوت وجدت المعركة انتهت، ووجدت نفسي راقدًا قرب سور ومعي ميجور وقد كان جرحه أكبر من جرحي. كسرت ساقي وتورمت كتفي، لكن صديقي المسكين! مزقت جانبه كله قطعة من تلك القذيفة اللعينة».

«أوه يا سايلس! وماذا فعلت؟»، قالت نان مقتربة منه بوجه ملؤه الحماس والإشفاق والإثارة.

«زحفت نحوه وحاولت إيقاف نزفه بما استطعت شقه من خرق بيد واحدة، ولكن دون جدوى. وظل يتأوه من الألم الفظيع، ناظرًا إليّ بعينيه المحبتين، حتى لم أعد أطيق ذلك. فقدمت له كل ما استطعت من عون، وحين زادت حرارة الشمس أكثر، أخذ يلعق بلسانه، وحاولت الوصول إلى غدير كان على مبعدة لكني

t.me/qurssan

لم أستطِع إذ كنت واهنًا وجريحًا، فعدلت عن ذلك وروّحت له بقبعتي. والآن اسمعوا هذا، إن سمعتم أحدًا يذم المتمردين، فتذكروا ما فعله أحدهم وامدحوهم لأجله. رقد رجل مسكين يلبس الرمادي ليس ببعيد عني، أصابته طلقة في رئته ولم يعِش طويلًا. عرضت عليه منديلي يقيه حر الشمس وشكرني على ذلك، ففي مثل هذه اللحظات لا يتوقف الرجال ليتبينوا الموتى من أي طرف، بل يهرعون ويساعدون بعضهم بعضًا. حين رآني أبكي ميجور وأحاول تخليصه من ألمه، نظر إليَّ بوجه متعرق وشاحب من الألم وقال: «في مزادتي بعض الماء، خذه لأنه لن يجديني نفعًا»، ورمى بها إليَّ. لم أكن لآخذه لولا أن كان عندي شيء من البراندي في قارورتي، وأنعشته قليلًا، وأحسست كأني من شربه. إن فائدة أشياء صغيرة يفعلها الناس أحيانًا مذهلة»، وصمت سايلس كأنه استعاد راحة تلك اللحظة حين نسيا هو وعدوه ضغينتهما، وساعدا بعضهما بعضًا مثل أخوين.

«أخبرنا عن ميجور»، قال الأولاد وهم يتحرقون شوقًا لمعرفة المصاب.

«صببت الماء على لسانه اللاهث المسكين، ولم يبدِ أي حيوان أعجم أكثر منه شكرًا حينئذ. غير أن هذا لم يفده، إذ ظل الجرح الرهيب يعذبه، حتى لم أعد أطيق الأمر أكثر. لقد كان الأمر صعبًا عليَّ، لكني فعلته رحمة به وأعلم أنه يسامحني».

«ماذا فعلت؟»، سأل إميل حين صمت سايلس بـ«نحنحنة»

t.me/qurssan

..ة ونظرة على وجهه الخشن جعلت ديزي تقف قربه واضعة يدها الصغيرة على ركبته.

«أطلقت عليه النار».

سرت رعشة في أوصال المستمعين عندما قال سايلس ذلك، إذ كان ميجور بطلًا في عيونهم، وأثارت نهايته المأساوية شفقتهم.

«بلى، أطلقت عليه النار وخلصته من عذابه. ربتت عليه أولًا وقلت «وداعًا»، ثم أرحت رأسه على العشب ونظرت نظرة أخيرة إلى عينيه المحبتين وأطلقت رصاصة اخترقت رأسه. لم يتحرك، فقد أحسنت التصويب وسُررت حين رأيته هامدًا دون أنين أو ألم، ولكني- حسن لست أدري إن كان عليَّ أن أخجل من هذا- وضعت ذراعيّ حول عنقه وبكيت مثل طفل كبير. شو! لم أعلم أني أحمق هكذا»، ومرر سايلس كمه على عينيه، وقد تأثر ببكاء ديزي أكثر من ذكرى ميجور المخلص.

لم يتحدث أحد للحظة، فقد أثارت القصة القصيرة الشفقة في نفوس الأولاد، كحال ديزي مرهفة القلب، لكنهم لم يظهروا ذلك بالبكاء.

«أود أن يكون لي حصان كهذا»، قال دان بين الجهر والهمس.

«أمات الرجل المتمرد أيضًا؟»، سألت نان بقلق.

«ليس عندئذ، إذ رقدنا طوال اليوم وجاء بعض رفاقنا ليلًا للبحث عن المفقودين. وأرادوا حملي أولًا بلا ريب، غير أني عرفت

t.me/qurssan

أن بوسعي الانتظار، وليس للمتمرد سوى فرصة واحدة. لذا جعلتهم يحملونه أولًا. لم يكن عنده من قوة إلا ما يكفي ليمد يده إلي ويقول: «شكرًا لك يا رفيق!» وكانت هذه آخر كلماته، إذ مات بعد ساعة من وصوله إلى المستشفى».

«لا بد أنك سررت كثيرًا لأنك أحسنت إليه»، قال ديمي الذي تأثر بالقصة كثيرًا.

«شعرت بالراحة لذلك، إذ رقدت وحدي ساعات ورأسي على عنق ميجور ورأيت القمر يطلع. وددت دفن الحيوان المسكين دفنًا لائقًا، غير أن ذاك صعب لذا قصصت خصلة من عرفه وأحتفظ بها منذئذ، أتريدين رؤيتها يا حلوتي؟».

«أوه، أجل من فضلك»، قالت ديزي وهي تمسح دمعها لتنظر.

أخرج سايلس محفظة قديمة كما يسمي حافظة النقود، وأخرج من طية داخلها قطعة من الورق البني لف فيها خصلة خشنة من شعر حصان أبيض. نظر الأطفال إليها صامتين وهي في وسط راحة اليد العريضة، ولم يجد أحد شيئًا يهزأ منه في حب سايلس لحصان المخلص ميجور.

«إنها قصة جميلة وقد أحببتها، رغم أنها أبكتني. شكرًا جزيلًا لك يا ساي»، وساعدته ديزي في لف تذكاره الصغير، ودست نان حفنة من الذرة المحمصة في جيبه، وصخب الأولاد معربين عن إعجابهم بالقصة، شاعرين أن فيها بطلين.

t.me/qurssan

فغادر متأثرًا بما ناله من إكبار، وتحدث أصحاب الندوة الصغار من الحكاية، وهم ينتظرون ضحيتهم التالية. كانت السيدة جو التي أتت لأخذ قياس نان لتخيط لها بعض الميادع الجديدة. تركوها تدخل، ثم انقضوا عليها وأخبروها بالقانون وطالبوا بحكاية. فرحت السيدة جو بالفخ الجديد، وأذعنت في الحال إذ كانت الأصوات السعيدة تبلغ الرواق على نحو مبهج جدًا فودت الانضمام إليهم ونسيان قلقها حول أختها مغ.

«أأنا أول فأر تصيدينه أيتها القطط الماكرة؟»، سألت وهي تؤخذ إلى الكرسي الكبير وتُجلب لها الطيبات، وتُحاط بجمع من المستمعين الفرحين.

أخبروها عن سايلس وحكايته، فضربت جبهتها بيأس، إذ تحلت بالظرف لما دُعيت دعوة مفاجئة لتقص حكاية جديدة.

«عمَّ أحكي لكم؟»، قالت.

«الأولاد»، كان جواب الجميع.

«لا بد أن يكون فيها حفلة»، قالت ديزي.

«وشيء لذيذ يؤكل»، قال ستفي.

«هذا يذكرني بحكاية كتبتها عجوز عزيزة قبل سنوات. كنت أحبها كثيرًا وأحسبكم ستحبونها إذ فيها أولاد و«شيء لذيذ يؤكل»».

«ما عنوانها؟»، سأل ديمي.

t.me/qurssan

«الفتى المثير للريبة».

رفع نات نظره عن الجوز الذي كان يثقبه، وابتسمت له السيدة جو وقد عرفت ما جال في ذهنه.

«كان للآنسة كرين مدرسة للأولاد في بلدة هادئة، وكانت مدرسة جيدة جدًا من الطراز القديم. عاش في بيتها ستة أولاد، وجاء أربعة أو خمسة من البلدة. كان من بين الذين يسكنون معها ولد اسمه لويس وايت. لم يكن لويس فتى سيئًا، لكنه جبان بعض الشيء، ويكذب بين الحين والحين. أرسلت جارة ذات يوم سلة من الكشمش للسيدة كرين، لم يكن كافيًا ليأكل منه الجميع، لذا شرعت السيدة كرين اللطيفة التي تحب إسعاد أولادها، بالعمل وأعدت اثنتي عشرة فطيرة صغيرة».

«أحب تذوق فطائر الكشمش، أتساءل إن أعدتها كما أعددت فطائر توت العليق»، قالت ديزي التي استعادت اهتمامها بالطبخ في الآونة الأخيرة.

«صه»، قال نات وهو يدس في فمها حبة ذرة مشوية كبيرة لإسكاتها، إذ أثارت الحكاية اهتمامه كثيرًا ورأى أن بدايتها جيدة.

«لما نضجت الفطائر، وضعتها السيدة كرين في أفضل صوان في الردهة ولم تقل شيئًا عنها إذ أرادت أن تفاجىء أولادها وقت الشاي. ولما حان الوقت وجلس الجميع إلى الطاولة، ذهبت لإحضار الفطائر لكنها عادت مستاءة للغاية، فما الذي حدث بظنكم؟».

t.me/qurssan

«سرقها أحدهم!»، قال ند.

«كلا، لقد كانت في مكانها، لكن أحدًا ما سرق كل الفاكهة منها بعد رفع الطبقة العلوية ثم إرجاعها بعد سرقة الكشمش».

«يا لها من خدعة وضيعة!»، ونظرت نان إلى تومي كأنها تقول إنه سيفعل الشيء نفسه.

«وحين أفضت بخطتها إلى الأولاد وأرتهم الفطائر المسكينة وقد سلبت منها حلاوتها، حزن الأولاد واستاؤوا جدًا، وقال جميعهم إنهم لا يعلمون عن الأمر شيئًا. «لعل الجرذان أكلتها»، قال لويس الذي كان أشدهم إنكارًا بمعرفته بأمر الفطائر. «لا ترفع الجرذان الطبقة العلوية لتغرف الفاكهة. فعلت هذا بعض الأيدي»، قالت الآنسة كرين، التي استاءت من الكذبة أكثر من استيائها لما حدث لفطائرها. تناولوا طعام العشاء وخلدوا للنوم، غير أن الآنسة كرين سمعت أحدًا يتأوه في الليل، وذهبت لترى من هو فوجدت لويس يتألم ألمًا عظيمًا. لا ريب أنه أكل شيئًا لم يوافقه، ومرض كثيرًا فخافت الآنسة كرين، وأرادت أن تستدعي الطبيب حين أنّ لويس: «إنه الكشمش، لقد أكلته، وعليَّ الاعتراف قبل موتي». إذ أخافه استدعاء الطبيب. «إن كان هذا كل ما في الأمر فسأعطيك شرابًا مقيئًا وستعافى بسرعة»، قالت الآنسة كرين. فشرب لويس جرعة كبيرة، وكان على خير ما يرام في الصباح. «أوه، لا تخبري الأولاد، إذ سيسخرون مني»، توسل المتوعك. ووعدت الآنسة كرين الطيبة بألا تفعل، لكن سالي الخادمة أخبرتهم، ولم يهنأ للويس المسكين بال

t.me/qurssan

لوقت طويل. فسماه أصدقاؤه الكشمشة الكبيرة، ولم يسأموا يومًا من سؤاله عن سعر الفطيرة».

«نال جزاءه»، قال إميل.

«إن الخطأ يكتشف دومًا»، قال ديمي واعظًا.

«كلا، ليس دومًا»، قال جاك الذي كان يشوي التفاح بإخلاص كبير، فظل مديرًا ظهره للبقية مخفيًا وجهه الأحمر.

«أهذه النهاية؟»، سأل دان.

«كلا، إن هذا الجزء الأول فحسب، والجزء الثاني أكثر إثارة. بعد هذا بوقت جاء بائع جائل ذات يوم وتوقف ليعرض بضاعته على الأولاد، واشترى عدد منهم أمشاطًا للجيب، وقيثارات وخردة منوعة من هذا القبيل. كان بين السكاكين مطواة صغيرة ذات مقبض أبيض أرادها لويس كثيرًا، لكنه أنفق كل مصروفه، ولم يكن لدى أي منهم نقود يقرضها له. حمل المطواة بيده معجبًا وراغبًا، حتى حزم الرجل بضاعته ليذهب، فأنزلها بلا مبالاة ومضى الرجل في طريقه. عاد البائع الجائل في اليوم التالي ليقول إنه لم يعثر على تلك المطواة، وظن أنه تركها في بيت الآنسة كرين. كانت مطواة جميلة للغاية لها مقبض لؤلؤي، ولم يحتمل خسارتها. نظر إليه الجميع، وقالوا كلهم إنهم لا يعرفون عنها شيئًا. «كان هذا الرجل الصغير آخر من حملها، ويبدو أنه أرادها كثيرًا. ألأنت واثق أنك أعدتها؟»، قال الرجل للويس الذي ضايقه فقدانها، وأقسم مرارًا وتكرارًا إنه أعادها. لم يجده إنكاره نفعًا، إذ كان الكل واثقين

t.me/qurssan

اه أخذها، وبعد هرج ومرج دفعت الآنسة كرين ثمنها، وذهب الرجل متجهمًا».

«أأخذها لويس؟»، سأل نات وقد تحمس كثيرًا.

«ستعرف. كان على لويس المسكين أن يجتاز اختبارًا آخر، إذ ثرر الأولاد على مسامعه باستمرار: «أعرني مطواتك ذات المقبض اللؤلؤي يا كشمش»، وأشياء من هذا القبيل، حتى أضحى لويس تعسًا وطلب العودة إلى البيت. فعلت الآنسة كرين ما بوسعها لتهدئ الأولاد، لكنه كان عملًا شاقًا لأنهم سيغايظونه ولن نستطيع البقاء معهم طوال الوقت. إن هذا من أشق الأمور في تعليم الأولاد، فهم «لن يؤذوا رفيقًا في كربه» كما يقولون، غير أنهم سيعذبونه بأشياء صغيرة حتى يطلب منهم شاكرًا أن يتشاجروا معه».

«أعلم ذلك»، قال دان.

«وأنا كذلك»، قال نات بهدوء.

لم ينبس جاك بحرف، بل صادق على ما قيل لأنه يعلم أن الأولاد الكبار أبغضوه وتخلوا عنه لهذا السبب.

«هلا تابعت حكايتك عن المسكين لويس يا خالتي جو. لا أصدق أنه سرق السكين لكني أريد التأكد»، قالت ديزي في قلق كبير.

«حسن، مر أسبوع تلو أسبوع ولم تنته المسألة. تحاشى الأولاد

t.me/qurssan

لويس، وسنم هو، الفتى المسكين، من المتاعب التي جلبها لنفسه فعزم على ألا يكذب أبدًا، وحاول جاهدًا فأشفقت عليه الآنسة كرين وساعدته، وصدقت في نهاية المطاف أنه لم يسرق السكين. عاد البائع الجائل بعد شهرين من زيارته الأولى وأول شيء قاله:

«لقد وجدت السكين في النهاية يا سيدتي. لقد انزلقت خلف بطانة حقيبتي، وخرجت قبل أيام وأنا أضع بضاعة جديدة. جئت لأعلمك لأنك دفعت ثمنها، وقد ترغبين بها، فها هي ذي».

تجمع الأولاد وشعروا بالخجل لدى سماعهم ذلك وطلبوا الصفح من لويس بصدق فلم يستطع ردهم. أهدته الآنسة كرين المطواة، واحتفظ بها سنوات عديدة لتذكره بعيبه الذي ورطه في المتاعب».

«أتساءل لماذا يؤذيك الشيء الذي تأكله خلسة، ولا يضرك إن أكلته على المائدة»، تساءل ستفي متأملًا.

«لعل ضميرك يوجع بطنك»، قالت السيدة جو مبتسمة لحديثه.

«إنه يفكر في الخيار»، قال ند وأعقب قوله عاصفة من الضحك، إذ كان مأزق ستفي الأخير مضحكًا.

فقد أكل خيارتين سرًا، وتوعّك وأفضى بوجعه لند، متوسلًا إليه أن يفعل شيئًا. فأشار عليه ند بحسن نية أن يضع لصوق خردل على بطنه ومكواة ساخنة على قدميه، غير أنه لما أراد استخدام العلاجين عكس الآية، فوضع اللصوق على قدميه، والمكواة الساخنة على

t.me/qurssan

.طنه، فعثر على ستفي المسكين في الحظيرة وقد امتلأ باطن قدميه ،بالجسؤات واحترقت سترته.

«احكي لنا حكاية أخرى، فقد كانت هذه ممتعة»، قال نات بعد أن سكتوا عن الضحك.

وقبل أن تتمكن السيدة جو من رد طلب هؤلاء الجشعين الصغار، دخل روب ساحبًا خلفه لحافه بهيئة شديدة العذوبة إذ قال وهو يتجه نحو أمه ليقينه بأنها الملاذ الآمن: «لقد سمعت ضجيجًا كبيرًا، وحسبت أن شيئًا رهيبًا حدث لذا جئت لأرى».

«هل حسبت أنني سأنساك أيها المشاكس؟»، سألت أمه وهي تتظاهر بالجدية.

«كلا، لكني حسبتك ستسرين برؤيتي هنا»، أجاب الطفل الصغير المتملق.

«بل أحبذ أن أراك في فراشك، فاصعد في الحال يا روبن».

«كل من يدخل هنا عليه أن يقص حكاية، ولا تستطيع ذلك لذا يحسن بك الفرار»، قال إميل.

«بل أستطيع! إنني أحكي لتدي كثيرًا من القصص، عن الدببة والأقمار والحشرات الصغيرة التي تتحدث في طنينها»، احتج روب، راغبًا بالبقاء بأي ثمن.

«احك لنا واحدة ثم اذهب»، قال دان مستعدًا لرفعه على كتفيه والذهاب به.

t.me/qurssan

«سأفعل، دعوني أفكر للحظة»، وصعد روب إلى حجر أمه التي حضنته قائلة:

«إن هذه عادة في العائلة، أعني النهوض من الفراش في أوقات خاطئة. كان ديمي يفعل ذلك، وكنت أنا أقضي الليل في النهوض من الفراش والخلود إليه. وكانت مغ تظن البيت يحترق فترسلني لأستطلع فأمكث وأسلي نفسي، كما تفعل أنت يا ولدي السيء».

«فكرت الآن»، قال روب مرتاحًا ومتلهفًا للفوز بالدخول إلى هذه الحلقة البهيجة.

نظر إليه الجميع واستمعوا بوجوه ملؤها الضحك المكتوم، إذ جلس روب على ركبة أمه ملتفًا بدثاره الجميل، وحكى القصة القصيرة المأساوية التالية بجد أضفى عليها الطرافة:

«كان لسيدة مليون طفل، وولد واحد لطيف. صعدت إلى الأعلى وقالت: «لا تخرج إلى الفناء»، لكنه خرج وسقط في المضخة وغرق ومات».

«أهذه هي كل القصة؟»، سأل فرانز، عندما صمت روب ليلتقط أنفاسه بعد البداية المثيرة.

«كلا، فلها جزء آخر»، وعقد روب حاجبيه الناعمين محاولًا استحضار إلهام آخر.

«ماذا فعلت السيدة حين سقط في المضخة؟»، سألته أمه لتساعده على المتابعة.

t.me/qurssan

«أوه، رفعته ولفته بصحيفة، ووضعته على رف ليجف فتحصل على بذوره».

قُوبلت هذه النهاية المفاجئة بعاصفة من الضحك، وربَّتت السيدة جو على الشعر الأجعد وقالت بوقار:

«لقد ورثت عن أمك موهبة القص يا بني. امض حيث ينتظرك المجد».

«يمكنني البقاء الآن، أليس كذلك؟ ألم تكن قصتي حلوة؟»، قال روب جذلًا بنجاحه الباهر.

«يمكنك البقاء حتى تنهي أكل حبات الذرة المشوية الاثنتي عشرة»، قالت أمه ظانة أنها ستلتهم في لقمة واحدة.

لكن روب كان رجلًا صغيرًا حاذقًا، وتغلب عليها حين أكل الحبات حبة فحبة بأناة شديدة، واستمتع بكل لحظةٍ بكل ما أوتي من قوة.

«هلا حكيت لنا الحكاية الأخرى أثناء انتظارك؟»، سأل ديمي متلهفًا على ألا يضيع وقتًا.

«ليس لديَّ حقًا ما أقصه إلا حكاية صغيرة عن صندوق الحطب»، قالت السيدة جو وهي ترى أن لدى روب سبع حبات ذرة.

«أفيها صبي؟».

«إنها عن الصبي».

t.me/qurssan

«أهي حقيقية؟»، سأل ديمي.

«في كل جزء منها».

«جيد! قصيها من فضلك».

«عاش جيمس سنو وأمه في بيت صغير في نيو هامپشاير. كانا فقيرين، وكان على جيمس أن يعمل ليساعد أمه، لكنه أحب الكتب كثيرًا وكره العمل، ولم يرغب بشيء سوى الجلوس والقراءة طوال اليوم».

«كيف أمكنه ذلك؟! إني لأمقت الكتب وأحب العمل»، قال دان معارضًا جيمس إلى أقصى حد.

«يقوم العالم بشتى صنوف البشر، إذ يحتاج عمالًا ودارسين وفي العالم متسع للجميع. لكني أرى أن على العاملين أن يقرؤوا قليلًا، وعلى الدارسين أن يتقنوا العمل إن دعت الحاجة»، أجابت السيدة جو منقلة نظرها بين دان وديمي بهيئة مهيبة.

«إنني أعمل بلا ريب»، وأظهر لها ديمي فخورًا ثلاث بقع صلبة في راحة يده الصغيرة.

«وإني أدرس بلا ريب»، أضاف دان عابسًا للسبورة المليئة بالأرقام المكتوبة بخط أنيق.

«اسمعوا ما فعل جيمس. لم يقصد أن يكون أنانيًا، لكن أمه كانت فخورة به وتركته يفعل ما يحلو له، وعملت وحدها حتى توفر له الكتب والوقت لقراءتها. أراد جيمس ذات خريف الذهاب

t.me/qurssan

إلى المدرسة، وذهب إلى الكاهن ليرى إن كان بوسعه مساعدته المحصول على ثياب لائقة وكتب. تناهى إلى سمع الكاهن شيء من خمول جيمس، ولم يرغب بتقديم الكثير له، معتبرًا الولد الذي تجاهل أمه وتركها تكدح من أجله، لن يبلي بلاء حسنًا في المدرسة. لكن الرجل الطيب اهتم أكثر لما رأى جد جيمس، ولما كان رجلًا غريبًا فقد عرض على الصبي عرضًا ليتبين صدقه.

«سأعطيك الكتب والثياب بشرط واحد يا جيمس».

«وما ذاك يا سيدي؟» وأشرق وجه الصبي فرحًا.

«احرص على ملء صندوق الحطب لأمك طوال الشتاء، وأن تفعل ذلك بنفسك. إن فشلت فلا مدرسة»، سخر جيمس من الشرط الغريب ووافق من فوره ظانًا أنه شرط سهل.

بدأ يذهب إلى المدرسة، وعمل جاهدًا لملء صندوق الحطب لبعض الوقت، إذ كان الفصل خريفًا وقطع الخشب والأغصان وفيرة. خرج صباحَ مساءَ وملأ سلة، أ. قطع العيدان الصغيرة لموقد الطبخ، ولم يكن العمل صعبًا إذ كانت أمه حريصة ومقتصدة. ولكن الصقيع جاء في نوفمبر وأضحت الأيام باردة غائمة ونفد الحطب بسرعة. اشترت أمه حملًا بما جنته من مال لكنه تبدد وأوشك على النفاد قبل أن يتذكر جيمس أن عليه جلب الحمل التالي. كانت السيدة سنو ضعيفة وعرجاء بفعل الروماتزم، ولم تستطِع العمل كما فعلت، لذا كان على جيمس أن ينحّي كتابه جانبًا ليرى ما بوسعه فعله.

t.me/qurssan

كان ذلك صعبًا عليه، فقد كان يبلي حسنًا ويحب دروسه وكره أن يتركها إلا للأكل والنوم. لكنه عرف أن الكاهن سينفذ وعيده. وشرع جيمس على غير رغبة منه يكسب المال في ساعات فراغه، خشية أن يفرغ صندوق الحطب. عمل مختلف الأعمال، فقضى الحاجات واعتنى ببقرة الجيران، وساعد القندلفت العجوز في تنظيف الكنيسة وإيقاد نار مدافئها أيام الأحد، وتمكن بهذا أن يشتري قليلًا من الحطب. لكنه كان عملًا شاقًا، والأيام قصيرة والشتاء باردًا بردًا قارصًا، والوقت الثمين يمر سريعًا، والكتب الحبيبة جذابة للغاية، وحزن لتركها إذ لم ير نهاية للواجبات البغيضة.

راقبه الكاهن بهدوء، ولما رآه جادًا ساعده دون أن يعلم. كثيرًا ما التقاه يقود زلاجة الحطب من الغابة، حيث يقطع الرجال، وأثناء مشي جيمس قرب الثور كان يقرأ أو يدرس حريصًا على استغلال كل لحظة. «إن الصبي يستحق المساعدة، وسيفيده هذا الدرس. وإن تعلمه فسأعطيه درسًا أسهل»، قال الكاهن لنفسه. وفي ليلة عيد الميلاد وُضع حمل كبير من الحطب بهدوء أمام باب البيت الصغير، مع منشار جديد وقصاصة تقول:

«إن الرب في عون الذين يعينون أنفسهم».

لم ينتظر جيمس المسكين شيئًا، غير أنه حين استيقظ في صباح الميلاد البارد وجد زوجًا من القفازات الدافئة حاكتها أمه بأصابعها المتصلبة المتوجعة. أسعدته هذه الهدية كثيرًا، لكن قبلتها ونظرتها الحانية وهي تسميه «ابني الطيب» كانتا أجمل. لقد أفعم الدفء

t.me/qurssan

حاولته الحفاظ على دفء أمه كما ترون، وبملئه صندوق حطب ملأ تلك الأشهر بواجبات أداها بإخلاص. أخذ يدرك هذا، وأحس بوجود شيء أفضل من الكتب وحاول أن يتعلم الدروس التي لقنها له الرب، إلى جانب الدروس التي يعلمها أستاذ المدرسة.

عندما رأى كومة جذول الصنوبر والبلوط الكبيرة أمام بابه وقرأ الرسالة القصيرة عرفَ المرسل، وفهم خطة الكاهن وشكره على ذلك وشرع يعمل بكل ما أوتي من قوة. قضى الأولاد الآخرون ذلك اليوم في اللهو واللعب، لكن جيمس قطع الحطب بمنشاره، واحسب أن أسعد فتيان البلدة كان الفتى ذا القفازات الجديدة والذي صفر مثل الشحرور وهو يملأ صندوق أمه حطبًا».

«إنه ولد رائع!»، قال دان الذي أحب القصة الواقعية البسيطة أكثر من أجمل الحكايات الخرافية، «أحببت هذا الولد في النهاية».

«يمكنني قطع الحطب بالمنشار لأجلك يا خالتي جو!»، قال ديمي كأنما أوحت له هذه القصة بوسيلة جديدة يجني بها المال لأمه.

«أخبرينا قصة عن ولد شرير، فأنا أحب هذه القصص أكثر»، قالت نان.

«بل الأفضل أن تقصي لنا فتاة مشاكسة نزقة»، قال تومي الذي أفسد جفاء نان أمسيته، فقد جعل طعم التفاح مرًا والذرة المشوية تفهة والجوز صعبًا كسره، وأشعرته رؤيته نان وند على مقعد واحد بأن حياته ثقيلة.

t.me/qurssan

ولكن السيدة جو لن تقص مزيدًا من الحكايات، إذ لما نظر
إلى روب وجدته غط في النوم وهو متشبث بآخر حبات الذرة بيده
الممتلئة. فلفته أمه في دثاره، وحملته ووضعته في فراشه دون خوف
من أن ينهض ثانية.

«لنر الآن من التالي»، قال إميل مواربًا الباب مواربة مغرية.

مرت ماري آن أولًا، وناداها إميل لكن سايلس حذرها قبلًا
واكتفت بالضحك وهرعت رغم ندائهم. فتح الباب أخيرًا وسمع
صوت قوي يدندن في الرواق:

أنا لا أعرف ما معنى ذلك

لكني حزين جدًا

«إنه العم فرتز، اضحكوا جميعًا بصوت عالٍ ليدخل»، قال إميل.

وأعقب قوله عاصفة من الضحك الصاخب، فدخل العم
فرتز سائلًا: «ما المضحك يا أولادي؟».

«أمسكنا بك! أمسكنا بك! لن تخرج حتى تحكي لنا حكاية»،
قال الأولاد وهم يصفقون الباب.

«حقًا! أهذا المضحك إذن؟ ليس عندي رغبة في الذهاب،
فالمكان بهيج هنا وسأدفع الغرامة في الحال»، وهذا ما فعل إذ جلس
وبدأ من فوره:

«ذهب جدك يا ديمي قبل زمن طويل ليعظ في مدينة كبيرة،
راجيًا أن يجني بعض المال ليعطيه لمأوى أيتام صغار يبنيه بعض

t.me/qurssan

..اس الطيبين. مضت الموعظة حسنًا، ووضع في جيبه مبلغًا كبيرًا
. المال فرح به فرحًا عظيمًا. وعندما قاد عربته للذهاب إلى مدينة
أ مرن وصل إلى طريق موحش في وقت الأصيل، وقال في نفسه إنه
. دان جيد للصوص، فرأى رجلًا طلعته مخيفة يخرج من الغابة أمامه
، بتقدم بتؤدة كأنه ينتظر وصوله. خاف الجد على المال، وخطر له في
البدء أن يستدير ويعود أدراجه. لكن الحصان كان متعبًا، كما أن الجد
لم يرغب بالظن بالرجل ظن السوء، لذا تابع طريقه وحين اقترب
رأى الغريب فقيرًا ومريضًا ومهلهل الثياب، فأنبه قلبه وتوقف
و قال بصوته اللطيف:

«تبدو متعبًا يا صاحبي، دعني أوصلك»، ففوجئ الرجل
وتردد لحظة ثم صعد. لم يبدُ راغبًا في الحديث، لكن الجد تابع
بأسلوبه الحكيم المبهج يتحدث عن قسوة العام ومعاناة الفقراء
وصعوبة المضي قدمًا أحيانًا. لان الرجل شيئًا فشيئًا وحكى حكايته
بعد أن حرضه الحديث اللطيف. لم يستطع الحصول على عمل
لمرضه، وعنده أطفال وكان قانطًا. فأشفق عليه الجد كثيرًا ونسي
خوفه، وسأل الرجل عن اسمه قائلًا إنه سيحاول العثور على عمل
له في البلدة المجاورة إذ عنده أصدقاء فيها. وأراد الجد أن يخرج قلمًا
وورقة ليكتب العنوان، فأخرج حافظة النقود الممتلئة ووقع نظر
الرجل عليها. فتذكر الجد ما فيها عندئذ وخشي على نقوده، لكنه
قال في هدوء:

«بلى، عندي شيء من المال لأجل بعض الأيتام الفقراء. ليته كان

t.me/qurssan

لي، إذن لأعطيتك بعضه. لست ثريًا لكني أعرف مشاق الفقر، هذه الدولارات الخمسة نقودي وأريد إعطاءها لك من أجل أولادك».

تغيرت النظرة الجائعة القاسية في عيني الرجل إلى نظرة امتنان حين أخذ النقود القليلة، التي أعطيت طوعًا، وتركت نقود الأيتام دون مساس. ركب مع الجد حتى اقتربا من البلدة وطلب أن يترجل. صافحه الجد وكاد يرحل لما قال الرجل كأنما دفعه شيء لذلك: «كنت بائسًا حين التقينا، وعزمت على سلب مالك، لكنك كنت طيبًا جدًا فلم أستطِع. باركك الرب يا سيدي لمنعي من فعل ذلك!»».

«هل رآه جدي بعد ذلك؟»، سألت ديزي متلهفة.

«كلا، لكني أحسب الرجل وجد عملًا ولم يحاول السرقة ثانية».

«إنها طريقة غريبة لمداواته، لو كنت أنا لأطحته أرضًا»، قال دان.

«الكلمة الطيبة أفضل من القوة دومًا. جرب لتر»، أجاب السيد باير ناهضًا.

«احك لنا حكاية أخرى من فضلك»، قالت ديزي.

«عليك ذلك، فقد قصت الخالة جو قصتين»، أضاف ديمي.

«ولهذا يجب ألا أفعل، بل أحفظ حكاياتي لمرات قادمة. إن الحكايات الكثيرة مضرة مثل السكاكر الكثيرة. لقد أديت غرامتي لذا يمكنني الذهاب»، وفر السيد باير بحياته، والجمع كله يلاحقه. غير أنه كان أسبقهم ولاذ بمكتبه، تاركًا الأولاد يعودون صاخبين.

t.me/qurssan

ملأهم الركض بالنشاط فلم يعودوا إلى هدوئهم السابق، بل أتبعوا ذلك بلعبة مرحة من الغميضة، أظهر فيها تومي أنه تعلم العبرة من القصة الأخيرة جيدًا، إذ همس في أذن نان حين أمسك بها «آسف لأني دعوتك بالنزقة».

لم ترد نان أن يفوقها أحد لطفًا، لذا حين لعبوا لعبة «أين الزر؟ من عنده الزر؟» وحان دورها لتبحث، قالت: «تمسك جيدًا بما سأعطيك»، بابتسامة ودودة لتومي، فلم يعجب إذ رأى خاتم شعر الحصان في يده عوضًا عن الزر. فرد ابتسامتها بابتسامة عندئذ، ولكنه قدم لنان أفضل قضمة من تفاحته الأخيرة قبل أن يخلد للجميع للنوم، ورأت الخاتم في إصبعه المجحدرة، وقبلت القضمة وعم السلام بينهما. ندم كلاهما على الفتور المؤقت، ولم يخجلا من قول: «لقد كنت مخطئًا/ ـئة فاغفر/ ي لي». فظلت الصداقة الطفولية قائمة، ودام البيت الصغير في الصفصافة قلعة صغيرة بهيجة في الهواء لوقت طويل.

t.me/qurssan

t.me/qurssan

(٢١)
عيد الشكر

احتفلت پلمفيلد بهذا العيد السنوي دومًا على الطراز القديم، ولم يسمح لشيء بإفساده. وقبل حلوله بأيام ساعدت الفتاتان الصغيرتان آسيا والسيدة جو في غرفة المؤن والمطبخ لصنع الفطائر والحلوى، وفرز الفاكهة، ونفض الغبار عن الصحون، وبَانتا شديدتي الانشغال وذواتي شأن كبير. حام الأولاد على تخوم الأراضي المحرمة، يتنشقون الروائح الشذية، ويسترقون النظر إلى الأعمال الغامضة، وقد يسمح لهم أحيانًا بتذوق بعض الأطايب في طور إعدادها.

ثمة أمر غير عادي يجري على قدم وساق هذا العام، إذ كانت الفتاتان منشغلتين في الأعلى بقدر انشغالهما في الأسفل، وكذا كان الأولاد في الصف والحظيرة وعم البيت شيء من الهياج. فكثر البحث عن الشرائط والملابس المزركشة القديمة، وقص الورق المذهب ولصقه، واستخدم فرانز والسيدة جو قدرًا كبيرًا من القش والقطن الرمادي والفلانل والخرز الأسود الكبير. دق ند آلات

t.me/qurssan

غريبة في المشغل، وسار تومي وديمي يتمتمان كأنهما يحفظان شيئًا ما. سمعت جلبة مخيفة في غرفة إميل بين الحين والحين، وجلجل الضحك من غرفة الأطفال حين أرسل إليها روب وتدي، واختبأا عن الأنظار لساعات. غير أن أكثر ما أثار حيرة السيد باير ما حدث ليقطينة روب الكبيرة. فقد حملت في جذل إلى المطبخ ظهرت بعدها اثنتا عشرة فطيرة بلون الذهب. لكن نصف اليقطينة الهائلة كان كافيًا لصنع هذا القدر، فأين الباقي؟ لقد اختفت، ولم يبال روب البتة بل ضحك عند ذكر الأمر وأخبر أباه «أن ينتظر ليرى»، إذ كانت متعة الأمر كله في مفاجأة الأب باير في النهاية، وألا يعلم شيئًا عما يحدث.

فأغمض عينيه وسد أذنيه وأغلق فمه طواعية، وتجول متعاميًا عن الواضح، صامًا أذنيه عن الأصوات الواشية الصغيرة التي ملأت الجو، لئلا يفهم أيًا من الألغاز الجلية تمامًا التي تدور حوله. لقد أحب هذه المسرات الأسرية الصغيرة لكونه ألمانيًا، وشجعها من كل قلبه، إذ تجعل البيت بهيجًا، فلا يرغب الأولاد بالذهاب إلى مكان آخر بحثًا عن المتعة.

ولما جاء اليوم الموعود أخيرًا، ذهب الأولاد في نزهة طويلة حتى تفتح قابليتهم للأكل عند الغداء وكأنهم يحتاجون لذلك! ظلت الفتاتان في البيت لتساعدا في ترتيب المائدة، وتضعا اللمسات الأخيرة على الأشياء المختلفة التي ملأت نفسيهما الصغيرتين بالحماس. أغلق الصف منذ الليلة الماضية، ومنع السيد باير من دخوله تحت طائلة تلقي عضة من تدي الذي حرس الباب مثل تنين

t.me/qurssan

صغير، رغم أنه يتحرق شوقًا ليحكي عنه، ولم يمنعه شيء من إفشاء السر الكبير سوى إنكار الذات البطولي من أبيه في عدم الاستماع.

«كل شيء جاهز وكل شيء رائع»، قالت نان خارجة أخيرًا بهيئة مظفرة.

«الـ... كما تعرفين، مضى جيدًا، وسايلس يعرف ما عليه فعله الآن»، أضافت ديزي وهي تقفز فرحًا بنجاح لا يوصف.

«لتحل عليَّ اللعنة إن لم يكن هذا أجمل ما رأيت، تلك الحيوانات تحديدًا»، وسايلس الذي عرف السر مضى يضحك مثل صبي كبير.

«إنهم قادمون، أسمع إميل يغني «ملاحو الأرض يقتربون» لذا علينا الذهاب وتغيير ثيابنا»، قالت نان وهرعتا إلى الأعلى في عجلة كبيرة.

عاد الأولاد مندفعين إلى البيت بقابليات تجعل ديك الحبش الكبير يرتعد خوفًا لولا أنه لم يعد يشعر بخوف. وذهبوا هم أيضًا لتغيير ثيابهم، ودام الاغتسال والتسريح والتزين لنصف ساعة مما يبهج قلب أي امرأة أنيقة. حين قرع الجرس اصطف في غرفة الطعام جحفل من الفتية ذوي الوجوه النظيفة والشعور اللامعة والياقات النظيفة، لابسين سترات يوم الأحد، حيث جلست على رأس المائدة السيدة جو بثوبها الحريري الأسود وعلى صدرها ربطة من الأقحوان الأبيض المفضل لديها، و«بدت رائعة» كما قالوا كلما نهضت. كانت نان وديزي جميلتين مثل زهرتين بفستانيهما الشتويين ونطاقيهما اللامعين وشريطتي الشعر. كان

t.me/qurssan

تدي متعة للناظرين في قميصه القرمزي الصوفي، وأجمل حذاء عالٍ ذي أزرار، أشغله وألهاه كثيرًا بقدر ما ألهى سوار القميص السيد توت[1] في مناسبة ما.

تبادل السيد والسيدة باير النظر عبر المائدة الطويلة، وعلى جانبيهما صفان من الوجوه السعيدة، فتبادلا الشكر قليلًا دون كلام، إذ قال قلب للآخر: «لقد نجح عملنا، فلنكن شاكرين ولنواصل العمل».

منعت قرقعة الشوك والسكاكين مزيدًا من الحديث لبضع دقائق وجاءت برشاقة ماري آن تضع عقدة فراشة زهرية رائعة على شعرها، تمرر الصحون وتغرف الحساء. أسهم الجميع تقريبًا في المأدبة، فكان الغداء رائعًا لطاعميه الذين غلفوا لحظات الصمت بعبارات حول نتاجهم.

«إن لم تكن البطاطا جيدة، فلن أزرعها ثانية»، قال جاك وهو يأخذ حبة البطاطا الكبيرة الرابعة.

«بعض من أعشابي في حشوة ديك الحبش، ولهذا فإنه شهي جدًا»، قالت نان وهي تأكل لقمة برضا عظيم.

«إن بطاتي رائعة على أية حال، إذ تقول آسيا إنها لم تطبخ يومًا بطات سمينة كهذه»، قال تومي.

(١) شخصية في رواية تشارلز دكنز دمبي وابنه.

t.me/qurssan

«إن جزرنا جميل أليس كذلك؟ وملفوفنا الأبيض سيكون لذيذًا بقدره حين نقطفه»، قال دك، وتمتم دولي موافقًا من خلف العظم الذي يثقبه.

«ساعدت في صنع الفطائر بيقطيتني»، قال روبي بضحكة قطعها بالعودة إلى كوبه.

«قطفت بعض التفاح الذي صنع منه العصير»، قال ديمي.

«جمعت الأويسة من أجل الصلصة»، قال نات.

«جلبت الجوز»، قال دان، وهكذا استمر الحديث حول المائدة.

«من ابتدع عيد الشكر؟»، سأل روب، إذ صار يلبس في الآونة الأخيرة قميصًا وسروالًا فشعر باهتمام رجولي جديد بتأسيس دولته.

«انظر من بوسعه الإجابة عن هذا السؤال»، وهز السيد باير رأسه لواحد أو اثنين من أفضل تلاميذه في التاريخ.

«أنا أعرف، ابتدعه الحُجّاج»، قال ديمي.

«ولماذا؟»، سأل روب دون انتظار ليعرف من هم الحُجّاج.

«نسيت»، وهدأ ديمي.

«أحسبهم ضربهم الجوع أكثر من مرة وحين كان حصادهم طيبًا قالوا: «سنشكر الرب على ذلك» وخصصوا يومًا وسموه عيد الشكر»، قال دان الذي أحب قصة الرجال الشجعان الذين احتملوا ما قاسوه بنبل من أجل إيمانهم.

«جيد! لم أحسبك تتذكر شيئًا سوى التاريخ الطبيعي»، ونقر السيد باير على الطاولة برفق كأنه يصفق لتلميذه.

بدا دان مسرورًا، وقالت السيدة جو لابنها: «أتفهم هذا يا روبي؟».

«كلا لم أفهم. ظننت الحجان طائرًا كبيرًا يعيش على الصخور وقد رأيت صورة له في كتاب ديمي».

«إنه يقصد البطاريق. أوه، أليس أحمق صغيرًا؟!»، وأمال ديمي كرسيه إلى الخلف وضحك عاليًا.

«لا تسخر منه، بل احك له عنه إن استطعت»، قال السيد باير مواسيًا روب بمزيد من صلصة الأويسة إذ ابتسم جميع من على المائدة على خطئه.

«سأفعل»، وبعد صمت ليستجمع ديمي أفكاره، قص هذه الحكاية عن الآباء الحجاج، كانت سترسم البسمة على وجوه هؤلاء الشجعان لو سمعوها.

«اسمع يا روب، بعض الناس في إنجلترا لم يحبوا الملك، أو ما شابه، لذا ركبوا السفن وأبحروا إلى هذه البلاد. كانت البلاد مليئة بالهنود الحمر والدببة والحيوانات البرية وسكنوا في الحصون ومروا بوقت عصيب».

«الدببة؟»، سأل روبي باهتمام.

«كلا، الحجاج، لأن الهنود ضايقوهم. لم يكن لديهم طعام

t.me/qurssan

ءاب، وذهبوا إلى الكنيسة حاملين أسلـ ـتم ومات منهم كثيرون، ونزلوا من السفن على صخرة تدعى صخرة بلايموث، وقد رأتها الخالة جو ولمستها. قتل الحجاج الهنود، وصاروا أثرياء، وشنقوا الساحرات، وكانوا صالحين جدًا، وجاء بعض من أسلافي القدماء على السفن. كانت إحداها سفينة مايفلوَر، وابتدعوا عيد الشكر، ونحن نحتفل به دومًا وأنا أحبه. مزيدًا من ديك الحبش من فضلك».

«أحسب ديمي سيكون مؤرخًا، ففي سرده للأحداث وضوح وترتيب»، وضحكت عينا العم فرتز للخالة جو، وهو يناول سليل الحجاج حصته الثالثة من ديك الحبش.

«ظننت أن على المرء أن يأكل قدر ما يستطيع في عيد الشكر، ولكن فرانز يقول إنه لا يجدر بالمرء فعل ذلك حتى في العيد»، وبدا ستفي كمن تلقى خبرًا سيئًا.

«إن فرانز محق، لذا انتبه لشوكتك وسكينك واعتدل، وإلا لن تكون قادرًا على المساعدة في المفاجأة لاحقًا»، قالت السيدة جو.

«سأكون حذرًا ولكن الجميع يأكلون كثيرًا، وأحب الأكل الكثير على الاعتدال»، قال ستفي الذي مال للاعتقاد القائل إن على المرء أن يحتفل بعيد الشكر حتى يكاد يصاب بالسكتة الدماغية، فينجو منها بوعكة من عسر الهضم أو الصداع.

«والآن يا «حجاجي»، متعوا أنفسكم حتى وقت الشاي، إذ ستحظون بكثير من الإثارة هذا المساء»، قالت السيدة جو وهم

t.me/qurssan

ينهضون من المائدة بعد جلسة طويلة أنهوها بشرب عصير التفاح في صحة الجميع.

«سآخذ الجمع كله بالعربة، فالجو جميل ويتسنى لك نيل قسط من الراحة يا عزيزتي، وإلا تعبت هذا المساء»، أضاف السيد باير. فلبست المعاطف واعتمرت القبعات وامتلأت الحافلة، وذهبوا في جولة طويلة، تاركين السيدة جو لترتاح وتنهي في هدوء كثيرًا من الشؤون الصغيرة.

قدم الشاي الخفيف باكرًا أعقبه مزيد من تسريح الشعر وغسل الأيادي، ثم انتظر الجمع على أحر من الجمر وصول الضيوف. كانوا ينتظرون العائلة فحسب، إذ كانت هذه الاحتفالات الصغيرة مقصورة على العائلة، ولما كان الأمر كذلك فلم يسمح للحزن أن يخيم على الاحتفال. جاء الكل؛ السيد والسيدة مارش مع الخالة مغ الجميلة واللطيفة رغم ثوبها الأسود وقبعة الأرملة الصغيرة التي تطوّق وجهها الهادئ. وجاء العم تدي والخالة إيمي تصحبهم الأميرة وهي تبدو أكثر شبهًا بالجنيات لابسة فستانًا أزرق بلون السماء، وباقة كبيرة من زهور الدفيئة، وزعتها على الأولاد واضعة زهرة لكل واحد في عروة سترته، زادتهم أناقة وفرحًا. ظهر وجه غريب، وأخذ العم تدي الرجل المحترم المجهول إلى الزوجين باير قائلًا:

«هذا السيد هايد، كان يسأل عن دان ورأيت إحضاره الليلة حتى يرى تقدم الصبي».

t.me/qurssan

استقبله الزوجان باير بمودة، لخاطر دان، وسرا لتذكره الصبي. ، لكنهما بعد حديث لبضع دقائق سرا بمعرفة السيد هايد لذاته، إذ كان أنيسًا بسيطًا مثيرًا. وكانت رؤية إشراق وجه الصبي لرؤية صديقه أمرًا مبهجًا، غير أن رؤية دهشة السيد هايد وسروره بتحسن مظهر دان وأخلاقه كانت أكثر إبهاجًا، ورؤية الاثنين جالسين في الركن يتحادثان، غافلين عن فارق السن والثقافة والعمل، حول موضوع يثير اهتمامهما، كانت الأكثر إبهاجًا، فقد تبادل الولد والرجل الملاحظات، وتحدثا عن وقتهما في الصيف.

«يجب أن نبدأ العرض سريعًا وإلا نام الممثلون»، قالت السيدة جو حين انتهت التحايا.

لذا ذهب الجميع إلى الصف وجلسوا أمام ستارة صُنعت من دثارين كبيرين. اختفى الأطفال ولكن الضحك المكتوم والعبارات الصغيرة المضحكة من خلف الستارة كشفت أماكنهم. بدأ برنامج الحفل بعرض حيوي للجمباز يقوده فرانز. قدم الأولاد الستة الكبار، لابسين سراويل زرقاء وقمصانًا حمراء، عرضًا جميلًا للعضلات وهم يحملون الأثقال والمضارب والكرات الحديدية، بالتزامن مع موسيقى البيانو الذي تعزفه السيدة جو في الكواليس. كان دان مفعمًا بالحيوية في هذا التمرين، حتى خشي من إطاحته برفاقه، مثلما تدحرج الكرة تسعَ القناني، أو أن يقذف بأكياس الفول إلى الجمهور، إذ أثار حماسه حضور السيد هايد والرغبة العطشى لتكريم معلميه.

t.me/qurssan

«يا له من فتى رائع قوي. إن ذهبت في رحلة إلى أمريكا الجنوبية، بعد عام أو اثنين، فسأطلب منك أن تعيرني إياه يا سيد باير»، قال السيد هايد الذي تعاظم اهتمامه بدان بعدما سمعه عنه.

«لك ذلك، وعلى الرحب والسعة رغم أننا سنفتقد هرقلنا الشاب كثيرًا. ستنفعه الرحلة كثيرًا، وأنا واثق من أنه سيخدم صديقه مخلصًا».

سمع دان السؤال والإجابة، وقفز قلبه فرحًا لفكرة السفر إلى بلاد جديدة بصحبة السيد هايد، وامتلأت نفسه زهوًا بالتزكية الكريمة التي جازت محاولاته في أن يكون كما يحب كل هؤلاء الأصدقاء.

بعد عرض الجمباز، أدى ديمي وتومي حوارية قديمة بعنوان «النقود تحرك الفرس»[1]، وكان أداء ديمي جيدًا غير أن تومي أبدع في دور الفلاح العجوز إذ قلد سايلس تقليدًا أثار ضحك الجمهور، وأضحك سايلس كثيرًا مما جعل آسيا تصفعه على ظهره وهما يقفان في الرواق ويستمتعان بالعرض للغاية.

ثم غنى إميل، الذي التقط أنفاسه أثناء ذلك، أغنية بحرية وهو يلبس زي البحارة، تتحدث كثيرًا «عن الريح العاصفة»،

(١) أنشودة أطفال قديمة، تدور بين مزارع ورجل على النحو التالي. الرجل: أتعيرني فرسك أذهب بها ميلًا؟/ المزارع: كلا، إنها تعرج بعد قفزها من فوق مرقى/ وا أسفاه! علي الذهاب إلى السوق، سأعطيك مالًا وفيرًا إن أعرتنيها/ أوه، أوه، لك ذلك/ إن النقود تحرك الفرس.

t.me/qurssan

، «شواطئ الأمان»، وتردد المذهب الصاخب «أبحروا نحو الريح يا فتية» جعلت المكان يجلجل، قدم بعدها ند رقصة صينية مضحكة، وقفز مثل ضفدع كبير معتمرًا قبعة پاغودة. ولما كان هذا أول عرض علني يُقام في پلمفيلد، فقد شمل تمارين في علم الحساب والتهجئة والقراءة. أذهل جاك الحضورَ بحسابه السريع على السبورة، وفاز نومي في مسابقة التهجئة، وقرأ ديمي حكاية خرافية قصيرة باللغة الفرنسية قراءة جميلة أسعدت العم تدي.

«أين الأطفال الآخرون؟»، سأل الجميع عند إسدال الستارة، ولم يظهر أحد من الصغار قط.

«أوه، هذه هي المفاجأة. إنها رائعة جدًا وإني لأشفق عليكم لجهلكم بها»، قال ديمي الذي ذهب لينال قبلة من أمه ومكث قربها ليشرح اللغز عند عرضه.

أخذت الخالة جو غولدلوكس، ودهش أبوها كثيرًا، الذي فاق السيد باير في إبداء عجبه وإثارته وتحرقه لمعرفة «ما سيحدث».

في النهاية، وبعد كثير من الحفيف والطرق بالمطرقة والإرشادات من مدير العرض سمعها الجمهور، ورفع الستار مع موسيقى هادئة، وشوهدت بِس تجلس على مقعد قرب مصطلى من الورق البني. لم تُرَ سندريلا صغيرة أرق منها قط، إذ إن الفستان الجميل الرث والحذاء الصغير البالي، والوجه شديد الجمال تحت الشعر اللامع، والهيئة الحزينة أثارت الدمع والابتسامات في العيون المحبة الناظرة إلى الممثلة الصغيرة. جلست هادئة حتى همس لها صوت:

t.me/qurssan

«الآن!»، فزفرت زفرة صغيرة مضحكة وقالت: «أوه، ليتني أستطيع الذهاب إلى الحفلة الراقصة!»، بتلقائية شديدة جعلت أباها يصفق بحرارة، وأمها تقول: «حبيبتي الصغيرة!» نسيت سندريلا الصغيرة نفسها بعد دفق المشاعر هذا في غير وقته، وهزت رأسها لهما قائلة مؤنبة: «يجب ألا تتحدثا إليَّ».

عم الهدوء سريعًا، وسمعت ثلاث نقرات على الحائط. بدا الخوف على وجه سندريلا، ولكن قبل أن تتذكر أن تقول: «ما هذا؟»، انفتحت مؤخرة المصطلى المصنوع من الورق البني كالباب، وبشيء من الصعوبة تمكنت العرابة من الدخول هي وقبعتها المدببة. كانت نان، تضع عباءة حمراء وقبعة وتحمل عصًا سحرية لوحت بها وهي تقول حازمة:

«ستذهبين إلى الحفلة الراقصة يا عزيزتي».

«والآن عليك أن تجري ثوبًا وتظهري ثوبي الجميل»، أجابت سندريلا وهي تجر ثوبها البني.

«كلا، كلا، عليك أن تقولي: «كيف أذهب بأسمالي؟»»، قالت العرابة بصوتها الحقيقي.

«أوه، أجل، يجب»، وكررت الأميرة القول غير آبهة بنسيانها.

«سأغير أسمالك إلى فستان رائع لأنك طيبة»، قالت العرابة بصوتها المسرحي، وأخذت تفك أزرار الميدعة البنية، فلاح منظر فاتن.

t.me/qurssan

كانت الأميرة الصغيرة جميلة جمالًا يدير رؤوس عدد من الأمراء الصغار، إذ ألبستها أمها ثياب سيدة صغيرة في قصر، فلبست ثوبًا مذيلًا من الحرير الوردي له بطانة من الطيلسان، تناثرت عليه الورود هنا وهناك، رؤيته تسر النظر. وضعت العرابة على رأسها تاجًا فيه ريش باللونين الوردي والزهري تتساقط منه، وأعطتها خفين من الورق الفضي لبسته ووقفت رافعة فستانها لتريه للجمهور قائلة بفخر: «حذائي السجاجي، أليس جميلًا؟».

فتنت به كثيرًا وتذكرت دورها بصعوبة وقالت:

«ولكن ليس عندي عربة، أيتها العرابة».

«انظري إليها!»، ولوحت نان بعصاها بشيء من الحماس كادت معه توقع تاج الأميرة.

فظهرت عندئذ تحفة العرض. شوهد في البدء حبل قذف على الأرض، وشد بقوة وصوت إميل يقول: «ارفعوا الشراع!» ورد عليه صوت سايلس الأجش: «اثبتوا الآن اثبتوا» وتلته ضحكة عالية، إذ ظهرت أربعة جرذان كبيرة، تهتز قليلًا إذ لم تكن سيقانها متناسبة مع ذيولها، لكن رؤوسها لا بأس بها، ولمعت الخرزات السود الكبيرة كأنها تنبض بالحياة. فسحبت الجرذان، أو يجب أن تبدو كمن فعل، عربةً كبيرة صنعت من نصف اليقطينة الهائلة، مرفوعة على عجلات عربة تدي التي طليت بالأصفر لتلائم العربة الفاخرة. جلس في المقعد الأمامي حوذي صغير جميل يضع شعرًا مستعارًا من القطن الأبيض، ويلبس سروالًا قصيرًا قرمزيًا، وقبعة

t.me/qurssan

برباط، وضرب بسوط طويل وحرك اللجام الأحمر بهمة عالية، فشبت المطايا الرمادية على أحسن صورة. كان ذاك تدي وقد ابتسم للرفاق بدماثة كبيرة فجعلوه يدور بالعربة وحده، وقال العم لوري: «إن استطعت العثور على حوذي جاد كهذا، فسأوظفه من فوري». توقفت العربة ورفعت العرابة الأميرة، وأخذت بالعربة الفخمة مرسلة قبلة للجمهور وحذاؤها الزجاجي بارز في الأمام وذيل ثوبها الزهري يكنس الأرض خلفها، ويؤسفني القول إن سموها كانت كبيرة على العربة رغم فخامتها.

كان المشهد التالي مشهد الحفلة الراقصة، وظهرت نان وديزي جميلتين مثل طاووسين متزينتين بشتى صنوف الحلي. أدت نان دور الأخت الكبرى المغرورة أداءً حسنًا وسحقت الكثير من السيدات المتخيلات وهي تمشي في رواق القصر. جلس الأمير وحده، على عرش متقلقل، ينظر إلى ما حوله من تحت تاج فاخر، وهو يلعب بسيفه ويعجب بالحلي الوردية على حذائه. لما جاءت سندريلا نهض وقال بحرارة أكثر من الأناقة:

«يا إلهي! من هذه؟»، وأخذ السيدة في الحال ليراقصها، أما الأختان فامتعضتا ورفعتا أنفيهما في الزاوية.

كانت الرقصة التي أداها الصغيران جميلة جدًا، إذ كان الوجهان الطفوليان جادين، والثياب مبهجة، والخطوات دقيقة، حتى ليخيل للناظر إليهما أنهما اثنان رقيقان فاتنين في لوحة لواتو[1] مرسومة على

(١) رسام فرنسي.

t.me/qurssan

،وحة. أعاق الأميرة ذيلُ ثوبها، وكاد سيف الأمير روب يعثره ..دًا من المرات. لكنهما تجاوزا هذه العقبات بنجاح لافت، وأنهيا ال فصة بلياقة وحيوية، باعتبار أن الواحد منهما لم يعرف ما سيأتي .. الآخر.

«أسقطي حذاءك»، همس صوت السيدة جو حين كادت السيدة تُملس.

«أوه، لقد نسوت!»، وخلعت سندريلا واحدًا من الخفين الفضيين، وزرعته بعناية وسط الخشبة وقالت لروب: «والآن عليك أن تحاول اللحاق بي»، وهربت والتقط الأمير الحذاء وركض خلفها مذعنًا.

كان المشهد الثالث، كما يعرف الجميع، هو قدوم المنادي لتجربة الحذاء. دخل تدي، ولم يزل لابسًا زي الحوذي، ينفخ في نفير أنغامًا شجية، وجربت الأختان المغرورتان الخف. أصرت نان على التظاهر بقطع إصبع قدمها بسكين نحت، وأدت ذلك أداءً جيدًا أثار خوف المنادي وتوسّل إليها أن تكون «حذرة جدًا». استدعيت سندريلا، وجاءت لابسة الميدعة ودست قدمها في الخف وأعلنت مسرورة:

«أنا الأميرة».

بكت ديزي وطلبت الصفح، غير أن نان التي تحب المأساة، أضافت للقصة، ووقعت على الأرض مغشيًا عليها حيث ظلت تستمتع مرتاحة ما بقي من المسرحية. لم يكن ذلك طويلًا، فقد ركض

الأمير وجثا على ركبتيه وقبّل يد غولدلوكس بحرارة كبيرة، ونمم المنادي نفخة نفير أصمّت الحضور. لم يكن للستارة أن تسدل لأن الأميرة هربت من الخشبة وركضت إلى أبيها قائلة: «أأبليت حسنًا؟» أما الأمير والمنادي فتبارزا بالنفير الصفيحي والسيف الخشبي.

«المسرحية جميلة!»، قال الجميع وحين هدأ الصخب قليلًا، خرج نات حاملًا كمانه.

«صه! صه»، قال كل الأولاد فساد الهدوء إذ دعا شيء في أسلوب الولد المرح وعينيه الجذابتين الجميع يصغون بحنان.

ظن الزوجان باير أنه سيعزف شيئًا من الألحان القديمة التي يتقنها، لكنهما فوجئا بأنهما يسمعان لحنًا جديدًا جميلًا، عُزف برقة وعذوبة، فلم يصدقا أنه نات. كان واحدة من الأغاني التي تمس شغاف القلب دون كلام، وتصدح بكل الآمال والأفراح الرقيقة البيتوتية، تهدّئ من يسمعها وتبهجه بموسيقاها البسيطة. أسندت الخالة مغ يدها على كتف ديمي، وجففت الجدة دمعها، ونظرت السيدة جو إلى السيد لوري هامسة في غصة:

«أنت من ألف هذا!».

«أردت لفتاك أن يكرمك ويشكرك بأسلوبه»، أجاب لوري مائلًا للرد عليها

عندما انحنى نات وكاد يخرج، دعته أيد كثيرة فعزف ثانية. وفعل ذلك بوجه سعيد رؤيته مفرحة، فقد فعل ما بوسعه وعزف

ء م الألحان القديمة المرحة، فشرعت الأقدام بالرقص وغدا الهدوء صالاً.

«أخلوا الساحة!»، قال إميل، ودفعت الكراسي إلى الوراء في لحظات وأجلس المسنون في مكان أمين وتجمع الأطفال على الخشبة.

«أظهروا أخلاقكم الحسنة!»، قال إميل وسار الأولاد إلى السيدات، كبيرات وصغيرات بدعوات مهذبة «أتشاركيني الرقص؟» كما قالها العزيز دك سولفر[1]. كاد الصغار يتعاركون على الرقص مع الأميرة، لكنها إختارت دك مثلما تفعل أي امرأة صغيرة لطيفة مثلها، وسمحت له بأخذها فخورًا إلى مكانها. لم يسمح للسيدة جو أن ترفض، وغمرت الخالة إيمي دان بفرح لا يوصف برفض فرانز وقوله هو. وبالطبع رقصت نان مع تومي، ونات مع ديزي، وذهب العم تدي وأحضر آسيا التي تتوق للرقص، وأحست بالزهو لما نالها من تشريف. رقص سايلس وماري آن وحدهما في الرواق، وكانت بلمفيلد في أقصى مرحها لنصف ساعة.

انتهت الحفلة بموكب لكل الصغار تتقدمهم عربة اليقطينة وبداخلها الأميرة والحوذي، والجرذان بحال مرحة صاخبة.

أثناء استمتاع الأطفال بآخر المرح جلس الكبار في الردهة ينظرون إليهم وهم يتحادثون عن الصغار باهتمام الأهل والأصدقاء.

---

(١) شخصية في رواية متجر الطرائف القديم لتشارلز دكنز.

t.me/qurssan

«ما الذي يدور في ذهنك يا أختي جو بوجهك السعيد هذا؟»، سأل لوري جالسًا قربها على الأريكة.

«أفكر بعمل الصيف يا تدي، وأسلي نفسي بتخيل أولادي في المستقبل»، أجابت باسمة حين أفسحت له مكانًا.

«أحسبهم سيكونون شعراء ورسامين ورجال دولة وجنودًا مشهورين، أو أمراء في التجارة على الأقل».

«كلا، فأنا لست واهمة كما كنت قبلًا، وسأسر إن كانوا رجالًا شرفاء. غير أني أعترف أني أتوقع أعمالًا وشيئًا من المجد لبعضهم. ديمي ليس بالولد العادي، وأحسبه سيغدو رجلًا عظيمًا بمعنى الكلمة. سيبلي الآخرون بلاء حسنًا كما آمل، وبخاصة آخر ولدين انضما إلينا، إذ بعدما سمعت عزف نات الليلة، فإني أراه عبقريًا بحق».

«ما زال الوقت باكرًا جدًا لمعرفة ذلك، إنه موهوب بلا ريب، ومما لا شك فيه أن الولد سيستطيع كسب قوته من العمل الذي يحب. ارعيه لعام أو عامين آخرين، ثم سآخذه منك وأعده إعدادًا حسنًا».

«إن هذه خطة رائعة للمسكين نات، الذي جاءنا قبل ستة أشهر وحيدًا وحزينًا. أما مستقبل دان فقد اتضح أمامي. سيأخذه السيد هايد قريبًا، وأنوي أن أقدم له خادمًا صغيرًا شجاعًا مخلصًا. إن دان ممن يعملون بجد إن كان الأجر هو الحب والثقة، كما أن عنده القدرة على نحت مستقبله كما يريد. بلى، إنني سعيدة بنجاحنا

t.me/qurssan

مع هذين الولدين وقد كان أحدهما ضعيفًا جدًا والآخر متمردًا جدًا، لكنهما الآن أفضل حالًا، ويعدان بالكثير».

«ما السحر الذي تستخدمينه يا جو؟».

«لم أفعل شيئًا إلا أن أحببتهما وأظهرت لهما حبي، وقام فرتز بالباقي».

«يا عزيزتي! تبدين كمن كان «الحب فحسب» عملًا شاقًا عليها أحيانًا»، قال لوري مربتًا على وجنتها النحيلة بنظرة ملؤها الإعجاب الحنون أكثر مما أبداه لها في صباها.

«إنني امرأة عجوز واهنة، لكنني سعيدة لذا لا تشفق عليَّ يا تدي»، ونقلت نظرها في أنحاء الغرفة بعينين ملؤهما الرضا الخالص.

«أجل، يبدو أن خطتك تنجح أكثر العام بعد الآخر»، قال بإيماءة تؤكد استحسانه للمشهد المرح أمامه.

«وكيف لي أن أخفق وقد ساعدتموني كلكم كثيرًا؟»، أجابت السيدة جو وهي تنظر بامتنان إلى راعيها الأكثر سخاء.

«إن هذا أجمل ما حدث للعائلة، أعني مدرستك ونجاحك. بعيدًا كل البعد عن المستقبل الذي خططناه له، لكنه ناسبك تمامًا. إنه إلهامك المعتاد يا جو»، قال لوري متجنبًا شكرها كعادته.

«آه! لكنك سخرت منه في البداية، وما زلت تهزأ مني ومن أفكاري. ألم تتنبأ بأن يفشل اختلاط الفتيات بالأولاد فشلًا ذريعًا؟ فانظر الآن نجاحه»، وأشارت إلى جمع الفتية والفتيات

t.me/qurssan

الفرحين يرقصون ويغنون ويتحدثون معًا بكل علائم الصداقة الجميلة.

«أعترف بذلك، وحين تكبر غولدلوكس سأرسلها إليك. أيمكنني قول أكثر من هذا؟».

«سأفخر باستيداعك إياي غاليتك الصغيرة. ولكن حقًا يا تدي، إن أثر هؤلاء الفتيات رائع. أعلم أنك ستسخر مني لكنني لا أبالي، إذ اعتدت ذلك. لذا سأقول لك إن أحد تخيلاتي الأثيرة أن أنظر إلى عائلتي على أنها عالم صغير، وأن أشهد تقدم رجالي الصغار، وأن أرى في الآونة الأخيرة الأثر الحسن لنسائي الصغيرات عليهم. إن ديزي بنت بيتوتية، والكل مفتون بأسلوبها الأنثوي الهادئ. أما نان فهي فتاة نابضة بالحيوية لا تهدأ، شديدة البأس، والأولاد معجبون بشجاعتها ويتيحون لها الفرصة لتنفيذ ما تريد، مدركين أنها تتمتع بالعطف إلى جانب القوة، والقدرة على تحقيق الكثير في عالمهم الصغير. وأما ابنتك بس فهي السيدة المفعمة بالجمال واللياقة والدماثة العفوية. كما أنها تهذبهم دون أن تدرك، وتملأ مكانها كما تفعل أي امرأة جميلة، مستغلة تأثيرها لتسمو بهم فوق أمور الحياة الجلفة الفظة وتحفظهم منها، وتجعل منهم رجالًا محترمين بأقصى ما تعنيه الكلمة».

«ليست السيدات من يفعلن هذا دائمًا يا جو، بل إنها أحيانًا المرأة القوية الجسورة التي تحفز الولد وتصنع منه رجلًا»، وانحنى لها لوري بضحكة كبيرة.

t.me/qurssan

«كلا، أظن المرأة الرقيقة التي تزوجها الولد الذي تلمح إليه، قد فعلت من أجله أكثر مما فعلت نان الجامحة في صباه، أو الأم الحنون الحكيمة التي رعته، كما فعلت ديزي لأخيها ديمي كثيرًا مما نراه فيه»، واستدارت جو نحو أمها التي جلست على مبعدة برفقة مغ مفعمة بالوقار العذب وجمال كبر السن، وألقى عليها لوري نظرة احترام الابن وحبه حين رد بوقار وجد:

«لقد فعلت الثلاث منهن كثيرًا من أجله، وأدرك كم ستساعد الفتيات الصغيرات أولادك».

«ليس أكثر من عون الأولاد لهن، أؤكد لك أنه أمر متبادل. فقد فعل نات الكثير لديزي بموسيقاه، ويمكن لدان أن يضبط نان أفضل منا، ويعلم ديمي ابنتك غولدلوكس بسهولة ويسر حتى سماهما فرانز روجر آشام والليدي جين غري[1]. ويح قلبي! لو وثق الرجال والنساء ببعضهم بعضًا وتفاهموا وتعاونوا كما يفعل صغاري، لكان العالم مكانًا رائعًا!»، وشردت السيدة جو كأنها تتخيل مجتمعًا جديدًا جذابًا يعيش فيه الناس عيشًا هنيًا رغدًا مثل أولادها في بلمفيلد.

«إنك تبذلين قصارى جهدك لفعل ذلك مع مرور الزمن يا عزيزتي. واصلي الإيمان به واعملي من أجله، وستثبت إمكانية ذلك بنجاح تجربتك الصغيرة»، قال السيد مارش فقد توقف أثناء مروره

(١) آشام (١٥١٥-١٥٦٨) عالم إنجليزي مشهور أصبح الأستاذ الخاص لإليزابث الأولى ملكة إنجلترا، والليدي جون غري هي ملكة تعرف بملكة الأيام التسعة، وهي شقيقة الملك هنري، أعدمتها الملكة ماري وخلفتها بالحكم.

t.me/qurssan

ليقول كلمة تشجيع، إذ لم يفقد الرجل الصالح إيمانه بالإنسانية ولم يزل يأمل أن يرى السلام والرخاء والسعادة تسود الأرض.

«لست أطمح إلى شيء كهذا يا أبت، بل إني أريد فقط أن أمنح أطفالي بيتًا يمكنهم أن يتعلموا فيه الأمور القليلة البسيطة التي تساعد على جعل الحياة أقل مشقة عندهم عندما يخرجون ويخوضون معاركهم في العالم. وكل ما أسعى لغرسه فيهم هو الصدق والشجاعة والعمل والإيمان بالرب وبإخوانهم من البشر وبأنفسهم».

«هذا كل شيء. امنحاهم هذه المساعدة ثم اتركاهم يذهبوا لاكتشاف الحياة رجالًا ونساء، وسواء أنجحوا أم فشلوا، فإني أحسبهم سيذكرون جهودكما ويقدرونها، يا بني وابنتي الصالحين».

انضم إليهم الأستاذ وأثناء حديث السيد مارش مد يدًا إلى كل منهما، وتركهما بنظرة تعني المباركة. حين وقفت جو وزوجها يتحادثان بهدوء للحظات، شاعرين أن عمل الصيف قد أثمر حسنًا ما دام الأب استحسنه، تسلل السيد لوري إلى الرواق وقال شيئًا للأولاد، ودخل الجمع كله إلى الغرفة فجأة، وضموا أيديهم ورقصوا حول الأب والأم باير يغنون جذلين:

«ولّت أيام الصيف
انتهى عمل الصيف
وجُمعت المحاصيل
واحدًا واحدًا بفرح

الآن وقد أكلت المأدبة
وانتهت المسرحية
وظل طقس واحد في
احتفالنا بعيد الشكر
إن أفضل المحاصيل
في عين الرب
هم الأطفال السعداء
في البيت الليلة
وجئنا لنقدم
الشكر إذ يستوجب الشكر
بقلوب وأصوات طافحة بالامتنان
إليكما يا أبانا وأمنا».

ضاقت الحلقة مع الكلمات الأخيرة حتى أسرت أذرع كثيرة الأستاذ وزوجته، واختبأت خلف الباقات وجوه ضاحكة صغيرة أحاطت بهما، تؤكد أن نبتة مدت جذورها وأثمرت ثمرًا حسنًا في كل البساتين. إن الحب زهرة برية تكبر في أي تربة، ولا يتلف ثمار معجزاتها الحلوة صقيع الخريف ولا ثلج الشتاء. بل تتفتح جميلة شذية طوال العام وتبارك من يعطي الحب ومن يتلقاه.

النهاية

t.me/qurssan

نُشرت رواية رجال صغار عام ١٨٧١، وعدت جزءًا ثانيًا من رائعة لويزا ماي ألكوت "نساء صغيرات"، ثم أعقبه جزء ثالث وأخير بعنوان "أولاد جو".

في هذا الجزء تظهر جو مارش، التي غدت السيدة باير بعد زواجها، وهي تدير مدرسة للأولاد. واستلهمت الكاتبةُ القصةَ من أبيها الشغوف بإصلاح التعليم ومن المدرسة التي أسسها. حققت هذه الرواية، كسابقتها، نجاحًا عظيمًا واقتبست منها أفلام عديدة، ومسلسل أنمي ياباني من إنتاج استديو نيبون أنيميشن ضمن سلسلة مسرح روائع العالم، وقد ركز على "نان"، إحدى التلميذتين في المدرسة، واشتهر عربيًا باسم "نوّار".

لم تؤسس جو مدرسة للأولاد فحسب، بل حرصت على أن يكون المكان بيتًا حقيقيًا، وبخاصة للأيتام منهم. وبمساعدة زوجها الأستاذ باير، داوت قلوبهم المكسورة، كما تعهدت أبدانهم العليلة بالغذاء والدواء. فقد آمنت أن الحب "زهرة تكبر في أي تربة، ولا يتلف ثمار معجزاتها الحلوة صقيع الخريف ولا ثلج الشتاء، بل تتفتح جميلة شذية طوال العام، وتبارك من يعطيه ومن يتلقاه".

حين أصبح العالم قرية صغيرة، كبرت المسافات بين المرء وأخيه، وأجدبت الأرض وذوت "زهرة الحب". وهذه الرواية بمثابة دعوة "من جو ورجالها الصغار" إلى القارئ ليعمر قلبه باللطف وتقدير الأشياء الجميلة في الطبيعة والبشر ليدرك الجوهر الذي لا تراه العين.

المترجمة

لويزا ماي ألكوت

رجال صغار

منشورات تكوين
TAKWEEN PUBLISHING

www.takweeen.com | Publishing@takweeen.com

t.me/qurssan